اللغة العربية

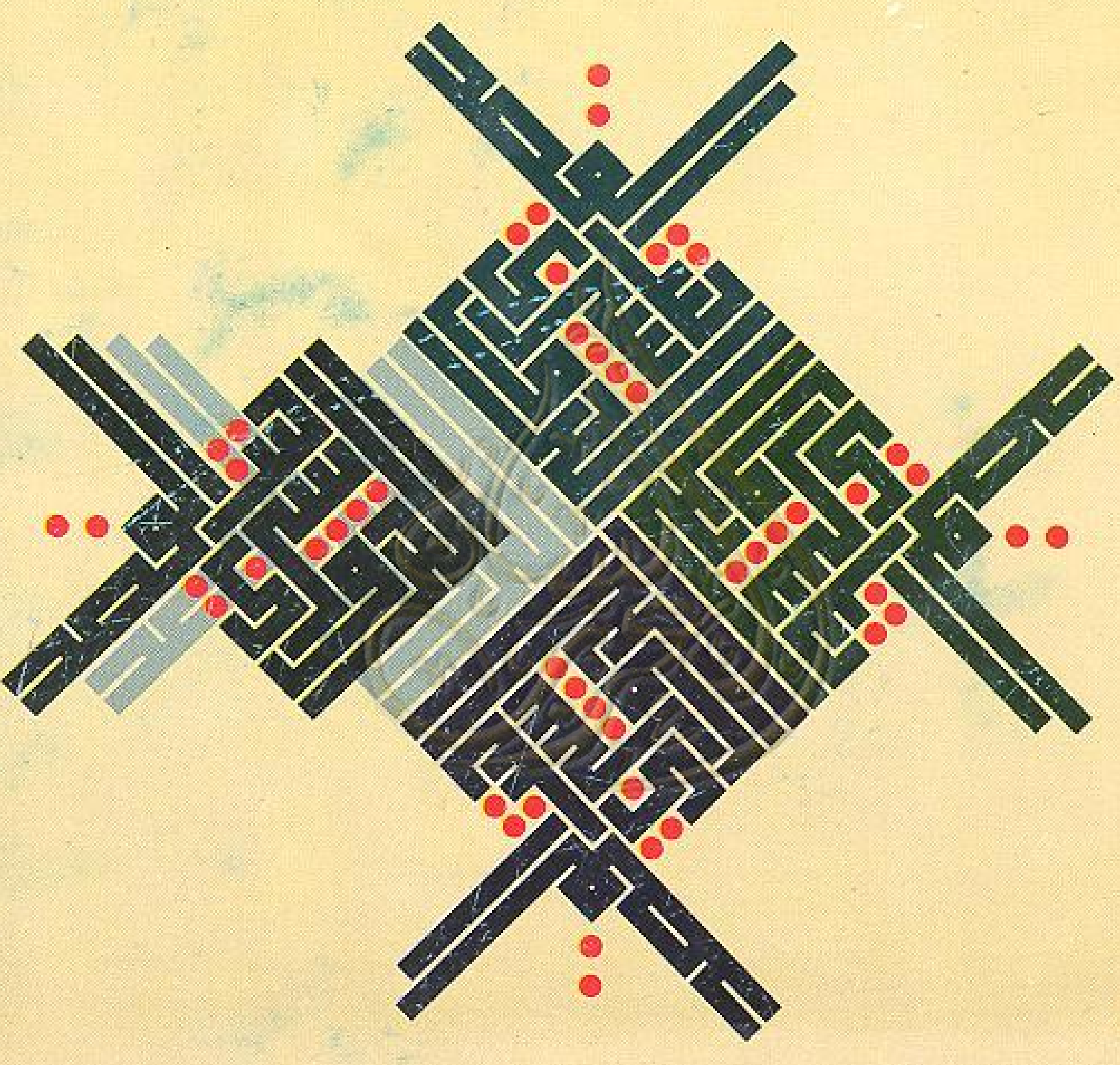
تاريخها ومستوياتها وتأثيرها

تأليف: كيس فرستيغ • ترجمة: محمد الشرقاوي

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

443



المشروع القومى للترجمة

اللغة العربية

(تاريخها ومستوياتها وتأثيرها)

تأليف : كيس فرستيغ

ترجمة : محمد الشرقاوى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٤٤٣

– اللغة العربية

– كيس فرستيغ

– محمد الشرقاوى

– الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ترجمة لكتاب

The Arabic Language

تأليف : **Kees Versteegh**

الصادر عن : **Earthscan Publications Ltd**

1991

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

مقدمة

بالرغم من أن النحو العربي قد نال قسطًا وافراً من الدراسة والتحليل ، وبالرغم من أن قواعد اللهجات العربية قد بدأت تحصل على قدر من اهتمام الباحثين – لاسيما غير العرب منهم – إلا أن تاريخ العربية لم ينل من العرب أي اهتمام باستثناء محاولات متفرقة قام بها د. : البدراوي زهران و د. : أحمد مختار عمر و د. : إبراهيم أنيس ، كما لم ينل موضوع تاريخ تطور العربية من الباحثين غير العرب إلا اهتماماً محدوداً .

لقد كانت هناك بعض المحاولات الأولية في بداية القرن العشرين وقبلها في نهايات القرن التاسع عشر للتعامل مع موضوع ما إذ كانت العربية الفصحى لغة حديث عرب ما قبل الفتوحات الإسلامية ، وعلامات الإعراب . وكان روبه كفولرز ونولدكه وجيروفير في النصف الأول من القرن العشرين لا يهتمون إلا بتلك الحقبة من التاريخ العربي ، وظهرت في تلك الفترة محاولات كان الأستاذ حاييم رابين رائدها لرصد الفروق اللهجاتية لعربية ما قبل الفتوحات ، وما يزال كتابه "اللهجات العربية الغربية القديمة " عمدة في هذا المجال حتى يومنا ، وتبعه غير بعيد في هذا المجال الأستاذ إبراهيم أنيس في الخمسينيات والأستاذ الجندي في الثمانينيات .

وفي عام ١٩٥٠ ظهر كتاب " العربية " للأستاذ "فك" الذي كان أول محاولة لرصد التحولات التي طرأت على اللغة العربية بسبب انتقالها من موطنها الأصلي إلى الأمصار المفتوحة ، وقد أثار هذا الكتاب جدلاً ونقداً كبيراً حين صدوره تزعمه الأستاذان فير وسبيتيلار . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكتاب بداية لحركة دراسة تاريخ العربية وأنماطها . وانصبت بعد ذلك الدراسات – سواء كانت مقالات أو كتب – على تحليل اللهجات العربية الحديثة وتقديم بعض التعديلات التاريخية لسلوك بعض العناصر اللهجاتية .

وفي السبعينيات انتعشت حركة البحث في تاريخ العربيــة نسبيًا لظهور كتـــاب " اللغة العربية في مصر " للأستاذ أحمد مختار عمر عام ١٩٧٠ ، والعديد من المقالات المتعلقة بعناصر مساعدة في دراسة تاريخ العربية كتأثير اللغات الأصلية والبحث في تأثير الهجرات العربية المتأخرة في تعريب أرياف الأمصار ولغة الأقليات المسيحية واليهودية في الإمبراطورية العربية والإسلامية في العصور المبكرة كتبها الأستاذ "ديم" في ١٩٧٢ و ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ والأستاذ "بالفا" في ١٩٦٩ وصبحي وبشاي وبلاو في ١٩٦٥ وغيرهم ، ولكن تلك المقالات – مع أهميتها وقوتها العلمية – لم تنتج نظرية متكاملة عن تاريخ تطور العربية .

إلا أن انتشار نظرية التهجين اللغوي في الثمانينيات وازدهارها وكمالها النظري ، قد شجع الأستاذ فرستيغ على كتابة تاريخ مرحلة مبكرة من مراحل العربية ، هي مرحلة الانطلاق من الجزيرة العربية للأمصار المفتوحة والتحولات التاريخية التي طرأت على العربية تبعًا لهذا التغير ، وكان كتابه " التهجين اللغوي واللغة العربية " الذي صدر عام ١٩٨٤ علامة في هذا المجال أثارت جدلاً واسعًا . وزعم فرستيغ أن عوامل اجتماعية تاريخية معينة قد دفعت غير العرب إلى تبسيط العربية وتجريدها من قواعد كثيرة حين تعلمها ، وهذا التهجين هو الذي ولد الفروق الأساسية بين عربية الجاهلية ، التي زعم هو أنها كانت شبيهة بفصحى القرآن ، وبين اللهجات المتكلمة في الأمصار بعد ذلك .

وبالرغم من أن الكثير من علماء العربية قد نقدوا تلك النظرية من أمثال فرجسون عام ١٩٨٩ وهولز عام ١٩٩٥ وغيرهم ، إلا أن أحدًا لم يقدم فكرة بديلة تتحاشى المشاكل النظرية والتاريخية التي وقع فيها الأستاذ فرستيغ ، وبالرغم من أنه قد عدل في نظريته الكثير ، إلا أنه لم يصغ فكرته الجديدة في إطار كتاب أو مقال بعد .

والكتاب الذي بين أيدينا مقدمة حسنة لتعريف القارئ العربي بنظريات تطور العربية وتاريخ البحث فيها ، كما أنه يحاول أن يلقي نظرة عامة وكلية – ولو أنها بسيطة – على مجالات بحث العربية في الوقت الحالي وأساليب دراسة لهجاتها . وسوف يلاحظ القارئ أن النظريات والأبحاث والإسهامات الكبيرة في دراسة تاريخ

العربية والجوانب الاجتماعية واللهجاتية لم تقدم من باحثين عرب بل كانت لباحثين أوروبيين في غالبيتهم ، ولذلك أردت أن أقدم هذا الكتاب للباحث العربى الذى ينوى التخصص فى مجال اللغة العربية وتاريخها لأنه يثير علامات استفهام كثيرة قد توحى بأفكار بحثية يقوم بها باحثون عرب تسهم فى فهم تاريخ لغتهم وتطورها .

هناك ملحوظة أخيرة أود أن أشير إليها ، إن كتاب " اللغة العربية " الذى بين أيدينا يهمل موضوعين أساسيين فى علم اللغة الحديث وهما دراسة اللغة العربية بنظريات تعلم اللغة الثانية وبنظريات علم اللغة النفسى ، وقد أهمل الكاتب هذين التوجهين لفقر العربية فيهما ، إذ لم تُنْشَرَ أبحاث كثيرة فى الدوريات المتخصصة تكون العربية موضوعها .

محمد الشرقاوى

الفصل الأول

تطور دراسة اللغة العربية

في عام ٦٣٢ (م) توفي (محمد صلى الله وعليه وسلم) نبي الإسلام في المدينة، وقد أسهم القرن التالي على ذلك الحدث في وضع اللغة العربية والدين الإسلامي في دائرة اهتمام العالم الذي لم يكن لتلك اللحظة يدري شيئًا مما كان يدور بداخل الجزيرة العربية، ومنذ أول مواجهة بين العالم الإسلامي وأوربا، أصبح العرب وأصبحت لغتهم جزءًا من التجربة الأوروبية. كانت العلاقة بين العالمين في بداية الأمر علاقة من طرف واحد، فقد اهتم الناس بالمعرفة اليونانية والمعرفة عن اليونان وهي معرفة وصلتهم من خلال الحضارة العربية، بينما لم يبد البيزنطيون أنفسهم أي اهتمام بأي عنصر ثقافي عربي، فبالرغم من أن القوة العسكرية للعرب كانت لها هيبتها إلا أن الثقافة العربية واللغة العربية لم تحظيا بقدر من الاهتمام الجاد، بالنسبة للبيزنطيين لم يكن التراث اليوناني بحاجة لإضافة أو إسهام من سكان الصحراء الذين انحصرت شهرتهم في قدرتهم على مناهضة الجيوش البيزنطية ومنازعتها السيطرة على شرق المتوسط.

بعد فتح الأندلس عام ٧١١ (م) بدأ تصور التهديد العربي للقيم الثقافية الأوروبية يتغير، فمن خلال العرب بدأ غرب أوروبا يتعرف على قسط من تراثه كان قد فقده في معمعة سقوط الإمبراطورية الرومانية، وأصبح الطب الغربي والفلسفة الغربية معتمدين على الوساطة العربية المسلمة القائمة في شبه الجزيرة الأيبيرية في التعرف على الفلسفة اليونانية والكتابات الطبية القديمة، وبداية من القرن الحادي عشر الميلادي وبعد سقوط طليطلة في ١٠٨٥ (م) أصبحت تلك الكتب القديمة متاحة في ترجمات لاتينية عن أصول عربية، ولم تكن اللغة العربية نفسها محل اهتمام ودراسة بشكل

موسع، لأن معظم الباحثين اعتمدوا على ترجمات قامت بها فئة قليلة من المترجمين اليهود غالبا، والذين تعلموا العربية فى صقلية أو فى الأندلس المسلمة.

وفى القرن الثانى عشر الميلادى أثناء الحروب الصليبية، أصبح الباحثون الغربيون فى موقع صلة مباشرة بالحضارة الإسلامية واللغة العربية، ونتج عن تلك الصلة المباشرة رد فعل متناقض : فمن ناحية اعتبر الإسلام الدين العدو الذى هدد أوروبا وحبس مفاتيح المدينة المقدسة، ومن ناحية أخرى كان المسلمون حملة الحضارة اليونانية وسدنة تراث الإغريق، وفى أيديهم المصادر الأساسية الوحيدة المتاحة، ولذلك فبينما كان الصليبيون يحاولون انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين وحماية أوروبا من الإسلام، سافر الباحثون من كل أوروبا للأندلس الإسلامية للتعلم فى جامعات قرطبة وغرناطة الشهيرة ، وقد كان لدراسة اللغة العربية حينئذ وظيفتان: فبالنسبة لدارسى الطب في جامعة باريس، والذين جلسوا بخشوع تحت أقدام الأطباء العرب وسموا أنفسهم arabizantes، كانت ترجمات كتب الطب العربية للاتينية أهم مراجع الدراسة ومصادرها. واهتم البعض الآخر بترجمة ما كانوا يعتقدون أنه كان رسالة دينية خاطئة مشوشة. وكانت بغيتهم فى ذلك تفنيد حجج المحمديين بل وتحويلهم إلى الدين المسيحي، ولذلك ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ أشرف عليها قس يسمى بيتر الموقر الذى توفى عام ١١٥٧، وكان هدف الترجمة فضح أخطاء المسلمين الذين كانوا غالبًا ما يسمون بالـ Agarenes.

وظلت إسبانيا الإسلامية البوابة الأساسية للإسلام والمكان الوحيد الذى كان الناس يستطيعون أن يتلقوا فيه التعليم اللغوى الضرورى لفهم كتاب المسلمين المقدس والتراث اليونانى ، ولذلك من البديهى أن تكون إسبانيا هى مهد أول أدوات لدراسة اللغة العربية، ونجد فى إسبانيا أول معاجم مزدوجة اللغة: فظهر معجم Glos-sarium Latino-arabicum فى القرن الثانى عشر. وفى القرن الثالث عشر ظهر معجم Vocabulista in arabico .

ولكن نهاية حقبة غزو الملوك القشتاليين الكاثوليك لإسبانيا غيرت كل ذلك، فبعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ أصبح وجود المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية غير مرغوب

فيه، وفي عام ١٥٠٢ أصبح على المسلمين أن يختاروا بين التحول عن دينهم أو الهجرة من الأرض. وبعد ذلك بقرن طردت البقية الباقية من المسلمين إلى شمال إفريقيا، وبذلك انقطعت الصلة المباشرة الوحيدة بين أوروبا والإسلام. وقد شهدت نفس الفترة ظهور أعمال بدرو دو ألكالا الذي نشر معجما إسبانيًا عربيًا كبيرًا عام ١٥٠٥ تحت اسم Vocabulista aravigo en letra castellana، كما نشر كتابا للنحو العربي مشفوعا بدليل للمحادثة فيما يخص مسائل الاعتراف، ويرمي لمساعدة القساوسة الذين يتعاملون مع العرب الذين تحولوا عن الإسلام حديثًا، وكان ذلك أول تحليل للغة العربية على أساس إطار يوناني لاتيني .

وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ انتشر الاهتمام بالكتب المكتوبة باللغة اليونانية لدرجة أن الباحثين بدءوا يشكون في مصداقية المترجمات اللاتينية المأخوذة عن النصوص العربية للكتب اليونانية. ولما انتشرت المعرفة باللغة اليونانية والنصوص اليونانية القديمة أصبح التوجه العام راميا إلى العودة لتلك النصوص مباشرة دون استخدام النصوص العربية. وانتهى الصراع الذي استجد بين الـ arabizantes القدامى والـ neoterici الجدد بفوز الحديث على القديم، وأصبحت كتابات ابن سينا من رموز الماضي، وبناء على ذلك تغير توجه أوروبا للإسلام نفسه.

في بداية الأمر رفض بعض الباحثين التخلي عن معارفهم العربية، يقول الطبيب الهولندي لورينتيوس فريسيوس في كتابه في الدفاع عن أمير الطب ابن سينا أمام الأطباء الألمان : "إن دراسة العربية ضرورية لمن يريد تعلم الطب"، ويتفق مع معارضيه الذين يتغنون بكفاءة العلوم اليونانية على أن اللغة العربية لغة فقيرة ومتخلفة بالمقارنة باللغة اليونانية، ولكنه يصر على أن نوعية اللغة ليست مهمة في عملية نقل العلوم. ويضيف أن العرب قد ترجموا كل الكتب اليونانية الأساسية في الطب والفيزياء وأضافوا عليها شروحهم القيمة، يعتبر مثل فريسيوس هذا دليلاً على أنه في هذا الوقت كان بعض الباحثين الأوروبيين مايزالون يعتقدون أن اللغة العربية مسألة أساسية في دراسة الطب. ولكن عندما انتشرت النصوص اليونانية في أوروبا لم يعد أحد يهتم بالكتب العربية، والأسوأ من ذلك أن المقارنة بين النصوص اليونانية الأصلية والنصوص العربية، المأخوذة عن ترجمات سريانية والتي عرفت في الغرب من خلال الترجمات

اليونانية لم تنته لصالح النصوص العربية. وبدأ الناس ينظرون للغة العربية على أنها عدو للتراث اليوناني وليست حاميته ولذلك أصبحت دراسة العربية غير ضرورية.

عندما تغير توجه غرب أوروبا ناحية الطب العربي ، نحت دراسة اللغة العربية في الجامعات الغربية منحى مختلفًا، فعلى طول حقبة الحروب الصليبية ، وبالرغم من احترام الصليبيين لمعرفة العرب وحكمتهم ، اعتبر معظم الأوروبيين الإسلام العدو الأساسي للمسيحية ولأوروبا. ولما كان الدافع العلمي لدراسة اللغة العربية قد زال فقد أصبح الهدف الأساسي لدراسة العربية هو التبشير الذى اعتمدته أوروبا الجديدة، ولذلك فأى باحث كان ينوى الانغماس في جدل مع العدو كان يحس بضرورة وجود كتب تعليم للغة العربية ليستطيع من خلالها فهم النصوص الأصلية العربية وعلى رأسها القرآن الكريم. على ذلك، نجد أن نيكولاوس كليناردوس (١٤٩٥-١٥٤٢) قد كتب في رسالته التي نشرت عام ١٥٥١ عن المسائل المحمدية أنه من الصعب إقناع المسلمين بخطئهم باللغة اللاتينية، ومن العجيب أنه هو قد درس العربية والطب العربي في غرناطة، ولكنه يقول إن الهدف الأساسي من دراسة اللغة العربية يجب أن يكون الرد على المسلمين بلغتهم. وفي هذا المقام يحسن بنا أن نضيف عاملاً آخر هنا وهو رغبة الكنيسة الكاثوليكية في إعادة الصلات بالمسيحيين الشرقيين ، فقد شجعت الكنيسة على إقامة علاقات مع المسيحيين المارونيين الذين يتكلمون اللغة العربية، ومن أجل ذلك حضر الكثير من المسيحيين الشوام إلى كل من روما وباريس للمساعدة في تحقيق الهدف، وفي غضون ذلك جلب المارونيون معهم من الشرق معلومات عن الإسلام واللغة العربية.

وحتى بالنسبة للباحثين الذين كان هدفهم الأساسي لغويًا وتاريخيًا كالعالم الهولندى إربنيوس (١٥٨٤ – ١٦٢٤)، فقد اتبعوا وجهات النظر السائدة لدى معاصريهم وخاصة في اعتبار الإسلام دينا فاسدا، ومع ذلك فإن إربينيوس من خلال كتب النحو التي وضعها والنصوص العربية التي حققها قد وضع أسس دراسة العربية، بل ربما يكون اهتمامه باللغة اهتماما حقيقيا، وربما لا يعدو الأمر كونه يسوق بعض الحجج الدينية ليبرر دراسته للغة العربية واهتمامه بها وقد أبدى اهتماما خاصا بكتابات المسيحيين العرب، بل وكان مقتنعًا أن دراسة ترجمات الإنجيل إلى اللغة

العربية قد تسهم إسهامًا حسنا في دراسات الكتاب المقدس، ولما كان الباحثون يدركون الشبه الكبير بين العربية والعبرية القديمة فقد ظنوا أن دراسة المعجم العربي ستساعدهم في فهم عبرية الكتاب المقدس، وأصبح من الطبيعي الجمع بين اللغتين في منهج دراسي واحد، في الحقيقة فإن الشبه الكبير بين اللغتين وخاصة في النواحي المعجمية جعل الباحثين يلتفتون إليه مبكرا جدا ويحاولون دراسته، لم يساعد عدم الاهتمام باللغات الأخرى في العالم العربي على دراسة الشبه بين اللغتين بشكل مثمر من خلال باحثين عرب– وإن كان بعض الجغرافيين قد أشاروا إلى التشابه إشارات عابرة، أما بالنسبة لنحويي اللغة العبرية فقد كرسوا مساحة كبيرة للعلاقة بين اللغتين، أو بين اللغات الثلاثة، لو نظرنا إلى الآرامية، ولما كان يهود العالم الإسلامي يعيشون في مجتمع لغوي ثلاثي (لغتهم الأم هي العربية، وكتابهم المقدس مكتوب بالعبرية، وشروح الكتاب المقدس مكتوبة بالآرامية)، فقد كانوا في موقع يسمح لهم بإدراك التشابهات بين اللغات الثلاثة والمقارنة بينها، فقد كتب يهودا بن قريش رسالة شدد فيها على أهمية العربية والآرامية في دراسة التوراة العبرية، ومع ذلك فإن إسهامات النحويين العبريين في مجال اللغويات المقارنة ظلت محدودة بمجال النحويين المحليين ولم تسهم في تطور الدراسات السامية في أوروبا .

لم يكن الباحثون العاملون على اللغة العبرية في غرب أوروبا في القرن السادس عشر غير واعين بالعلاقات بين العبرية وباقي اللغات السامية، وهي علاقات أوضح من العلاقات بين اللغات الهندو – أوروبية، وأطلق العلماء على تلك اللغات مصطلح "اللغات الشرقية" وهو مصطلح ضم بجانب العربية والعبرية والآرامية اللغة الإثيوبية ولغات ليست لها علاقة باللغات السامية كالأرمينية والفارسية. ولكن ذلك الوعي الغائم نسبيا بوجود شبه لغوي لم يسهم في تطور دراسة مقارنة بشكل علمي. ولكن الأثر العملي الوحيد لذلك الوعي كان في جعل دراسة العربية مادة معينة في مناهج دراسة التوراة العبرية. وقد كان التصور العام هو أن العبرية هي لغة الجنة ولذلك كانت هي أول لغة وضعت للإنسان. أما اللغات الأخرى فقد كانت خلفا لها ولذلك تعبر عنها بشكل غير تام .

وجدت فكرة وجود علاقات بين اللغات التي تسميها الآن اللغات السامية دعما من التوراة في قصة أبناء نوح : سام وحام ويافث، وهذا تقسيم استخدمه الكتاب العرب والعبريون على حد السواء، أما أبناء سام فقد انتشروا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أما أبناء حام فهم أصل المتحدثين باللغات الإفريقية، وأما أبناء يافث فهم أصل من تحدث بعدد من اللغات في أوروبا وآسيا. لم يكن هذا التصنيف الأساسي يحمل في طياته أي هرمية أو تقابلا بين اللغات، فقد كانت المسافة بينها جينية كالمسافة بين الأقارب. ولكن علماء اللغة الأوروبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا مهتمين بالتركيب العالمي للغات كافة في شكل تراتبي. وأثرت أفكار بورت رويال (١٦٦٠) حول العلاقة بين النحو والمنطق على توجهات دراسة العربية واللغات السامية، انظر هذا التأثير مثلاً في كتاب سيلفستر دي ساسي عن النحو العربي (١٨٠٩)، وقد أثر هذا التوجه العالمي على تحديد دراسة العربية والعبرية في العصور التاريخية القديمة ولم يساعد في تطور مفهوم اللغات السامية، وهو مصطلح ظهر أول ما ظهر عام ١٧٨١ على يد شولزير.

العاملان اللذان دفعا دراسة اللغة العربية للأمام، إذن، هما استخدام اللغة العربية للرد على العرب واستخدامها كلغة مساعدة لدراسة عبرية التوراة، وقد أسهم العاملان ذاتهما في ضمان استمرار دراسة العربية حتى بعد انتهاء السطوة الطبية العربية. ويمكن أن نضيف أن الاهتمامات التجارية قد تكون عاملا أسهم في البحث عن معرفة أكبر باللغات الشرقية، فقد أصبحت دراسة اللغة العربية، والتركية والفارسية بشكل أقل، مهمة في التجارة مع متكلمي تلك اللغات وخاصة بالنسبة للجمهورية الهولندية وفرنسا وألمانيا، وبدأ بعض المستشرقين عملهم في المجال انطلاقا من مهامهم الدبلوماسية في سفارات بلادهم في تلك البقاع الشرقية ؛ فقد زار جوليوس (١٥٦٩–١٦٦٧) – خليفة إربينيوس في كرسي اللغة العربية بجامعة ليدن – المغرب وتركيا العثمانية وسوريا قبل تسلمه مهام وظيفة الأستاذية، وقد ألف أول قاموس عربي حقيقي في الغرب وهو قاموس Lexicon arabico-Latinum وهو معجم ظل العمدة والثقة في أوروبا لمدة قرنين.

ظل اللاهوت وعلوم لغة الكتاب المقدس عاملين مهمين في دراسة العربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكما بينا سلفًا فمعظم دارسي اللغة العربية كانوا متبحرين في العبرية أيضًا، وظل تصوير الإسلام على أنه خطر على أوروبا المسيحية موجودا في القرن الثامن عشر حتى بدأ فلاسفة عصر التنوير توجها جديدا ناحية الشرق. ولما كان المصدر الأساسي لفلاسفة الغرب في تلك الحقبة هو كتب الرحالة فقد استشفوا أن هناك الكثير مما يمكن تعلمه من ثقافات الشرق، فقد أعجب الفلاسفة بالإمبراطورية الفارسية بسبب تنظيمها الداخلي وتسامحها مع الأديان كافة، وتسرب تغير التوجه العام ليؤثر على دراسة اللغات الشرقية وآدابها أيضا، وبالرغم من أن الأفكار المسبقة القديمة كانت تطفو على السطح أحيانا في كتابات العصر، إلا أن الاهتمام في مجمله كان حقيقيًا ولم تكن هناك أي دوافع غير الأهمية الفعلية وراء الدراسة.

في القرن التاسع عشر حدث تطور كبير في مجال الدراسات اللغوية فيما يخص الساميات عندما حدثت ثورة النسق التاريخي المقارن في علوم اللغة في أوروبا، وقد بدأت هذه الثورة في حقل اللغات الهندو – أوروبية عندما قارن فرانز بوب بين أنظمة تصريف الأفعال في السنسكريتية والفارسية والجرمانية واليونانية عام ١٨٦١، ولكن سرعان ما انتشرت الفكرة لباقي المجموعات اللغوية، بفضل هذا النسق الفكري الجديد استطاع اللغويون أن يضعوا تصنيفًا علميًا لمجموعة لغوية كاملة. واعتمد النسق الجديد على فكرة الشجرة كما اعتمد الفكر اللغوي قبل ذلك ولكن التقسيم في النسق الجديد كان قائمًا على مقارنة علمية منظمة ونزعة للنظر في العلاقات الحقيقية بين فروع الشجرة. وفي مجال اللغات السامية، وسع اكتشاف نصوص من الآشورية القديمة في منتصف القرن التاسع عشر ووجود نصوص من الآرامية القديمة ونقوش من العربية الجنوبية القديمة ، العمق التاريخي للمقارنة، بل ومكّن العلماء من إعادة بناء اللغة السامية الأم على قمة الشجرة كما أعاد العلماء في مجال اللغات الهندوأوروبية بناء اللغة الهندو أوروبية الأم، وجمع كارل بروكلمان نتائج النسق الجديد في مجال اللغات السامية المقارنة في عمله Grundriss der vergleichenden Grammatic der semitischen Sprachen وسوف نرى في الفصل الثاني كيف أن هذه النظريات الجديدة قد شكلت أفكارنا فيما يتعلق بتصنيف اللغة العربية بين اللغات السامية.

وقد أثر التطور في علوم اللغة الأوروبية على اللغة العربية بشكل آخر، فقبل القرن التاسع عشر كان معظم الباحثين اللغويين مهتمين باللغة الفصحى دون غيرها، بينما كانت اللهجات أنماطاً خاطئة من الحديث لابد لها أن تنمحي. وعندما اكتشف العلماء في القرن التاسع عشر أن اللهجات الريفية تحتوى على أشكال وتراكيب أقدم من تلك الموجودة في الفصحى ولذلك يمكن أن تستخدم في تفسير أصل أشكال التراكيب في الفصحى، بذل العلماء جهودا كبيرة في تسجيل اللهجات المختلفة للغة الفصحى الواحدة، واستمراراً للنزعة الرومانسية التي كانت موجودة أيامها تصور العلماء أن طريقة كلام الريفيين أكثر طبيعية من الطريقة المصطنعة لسكان المدن، وقبل تلك الحقبة كانت تلك اللهجات مجرد تراكيب خاطئة أو ظواهر لغوية عارضة، ولكن الطريقة العلمية الجديدة كانت ترمي إلى تفسير اللغة الفصحى من خلال اللهجات الموجودة فعلا، ولذلك ظهرت مجموعة كبيرة من المشاريع العلمية كان هدفها تسجيل أكبر عدد ممكن من اللهجات، وكانت نتيجة ذلك هي نشر الأطالس اللغوية الكبيرة لكل من فرنسا وألمانيا وسويسرا، وتلاها نشر أطالس لهولندا وبريطانيا.

وفي مجال اللهجات العربية أحس الباحثون بفعل هذا التطور الجديد، فيما قبل تلك الحقبة درس العلماء اللغات العربية والتركية والفارسية لأسباب بعضها عملي، وعرف بعض العلماء الشرق الأوسط معرفة أصيلة من خلال التجربة، فقد زاروا بلاد المنطقة كممثلين لحكوماتهم أو دبلوماسيين أو مندوبين لشركات كبيرة . وفي تلك الزيارات دخلت المخطوطات دائرة اهتمامهم، ومن المفروض أن يكون هؤلاء الباحثون قد تعرفوا أيضا على لغة الكلام، وبالرغم من أن كل منشوراتهم كانت متركزة حول الفصحى، إلا أنهم لا شك كانوا يعرفون أن للعربية لهجات مستخدمة كلغة تخاطب يومي . اختفت في القرن الثامن عشر وظيفة الباحث اللغوى القديمة ولم يكن الدارس ليترك دراسته ليتكلم مع أبناء اللغة العربية لغة حديثهم اليومي. ولكن بحلول نهاية القرن التاسع عشر وعندما بدأ عدد الباحثين الذين يزورون العالم العربي يزداد اكتشفوا أن العاميات تختلف عن اللغة التي تعلموها من الكتب اختلافاً كبيراً. بناء على ذلك بدأ هؤلاء العلماء يدرسون اللهجات العربية بنفس الأنساق العلمية التي استخدمها علماء اللغات الأوروبية لدراسة اللهجات هناك، وفي عام ١٨٢٠ – على سبيل المثال –

أنشئ كرسي لتدريس اللهجات العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. وظل الاهتمام باللهجات سمة دائمة في الدراسات العربية بالرغم من أن هذا الاهتمام لم يؤد إلى تغيير جذري مباشر في مناهج تعليم اللغة العربية في معظم الجامعات وهي المناهج التي كانت تتركز حول الفصحى التراثية.

حاولت في هذه المقدمة أن أتتبع تطور دراسة اللغة العربية، وركزت على العلاقة بين تدريس اللغة العربية وباقي اللغات السامية كالعبرية. ولكن منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت دراسة العربية تنفصل عن دراسة باقي اللغات السامية، فقد أصبحت هناك نزعة للنظر للعربية كلغة إسلامية ولذلك يفضل دراستها ضمن باقي اللغات الإسلامية كالتركية والفارسية ، ولكن المعرفة باللغة العربية تبقى مهمة جدا في مجال المقارنة بين اللغات السامية ولكن المقارنات لم تعد تظهر داخل حقل اللغة العربية، وربما يكون السبب في ذلك هو تحول الاهتمام من الدراسة التاريخية للغة العربية إلى دراسة العربية في أشكالها المعاصرة، وخاصة فيما يتعلق بمسائل علاقة اللغة بالعلوم السياسية والاجتماعية وبالإسلام.

يتوازى هذا النزوع مع نزوع آخر لتدريس اللغة العربية، فحتى عقود قليلة مضت كان تدريس اللغة العربية يقوم على فكرة أنها لغة ميتة، وكانت الأقسام التي تقدم فصولا في اللهجات العربية قليلة. أما الآن فكل الأقسام تقريبًا في أوروبا والولايات المتحدة ترمي إلى أن يعرف الطالب قسطًا حسنًا من الفصحى المعاصرة وتتوقع منه أن يتعلم لهجة عربية واحدة على الأقل كما تتوقع منه أن يقضي وقتا في العالم العربي وليتقن الحديث باللهجات العربية، وهذه نزعة أخرى فصلت اللغة العربية عن باقي اللغات السامية الأخرى.

أحد النتائج الإيجابية لهذا الحقل الجديد هي انتشار حب التعاون بين الباحثين العرب وغير العرب في اللغة العربية، ففي نهاية القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين بدأ بعض اللغويين العرب في تحرير اللغة العربية مما أسموه قيود النحو التقليدي وأدخلوا الطرق اللغوية الحديثة في مجال دراسة اللغة العربية. وقد أدت تلك النزعة أيضًا إلى ازدهار دراسة اللهجات العربية. بالرغم من عدم شعبية دراسة اللهجات في العالم العربي، إلا أن الباحثين العرب بدأوا ينشرون كتب قواعد للهجات

العربية، وأخذوا يحللون المجالات الاجتماعية اللغوية المتعلقة بها، وبينما ظل اهتمام الجامعات التقليدية فى العالم العربى منصباً على دراسة الفصحى التراثية إلا أن هناك عدداً كبيراً من أقسام اللغويات تعمل فى إطار لغوى حديث.

ولما تغير توجه علم اللغة العام فى القرن العشرين وتحول بعيداً عن النسق المقارن، لم تتبع اللغات السامية هذه النزعة الجديدة وظل الباحثون يدرسونها فى إطار مقارن تاريخى، ولذلك فقدت مكانتها المحورية فى الدراسات اللغوية، وأصبحت أقرب إلى الدراسات الشرقية القديمة، يبدو أن نفس الشىء يحدث فى أقسام اللغة العربية فى أوروبا بالرغم من أن بعض الباحثين الأفراد يحاولون أن يوطدوا صلاتهم بحقول علم اللغة العام، أما فى الولايات المتحدة، حيث لم يكن الدرس اللغوى القديم محل اهتمام كبير قط، فإن المجال أكثر انفتاحاً على تطبيقات علم اللغة العام، وبدأت الكتب التى تدرس اللغة العربية من خلال أطر لغوية حديثة تنتشر بكثرة.

الفصل الثانى

اللغة العربية بين اللغات السامية

٢-١ تصنيف اللغات السامية

تنتمى اللغة العربية لمجموعة من اللغات تسمى اللغات السامية، تنتمى لنفس المجموعة بعض لغات الشرق فى منطقة الشرق الأوسط، بعض من أفراد تلك المجموعة اللغوية لم تعد لغة حية حاليًا، أقدم اللغات السامية الموثقة هي اللغة الأكادية، وهى لغة كانت مستخدمة فى منطقة العراق فى الفترة ما بين ٢٥٠٠ إلى ٦٠٠ قبل الميلاد. ومن بداية الألفية الثانية قبل الميلاد انقسمت تلك اللغة إلى البابلية والآشورية، ولكن اللغة البابلية الحديثة ظلت مستخدمة في شكلها الكتابي فقط حتى بداية فترة تدوين التاريخ، وتعرف العديد من اللغات السامية فى منطقة سوريا وفلسطين؛ فهناك اللغة العبلية، وهى لغة الـ ١٥٠٠٠ نقش الموجودين فى مدينة عبلة، وهى مدينة تل مرديث الحالية، والتى تقع ٦٠ كيلومترا جنوب حلب، تاريخ تلك النقوش فيما بين ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وهناك أيضا اللغة الأوجريتية والتى كانت مستخدمة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد فى أوجريت، وهي مدينة تسمي الآن برأس شمرة على بعد عشرة كيلومترات شمالي اللاذقية.

بينما لا يمكن تحديد نوع العلاقة بين العبلية والأوجريتية وباقي اللغات السامية بدقة، يتفق العلماء تمامًا حول باقي لغات المنطقة، ويصنفونها تحت اسم اللغات السامية الشمالية الغربية ، وفى أثناء النصف الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد لم يبق من تلك المجموعة اللغوية أى أثر مادى سوى أسماء الأعلام الموجودة فى الأرشيفات الأكادية– كأرشيف "مارى" مثلاً. تمثل تلك الأسماء نمطًا لغويًا نسميه الأموريتية، وفى

نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد بدأت مجموعتان لغويتان في الظهور وهما : الآرامية والكنعانية، وهما اسمان يضمان تحتهما مجموعة من اللغات هي العبرية والفينيقية ومجموعة صغيرة من اللغات لا نعرف عنها شيئًا يذكر، وأقدم مرحلة من مراحل العبرية هي عبرية التوراة (١٢٠٠- ٢٠٠)، والمراحل المتأخرة من تلك اللغة تمثلها رسائل البحر الميت التي يرجع تاريخها للقرنين الثاني والأول قبل الميلاد وما نسميه عبرية الرابايات والعبرية الحديثة، أما اللغة الفينيقية فقد كانت لغة المدن الفينيقية كصيدا وتاير ومستعمراتها كقرطاج، وهي مدن ظلت ذات سيادة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي .

تنتمي الآرامية القديمة إلى الألفية الأولى قبل الميلاد، وقد كانت لغة الحديث في سوريا من بداية القرن العاشر قبل الميلاد على الأقل. وبداية من القرن السابع حتى القرن الرابع قبل الميلاد أصبحت الآرامية لغة مشتركة في الإمبراطوريتين الفارسية والبابلية، وكانت علاوة على ذلك لغة أجزاء من التوراة، وتطورت الآرامية لشقين شرقي وغربي. أما الآرامية الغربية فقد كانت لغة الحديث في فلسطين منذ فترة مبكرة في حقبة التاريخ المدون، وظلت لغة مكتوبة كلغة أدبية في تلك البقاع حتى القرن الخامس الميلادي، كما كانت اللغة الرسمية في المملكتين النبطية والتدمرية، ومازال بعض أنماط الآرامية الحديثة حية في جيوب لغوية محدودة في سوريا ، وأهم ممثلي الآرامية الشرقية هي اللغة السريانية، وهي لغة الكتابات الدينية المسيحية، واللغة المانديـة، وهي لغة الكثير من الكتابات العرفانية بين القرنين الثالث والثامن الميلاديين، وهي أيضا لغة التلمود البابلي بين القرنين الثالث والثالث عشر الميلاديين. أما اللغة السريانية فقد كانت لغة المسيحيين السوريين حتى القرن الثامن الميلادي، ومازال حية في بعض الجيوب اللغوية القليلة في سوريا .

في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي إثيوبيا كان هناك عدد من اللغات السامية : كانت اللغة العربية الجنوبية لغة النقوش السبئية والمينية التي يرجع تاريخها بين القرنين الثامن قبل الميلاد والسادس الميلادي، ومن المحتمل أن تكون اللهجات العربية الجنوبية الحديثة كالمهرية حفيدة تلك اللغات العربية الجنوبية القديمة، أما في أثيوبيا ، فأقدم

اللغات السامية الإثيوبية الكلاسيكية التي كانت لغة إمبراطورية أكسوم في القرون الأولى للميلاد، تنتمي إلى هذه المجموعة لغات كثيرة متكلمة في إثيوبيا، كلغة "تيجر" و"تيجرينا" والأمهرية التي هي لغة إثيوبيا الرسمية.

رأينا في الفصل السابق كيف تبلورت الأفكار الحالية حول العلاقة بين اللغات السامية في القرن التاسع عشر في ظل النسق التاريخي المقارن، وفي هذا الفصل سوف نهتم بموقع اللغة العربية في هذا التصنيف وأثر النسق عليها، ففي البداية تم فصل خمس لغات والتركيز عليها جميعا على أنها لغات متساوية، وهذه اللغات هي الأكادية والعبرية والآرامية والعربية والإثيوبية، ولكن عندما بدأ تأثير البحث التاريخي في دراسة الشعوب السامية يزداد، بدأ النظر لتلك اللغات لا على أنها متساوية بل من منظور تاريخي، وتحت تأثير الإنجازات العلمية في مجال اللغات الهندو - أوروبية بدأ الباحثون يحاولون بناء شجرة اللغات السامية يكون غرضها عكس العلاقات الجينية بينها، تشير العلاقة الأسرية إلى أن كل اللغات السامية قد تكون نشأت من أصل واحد وهو السامية الأم.

كان التصور العام في مجال اللغات الهندو - أوروبية أنك تستطيع أن تعيد بناء اللغة الهندو-أوروبية الأم عن طريق المقارنة بين تركيبات اللغات الهندو أوروبية المتاحة. بنفس الطريقة أصبح هناك تصور أنك تستطيع أن تعيد بناء لغة سامية أم من خلال المقارنة بين الأكادية والعبرية والآرامية والعربية والإثيوبية، وأن العلاقة بين تلك اللغة الأم وباقي اللغات السامية يجب أن تكون مثل العلاقة بين الهندو أوروبية الأم وباقي اللغات التي تركبت منها، ولكن محاولة البحث عن مجموعة من التراكيب الأم أدت إلى نتائج متباينة تماما: فبعكس اللغات الهندو أوروبية التي كانت منتشرة في مساحات شاسعة من الأرض بحيث كانت اللغات منعزلة بعضها عن بعضها الآخر، كانت اللغات السامية محصورة في منطقة جغرافية محدودة بسوريا وفلسطين والعراق والصحراء العربية، وقد أدى ذلك إلى اتصال دائم بين متكلمي تلك اللغات، ولذلك كان الاقتراض اللغوي مسألة اعتيادية بين تلك اللغات، والاقتراض اللغوي عادة ما يعيق العملية التاريخية للتغير اللغوي ويصعِّب من إعادة بناء التقابلات بين اللغات محل الدراسة.

التشابهات بين اللغات السامية أكثر وضوحًا من التشابهات بين اللغات الهندو أوروبية، وكذلك تشترك في عدد من السمات التي تميزهـا عن كل اللغـات الأخـرى، لا يمكن أن نعتمد على أي سمة من تلك السمات التي تعتبر مميزة للغة السامية في حد ذاتها كعامل قاطع على عضوية للغة ما في مجموعة الساميات. ولكن تلك السمات في مجموعها تمثل قائمة كافية للتمييز والتعريف. من بين تلك السمات ما يلي : وجود الأصوات الصحيحة المفخمة والحلقية، العلاقة الخاصة بين الأصوات الصحيحة وأصوات اللين، وجود نظام فعلي بتصاريف في شكل سوابق ولواحق، فضلا عن توازٍ معجمي كبير.

بما أن السمات المشتركة بين مجموعة من اللغات يتم التعامل معها من منطلق التصنيف الطيبولوجي دون أي تصور عن العلاقة الجينية بينها فإن تصنيف اللغات تصنيفا تحتيا لن يصادف أي مشاكل تذكر، في حالة تصنيفية كهذه فإن مسألة الاقتراض اللغوي أو التطور المستقل اللتان تؤديان لنتائج متشابهة تكون مسألة مفتوحة. أما العلاقة الجينية بين اللغات فتوحي بانحدار تاريخي من أصل مشترك، وهو اللغة التي يعتقد أن تكون باقي لغات المجموعة منحدرة منها، وبما أنه يعتقد في هذا الإطار أن اللغة الأم لغة حقيقية من الناحية التاريخية، فمن المفروض أن تكون لغة شعب تاريخي حقيقي، ولذلك نجد أن علماء الساميات الذين يعملون في حقل الدراسات اللغوية الجينية قد بدءوا يبحثون عن وطن للساميين، ولكن الجدل احتدم بشأن هذا الوطن، فالكثير من الباحثين حدد مكان هذا الوطن بشبه الجزيرة العربية، بينما حدده آخرون بسوريا أو بشمال إفريقيا، من المفروض تبعًا لذلك أن تكون الهجرات التالية من هذا الوطن هي التي آلت بكل شعب إلى موقعه المعروف- كما حدث في الهجرات الآرامية في الفترة ما بين ١٩٠٠ و١٤٠٠ قبل الميلاد، وكان الفتح العربي لشمال إفريقيا والشام في القرن السابع الميلادي أحد هذه الهجرات السامية وآخرها، توحي تلك النظرية، التي تقول إن الأحداث التاريخية أدت إلى التوزيع الحالي للغات السامية، بأن الشعوب الموجودة في السجلات التاريخية كانت فعلا تتكلم اللغات التي نعرفها بها، وتوحي أيضا بأنه بمجرد الوصول لمكان المهجر والاستقرار فيه بدأت تلك اللغات في التطور بمعزل عن باقي اللغات السامية، وينتج هذا التطور من أحد أمرين: إما تأثير

اللغات المحلية المتكلمة في بلاد المهجر أو من العوامل الداخلية الكامنة. ويظن الباحثون أن تلك العوامل هي المسؤلة عن التجديد في كل لغة عن الأخرى وعن الاختلافات بين اللغات بعضها عن البعض الآخر.

ومن الممكن بطبيعة الحال أيضا أن ننظر للتوزيع الحالي للغات السامية ليس على أنه نتيجة لهجرات فجائية لشعوب كاملة، بل على أنه تغلغل تدريجي صادر من مراكز مختلفة باتجاه أطراف منطقة المجموعة اللغوية. يستطيع تغلغل كهذا أن ينقل تجديدات لغوية في شكل موجات يكون تأثيرها الأكبر على المناطق المركزية، بينما تحتفظ الأشكال القديمة بفرصة أكبر للبقاء في مناطق الأطراف. يقول جاربيني (١٩٨٤) : " إن منطقة بعينها هي التي لعبت الدور الأكبر في توزيع التجديدات اللغوية وهي منطقة السهل السوري، وليس منطقة الساحل أو فلسطين، وهي المنطقة التي يعتبرها بؤرة اللغات السامية. السمة الأساسية المميزة للمنطقة السورية التي يقترح المؤلف أن تكون التجديدات ظهرت فيها هي الاتصال بين المستعمرات الحضرية على تخوم الصحراء وبدو الصحراء ، في بعض الأحيان استقر البدو الرحل وشكلوا جزءًا من الشعب الحضري، ولكن في حالات أخرى كثيرة فصلت جماعات من المستوطنين نفسها وأصبحت مجموعات بدو منعزلة تعيش في الصحراء ، ويظن جاربيني أن هذا التبادل المستمر كان المسؤول عن أنماط التجديد اللغوي التي قامت من المنطقة السورية وانتشرت لباقي الأطراف. وتعتمد نوعية التجديدات التي انتشرت من سوريا إلى الجزيرة العربية على الفترة التي خرجت فيها مجموعة معينة من المستوطنين من سوريا إلى الصحراء.

اقتبس جربيني أمثلة من الأكادية والعبلية تبين كيف أن تلكما اللغتين لم تكونا ممثلتين في سلاسل الهجرات التي خرجت من المنطقة السورية ولم تشتركا في التجديدات الحديثة نسبيًا في تلك المنطقة، أما السمات المشتركة بين العربية والآرامية والأمورية فترجع إلى الفترة التي كان أجداد العرب يعيشون فيها في المنطقة السورية، تعني تلك النظرية أن اللغة العربية هي الشكل البدوي للغات التي كانت قائمة في المنطقة السورية في الألفية الأولى قبل الميلاد، وهي اللغات التي يسميها جاربيني

باللغات الأمورية ، وينظر جربيني إلى العربية الجنوبية والإثيوبية على أنها نتيجة لهجرات مبكرة من نفس المصدر. بناء على تلك النظرية فالسمات المشتركة بين اللغة العربية والعربية الجنوبية والتي ليست موجودة في المنطقة السورية نتجت عن عمليات دمج متأخرة، فالبدو العرب يعتقد أن يكونوا قد أثروا على اللهجات / اللغات الحضرية في الجنوب، وحدث العكس من خلال قوافل التجارة التي جعلت اللغات الجنوبية معروفة في الشمال، ليست اللغات العربية الجنوبية الحديثة كالمهرية والسوقطرية مستمدة من العربية الجنوبية القديمة بشكل مباشر، بل من المحتمل أن تكون تلك اللغات صادرة من أنماط لغوية لم يصل إليها تأثير البدو العرب المبكرين بسبب أنها كانت لغة مناطق نائية في جنوب شبه الجزيرة العربية، على ذلك، فإن بناء تلك اللغات في بعض مناحيه أكثر قدماً من العربية الجنوبية الموجودة في النقوش المعروفة.

في الشكل العمدة لتصنيف اللغات السامية ، يفترض الباحثون أنه في حوالي الألفية الثالثة قبل الميلاد حدث انفصال بين اللغات السامية الشمالية الشرقية (الأكادية، والتي تفرعت بعد ذلك بدورها لقسمين هما البابلية والآشورية) وباقي اللغات السامية، وفي حوالي الألفية الثانية قبل الميلاد حدث انقسام آخر في المجموعة الغربية من اللغات السامية، وكان الانقسام بين مجموعة الساميات الشمالية والمجموعة الغربية والجنوبية الغربية، وفي حوالي الألفية الأولى قبل الميلاد انقسمت المجموعة الشمالية الغربية إلى الكنعانية والآرامية. وانقسمت المجموعة الجنوبية الغربية إلى العربية والعربية الجنوبية والإثيوبية. ولكن الاكتشافات الحديثة غيرت تلك الصورة تغييرا كبيرا، وخاصة اكتشاف اللغة الأوجريتية في عام ١٩٢٩ والعبلية عام ١٩٧٤، وكلا اللغتين الآن تعتبر من المجموعة الشمالية الغربية، ولكن الباحثين مختلفون بشأن العلاقات بين لغات تلك المجموعة اختلافاً كبيراً.

وجه باحثون كثيرون نقداً قاسياً للتوجه الجيني بشقه الذي يعتمد على فكرة هجرة الشعوب وشقه الآخر الذي يعتمد على فكرة انتشار التجديدات اللغوية، وذلك بسبب عدم تماشي هذه الأفكار مع الوضع اللغوي في الشرق الأوسط. بما أنه لا توجد هناك حدود فاصلة بين الجماعات اللغوية في هذه المنطقة من العالم فلم تنعزل أي جماعة

لغوية من الجماعات كما حدث في حالة بعض اللغات الهندو أوروبية مثلا ، فقد اشتركت العديد من الجماعات اللغوية في الشرق الأوسط في حدود جغرافية واحدة وكذلك كانت بينها علاقات سياسية وثقافية كبيرة، ولذلك كان من الممكن للتجديدات اللغوية أن تنتشر بسهولة في مناطق جغرافية واسعة، وكذلك كان من الممكن أن يتوسع الاقتراض اللغوي. علاوة على ذلك، وكما قال بلاو (١٩٧٨) فقد عملت لغات كثيرة كلغة مشتركة لمرة واحدة على الأقل في هذا الإقليم الواسع كما حدث مع الأكادية والآرامية مثلا. ولذلك من الممكن أن تكون بعض السمات المشتركة في لغات المنطقة قد انتشرت بفعل تلك اللغات المشتركة، ولكن وضع اللغة العربية بين اللغات السامية يمثل مشكلة علمية خاصة جداً؛ بالنسبة للعديد من علماء الساميات كانت اللغة العربية هي نقطة انطلاق في إعادة بناء السامية الأم، ولما كانت عملية إعادة البناء مصدرها اللغة العربية وخاصة في مجال الفونيمات، فقد اكتشف الباحثون أن العربية واحدة من أقدم اللغات السامية.

عادة ما تجمع المحاولات الحديثة لتصنيف اللغات السامية بين التفسير التاريخي للعلاقة بين لغات المجموعة وبين توجه طيبولوجي جغرافي يسجل السمات المشتركة بين كل اللغات دون ادعاء لأصول بنوة تاريخية، ويرفض بعض الباحثين مثل أولندورف (١٩٧١) رفضا باتا أي إمكانية توصل إلى تصنيف يعكس العلاقات الجينية، على حين يدعي باحثون آخرون كجريبيني أنه من الممكن أن تتتبع التطور التاريخي للغات السامية ولكن دون أي تراتب جيني، ذلك لأن نمط التطور اللغوي في المنطقة مختلف جذريا عن نمط تطور اللغات الهندو أوروبية.

مازال بعض الباحثين يعتقدون أنه من الممكن إصدار تصنيف جيني بشرط أن تستخدم المبادئ الصحيحة في التحليل، (انظر مثلا هتزرون (١٩٧٤ و ١٩٧٦) الذي يقترح أن يقوم التقسيم على مبدأ التجديدات الصرفية المعجمية المشتركة والتجانس القديم. يشير المبدأ الثاني إلى أن النظام الصرفي غير المتجانس (الموسع) يجب أن يكون أكثر قدماً من النظام الصرفي المتجانس، ويقترح المبدأ الأول أن التجديدات الصرفية المعجمية يصعب أن تكون ناتجة عن عملية اقتراض لغوي، ويقدم مثالين

للتدليل على صحة نظريته : المثل الأول هو لاحقة المتكلم والمخاطب المفرد في الفعل الماضي في اللغة العربية وهما – ـــتُ و – ـــتَ على التوالي في "كتبتُ" و" كتبتَ". في اللغة الإثيوبية الضميران هما -كُ و-كَ. والشكل الموازي لتلك اللاحقة مع الأسماء والأفعال في الأكادية فإنه يمتلك مجموعة من اللواحق الشخصية: آكُ وآتَ، يمكن أن يكون هذا الفرق بين العربية والإثيوبية من ناحية والأكادية من ناحية أخرى ناتجًا عن تعميم في العربية والإثيوبية، مما يوحي بأن النظام الصرفي في الأكادية أكثر تعددا واتساعًا وبالتالي أكثر قدمًا، أما النزعة إلى تجانس النظام وتصغيره فقد تحققت بشكل مختلف في العربية والكنعانية عن الشكل الذي تحققت به في الإثيوبية والعربية الجنوبية. أما العبرية ففيها الشكلان kaatavti/;aatavta أي أنها تشترك في هذا التجديد مع العربية، يفصل هذا التجديد كلا من العربية والعبرية عن اللغات السامية الجنوبية.

يتعلق مثل هتزرون الثاني بصوت علة سابقة الفعل المضارع، في الأكادية في سابقة الغائب المفرد المذكر الغائب الجمع والمتكلم الجمع هناك كسرة في سابقة المضارع، أما باقي الضمائر ففي سوابقها فتحة. كل سوابق المضارع في العربية الفصحى تمتلك فتحة في سوابقها، بينما تمتلك سوابق المضارع في الاثيوبية كسرة. في هذه الحال أيضًا يمكن اعتبار النظام المتوسع في الأكادية أكثر قدما لتعدده، أما سوابق باقي اللغات فهي نتيجة لتعميمات لاحقة. الموقف في اللغة العربية في حقيقة الأمر أكثر تعقيداً؛ فبعض القبائل العربية قبل الإسلام كانت تستخدم الكسر في سوابق المضارع بينما كانت قبائل أخرى تستخدم الفتح. ربما كانت هناك مرحلة وسيطة تم فيها تعميم الكسر على الأفعال التي كانت تحتوي على الفتح في وسطها، وتعميم الفتح على الأفعال التي تحتوي على كسر أو ضم في وسطها، واختلفت اللهجات العربية قبل الإسلام فيما يخص التعميم التالي على ذلك حيث تم تثبيت صوت اللين في سابقة الفعل .

بناء على تلك الأمثلة وأمثلة أخرى مشابهة لها حدد "هتزرون" مجموعة من اللغات السامية المركزية، وأخرج تصنيف هتزرون الجديد اللغة العربية من موقعها في التصنيف القديم حيث كانت مجموعة مع العربية الجنوبية والإثيوبية في تقسيم

الساميات الجنوبية، سوف نرى لاحقًا كيف أن هذا التغيير أثر على تصنيف اللغات السامية عموما. ولكن المسألة الأساسية فى نظرية "هتزرون" هى أنه لا يقيم تصنيف اللغات السامية على التجديدات المشتركة فى الأصوات أو فى المعجم أو فى النحو (حيث إن الافتراض اللغوى دائمًا فرضية قوية) بل يركز على التجديدات الصرفية المعجمية (حيث افتراض الافتراض اللغوى أقل قوة)، ويمكن أن نضيف أنه أيضا يستبعد من تصنيفه احتفاظ اللغات المختلفة بالسمات اللغوية ذاتها، وهو ما نسميه بالتجديد السلبى، إذ إنه يمكن أن يحدث فى كل لغة على حدة دون اتصال مستمر ومباشر بين اللغات المعنية.

بالرغم من مشاكل التحليل التاريخى المقارن فقد وسعت الأبحاث التى أجريت فى القرن العشرين مجال دراسة اللغات السامية أكثر بإضافة مجموعة أخرى من اللغات – وهى اللغات الحامية، اسم تلك المجموعة اللغوية مستمد من التصنيف التوراتى القديم الموجود فى سفر التكوين، والذى يقسم البشر جميعا بين أولاد نوح الثلاثة. استخدم الباحثون نفس التقسيم لتصنيف اللغات بين لغات يتكلمها أبناء سام ولغات يتكلمها أبناء حام ولغات يتكلمها أبناء يافث، فى الأصل ضم تصنيف اللغات الحامية كل اللغات الإفريقية، ولكن الأبحاث الحديثة حصرت تسمية اللغات الحامية على خمس مجموعات لغوية فى إفريقيا، هذه هى مجموعة اللغات البربرية فى شمال إفريقيا وأصولها كاللغة الليبية القديمة والمصرية القديمة كالقبطية، ولغة الهوسا، ومجموعة اللغات الكوشيتية، ومجموعة اللغات التشادية، وعندما تم اكتشاف السمات المشتركة بين هذه المجموعات اللغوية واللغات السامية أطلق على المجموعتين معًا تسمية اللغات الحامية السامية، ومنذ السبعينيات أصبح اسم هذه المجموعة الكبيرة من اللغات "اللغات الأفرو آسيوية" وطبق جربينى أيضا فى محاولته لإعادة بناء اللغات الأفرو آسيوية نظريته الخاصة بانطلاق التجديدات من المنطقة السورية، وفى رأيه أن كل محاولة لرد اللغات السامية والحامية (الليبية القديمة والمصرية القديمة والكوشيتية والبربرية والهوسا) لأصل واحد محكوم عليها بالفشل، صحيح أن المقارنة البسيطة ستبين وجود أشكال مشتركة بين لغات المجموعتين، ولكن حقيقة غياب أى تعادل صوتى بين لغات المجموعتين كذلك الموجود فى اللغات الهندوأوروبية تؤكد أننا فى حالة اللغات الأفرو آسيوية

لا نتعامل مع مجموعة لغوية عائلية تكون اللغات فيها أخوات منحدرات من أصل واحد، وفي رأى جريبنى فإن اللغات الحامية لغات إفريقية ليست لها صلة قرابة باللغات السامية، ولكن في مرحلة تاريخية معينة، ويتفاوت في الدرجة، اكتسبت تلك اللغات عنصرا ساميا بسبب الهجرات الوافدة من المنطقة السورية؛ فالمصرية القديمة على سبيل المثال كانت في طريقها لأن تكون لغة سامية لو أن الاتصال بالساميين استمر، الأصل إذن كان التعدد والتباين والتنوع، ولكن الوحدة اللاحقة بين اللغات السامية وتعدد درجات التشابه بين اللغات الحامية واللغات السامية هو نتيجة لاندماج لاحق.

ولكن البحث المقارن في مجال اللغات الأفرو آسيوية (وحتى في مجالات التصنيفات الأعلى) مايزال مصراً على تطبيق فكرة إعادة بناء اللغات، ولذلك أدى الاهتمام بالعلاقات بين اللغات إلى قيام مراتب أعلى من التحليل التاريخي كالتفكير في اللغة الأصل فوق اللغات الهندو أوروبية واللغات الأفرو آسيوية – وهي ما تسمى بال"نستراتية" الأم، وظهرت محاولات كثيرة لربط التراكيب الأصلية في المجموعتين وأصواتهما الأصلية . وقد سهَّل تطوران كبيران في مجال اللغات الهندو أوروبية مسار هذه المحاولات: التطور الأول هو نظرية الأصوات الحلقية، والتطور الثاني هو نظرية السواكن المهموزة في الهندو أوروبية الأم ؛ فقد قربت النظريتان أصوات اللغات الهندوأوروبية من أصوات المجموعة الأفرو أسيوية.

بل إن هناك محاولات طموحة لضم هاتين المجموعتين للعائلة البورية التي تحتوى على اللغات القوقازية والأورالية، من الصعب تحديد القيمة العلمية لمثل تلك المحاولات، لأن الفترة الزمنية المعنية تسمح بالكثير من التأمل والاحتمالات الممكنة لتغييرات تسمح بوجود تشابهات معجمية، ومن ناحية أخرى ليس من المتفق عليه أن نطبق نتائج دراسات المجموعة الهندو أوروبية على كل العلاقات اللغوية في العالم، فمن الجائز جدا أن يكون نمط العلاقات الذي يسمح للغة أم بأن تولد لغة تحتية في اللغات الهندوأوروبية أمر استثنائي لا يمكن تعميمه على باقي اللغات .

٢-٢ موقع اللغة العربية

كانت العربية والعبرية دونًا عن باقي اللغات السامية الأكثر دراسة وتحليلاً، بالرغم من أن اكتشاف الأكادية قد غيَّر الكثير من الآراء والنظريات التي كانت موجودة حول بنية اللغات السامية وتطورها وبالرغم من أن المادة الآشورية والبابلية الموجودة يرجع تاريخها لأكثر من ألفي عام قبل تاريخ أقدم المواد العربية المكتوبة، تبقى اللغة العربية نموذجًا لتحليل اللغات السامية وأنماطها، وليس السبب فقط معرفة الباحثين باللغة العربية ووفرة المادة المتاحة عن تاريخها، بل يكمن السبب أيضًا في كونها لغة محافظة نوعا ما، وخاصة في مسألة احتفاظها بالعلامة الإعرابية.

مازال مسألة موقع اللغة العربية في شجرة العائلة السامية مسألة محيرة لعلماء الساميات، فقد رأينا سلفا أنه كان من المعتاد أن توضع العربية في مجموعة واحدة مع العربية الجنوبية القديمة والحديثة واللغات الإثيوبية وهي مجموعة الساميات الجنوبية، المعيار الأساسي لهذا التصنيف كان صيغ جموع التكسير- أي تلك الجموع التي تتكون من إعادة بناء صيغة المفرد دون أي إضافة صرفية أو علاقة اشتقاقية بين المفرد والجمع - ، هذه السمة موجودة في الساميات الجنوبية فقط؛ في العبرية هناك مجموعة صغيرة من الأمثلة تشبه صيغ جموع التكسير بحيث لا توجد علاقة صرفية بين المفرد والجمع، انظر على سبيل المثال الكلمة الجمع pasiliim "تماثيل" التي توجد مع المفرد pesel "تمثال"، إن لم تكن أمثال تلك المجموعة مشتقة من أسماء مفردة أخرى قد اختفت من الاستخدام اللغوي مثل pasiil * فإنك يمكن لك أن تبرر وجودها بعملية تحول في النبر قد حدثت في اللغة في مرحلة سابقة، بعض أمثلة جمع التكسير المزعومة في العبرية ربما تكون أسماء جنس كما هي الحال في rekeb "راكب"، وكما يقول كورينتي (١٩٧١) فإن التقابل الصرفي بين المفرد والجمع تطور حديث في اللغات السامية ولكن تلك اللغات كانت في العادة قبل ذلك تميز بين نوعين من الصيغ : صيغة استغراقية تعبر عن جنس أو أشياء مهمة، وصيغة تعبر عن قلة أو أشياء تافهة غير مهمة، تتضمن الصيغة الثانية التصغير واسم الجنس والأسماء غير المادية، وكانت هذه الكلمات تحمل لاحقة تاء أو ألف مد أو ألف مقصورة، وهي لواحق أصبحت بعد ذلك العلامات النحوية للمؤنث.

عندما بدأت اللغات السامية تطور الفارق النحوى بين المفرد والجمع، اختارت اللغات السامية الشرقية والشمالية مورفيما واحداً للتعبير عن الجمع وهو مورفيم im في العبرية، أما اللغة العربية والساميات الجنوبية فقد فرقت بين أكثر من نوع من أنواع الجمع. واختارت تلك اللغات من بين علامات المؤنث سالفة الذكر علامة للجمع، ففي اللغة العربية كلمة "أصدقاء" وكلمة "فقراء" جمع تكسير لكلمتي "صديق" و"فقير". لجموع اسم العاقل اختارت اللغات الاسمية الجنوبية جمعًا سالمًا وهو في العربية \ون \أو\ين \المذكر و\ات \أو\ات \المؤنث. تزعم تلك النظرية إذن أن جموع التكسير في اللغات السامية الجنوبية كانت في البداية أشكالا خارجية مستخدمة مع الأسماء المؤنثة أو أسماء الجنس وأصبحت بعد ذلك جمعا ثابتا لا يتغير عندما تطورت صيغة الجمع، لا يمكن تبرير وجود كل جموع التكسير في اللغة العربية بهذا التفسير ولكننا نقول إن الأشكال التي كانت تحمل لواحق هي التي بدأت تلك الصيغ، ولذلك يمكن أن نبرر الكلمات القليلة في الساميات الشمالية التي تجمع بصيغ جموع التكسير على أنها كانت في البداية أسماء مؤنثة أو معنوية. وإذا كان أصل جمع التكسير يعود حقا لمرحلة لغة سامية مشتركة فإنها ليست تجديدات ظهرت في الساميات الجنوبية بل هي سمات مستقرة، بل إن التطورات الحديثة هي التي باعدت ما بين الساميات الجنوبية والشمالية الغربية.

جمعت بعض السمات الصرفية ، كجمع التكسير واسم المفعول ، بعض التطورات الصوتية بين العربية والعربية الجنوبية والإثيوبية في مقابل باقي اللغات السامية، في معظم اللغات السامية هناك تقابل بين الأصوات الشفوية b/p، أما في اللغات السامية الجنوبية فإن صوت الفاء الشفوي يحل محل صوت p الموجود في باقي الساميات: انظر مثلاً كلمة paqad في العبرية وهي تعني "يزور"، وكلمة paqaadu في الأكادية وهي تعني "يعتني"، أما في اللغة العربية فنفس الكلمة هي "فَقَدَ"، وفي الإثيوبية هي faqada وتعني "يطلب". بنفس الشكل يتطابق صوت الضاد في اللغات السامية الجنوبية مع الظاء في الأكادية في كلمة " erzistu في العبرية في كلمة " erez ، وهذه الكلمة في اللغة العربية والعربية الجنوبية هي "أرض"، وكذلك يتطابق صوت الشين في باقي الساميات مع السين في الساميات الجنوبية.

مع ذلك هناك حالات تشترك فيها العربية مع الساميات الشمالية الغربية في بعض التجديدات في مقابل العربية الجنوبية وباقي اللغات الإثيوبية، أحد هذه السمات هي تطور لواحق الفعل الماضي ؛ عممت العربية والعبرية لاحقة التاء على ضمير المتكلم والمخاطب المفرد، بينما اختارت العربية الجنوبية والإثيوبية صوت لاحقة الكاف، وثمة سمة أخرى تفصل بين العربية والإثيوبية والعربية الجنوبية لها علاقة بصياغة الفعل المضارع : كما تقول معظم محاولات إعادة بناء السامية الأم، فإن تلك اللغة تمتلك ثلاثة أشكال للفعل: شكل مضارع yiqattVl * وماض yiqtVl * وافتراضيyiqtVl* بالإضافة إلى لاحقة حالية، وفي معظم اللغات السامية تطورت اللاحقة إلى زمن ماض ليحل محل الماضي القديم الذي أصبح مطابقًا للصيغة الافتراضية بسبب تحول في النبر، وأسقطت العربية والكنعانية والآرامية المضارع الموجود في السامية الأم وتبنت شكل الماضي والافتراضي كشكل جديد لجهة الاستمرار مع مورفيم - u/-na للمضارع الوصفي، ونسمي هذا الشكل بشكل المضارع في العربية، ويحمل إشارة زمنية لغير الماضي، أما الإشارة الزمنية الأصلية للماضي والتي كان يحملها شكل الماضي فيمكن أن تراها في العبرية في استخدام شكل المضارع مع ما يسمى بالـ"واو". وفي اللغة العربية أيضا عندما يستخدم الفعل المضارع مع "إن" الشرطية أو "لم" فإنه يشير الماضي، وكانت إذن خلاصة تلك التطورات أن ظهر نظام فعلي جديد جمع اللغة العربية في زمرة اللغات السامية الشمالية الغربية، وفصلها عن باقي لغات المجموعة الجنوبية.

لم تكن تلك هي كل السمات التي جمعت العربية بباقي اللغات الشمالية الغربية، فلغات تلك المجموعة هي الوحيدة التي طورت أداة للتعريف. أداة التعريف في العربية الجنوبية هي -hn وفي العربية هي "ال" وفي الفينيقية والعبرية هي -h. تطورت أداة التعريف في تلك اللغات من عنصر إشارة كان قد فقد صفته الإشارية. وفي نفس الوقت ظهرت عناصر إشارة أخرى من تجمع عناصر مختلفة كما حدث مع hnd الفينيقية و hazze/ hallaze في العبرية و"هذا \ذلك" في العربية. وفي تلك اللغات ظهر تجديد صرفي معجمي هام جدا وهو تطور ضمير للغائب، وهو يبدأ بعنصر h في "هو \هي" في العربية و huu/hii في الساميات الشمالية الغربية، على عكس s في

العربية الجنوبية – وإن كانت الضمائر في السبئية تبدأ بالعنصر h من الممكن أن يكون هذا التجديد قد انطلق من الشمال باتجاه الجنوب كما يزعم جريبيني، والحجة في ذلك أن التجديد وصل إلى السبئية ولكنه لم يبلغ باقي اللغات الجنوبية . ختاما يمكن أن نذكر أن اللغة العربية واللغات السامية الشمالية الغربية طورت شكلا للاحقة المؤنث "ـات" دون التاء الختامية، في العربية علامة المؤنث في الوقف هي صوت اللين القصير دون التاء، أما في العبرية فلاحقة المثنى دائماً هي الألف الممدودة.

جعلت السمات المشتركة بين اللغة العربية واللغات السامية الشمالية الغربية هتزرون (١٩٧٤و ١٩٧٦) يقترح تصنيفه الجديد، وهو تصنيف الساميات المركزية، بمقتضى هذا التقسيم الجديد تشترك العربية مع الكنعانية والآرامية في مجموعة واحدة وليس مع العربية الجنوبية واللغات الإثيوبية. ولما كان التصنيف الجديد يبرر السمات المشتركة بين العربية والساميات الشمالية الغربية تبريراً حسنًا، فإن السؤال هو كيف نستطيع أن نفسر التشابهات بين العربية واللغات السامية الجنوبية؟ أحد الافتراضات أن ننظر إلى تطور جموع التكسير على أنها ظاهرة أصابت بعض اللغات السامية الغربية، وهي المجموعة التي أصبحت بعد ذلك اللغات السامية الجنوبية، لم ينتشر هذا التجديد في كل لغات المجموعة الغربية، ولذلك عندما انقسمت تلك المجموعة انحدرت بعض اللغات ناحية الجنوب وأصبحت اللغات الجنوبية الغربية، بينما ظلت العربية مكانها وارتبطت بشكل أكبر بباقي لغات المجموعة الغربية وهي الكنعانية والآرامية، وطورت معها نظاماً فعلياً جديداً وأداة تعريف وأداة للتأنيث وسمات أخرى.

قدم هتزرون تصنيفًا تحتيًا من تصنيف الساميات المركزية، وأقام هذا التصنيف على أساس سمة أخرى وهي سمة لاحقة جمع المؤنث في الفعل ؛ في اللغة العربية عندنا "كتبوا \كتبنَ" للغائب الجمع في الماضي، وعندنا كذلك "يكتبون \يكتبنَ" للغائب الجمع في المضارع. تشبه تلك السمة لاحقة الفعل المضارع في العبرية شبهًا جزئيًا، بيد أن المذكر والمؤنث في الماضي في العبرية قد اندمجا. ولكن تلك السمة تختلف عن الآرامية التي تعلم جمع المؤنث باللاحقة aan ، بناء على ذلك قسم هتزرون الساميات المركزية للعربية والعبرية من جهة ، والآرامية من جهة أخرى، وقدم "فوييجت" (١٩٨٧)

تعديلاً على هذا التصنيف حيث اقترح فصلاً بين العربية الجنوبية القديمة والعربية الجنوبية الحديثة. بناء على نظريته، يجب تصنيف العربية الجنوبية القديمة كلغة سامية مركزية، بينما يتعين وضع اللغات العربية الجنوبية الحديثة في مجموعة اللغات السامية الجنوبية مع اللغات الإثيوبية.

هناك نظرة بديلة لتوزيع السمات المشتركة بين العربية وباقي اللغات السامية، وهي مرتبطة بنظرية جربيني " رأينا سلفا فكرة جربيني التي مؤداها أن اللغة العربية السامية ظهرت حيث خرجت جماعات من المتكلمين من المنطقة السورية المتاخمة للصحراء وانعزلت عن منطقة التجديدات اللغوية. تمت عملية الانتقال من حياة الحضر لحياة البدو تلك في النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد على أقل تقدير. ولذلك يجب أن تكون السمات المشتركة بين اللغة العربية واللغات الشمالية الغربية قد نتجت عن تجديدات حدثت في المنطقة السورية قبل عملية البدونة، ولذلك نجد أن اللغة العربية لا تمتلك أي عنصر قديم ليس موجودا في باقي الساميات الشمالية الغربية التي نشأت في الألفية الثانية قبل الميلاد.

وعندما انتشرت العربية جنوبا، وصلت إلى منطقة نفوذ العربية الجنوبية التي استوطنت المنطقة قبل العربية بفترة طويلة، واستقر بعض العرب في منطقة العربية الجنوبية ووضعوا صلات بمتكلميها، وفي الألفية الأولى قبل الميلاد بدأت حركة تحضير لبعض العرب في المنطقة السورية، حيث هاجر بعض العرب من الصحراء لمناطق خصبة في الشام واستعمروها، وقد أدت تلك العملية إلى تعريب المملكة النبطية. وعندما صعد نجم الممالك العربية الجنوبية في الألفية الأولى قبل الميلاد، ازداد تأثير لغات تلك الممالك على لغة العرب البدو. يعتقد جربيني أن هذه العملية التاريخية تبرر وجود السمات المشتركة بين اللغة العربية والساميات الجنوبية، ولكن لا يمكن أن نجزم بتصنيف العربية من اللغات الجنوبية أو من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية بسبب اتصال العرب المبكر بالعربية الجنوبية وبالمنطقة السورية معًا. ولذلك فقد تأثرت العربية عبر تاريخها الطويل بالتجديدات التي حدثت في المجموعتين.

أدت نزعة محاولة إعادة تركيب اللغة السامية الأم انطلاقاً من العربية في الماضي إلى تركيب لغة سامية أم مشابهة للغة العربية شبها كبيرا، ولذلك اعتبر الباحثون العربية لغة قديمة بالمقارنة بباقي اللغات السامية، في الحقيقة كانت بعض السمات العربية موجودة في المراحل المبكرة للغات أخرى، ولكنها أهملتها في مراحل تطورها الأحدث. احتفظت اللغة العربية مثلاً بالأصوات التي تخرج من بين الأسنان مثل صوت الثاء والذال، وهي أصوات استبدلت في السريانية بالأصوات الأسنانية وبأصوات احتكاكية تصدر من مقدمة أعلى الحنك في الأكادية والعبرية والإثيوبية، انظر مثلا الرقم "ثلاثة" في اللغة العربية، وتجد معادله في الأكادية shalaashum وفي العبرية shaalosh وفي السريانية talaat وفي الإثيوبية shalaas احتفظت العربية الجنوبية في مراحلها المبكرة بالأصوات التي تصدر من بين الأسنان، وكانت هناك أيضا بقايا من هذه الأصوات في الأكادية القديمة والأوجريتية.

من بين كل اللغات السامية احتفظت العربية والعربية الجنوبية القديمة بالمجموعة الكاملة من الأصوات التي تصدر من آخر أعلى الحنك كصوت الخاء والغين ومجموعة الأصوات الحلقية كالعين والهمزة، وفي معظم الساميات الأخرى اندمجت الأصوات المهموسة في الخاء واندمجت الأصوات المجهورة في العين، على ذلك أصبحت كلمة "غرب" و"عين" في العربية Gereb "المساء" و Gaen "عين" في العبرية، ومع ذلك يبدو أن الأوجريتية احتفظت بصوت الغين، وفي الأكادية لا يوجد من تلك الأصوات إلا صوت الخاء، بينما اندمجت باقي تلك الأصوات في الهمزة، ولكن هناك دلالات على أن الأكادية كانت تمتلك كل تلك الأصوات في مرحلة مبكرة من تاريخها.

في مجال الصرف، يتجلى قدم اللغة العربية في امتلاكها لنظام تصرف إعرابي كامل في الاسم، بثلاثة علامات هي الضمة والكسرة والفتحة، كانت الأكادية القديمة تمتلك نفس العلامات الإعرابية، ولكن في مراحل تطورها الأحدث، أي في البابلية الحديثة والآشورية الحديثة، بدأت تلك العلامات تضطرب ثم اختفت كلية، أما في لغات المجموعة الشمالية الغربية الأقدم كالأوجريتية، فقد كانت هناك علامات إعرابية اختفت بعد ذلك في اللغات الأحدث كالعبرية، في العربية الجنوبية القديمة لم تكن هناك علامات إعرابية، ولكن هناك مجموعة من السمات الكتابية الخاصة التي تشير لوجود تلك

العلامات في مرحلة أقدم من مرحلة تدوين النقوش، في الإثيوبية هناك علامة إعرابية واحدة وهي a ربما تكون راجعة إلى علامة مفعول به قديمة.

في اللغة العربية هناك بعض السمات التي – لا نعرف أنها وجدت سلفا في أي من اللغات السامية الأخرى، ولذلك يجب أن تكون تجديدات حدثت في اللغة العربية بشكل مستقل عن باقي الساميات، في المجال الصرفي، هناك لاحقة n أو التنوين الموجودة في اللغة العربية للتعبير عن التنكير، ولا توجد تلك اللاحقة في أي لغة سامية أخرى، رأينا سلفا أن العربية تشترك مع الكنعانية والآرامية في استخدام أداة التعريف، ولكن العربية تتفرد باستخدام صوت اللام لتلك الأداة بدلا من الهاء في اللغتين الأخريين.

تبين قائمة فونيمات اللغة العربية وجود عناصر قديمة مع عناصر تجديدية في آن، رأينا سلفا أن العربية احتفظت بالأصوات التي تصدر من بين الأسنان والأصوات الحلقية والتي تصدر من آخر أعلى الحنك، وهي أصوات ربما كانت من بين مجموعة فونيمات مشتركة في السامية الأم. سنشير في الفقرات التالية لستة تجديدات في اللغة العربية جديرة بالذكر.

أولا: واحدة من سمات اللغات السامية الخاصة جدا هي الأصوات المفخمة، وتنطق تلك الأصوات في العربية بعملية تفخيم، فيرفع في تلك العملية المتكلم آخر اللسان تجاه الحنك اللين ويخفض طرف اللسان للأسفل في مقدمة الفم، تتطابق الأصوات المفخمة في اللغة العربية مع الأصوات المهموزة في اللغات الإثيوبية، وقد أدى هذا التطابق لظهور بعض الأفكار بشأن نشأة الأصوات المفخمة في اللغة السامية الأم، فيزعم بعض الباحثين أنه من الأسهل أن يتم الانتقال من الأصوات المهموزة للأصوات المفخمة وليس العكس، ولذلك يعتبرون أن الأصوات المفخمة في العربية تجديدا لاحقا، من المفترض أن اللغات السامية كانت تمتلك خمسة أصوات مفخمة، تمتلك العربية منها أربعة، هي الصاد والضاد والطاء والقاف.

ثانيًا: الصوت العربي المطابق للصوت السامي ṭ هو صوت الظاء، ولكن هذا الفونيم قد فقد سمة النطق من بين الأسنان في كل اللغات السامية الأخرى إلا الأوجريتية والعربية الجنوبية القديمة.

ثالثًا: الصوت العربي المطابق للصوت السامي D هو صوت الضاد. هناك بعض الشواهد في اللغة العربية قدمها لنا النحويون تدل على أن الضاد كانت تنطق من آخر الحنك الأعلى بشكل جانبي. وبما أن الضاد كانت فونيما مستقلا في الساميات [illegible] والعبرية اندمجت الضاد مع الصاد انظر Sahaq "ضحك" في العبرية ، أصبح صوت الضاد في الفصحى المعاصرة الصوت المجهور المقابل للطاء.

رابعًا: ربما يكون الصوت العربي الفصيح المقابل لصوت k في السامية الأم صوتا غير مفخم ومجهور يقابل الصوت المهموس k هذا هو الفونيم الذي ننطقه الآن في الفصحى المعاصرة على أنه صوت القاف. ولكنه ربما كان صوتا يشبه الجيم المجهورة في مراحل تطور العربية القديمة – كما هي الحال في اللهجات البدوية الحديثة – ولكن على أية حال لم يكن صوت القاف مفخما في الفصحى القديمة.

خامسًا : هناك عادة اعتقاد بأن السامية الأم كانت تمتلك ثلاثة أصوات احتكاكية هي s و sh وصوت يشبه السين الجانبية، ومازال اللهجات العربية الجنوبية تحتفظ بتلك الأصوات كلها، أما في العربية فالصوت الجانبي قد اندمج في الشين.

سادسًا: الفونيم العربي المقابل لصوت g في السامية الأم هو الجيم المعطشة، وشكل هذا الفونيم سلسلة صوتية مع صوت الشين الجديد.

ومايزال هناك نقاش وجدل حول موقع العربية بين اللغات السامية. والخلاصة الوحيدة التي يمكن أن نستنتجها من المادة التي قدمناها هنا هي أن العربية تشبه اللغات السامية الجنوبية كالعربية الجنوبية والإثيوبية، وتشبه اللغات الشمالية الغربية كالكنعانية والآرامية. وهي تحتوي أيضًا على تجديدات ليست موجودة في أي لغة من لغات العائلة السامية، وبسبب الاضطراب في مسألة تاريخ العناصر والسمات المشتركة فإنه من الصعب أن نصنف اللغة العربية بين الساميات تصنيفًا جينيًا كذلك التصنيف الموجود في لغات المجموعة الهندو أوروبية. ولذلك يصبح من الأفضل أن نحصر أنفسنا في التحليل الوصفي لعلاقة اللغة العربية بجيرانها من اللغات السامية.

الفصل الثالث

مراحل اللغة العربية المبكرة

٣ -١ العرب

لا نعرف تاريخ وصول البدو الأوائل إلى شبه الجزيرة العربية، ولا نعرف أيضا أى لغة كان هؤلاء البدو يتكلمون، ومن المفترض أن يكون استعمار شبه الجزيرة العربية قد بدأ فى الألفية الثانية قبل الميلاد وقامت حضارات عريقة ومتقدمة فى جنوب الجزيرة فى الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد، واللغات المستخدمة في النقوش التى عثرنا عليها ويرجع تاريخها لتلك الحضارات تدل على لغة تقارب العربية، بالرغم من أنها لم تحتو على بعض التجديدات التى دخلت على العربية. والخط الذى كتبت به النقوش العربية الجنوبية خط يشبه الخطوط المستعملة فى لغات سامية شمالية أخرى كالفينيقية، بل ربما تم نقلها من المنطقة السورية الفلسطينية إلى الجنوب. وتم استنباط الخطوط العربية الشمالية من هذا الخط العربي الجنوبي القديم (عادة ما تسمى لغة النقوش العربية الجنوبية باللغة العربية الجنوبية القديمة) وتنقسم تلك اللغة لعدة لهجات أو لغات، ومن أشهر تلك اللهجات السبئية القطبانية والمينية. ومن المفترض أن تكون تلك اللغات أو اللهجات قد ماتت بعد الفتح الإسلامي بفترة وجيزة. أما اللغات العربية الجنوبية الحديثة الحية كالسوقطرية والمهرية فهى لغات مرتبطة بالعربية الجنوبية القديمة، وإن لم ترد منها بشكل مباشر. وتلك اللغات حية لم تزل ومتكلمة فى جيوب لغوية محدودة فى جنوب الجزيرة العربية.

لم يكن سكان الإمبراطوريات العربية الجنوبية يسمون أنفسهم عربا، وفى حوالى القرن الثانى قبل الميلاد ذكرت بعض النقوش العربية الجنوبية شعوبا بدوية سمتها

"عرب وقابلت بينهم وبين شعوب الجنوب الحضرية" ولكن أقدم استخدام لتسمية العرب جاءنا من منطقة أخرى، في نقش يعود تاريخه إلى ٨٥٣ قبل الميلاد ذكر الملك الآشوري سالْمَنَسَّر الثالث أن أحد أعدائه رجل يسمى "جنديبو" من أرض "العربى" أو "العربايا". ولكن تسمية العرب كشعب ظهرت بشكل أكثر في نصوص منقوشة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، بالنسبة للبابليين والآشوريين كانت تلك التسمية تضم كل القبائل البدوية، والتي كان بعضها يتكلم الآرامية دون شك، ربما كانت تسمية استغراقية لكل البدو الذين يفدون من الصحراء لغزو الحضارات الحضرية، وهي قبائل حاربها الآشوريون بشدة أو حالفوها على أعداء آخرين، وفي عام ٧١٥ قبل الميلاد حاول سارجون الثاني أن ينهي معارضة البدو بتوطين بعض قبائل البدو في منطقة قريبة من سامريا، تذكر النصوص العرب أنهم "تموديين" أو "إبديدي" أو "مرسماني"، وتبين بعض الجداريات الموجودة في قصر الملك أشوربانيبال العرب كركاب جمال يحاربون الآشوريين ويخضعون بعد هزيمة مرة، اسم العرب موجود أيضا في التوراة العبرية، الذي تكلم في نص من القرن السابع قبل الميلاد عن ملوك العرب "عِرِب" الذين يعيشون في الصحراء.

لا نعرف أصل كلمة "عرب"، هناك في نقوش ماري ذكر لاسم hapiru وهي تسمية يظن بعض الباحثين أنها مطابقة مع تسمية "عربي"، ولكن يظن بعض العلماء أيضا أن تسمية العرب ترجع إلى كلمة gab-bbir الآشورية التي تعني "الصحراء"، حسب نظرية أخرى ترجع تسمية العرب إلى الجذر السامي "ع-ب-ر" بمعنى عبور الصحراء، وهو نفس مصدر تسمية العبرانيين أيضًا. وبما أننا لا نعرف اللغة التي تتكلمها القبائل المختلفة التي سميت "عربي"، فإن ذكر العرب المبكر لا يعلمنا شيئا يذكر عن مرحلة ما قبل التاريخ في اللغة العربية.

يعتبر ظهور العرب في التاريخ متصلاً بشكل مباشر باستخدام الجمل، كان "جنديبو" الذي تكلمنا عنه سلفاً يمتلك ألفًا من الجمال، وفي جداريات القصور التي تكلمنا عنها سلفا أيضا كان العرب يهاجمون الآشوريين على ظهر الجمال، وأثبتت دراسة حديثة عن تربية الجمال أن استئناس حيوان الجمل ظهر في جنوب شبه

الجزيرة العربية، ومن خلال تلك المنطقة عرف الناس في الشمال هذا الحيوان حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد بفضل تجارة البخور، و يجب أن نذكر أن هذا حدث في نفس الفترة التاريخية التي يدعي بعض العلماء أن جماعات من الساميين من تخوم المنطقة السورية قد عزلت نفسها خلالها عن المنطقة وعاشت في الصحراء، ويدعي جريبيني (١٩٨٤) أن ظهور اللغة التي نعرفها بالعربية قد بدأ من خلال عملية البدونة تلك.

وعندما اخترع بدو الصحراء السورية نوعًا من السروج يمكنهم من امتطاء ظهور الجمال، اتسع نطاق حركتهم بشكل كبير. استطاع هؤلاء البدو أن يمتلكوا قطعانا كبيرًا، والأهم من ذلك أنهم استطاعوا أن يسيطروا على قوافل الجنوب، ومن المفترض أن يكون هذا التطور قد حدث في القرون الأخيرة قبل الميلاد، وهذه هي بداية مرحلة البدونة الحقيقية، وقد ساعد ركوب الجمل البدو على المحافظة على صلات قوية بالحضارات المدنية في سوريا والعراق، وحدث تحسين آخر على أسلوب انتقال البدو باختراع حلقة السرج الأمامية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وقد أدى هذا التطور إلى توليد مجتمع من المحاربين الراكبين كتلك القبائل التي خبرناها في الفترة التي تسبق ظهور الإسلام مباشرة.

عندما أصبح طريق التجارة البرى بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب أكثر أهمية من الطريق البحرى، تعاظم دور البدو في هذه التجارة، وأسس العرب الجنوبيون مستعمرات على طول طريق التجارة، ولكن عندما ضعفت الممالك اليمنية تدخل البدو وبدءوا يسيطرون على تدفق التجارة بأنفسهم، أول مرحلة من مراحل هذا التطور كانت قيام مدن القوافل في تدمر والبطراء، ولكن الإمبراطور الروماني "تراجان" احتل المملكة النبطية عام ١٠٦ ميلاديا، وبعد سقوط تلك المملكة حل محلها ملوك تدمر، وهي واحة تقع على بعد ٢٠٠ كيلومترًا إلى الشمال الشرقي من دمشق.

وكان غزو الرومان لتدمر عام ٢٧٢ ميلاديًا هو نهاية تلك الواحة الثرية، وبعد القرن الثالث الميلادى سيطر التنافس بين القوى الثلاثة: بيزنطة وفارس ومملكة حمير(آخر الممالك العربية الجنوبية) على مسرح الأحداث. فقد كان لكل قوة من القوى حليفها من

بين البدو العرب، فقد كان اللخميون حليفي الفرس، وكان الغساسنة حلفاء الرومان، وكانت مملكة كندة حليفة الحميريين. وفي القرنين الخامس والسادس تغير الوضع السياسي كلية بعد سقوط مملكة حمير عام ٥٢٥ إثر الغزو الحبشي وبعد الحرب الضروس بين الفرس والروم التي أضعفت الطرفين. ولما ضعفت قوى الممالك الثلاثة الكبيرة ضعفت قوى الحلفاء العرب أيضا، وقد أدى ذلك لدعم قيام مراكز تجارية داخل شبه الجزيرة العربية، مثل مكة التي كانت قد أصبحت بالفعل مركزا ثقافيا ودينيا يؤمه العرب البدو، والتي انتهزت فرصتها السانحة للسيطرة على تجارة القوافل، ولذلك أصبحت قريش، أقوى تجمع قبلي في مكة، واحدة من أعظم قبائل العرب، بل ويمكننا أن نقول إنها لم تفقد هذه المكانة على مر تاريخ الإسلام اللاحق بفضل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ - ٢ العربية الشمالية المبكرة

لكي نتعرف على العناصر المبكرة للغة العربية يجب أن نرجع إلى النقوش المكتوبة بلغات أخرى. في بعض النقوش العربية الجنوبية نجد أسماء ليست من النمط العربي الجنوبي كاسم "زيد" و"أسلم"، وأحيانا نجد الأسماء الغريبة عن العربية الجنوبية مشفوعة بلاحقة الميم في العربية الجنوبية، من بين تلك الأسماء "عبيدم"، بل وأحيانا نجد الأسماء مسبوقة بأداة التعريف العربية مثل "الحارث"، ربما تشير تلك الأسماء لأشخاص من أصول عربية شمالية استخدمتهم الممالك الجنوبية لحماية قوافلها على طريق البخور الذي يعبر الصحراء العربية. وهناك أربع مجموعات من النقوش تهمنا من الناحية اللغوية بشكل أكبر، اكتشفت هذه النقوش أول ما اكتشفت في أواخر القرن التاسع عشر، وهي نقوش مكتوبة بلغة يبدو لنا أنها المراحل المبكرة من اللغة العربية، تستخدم تلك النقوش خطًا مشتقًا من الخطوط العربية الجنوبية. وقد سميت لغة تلك النقوش بالعربية الأم أو العربية المبكرة، ولكننا سوف نسميها هنا بالعربية الشمالية المبكرة لتميزها عن لغة النقوش العربية ولغة الكتابات الإسلامية المبكرة، وبما أن تلك النقوش مشرذمة في غالبيتها، وبما أنها لا تحتوي على أي مادة غير أسماء الأعلام، فإن تحديد هوية اللغة المستخدمة في تلك النقوش أمر صعب جداً، ولكن لغة تلك

النقوش على أية حال مرتبطة بالعربية الكلاسيكية ارتباطاً وثيقاً. مجموعات النقوش الأربعة هي كما يلي:

النقوش الثمودية

ذكر القرآن في سورة الأعراف ثمود كمثل على شعب مات لأنه لم يتقبل رسالة نبيه صالح عليه السلام ، يظهر اسم الثمودية في شكل النسبة في أكثر من سياق تاريخي في العصر الحديث. ذكرنا سالفاً أنه في نقوش الملك الآشوري كان هناك ذكر لقوم اسمهم "تمودي" وظنوا بالقرب من سوماريا. وكذلك أعطينا تسمية الثمودي على عشرات الآلاف من النصوص القصيرة المكتوبة بخط مشتق من الخط العربي الجنوبي، وهي نصوص اكتشفناها في غرب ووسط شمال الجزيرة العربية، وامتداداً في واحات الصحراء وصولا إلى شمال اليمن- وهو نفس خط طريق التجارة القديم، ويرجع تاريخ تلك النقوش من القرن السادس قبل الميلاد إلى الرابع الميلادي، واكتشف معظمها في دومة الجندل والحجر. ولكن هناك مجموعة متعزلة من النقوش اكتشفت في واحة تيماء، معظم تلك النقوش صغيرة جدا وتحتوى على مجرد أسماء أعـــلام كفلان بن فـــلان، ولا تخبرنا تلك النقوش الشيء الكثير عن تركيب تلك اللغة، بل إنه ليس من الواضح إن كانت كلها مكتوبة بنفس اللغة، ولكنها جميعا على أية حال تنتمي للمجموعة العربية الشمالية التى يميزها وجود أداة التعريف \هـ \في g-gml"الجمل" مثلا.

النقوش اللحيانية

ربما ترجع أقدم تلك النقوش المكتوبة بدورها بخط عربي جنوبي إلى النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، ومكانها هو واحة ديدان، وهي ما نعرفه الآن بالعُلى التى تقع على بعد ٣٠٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة، وهي واحة كانت تقع على طريق تجارة البخور بين اليمن وسوريا، كانت تلك الواحة في الأصل مستعمرة مينية ولكنها تحولت إلى محمية بطلمية حتى القرن الأول قبل الميلاد. في بعض الأحيان نفصل بين النقوش اللحيانية والنقوش الديدانية على أساس أنماط الألقاب الملكية المستخدمة. النقوش الاقدم هي النقوش الديدانية التى تشير إلى ملوك

ديدان mlk ddn أما معظم النقوش التي يبلغ عددها أكثر من ٥٠٠ نقش فهي تشير إلى ملوك لحيان، وهي تنتمي للحقبة بين القرن الرابع قبل الميلاد والأول الميلادي، ومعظم تلك النقوش عبارة عن أسماء لأشخاص، وهي مسبوقة بصوت ١- والذي كان مستخدما للإشارة إلى كاتب النقوش أو إلى الشخص الذي توجه إليه الكتابة ربما. ولكن هناك نصوص كبيرة في تلك النقوش كنقوش البناء على سبيل المثال. ومنها يتضح أن لغة تلك النقوش تنتمي للمجموعة العربية الشمالية، إذ إنها تمتلك أداة تعريف h-'hn ، في مثلا hiyn 'l'h-gbl التي تعني "أعلى جبل" (روبن ١٩٩٢ : ١١٨).

النقوش الصفائية

ترجع تسمية النقوش الصفائية المكتوبة بخط عربي جنوبي إلى منطقة صفاء في جنوب شرق دمشق، وجد الباحثون من تلك النصوص حوالي ١٥ ألفا في تلك المنطقة ومنطقة شمال المملكة العربية السعودية، يرجع تاريخ تلك النقوش إلى الفترة ما بين القرنين الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي. وتحتوي غالبا على مجرد أسماء أعلام مسبوقة بحرف الجر ١- ولكن هناك بعض النقوش الأطول والتي تشير إلى مضارب خيام البدو أو تتكلم عن الحداد. وفي بعض النقوش هناك ذكر للأحداث السياسية الهامة التي جرت في المنطقة، وهي مسبوقة بكلمة snt "سنة"، نلاحظ في هذه الكلمة وجود علامة تاء التأنيث مكتوبة. ولا نجد الشكل الحديث من تاء التأنيث غير المنطوقة إلا في حالة أسماء الأعلام المؤنثة. خط تلك النقوش لا يضع رموزاً لأصوات المد الطويلة، على عكس الخط العربي الأحدث على ذلك يمكن أن نفسر كلمة dr على أنها "دار" وهي تعني "مضرب الخيام". بنفس الشكل غالبا ما لا تكتب الأصوات المركبة برموز مستقلة بها، فتجد كلمة mt تعني "موت"، وتعني كلمة bt "بيت" وهو "الخيمة". ربما يعني هذا الاضطراب وجود تطور في نطق أصوات اللين المركبة، لتتحول ay إلى ee و aw إلى oo ، وكانت أداة التعريف هي h أو ربما hn والتي كانت تضعف في بعض السياقات الصوتية فيختفي الصوت الأنفي في عملية الإضغام والتضعيف.

الجمع السالم في النقوش الصفائية ينتهي بـ– n أو ربما – iin إذ أن خط تلك النقوش لا يعبر عن أصوات المد الطويلة. ولذلك تجد كلمة h-Dalln تعني /had-Daaliluun iin "الضالون". ويبدو أيضًا أن هناك تشابهًا معجميًا بين لغة تلك النقوش ولغات السامية الشمالية الغربية، كما هي الحال مثلاً في كلمة mdbr التي تعني بالعبرية midhbaar "صحراء".

النقوش الإحسائية

تحتوي تلك المجموعة من النقوش على أربعين نقشًا وجدت كلها في الإحساء بالمملكة العربية السعودية، ويرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل الميلاد، وهي مكتوبة بخط مطابق لخط العربية الجنوبية تقريبًا، تلك النقوش قصيرة جدا ولا تعرفنا شيئا عن بنية اللغة التي كتبت بها، ولكنه من الواضح تماما أن أداة التعريف في تلك النقوش هي hn في أسماء من أمثال hn-'lt وهو اسم الوثن العربي القديم "اللات".

وإذا كان لنا أن نعتبر أداة التعريف العنصر المميز الوحيد فكل تلك النقوش تنتمي إلى مجموعة h اللغوية، وهي جميعا تختلف في ذلك عن أداة اللام في اللغة العربية التي نعرفها. وعلى عكس اللغات العربية الجنوبية التي تضع أداة التعريف – hn بعد الاسم المعرف، فإن لغة تلك النقوش تضع الأداة قبل الاسم – كما هي الحال في اللغة العربية، وتشترك النقوش أيضا مع اللغة العربية في تقليص عدد الأصوات الاحتكاكية إلى اثنين هما السين والشين، ذلك بينما تمتلك اللغات العربية الجنوبية ثلاثة فونيمات احتكاكية. على الناحية الأخرى تمتلك لغة النقوش سابقة تعني إسناد قوة الفعل لفاعل معنوي غير فاعل الجملة، وتلك السابقة موجودة في العربية والعربية/الجنوبية، ولكنها في الثلاثة مختلفة وليست متشابهة. أما لاحقة ضمير الغائب في الأفعال فهي في لغة النقوش –h بينما هي في العربية الجنوبية – s أما في اللغة السبئية فهي مثل لغة النقوش. وفي العربية الحديثة هي نفس لاحقة لغة النقوش. وفي تلك المرحلة من البحث لا يمكن أن نصل لنتيجة حاسمة بشأن تصنيف تلك النقوش، ولكن هناك بعض السمات التي سقناها تفصلها عن العربية التي نعرفها وكذلك عن اللغات العربية الجنوبية.

٣-٣ النبطية والتدمرية

تميزت النقوش التي تكلمنا عنها سابقاً باستخدام أداة التعريف -hn ، ولكن لكي نحصل على نص قديم يحتوي على الألف واللام العربية يجب أن نتجه لنوعين آخرين من النقوش- النقوش النبطية والتدمرية. تلك النصوص مكتوبة باللغة الآرامية ولكنها ظهرت في بيئة كانت اللغة العربية هي لغة الكلام فيها، ونجد كثيرا من الآثار العربية في تلك النقوش، وهي آثار لها علاقة وثيقة بالعربية الفصحى الكلاسيكية التي نعرفها.

النقوش النبطية

جاءت النقوش النبطية من المملكة النبطية التي كانت عاصمتها البطراء، وهي مدينة ازدهرت حتى عام ١٠٦ ميلادياً. يرجع تاريخ تلك النقوش من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، ويعود تاريخ أحدث تلك النقوش إلى عام ٣٥٥ ميلاديا، وبالرغم من أن نصوص تلك النقوش مكتوبة باللغة الآرامية وبخط آرامي، فإن سكان المملكة النبطية كانوا يتكلمون لغة عامية تشبه العربية الفصحى الكلاسيكية التي نعرفها كما هو واضح من أنواع أسماء الأعلام المختلفة ومن الكلمات المقترضة الكثيرة. أداة التعريف في تلك الأسماء والكلمات هي /ال/ بالرغم من أن الأداة الآرامية تحل محل العربية أحيانا، انظر الاسم التالي ' l-9bd "العبد" على سبيل المثال، في الأسماء التي يكون جزء منها اسم إله، تجد لاحقة y في آخرها، كما هو الحال في 9 bd'lhy "عبد الله". وكثيرا ما يعتقد الباحثون أن لواحق الـ w والـ y ما هي إلا علامات الإعراب العربية، تظهر تلك اللواحق في أسماء الأعلام فقط، بل وأحياناً يتم حذفها. ولكن كثيراً ما تستخدم تلك اللواحق استخداما غير متسق بل ومضطرب، وقد أدى ذلك ببعض العلماء إلى استخلاص النتيجة التي تقول إن تلك اللواحق مجرد لواحق كتابية ليس غير، فهناك مثل على تلك النظرية في أحد الأسماء العربية الموجودة حتى الآن، فلاحقة الواو في اسم "عمرو" ما هي إلا عنصر كتابي ليميز الاسم عن اسم "عمر"، لذلك أصبحت مسألة النقوش النبطية عنصرا حاسما في مناقشة ادعاء غياب علامة الإعراب من اللهجات العربية قبل الإسلام، ويرى بعض الباحثين أن اللهجة العربية المتسللة للغة تلك النقوش النبطية إنما هي لغة تنتمي لتخوم العالم المتكلم بالعربية قبل الإسلام، وأنها كانت تمر بتغييرات كثيرة نتيجة لاتصالها بلغات أخرى.

النقوش التدمرية

تأتي كل النقوش التدمرية من واحة تحمل هذا الاسم، دمرها الرومان عام ٢٧٣ ميلادياً . من المفروض أن تلك الواحة كانت مستعمرة عربية، وكانت الأسرة الحاكمة في تلك الفترة عربية أيضاً، ويرجع تاريخ معظم النقوش للقرنين الثاني والثالث الميلاديين، ولا يمنع ذلك أننا وجدنا نقوشاً أقدم من ذلك بكثير في تلك المنطقة. وكما كانت الحال بالنسبة للنقوش النبطية، فقد كانت النقوش التدمرية مكتوبة باللغة المشتركة التي كانت سائدة في هذا الإقليم أيامها، وهي اللغة الآرامية، وبخط آرامي أيضا، وليست تلك النقوش ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ اللغة العربية، لأن النقوش لا تحتوي على كلمات عربية كثيرة، ومعظم الكلمات العربية أسماء أعلام، وفي بعض الأحيان كانت تلك الأسماء تكتب بنفس طريقة كتابة الأسماء العربية في النقوش النبطية.

الشواهد التي يمكن أن تفيدنا في النقوش النبطية والتدمرية على تاريخ اللغة العربية شواهد غير مباشرة، ذلك لأن العربية في هاتين المنطقتين كانت لغة دارجة، بينما كانت اللغة الرسمية ولغة الكتابة هي الآرامية، على ذلك فالسمات العربية الموجودة في تلك النقوش تظل محدودة بأسماء الأعلام والكلمات المقترضة المقحمة من الدارجة على لغة الكتابة، بالرغم من أن المعلومات التي يمكن أن نستقيها من تلك النقوش قليلة إلا أننا نستطيع أن نستخلص بعض المبادئ الكتابية التي حددت هجاء الأسماء العربية في تلك الفترة. كما يقول ديم (١٩٧٣) في تحليله لتلك المادة فإن تلك المبادئ كونت معايير الخط العربي المبكر.

يتضح التأثير الآرامي على العربية الفصحى أبرز ما يتضح في ترتيب حروف الهجاء العربي، حيث يتم التفريق بين أزواج الحروف بعلامات فوقية كنقطة أو نقط متعددة، يرجع هذا التزويج في الحروف لمرحلة النقوش النبطية والتدمرية حيث إن الحروف الآرامية لم تغط الأصوات العربية كلية، فاضطرت بعض الرموز لأن تقوم بأكثر من وظيفة واحدة. لذلك غطت العين النبطية على سبيل المثال وظيفتي الغين العربية والغين العبرية، وكذلك قامت التيت الآرامية بوظيفة الثاء والظاء العربيتين، لا تعني تلك

المبادئ الهجائية أن الفونيمات التي تعبر عنها قد اندمجت في الدارجة العربية في تلك الفترة النبطية المبكرة. ولكن المسألة ببساطة هي أن تلك الفونيمات لم تكن مستقلة برموزها في الخط النبطي. في حالة الفونيمين الضاد والظاء، اللذين اندمجا في العربية الدارجة بعد الفتح الإسلامي بفترة وجيزة، فقد عبرت عنهما النقوش النبطية والتدمرية بشكل مضطرب: فقد عبرت التيت الآرامية عن الظاء العربية، وعبرت الصاد عن الضاد، ويمكنك حتى الآن أن ترى أثر هذا التوزيع الرمزي على حروف هجاء العربية الفصحى، ذلك أن حرفي الطاء والظاء وحرفي الصاد والضاد يشكلان زوجين من الحروف، والفارق الوحيد بين أفراد الأزواج هي نقطة أعلى الحرف، من الواضح أن صوت الظاء في العربية قد استمر كأخ مجهور لصوت الثاء الذي يخرج من بين الأسنان بينما تمثل الضاد تصنيفًا صوتيًا آخر.

أهم التقاليد الكتابية التي استعارها نقش الأسماء العربية من الخط الآرامي هو كتابة أصوات المد الطويلة، حيث يكتب صوت مد الألف الطويل بشكل محرف داخل الكلمة، أما في آخرها يكتب أحيانًا باستخدام الياء وأحيانًا أخرى باستخدام الهمزة، وربما يكون المقصود من هذا الاختلاف في كتابة نفس الصوت هو تحديد البناء الصرفي للكلمة، فكلمة "على" على سبيل المثال تكتب بالياء في آخرها، لأنها تصبح "عليك" في وجود اللواحق، وأخذ الخط العربي من الآرامي هذا التقليد الكتابي ولذلك تجد كلمات كثيرة تنتهي بصوت الألف المد الطويل مكتوبة بياء في نهايتها، أما الألف المد الناقصة في وسط الكلمة فهو تقليد موجود في الكثير من مخطوطات القرآن الموجودة لدينا. وتجد مثلا كلمات مثل "سليمن، هذا، الله" وكلها ينقصها صوت المد الطويل، وفي المخطوطات المتأخرة في القرآن وحتى الآن أصبحت تلك الأصوات ممثلة بألف صغيرة توضع فوق الحرف الذي يسبقها في الكلمة، في مجموعة من الكلمات الموجودة في النقوش النبطية كتبت الألف الطويلة في وسط الكلمة بحرف الواو، مثل كلمة slwh "صلاة"، وربما يكون ذلك الاختلاف راجع إلى أن هذا الصوت في الآرامية قد تطور في هذا السياق الصوتي إلى صوت oo الطويل. ونظن أن هذا هو أصل كتابة القرآن الكريم لكمات من أمثال "صلاة، زكاة" بالواو- "صلوة، زكوة".

تكلمنا سلفاً عن عادة الخط النبطي في كتابة الأسماء العربية بياء أو واو في آخرها، وفي العربية الكلاسيكية، يستمر استخدام نفس التقليد، فيكتب اسم العلم "عمرو" بواو في آخره. الموقف في النقوش النبطية هو كما يلي : عادة ما تنتهي أسماء الأعلام المفردة المذكرة بواو إذا ما كانت منعزلة، كما هي الحال في أسماء مثل "زيدو" و"كلبو". أما الأسماء المركبة من جزأين فالقسم الثاني ينتهي بواو أو ياء، كما هي الحال في "عبد ملكو" و"عبد عمرو" و"عبد الهي" و"وهب الهي"، من الواضح أن تلك النهايات تستخدم بغض النظر عن سياقها النحوي وخاصة أن تلك الأسماء في حالة متعزلة نحويا، ولكن تلك الظاهرة ليست غريبة لأن تلك العناصر العربية مقحمة على الآرامية التي لم تكن تمتلك علامات إعرابية.

التفسير الوحيد للأسماء المركبة من جزأين والتي تنتهي بواو هو أن تلك الأسماء تعامل معاملة الأسماء المفردة والتي تنتهي بنفس اللاحقة، ولو أن تلك الأسماء حقيقة موجودة هنا في شكلها المنعزل نحوياً، فإن الواو والياء علامات الوقف في تلك الأسماء، في العربية الفصحى يكون اسم "عمرو" في الوقف بدون الواو، إلا في حالة النصب، فيكون "عمرا". ولكن النقوش النبطية تثبت أن العربية القديمة كانت تمتلك علامات إعرابية للوقف هي الواو والياء والألف، ولم يبق منها في العربية الكلاسيكية سوى الألف. أما أسماء الأعلام المؤنثة فهي عادة ما كانت تكتب بالتاء في آخرها، وأحيانا كانت تكتب بهاء، وإن كانت تلكما الخاتمتان متشكلتين للوقف، فإن هذا يبين وجود تغيير في شكل الوقف في الأسماء العربية المؤنثة.

٣ - ٤ بدايات العربية

تكلمنا حتى الآن عن نصوص مكتوبة بلغات لها علاقة باللغة العربية، كنقوش العربية الشمالية، وكذلك تكلمنا عن نصوص مكتوبة بلغات مختلفة عن اللغة العربية ولكن يتدخل من العربية، كما هي الحال في النقوش التدمرية والنبطية. وقيمة تلك النقوش الأخيرة بالنسبة للغة العربية قيمة محدودة، ذلك لأنها ليست مكتوبة بالعربية بل باللغة الرسمية السائدة في تلك الفترة - الآرامية، تنبع تلك القيمة من أن تلك النقوش نابعة من بيئة كانت العربية فيها دارجة معظم الناس، ويمكننا ذلك من أن نتعرف على بعض سمات العربية في تلك الفترة، وينطبق نفس الكلام على الأسماء العربية الموجودة في النقوش العربية الشمالية.

ومع ذلك فإن جزء امن تلك النقوش مكتوب بلغة فيها الكثير من سمات اللغة العربية تجعلنا نعتبرها شكلا مبكرا للغة العربية. في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي قرية على بعد ٢٠٠ كيلومتر شمالي نجران تسمى قرية الفاو، هناك نقوش مكتوبة بالخط السبئي تشبه اللغة العربية شبها كبيرا، ونسمي تلك النصوص بالنقوش القحطانية أو شبيهة السبئية، أطول تلك النقوش شاهد من القرن الأول قبل الميلاد، في ذلك الشاهد هناك أداة التعريف، والتي بلغت من التطور والثبات أنها كانت في حالة إضغام مع بعض السواكن التي تلتها، وهو نفس ما يحدث في سلوك الأداة في العربية الفصحى الكلاسيكية، انظر كلمة w l-ard التي تعني "والأرض" في مقابل كلمة "s-smy" التي تعني "السماء". يقول بعض الباحثين إن هناك بعض النقوش اللحيانية التي تحتوي على أداة تعريف تشبه الأداة العربية ولذلك يجب أن نعتبرها نقوشا عربية، ومن أهم تلك النقوش نقش الخريبة. بنفس الشكل قرر بعض الباحثين أن بعض النقوش النبطية نقوش مكتوبة باللغة العربية المبكرة، وهي نقوش يرجع تاريخها إلى عام ٢٥٠ وعام ٢٦٧ ميلاديا، وتحتوي تلك النصوص على بعض الأسماء العربية التي تنتهي بالواو كما هي الحال في qbrw التي تعني "قبر".

أشهر النقوش العربية المكتوبة بخط غير عربي هي نقوش النمارة، وهو مكان على بعد ١٢٠ كيلومترا جنوب غربي دمشق، ويرجع تاريخ تلك النقوش إلى عام ٣٢٨ ميلاديًا. وقد تم اكتشاف تلك النقوش عام ١٩٠١، اتفق الباحثون على أن ذلك النقش الطويل نسبيًا والمكتوب بخط آرامي إنما هو مكتوب بلغة تشبه العربية الفصحى الكلاسيكية التي نعرفها شبها بالغا، كتب هذا النقش لتكريم شخص تحت اسم "مرأ القيس بار عمرو" بحيث تحل كلمة "بار" محل "ابن" العربية. وسأقدم هنا سطراً واحداً على سبيل المثل من النص الذي قدمه بيلامي (١٩٨٥):

ty nfs mr 'lqys br mr mlk g9rb [w] lqbh dhw sd w[m]dhhg

تفسير بعض هذا النص واضح وسهل، ولكن تفسير بعض النصوص المهمة ما تزال محل جدل شديد، وخاصة كلمة "ولقبه" في السطر الذي قدمناه سلفًا، والتي كانت تقرأ قبل ذلك بمعنى "كلها" مما يجعل امرأ القيس ملكا على العرب كلها، ولكن

بغض النظر عن تفسير التفاصيل، فإن النص مكتوب بعربية فصحى كلاسيكية واضحة، فيما عدى بعض الشواذ البسيطة. واسم الإشارة للمؤنث \أتي \ليس مجهولاً تماماً في الشعر العربي القديم، وكذلك لاحظ النحويون وجود الاسم الموصول \أتو\ في بعض اللهجات العربية القديمة. ولكن من الناحية المعجمية فإن النص يحتوى على بعض المقترضات اللغوية، مثل nfs الآرامية التي تعني "التمثال الجنائزي".

هناك نص أقدم وأصعب في التفسير والتحليل، يرجع تاريخه إلى القرن الأول الميلادى، وتم اكتشافه عام ١٩٨٦ ويعتبر هذا النص أقدم نصوص العربية تقريبا. النص مكون من ثلاثة سطور مكتوبة بخط نبطي في قلب نص نبطي موجه لأحد الآلهة. النص المقدم منه مثل هنا من بلامي (١٩٩٠):

fyf'l l' fid' wl' thr'

لا يمكن التأكد من أي تفسير لهذا النص بكليته، من الواضح أن الاسمين l-mawtw و grhw يحتويان على الواو النبطية التي أصبحت بعد ذلك مقصورة على أسماء الأعلام، ولكن بعض الباحثين ينكرون ذلك ويصلون الواو بالكلمة التي تليها. وفي السطر الثاني هناك عنصر يختلف العلماء في تحليله وهو kn، حيث يفسره بعضهم بأنه الفعل العربي "كان" ويفسره بعض آخر بأنه "لكن" العربية أو أداة شرط، ولكن رغم كل شيء ليس هناك شك في أن النقش كله بالعربية لأنه يحتوى على أداة التعريف، ولذلك فهو شاهد حسن على مراحل تطور اللغة العربية الأولى.

أهم خلاصة يمكن أن نخرج بها من نقوش النمارة هي أن الواو لم تعد تستخدم كلاحقة للأسماء، كما هي الحال في نقوش الحجر التي تكلمنا عنها توّاً، بل ولم تكن تلك اللاحقة مستخدمة في كل أسماء الأعلام، قد يكون ذلك إشارة إلى أن علامة الإعراب الخاصة بالوقف قد أصبحت علامة صفر كما هي الحال في العربية الفصحى الكلاسيكية، إلا في حالة الوقف مع المنصوب إذ بقيت لاحقة المد. أما بخصوص أسماء الأعلام فقد بقيت مكتوبة بالعلامات القديمة لفترة من الزمن لأسباب تاريخية، حتى انتهت من الكتابة العربية الفصحى، باستثناء اسم "عمرو"، ولكن نقوش مرحلة ما قبل الإسلام لا تقدم لنا دليلاً يدعم وجود علامات الإعراب في عربية تلك الفترة أو ينكره.

فتلك النقوش تتبع تقاليد الخط النبطي في الهجاء، وحتى في كتابة شكل الوقف في النصب. ولكن علي أية حال لا تستطيع تلك النقوش أن تخبرنا ما إذا كانت علامات الإعراب قد أعيدت إلى اللغة من خلال نوع من اللغة الشعرية، أو أنها كانت سمة باقية في اللغة. المثل الوحيد الذي بين يدينا هنا هو مثل لاحقة المثنى في نقوش النمارة، وهو لكلمة "الأسدين"، وهو مثل أثار الجدل كثيرا. فبعض العلماء يقرءون هذا القسم من النص كما يلي: "ملكا الأسدين" أي القبيلتين وهي كلمة مفردها أسد، ولكن بعض العلماء يقرؤون نفس القسم كما يلي: "ملكا الأسديين" ولكن في الحالتين، الاسم في حالة نصب، ولذلك لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت علامة النصب تستخدم في حالة الابتداء أيضا كما هي الحال في العربية المولدة، أم لا.

بوجود نقوش النمارة وما تبعها نكون قد حصلنا على أقدم نصوص عربية غير مثيرة للجدل في أصلها. ولكنها في نفس الوقت نصوص كتبت بخط غير عربي، ولكن هناك نقوش قليلة من مرحلة ما قبل ظهور الإسلام مكتوبة باللغة العربية وبخط يمكن أن نسميه عربياً. من بين تلك النصوص ما يلي:

١ – نقوش جرافيتي من جبل الرم شرق العقبة (منتصف القرن الرابع الميلادي)

٢– نص مكتوب بثلاث لغات هي العربية والسريانية واليونانية من قرب حلب (الربع الأول من القرن السادس الميلادي)

٣ – نقوش جبل أسيس الذي يقع على بعد ١٠٠ كيلومتر جنوب شرقي دمشق (عام ٥٢٨ 333d)

٤ – نقوش حران في الحوران الشرقي (٥٦٨ ميلادياً) .

٥ – نقوش أم الجمال في الجوران الجنوبي (القرن السادس الميلادي)

تقول نقوش حران على سبيل المثال (رابين ١٩٩٢: ١١٧) 'n' shrbyl br tlmy bnyt d' lmrtwl snt463 b9d mfsd xybr b9m' وهو ما يعني بالعربية الفصحى "أنا شرحبيل بن ظالم بنيت ذا المرطولا سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام"، ولما كانت تلك النقوش قصيرة جداً، ويصعب الاتفاق على تفسيرها فإن أهميتها اللغوية ليست كبيرة جدا بقدر أهميتها التوثيقية، ذلك لأنها تبين لنا تطور العربية في مراحلها الأولى .

تقول المصادر العربية التي لا تعزو اختراع الخط العربي لآدم أو لإسماعيل إن الخط العربي وافد من الخارج، إما من الأقاليم الجنوبية من الجزيرة عن طريق قبيلة جرهم، أو من العراق، يدعم أهل الحيرة هذه النظرية الأخيرة حيث يقولون إن هناك صلة ما بين الخط العربي والسرياني (ابن النديم، الفهرست، ص ٧-٨)، في حقيقة الأمر ربما تكون كتابة أصوات اللين القصيرة وبعض السمات الكتابية الأخرى مسألة مستعارة من الخط السرياني في القرن الأول الإسلامي. وفي العصر الحديث اقترح ستارشي (١٩٦٦) أن يكون أصل الكتابة العربية سريانيا، يضيف ستارشي أن الحروف في الخط النبطي مفصولة عن السطر، ولكن الحروف في العربية والسريانية على السطر مباشرة، ولذلك يزعم أن الحيرة عاصمة اللخميين طورت نوعا من الكتابة السريانية إلى الخط العربي.

يرفض معظم الباحثين الآن نظرية الأصل السرياني للخط العربي، ويبدو الآن أكثر واقعية أن نقول إن الخط العربي تطور عن أصل نبطي على السطر، في الخط الآرامي الذي استقى منه الخط النبطي أساساً ليست هناك وصلات بين الحروف، ولكن في الكتابة النبطية هناك معظم السمات الكتابية التي تميز الخط العربي. وحتى قبل العام ٢٠٠ ميلاديا بدأت الفخاريات النبطية في النقب تبين نوعا من الكتابة يحمل وصلات كتابية كثيرة وهو ما لم يبدأ الخط النبطي في النقوش أن يعكسه حتى القرن الرابع الميلادي. لذلك نفهم أن الخط العربي بدأ يتطور لصالح كتابة عربية كاملة في القرن الثاني الميلادي، ويعني ذلك أن تطور الخط العربي الذي تعرفه من نقوش حقبة ما قبل الإسلام قد حدث بشكل منفصل عن تطور خط النقوش النبطي، أهم تطور حدث داخل نظام الكتابة العربية كان تطور استخدام الوصلات بين الحروف بشكل منظم، وهو تطور حدث بمعزل عن الكتابة الأصل، وكذلك اختراع رموز مختلفة للحرف الواحد بحسب موقعه في الكلمة.

كانت النقوش المكتوبة بخطوط سبقت العربية ممهداً لنا لنصل إلى اللغة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام - وهي مرحلة الجاهلية، وسنتعامل مع تلك الحقبة في الفصل الرابع، ولكن يجب أن نقول الآن إن المادة المقدمة في فصلنا هذا والأدلة اللغوية

ليست كبيرة. من ناحية حجم النقوش فهو كبير جداً، ولكن بالرغم من ذلك وحتى في أكبر النقوش ليست المادة اللغوية كافية لتمكننا من تتبع تاريخ اللغة العربية في عصر ما قبل التاريخ، ومع ذلك فإن المرحلة اللغوية التي تعكسها النقوش الثمودية واللحيانية والصفائية وغيرها والعناصر العربية التي استقيناها من الخط النبطي تعطينا لمحات عن تاريخ اللغة العربية ومراحلها الأولى، فنعرف على الأقل أنه حتى قبل أن تصل لنا أية شهادة مكتوبة بلغة عربية كاملة كانت هناك بعض عناصر تطور، وبالرغم من أننا لا نعرف اللغة التي كان العرب يتكلمونها في شبه الجزيرة العربية إلا أننا نعرف أن شعبا بدويا يشتق اسمه من الجذر الثلاثي ع ر ب قد سكن تلك الصحراء، وكذلك نعرف أن هؤلاء العرب بداية من القرن الميلادي الأول بدوا يستخدمون لغة تشبه العربية الفصحى.

الفصل الرابع

اللغة العربية في الجاهلية

٤ - ١ لغة العرب

عندما نزل القرآن على نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وصف نفسه بأنه "عربي مبين"، هاتان الصفتان مترابطتان بشكل كبير، كما هي الحال مثلا في سورة الزخرف حيث يقول عز وجل "والكتاب المبين، إنا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون" (٢-٣) واعتقدت الأجيال اللاحقة على التنزيل أن نص القرآن يمثل أفضل صورة للعربية، بل إن فيهم من ظن أن أسلوب القرآن ولغته لا يمكن تقليدهما في الوضوح والسلامة اللغوية (إعجاز القرآن)، ولكن القرآن لا يستخدم كلمة "عرب" كاسم، ولكن يستخدم الصفة منها "عربي"، أما صيغة الجمع "أعراب" فتدل على بدو الصحراء الذين رفضوا رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. انظر مثلا سورة التوبة حيث يقول عز وجل "الأعراب أشد كفراً ونفاقا" (٩٧). تستخدم الصفة "عربي" مع اسم "لسان" للتدليل على وحدة تفوق مستوى القبائل، أي لغة تجمع بين كل من سكن شبه الجزيرة العربية، في مقابل العجم اللذين عاشوا خارج الجزيرة وتكلموا لغات مختلفة. أما لفظة "عرب" في الشعر الجاهلي، فتعني نفس هذا المعنى الثقافي العرقي لمجموعة العرب.

في المصطلح الإسلامي المبكر حدث هناك فصل معنوي بين "العرب" الحضريين الذين يعيشون في المدن كمكة المكرمة والمدينة المنورة، و"الأعراب" البدو الذين يعيشون في الصحراء. واكتسبت كلمة "الأعراب" معنى سلبيا بسبب استخدامها القرآني، ولكن بعد مرحلة الفتح بدأ المجتمع الحضري العربي ينظر إلى البدو الرحل، الذين حافظت لغتهم على نقاء العربية الأصيل، على أنهم العرب المثاليون. وأصبح تركيب "كلام العرب" تعبيرا عن اللغة النقية البدوية.

يبدو من هذا إذن أنه في العصر الجاهلي كان هناك اسم خاص للقبائل البدوية، وهو "الأعراب"، بينما كان اسم "العرب" مستخدما للتدليل على كل سكان شبه الجزيرة العربية– بدواً وحضراً، ولا تتوقف الأمور عند هذا الحد إذ تقسيم آخر عرضه التراث التاريخي العربي، إذ كانت الكتب تجزم بأن الجزيرة العربية كانت مأهولة في الزمن الغابر بقوم سموهم "العرب البائدة"، وهي قبائل ذكرها القرآن لعصيتها أوامر الرسل عليهم السلام كعاد وثمود وجرهم. أما العرب فيما بعد هؤلاء البائدة فهم متحدرون من أصلين: قحطان وعدنان، أما بنو قحطان فهم متصلون نسبا بالعرب البائدة وسكنوا جنوب الجزيرة العربية، ويظن المؤرخون العرب أنهم العرب الحقيقيون، أي "العرب العاربة"، أما أبناء عدنان فهم عرب الشمال الذين تعربوا في فترة تاريخية متأخرة وسمتهم المصادر "العرب المستعربة"، وبعد الإسلام عملت المصادر العربية على وصل بني عدنان عن طريق جدهم عدنان بالنبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . من بين القبائل العدنانية هذيل وتميم وقريش وقيس وربيعة، أما العرب القحطانيين فهم من سكن ممالك جنوب الجزيرة العربية ويقال إنهم ينتسبون إلى حمير من ولد قحطان. من بين القبائل المقيمة في شمال الجزيرة العربية قبائل من أصل قحطاني كالأوس والخزرج وطيء.

ليس من السهل أن نقول ما إذا كان هذا الفصل بين العرب الجنوبيين والشماليين يرجع لحقيقة تاريخية من فصل بين عرقين، ولكنه من الواضح أن الجماعتين كانتا مستقلتين في عقلية معاصري النبي عليه الصلاة والسلام، وقد استمر هذا الفصل فعالا ومؤثرا بعد الإسلام. حتى في الأندلس كانت هناك ثارات وصراعات بين أبناء القبائل الكلبية والقبائل القيسية. أما من ناحية اللغة فقد كان النحويون يقبلون لغة شعراء الجماعتين، بل وكانت قصائد الفريقين مستخدمة بشكل عادي كمصدر للمادة اللغوية.

هناك مع ذلك حالة خاصة وهي حالة اللغة الحميرية و لدينا عن تلك اللغة معلومات بسيطة مصدرها الهمداني (توفي ٣٣٤ هجرياً) ، في وصفه لجزيرة العرب (ص ١٣٤–٦)، وبما الحميرية للعرب كل ما هو منتم لجنوب الجزيرة العربية، يمكن لنا أن نفترض أن اللغة الحميرية هي امتداد للغات العربية الجنوبية القديمة، ولكن الحقيقة ليست كذلك، من بين السمات التي ذكرها الهمداني لاحقة الكاف في آخر

المتكلم والمخاطب : فيقولون في الحميرية مثلا "ولدك" بدلا من "ولدتُ". ومن بين سمات الحميرية أيضًا مثلاً أداة ام .\يقول رابين (١٩٥١: ٢٤-٥٣) إن الحميرية هو الاسم الذي أعطاه العرب للغة العرب الذين تكلمت عنهم المصادر العربية الجنوبية القديمة والذين قطنوا المنطقة، وربما كان هؤلاء العرب من أصل شمالي وكانوا يتكلمون لهجة عربية شمالية ولكن لغتهم تأثرت كثيرا باللغات العربية الجنوبية، ولما كانت الحميرية مفهومة للعربي الذي يتكلم اللغة العربية فإنه من المستحيل أن نربطها بأي من اللغات العربية الجنوبية التي نعتها الهمذاني بالغموض، من الممكن أن تكون تلك اللغة أيضا معكوسة في النقوش التي نسميها شبيهة السبئية، وما تزال بعض سمات اللغة الحميرية موجودة في اللهجات العربية اليمنية حتى الآن.

لو نحينا الكلام عن الحميريين جانبًا فإن لهجات كل القبائل تندرج تحت تسمية "كلام العرب" ولكن التقسيمات التي تكلمنا عنها سابقًا سببت مشاكل النحويين المتأخرين : فمن ناحية فإن فكرة لغة واحدة لكل العرب تشير إلى وحدة لغوية أساسية في الجزيرة، علاوة على ذلك فإن إجماع المسلمين كان على أن لغة القرآن كانت لغة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، يعني ذلك أن لغة الحديث اليومية هي نفسها لغة القرآن التي كانت لغة الشعر الجاهلي، ومن ناحية أخرى وضع العلماء ترتيبا لكلام القبائل العربية. تمسك النحويون بالعقيدة العربية التي تقول بنقاء لغة أبناء قحطان، ولكنهم في نفس الوقت تكلموا عن لهجة الحجاز التي بها مكة على أنها أفصح العرب، ولكن الطريقة التي استطاع بها العلماء أن يجمعوا بين النظرتين هي أنهم افترضوا أن قريشا قد أخذت من كل اللهجات ما هو أفضل سماتها، وعلى ذلك كانت لهجة الحجاز على قمة سلم اللهجات العربية، إذ في هذا الإقليم ولد النبي عليه الصلاة والسلام وأقامت قريش.

تشير تلك النظرة لوجود اختلافات بين القبائل، وإلا لماذا كان هناك هذا التراتب، وبالرغم من أن العربية في الجاهلية كانت لغة كل العرب فكتب النحو تحتوي على الاختلافات بين القبائل، ووضع النحويون هذه تحت مصطلح "اللغات". معلوماتنا عن اللهجات العربية في الجاهلية مستقاة في معظمها من كتب النحويين الخاصة بالاختلافات بين القبائل، بعض مادة تلك الموضوعات جمعت في شكل كتب مؤلفة. ومن بين المواضيع التي كتبت فيها كتب مواضيع من أمثال لغات القرآن، بينما توجد بعض

الفروق اللهجية في كتب المعاجم العربية، وبالنسبة للنحاة، طالما كانت الفروق اللهجية موجودة في القرآن أو في الشعر الجاهلي أو من كلام عربي بدوي يوثق في عربيته فإن الفروق تعتبر عربية صحيحة، ولكن ذلك لا يعني أن أي شخص آخر يستطيع أن يستخدم الفروق اللهجاتية في كلامه وأن تلك الفروق اللغوية يجب أن تعمم وتنتشر.

من الصعب أن نحكم بصحة التوزيع الجغرافي للفروق اللهجاتية في شبه الجزيرة العربية. ويصعب التأكد من صحة نزعات النحويين في ذلك بسبب أنهم دأبوا على ليّ السمات النحوية لتناسب مناظيرهم، فلغة العرب الجنوبيين، بغض النظر عن الحميرية، كان اسمها في كتب النحويين "لغة أهل اليمن" من أهم سمات تلك اللهجة استخدام أداة التعريف /أم/، وهي أداة مازال مستخدمة في بعض لهجات اليمن الحديثة. وتبين المادة اللغوية أن اللغة العربية في شمال الجزيرة كانت منقسمة بشكل عام لقسمين اثنين يتوافقان من الاتجاهين الجغرافيين الشرقي والغربي. فقد كانت هناك لهجة الحجاز، وهي مطابقة للهجة قريش، وكانت هناك لهجة تميم في الشرق. ويتفق هذا التقسيم إلى حد ما مع توزيع القبائل العربية الحضرية في مدن شبه الجزيرة والقبائل البدوية – بالترتيب.

من الواضح أن الفروق اللغوية بين اللهجات العربية الشرقية والفصحى الكلاسيكية التي نعرفها أقل بكثير من الفروق بين اللهجات الغربية الحجازية والفصحى الكلاسيكية، وقد يبرر هذا الفرق قلة وجود معلومات لغوية عن اللهجات الشرقية في كتب النحويين، ذلك لأن النحويين كانوا يركزون على العناصر التي تحيد عن القاعدة، وفي هذا السياق كان لعربية الشرق سهم أقل من عربية الحجاز، ولما كانت الفصحى الكلاسيكية مستمدة من لغة القرآن والشعر الجاهلي بشكل أساسي فإننا نستطيع أن نقول إن هذه اللغة أقرب للهجات الشرق من لهجات الغرب، في بعض الأحيان كان هناك اختلاف كبير بين الفصحى الكلاسيكية واللهجة الحجازية، ولذلك حاول بعض العلماء أن يثبت أن أصل العربية الفصحى الكلاسيكية، عربية الشعر الجاهلي، كان في نجد وشرق الجزيرة العربية. في نجد، حيث يلتقي الشرق بالغرب، قامت مملكة كندة وتجمع قيس القبلي اللذان خلقا قوة سياسية وثقافية كبيرة، وقد كان ذلك أرضا خصبة

لقيام الشعر العربي وازدهاره، ويزعم هؤلاء الباحثون أن لغة الشعر الفصيحة انتشرت من هذا الإقليم لغيره من مناطق الجزيرة، فمن نجد انتقلت لغة الشعر إلى مملكة الحيرة في الشمال.

ومن المفروض أيضًا أن تكون تلك اللغة الوليدة قد انتقلت إلى المراكز التجارية المنتعشة في الجزيرة كمكة والمدينة، وليس من المدهش أن تكون تلك اللغة هي نفس اللغة التي نزل بها القرآن الكريم في مكة بسبب مكانتها الاجتماعية المرتفعة واستغراقها لقبائل العرب، يحمل النص القرآني، وخاصة خط الكتابة فيه، آثار تطويع الفصحى الكلاسيكية لطريقة نطق الحجازيين، أكثر الأمثلة وضوحًا هو نطق الهمزة، فكل المصادر تؤكد أن اللهجات الشرقية تحقق الهمزة الغائبة من أصوات اللهجات الغربية. في النص القرآني عادة ما تكتب الهمزة كحرف صغير يشبه العين، وهي دائما محمولة على حروف الواو والياء والألف، ومن الممكن أن تكون أصوات الواو والياء والألف هي النطق الأصلي للهمزة في اللهجة الحجازية.

يبين هذا المثل أن نطق العربية عبر الجزيرة متباين، وأن نطق لهجة مكة كان مختلفا عن لغة القرآن كما نعرفها، وقد دفع هذا الفرق العالم الألماني كارل فولرز لأن يمضي خطوة أبعد في نظريته عن العلاقة بين لغة القرآن ولغة الحجاز الدارجة، ففي كتابه Volkessprache und schriftsprache im alten Arabien "اللهجات ولغة الكتابة في العربية القديمة" (١٩٠٦) يدعي فولرز أن تحت التركيب السطحي للقرآن هناك آثار للغة مختلفة، وهي محفوظة في كتب القراءات القرآنية، وقد سمى تلك الآثار باسم volkes-sprache "الدارجة" وقال إنها دارجة أهل مكة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يتكلمها، ويرى فولرز أيضا أن تلك الدارجة هي السابقة الحقيقية للهجات العربية الحديثة، ومع ذلك فإن القرآن تنزل بلغة مطابقة للغة الشعر الجاهلي النجدية، وهي اللغة التي سماها فولرز schriftsprache وتتضمن الفروق بين النمطين في رأي فولرز اختفاء الهمزة والتنوين من اللهجة الحجازية وكذلك غياب التصريف الإعرابي، وخلص فولرز إلى أنه كان هناك نص قديم عامي للقرآن الكريم بلهجة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا النص الدارج تم تحويله إلى لغة الشعر الجاهلي في فترة

الفتوحات الإسلامية، يقول فولرز إن الدافع وراء هذا التحويل (أو قل الترجمة) كان الرغبة فى رفع لغة القرآن لمستوى لغة الشعر الجاهلى. ويستمر ليقول إن المسؤولين عن عملية الترجمة تلك كانوا حازمين فيما يخص تحقيق الهمزة والتصريف الإعرابى بالذات، وسمحوا لنون ذلك من السمات أن تظهر فى نطق القرآن أو فى القراءات البديلة فى بعض الأحيان.

من المؤكد أن التصريف الإعرابى السليم للغة القرآن الكريم كان محل فخر فى العصور الإسلامية المبكرة، ولكن الاهتمام الذى حظيت به ظاهرة التصريف الإعرابى بعد الإسلام لا يخبرنا أى شيء عن الوضع اللغوى قبل الإسلام، بل إننا نستطيع أن نبرر ذلك الاهتمام بالتطورات اللغوية التى حدثت بعد الإسلام: فالكثير من الناس فى البلاد المفتوحة لم يكونوا يعرفون العربية معرفة الواثق، ولذلك كانوا يخطئون فى قراءة القرآن، ولذلك كان المهتمون بسلامة نطق القرآن الكريم فى حالة ترقب لأى استخدام خاطئ لعلامات الإعراب، بل وعلموا الناس القواعد النحوية السليمة.

رفض العلماء المحدثون نظرية فولرز بشكلها المتطرف، وكذلك لم يعد أحد يتقبل فكرة المؤامرة الكبرى فى أول أيام الإسلام على لغة القرآن الأصلية، فمن الصعب أن نقبل فكرة أن يتم تنزيل نص سماوى مقدس بلهجة دارجة، من المؤكد أن لدينا نمطا شعريا من اللغة العربية، ومن الصعب فى حالة تنزيل نص سماوى ذى أهمية كبيرة أن يتم اختيار أى نمط غير هذا النمط الشعرى العالى. ويمكن تبرير آثار التحويل فى النمط اللغوى الموجودة فى نص القرآن وكتابته بأن نرجعها لعمل النساخ الأوائل الذين كانوا متعودين على طريقة نطق أهل مكة، وكان عليهم أن يخترعوا نظام كتابة يستطيع أن يسجل للحجازيين سمات شرقية كالهمزة، ولذلك ظهرت كتابة القرآن كما هى لدينا.

بالرغم من رفض فكرة ترجمة القرآن من لهجة للهجة أخرى، فإن فكرة فولرز الأساسية وهى الفصل بين volkessprache و schriftsprache ظل الأساس الذى انطلق منه كل الباحثين الغربيين من بعد فولرز فى وصفهم لتطور العربية، يمكننا أن نعيد صياغة الفكرة الأساسية فى كل النظريات الحديثة كما يلى: فى العصر الجاهلى كانت هناك ازدواجية لغوية، أى أن الوظائف اللغوية فى الموقف اللغوى كانت موزعة بين الأنماط اللغوية المختلفة. فى هذه الحالة يصبح الموقف اللغوى المعاصر لنا الآن مشابها لذلك الذى من المفروض أنه كان قائماً فى العصر الجاهلى.

فكرة وجود فرق كبير بين لغة الشعر والأدب والكتابة واللهجة الدارجة في حد ذاتها فكرة ليست غريبة، فإن نفس الموقف موجود في ثقافات شفاهية أخرى كثيرة. ولكن السؤال هو ما إذا كان نفس الموقف قد تكرر في مكة في العصر الجاهلي، فبالرغم من المصادر العربية، تفترض نظرية وجود اللغة الشعرية الأدبية أن علامات الإعراب كانت غائبة من كلام العرب اليومي بلهجاتهم. ولكي نكتسب فكرة أوضح عن لغة العرب في العصر الجاهلي فسنتوجه أولاً إلى المادة اللغوية الموجودة في كتب العلماء العرب عن "لغات" القبائل. وسننتقل بعد ذلك إلى مناقشة الأفكار حول لغة البدو بعد الفتح الإسلامي.

٤-٢ لهجات العصر الجاهلي

من الصعب أن نحدد القيمة الحقيقية للمادة اللغوية الموجودة في حوزتنا لأنها متشرذمة، ناهيك عن وضع خريطة لهجاتية للموقف اللغوي في العصر الجاهلي. السمات الصوتية الثماني التالية من أهم الاختلافات بين المجموعتين الهجائيتين الأساسيتين.

أولاً: في اللهجات الشرقية مجموعة الصوامت في آخر الكلمة لا تحتوي على صوت لين قصير، أما في اللهجات الغربية فهناك صوت لين إضافي في وسط مجموعة الصوامت، انظر مثلاً الفرق بين "حُسُن" في اللهجة الغربية و"حُسن" في اللهجات الشرقية، وانظر كذلك "عُنُق" في مقابل "عُنق" الشرقية. من الممكن أن تكون تلك السمة متصلة بسمة النبر، إذ أنه من المفترض أن تكون اللهجات الشرقية قد ملكت نبرا قويا على آخر الكلمة، وهو ما يبرر غياب صوت العلة الإضافي، ولكن من الصعب أن نحدد أي السمتين أكثر أصالة، فكلا السمتين واردة في الفصحى الكلاسيكية.

ثانيًا: عرفت اللهجات الشرقية نوعًا من تجانس أصوات العلة أو الإضغام، فاللهجات الغربية تنطق "بَعير" بينما تنطق اللهجات الشرقية نفس الكلمة "بِعير"، من الممكن أن تكون تلك السمة أيضًا متصلة بنظام النبر القوي في اللهجات الشرقية، وهو

نظام يشجع على الإضغام. احتفظت الفصحى الكلاسيكية بتجانس أصوات اللين فى حالة ما إذا كانت اللاحقة مسبوقة بصوت الياء، كما هى الحال فى "فيهِم" التي تنطقها اللهجات الغربية "فيهُم".

ثالثًا: كان هناك فى اللهجات الشرقية إمالة لصوت المد الطويل، بينما تميزت اللهجات الغربية بما كان يسميه النحويون بالتفخيم فى صوت المد الطويل، بل ربما يكون نطق هذا الصوت فى اللهجات الغربية منحدرًا إلى مؤخرة تجويف الفم، وهو صوت يشبه oo.

رابعًا: من الممكن أن تكون اللهجات الغربية قد عرفت فونيما يشبه ee إذ قال النحويون العرب إن أفعال من أمثال "خاف" و"صار" كانت تنطق بإمالة فى اللهجات الغربية، ولكن بسبب غياب الإمالة عامة من تلك المجموعة اللغوية وأيضا بسبب استحالة حضورها في جوار صوت من مؤخرة الحلق، فإن ملحوظة النحويين قد تشير إلى وجود فونيم مستقل رمزه ee .

خامسًا: كان المبنى للمجهول فى الفعل الأجوف الذى وسطه واو فى اللهجات الشرقية هو "قولَ" بينما كان "قيلَ" فى اللهجات الغربية. من الممكن أن يكون الشكلان تطورا من صوت أقدم يمكن أن نرمز له بـ y، وهو صوت غاب من كل اللهجات العربية، إلا أنه ترك آثارًا فى مثل بناء المجهول هذا.

سادسًا: ربما كان صوت القاف مهموسًا فى مجموعة اللهجات الشرقية ومجهورا فى اللهجات الغربية. وكان النطق الحجازى هو المعتمد فى كتب القراءات المبكرة، رأينا سلفا أن صوت القاف العربي ربما يكون قد تطور من صوت سمى محايدا فى سمة الجهر وهو صوت k طورت اللهجات الشرقية هذا الفونيم كل بطريقة مختلفة، ولكن النقط العربي الفصيح المعاصر هو النطق المهمـوس ولكن اللهجـات البدوية الحديثة ما تزال تنطق هذا الفونيم بشكل مجهور.

سابعًا: أهم سمة مميزة لأصوات اللهجات الحجازية، (وهو ما ذكرناه سابقًا)، هو غياب الهمزة التى كانت اللهجات الشرقية تحققها، فى اللهجات الغربية . أسفر غياب الهمزة عن تطويل لصوت اللين السابق عليها فى بعض الأحيان، مثل نطق كلمة "بئر"

"بير"، وقد يسفر غياب الهمزة أيضا عن اختصار أصوات اللين، كما هي الحال في نطق كلمة "سَأَلَ" "سالَ". وقد يسفر غياب الهمزة أيضا عن إصدار صوت مركب، كما في نطق كلمة "سائر" "ساير"، بما أن الكتابة الحجازية لم تكن تمتلك رمزا خاصا بالهمزة فإن الهجاء الأصلي كان يمثل النطق الحجازي الخالص. ورمز الهمزة رمز مضاف في مرحلة لاحقة.

ثامنا: في اللهجة الحجازية يحتوي الفعل المضارع على سابقة فيها صوت لين قصير ه، ولكن باقي اللهجات الجاهلية شكلت هذه اللاحقة باستخدام صوت اللين القصير أو هذه ظاهرة سماها النحويون العرب بالتلتلة، وهي سمة جاهلية استمرت في بعض اللهجات العربية المعاصرة، ويعتبر كل من الشكلين تعميماً لغوياً لأنه كان هناك توزيع لذلك الصوت في اللغات السامية الأقدم. فكان صوت i مستخدما مع الغائب المفرد المذكر والمتكلم الجمع، بينما كان صوت a مستخدماً مع المتكلم المفرد والمخاطب والغائب المفرد المؤنث (انظر هتزرون ١٩٧٦)، في هذه الحال يمكن أن نقول إن العربية الفصحى الكلاسيكية قد اتبعت النمط الغربي لأنها اعتمدت a في كل الضمائر.

الاختلافات اللهجية التي ذكرتها تواً تختص بالجانب الصوتي فقط، ولكن هناك بعض الإشارات على وجود اختلافات لهجية على مستويات بنيوية أعلى، على سبيل المثال هناك بعض الإشارات التي تبين احتمالية وجود لاحقة مثنى غير منصرفة في لهجة الحجاز، وأفضل مثل الآية الكريمة (٦٣) من سورة طه التي تقول "إن هذان لساحران" حيث لا تعمل "إن" على نصب الاسم كما هو المفروض في قواعد الفصحى الكلاسيكية. أزعجت تلك الآية الكثير من الشراح والنحاة إزعاجا شديدا لدرجة أن بعض النحاة الأوائل قد اقترح اعتبارها خطئًا من النساخ يجب إصلاحه إما بقراءة الاسم التالي في صيغة النصب أو بتخفيف "إن" المشددة.

ومن الواضح أن "إنْ" و"أنْ" المخففتين والمتبوعتين باسم مرفوع كانت ظاهرة موجودة في اللهجات الحجازية أكثر منها في اللهجات الشرقية. تظهر بعض الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم، انظر مثلا الآية رقم (٣٢) من سورة يس حيث يقول

عز وجل: "وإن كل "لما جميع" لدينا محضرون"، بل إن الأداتين المخففتين يمكن أن يتبعهما اسم منصوب، كما هي الحال في الآية رقم (١١١) من سورة هود حيث يقول عز وجل: "وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير"، وليس من الغريب أن نرى أن النحويين حاولوا أن يصححوا تلك الأشكال إما بتغيير علامة الإعراب على الكلمة التالية للأداة أو بقراءة "إن" أو "أن" المشددة.

هناك فرق مشهور بين لهجة الحجاز ولهجة تميم وهو استخدام \ما \كأداة نفي للاسم. يقول النحويون إن \ما \يمكن أن تعمل عمل \ليس \وتنصب الخبر، انظر مثلا: "ما هو كبيرا"، لم تستخدم اللهجات الشرقية \ما \الحجازية هذه .

وهناك بعض الإشارات إلى أن أداة النفي \إن \التي تظهر كثيرا في القرآن، مثلا في الآية رقم (٥١) من سورة هود حيث يقول عز وجل: "إن أجرى إلا على الذى فطرني"، هي أداة حجازية.

هناك إشارات إلى وجود اسم إشارة \ذي \أو \ذو \التي تسمى "ذو الطائية"، وهو اسم موصول لم يظهر في القرآن، ولكن هذين الاسمين موجودان في الشعر الجاهلي كما أنهما موجودان في نقوش النمارة القديمة، ومن أفضل الأمثلة ما ورد في ديوان الحماسة: "لهذا المرء ذو جاء ساعيا" (ريكندورف ١٩٢١: ٤٢١).

بالرغم من الظهور الممكن، وإن كان غريباً، للاحقة مثنى غير منصرفة في آية من آيات القرآن فإن تلك النقط هامشية لحد ما، ولكن هناك نقطة تتعلق بصميم النحو العربي، وهي تركيب الجملة الاسمية والجملة الفعلية، في الفصحى الكلاسيكية عندما يظهر الفعل قبل الفاعل في الجملة الفعلية فليست هناك مطابقة عددية بين الفعل وفاعله، ولكن النحويين يقولون إن هناك بعض القبائل الجاهلية كانت تسمح بالمطابقة العددية في تلك الظروف، ويسمي النحويون هذه الظاهرة بظاهرة أكلوني البراغيث، ومن أكثر الأمثلة التي ساقوها أمثلة من شعراء الحجاز، ولكن هناك أيضا أمثلة شرقية، هذه هي السمة النحوية الوحيدة تقريبا التي تشترك فيها اللهجات العربية القديمة والحديثة على حد السواء، ففي اللهجات الحديثة ترتيب الكلمات الأساسي هو ترتيب الجملة الاسمية وليس الجملة الفعلية كما هي الحال في الفصحى الكلاسيكية، ولذلك ليس من الواضح

ما إذا كان من المفروض أن نفسر هذه السمة النحوية الحجازية على أنها أول خطوة على سلم تطور لغوي ما أم لا، ولكن على أية حال لا تظهر تلك السمة في لغة القرآن.

الخلاصة هي أن لغة القرآن في معظم الأحيان تعكس تشابهاً كبيراً مع اللهجات الشرقية، بينما توجد خلافات كثيرة بين اللهجات الشرقية والغربية، من ناحية نطق الهمزة فقد أحس الناس في صدر الإسلام أنه من الأفضل أن تستخدم الهمزة في تلاوة القرآن الكريم، ذلك بالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها بعض القراء الأوائل. ومن الواضح من قائمة الاختلافات التي قدمناها أن اللهجات ليست متباعدة بعضها عن البعض الآخر تباعداً شديداً، فمعظم الاختلافات التي ذكرناها اختلافات صوتية. وإذا نحينا ظاهرة أكلوني البراغيث جانبًا فسنجد أن كتب النحو ذكرت اختلافات نحوية أخرى قليلة لم نضعها هنا لأنها ليست واضحة تماماً وأهميتها ليست محددة. بعض الاختلافات الموجودة في كتب النحو ما هي إلا تنظير من النحاة الأواخر ليس غير، انظر على سبيل المثال ما قاله النحويون عن أسلوب الاستثناء باستخدام إلا ١، فستجد أن النحويين يقولون إن قبيلة ما تستخدم اسم الاستثناء المرفوع وقبيلة أخرى تستخدم اسم الاستثناء المنصوب .. إلخ. هناك شيء واحد واضح من تلك "اللغات" النحوية، وهو لو أن السمات التي ذكرناها صحيحة، فإن المجموعتين اللهجيتين كانتا تستخدمان علامات الإعراب ، وليست حالة المثنى غير المنصرف التي ذكرناها سابقًا بالقوة بمكان لتثبت لنا العكس، وبما أن العلامة الإعرابية مهمة جداً في كل نظريات تطور اللغة العربية فإن غياب أي دليل في كتب النحو على وجود لهجات عربية لا تستخدم هذا النظام مهم جداً في فهمنا لتطور اللغة العربية .

٤-٣ نظريات حول لغة الجاهلية

بالنسبة للعرب كانت كل اللهجات عبارة عن لغة واحدة، بالرغم من "اللغات" الموجودة في الكتابات اللغوية العربية، إلا أن العرب لا يقبلون تصور فارق كبير بين اللغة الأدبية والدارجة، ولكن الباحثين الغربيين كانوا دائما يشكون في هذا المنظور تجاه التطور اللغوي. بالرغم من أن نظرية فولرز التي تفرق بين volkssprache و schriftsprache في الوضع اللغوي في الجاهلية قد أهملت كلية، إلا أن معظم الباحثين

لا يوافقون على نظرة العرب التي تقول بوحدة لغة الكلام الدارجة ولغة القرآن ولغة الشعر. ويعتقد الباحثون، كما كان فولرز يظن، أن اللغة الأدبية واللغة الدارجة كانتا كائنين منفصلين تمامًا في الجاهلية. أما اللهجات التي كانت القبائل تستخدمها في الجاهلية فقد سماها الباحثون الغربيون بلهجات القبائل، وأما بالنسبة للغة القرآن والشعر فقد سماها الباحثون الغربيون بالنمط القرآني الشعري، وفي المصطلح الألماني لغة القرآن والشعر اسمها Dichtersprache.

تؤكد فكرة النمط الشعري على أهمية الشعراء في الوضع اللغوي، فتجد زويتلر (١٩٧٨: ١٠٩) يقول إن تسمية الشعراء (الذين يمتلكون المعرفة) تشير إلى أن الناس كانت تنظر إليهم على أنهم حماة نوع رفيع من اللغة، وإلى أنهم الوحيدون الذين كانوا مازالوا قادرين على التعامل مع نظام الإعراب المعقد، وبحسب تلك النظرية فإن علامات الإعراب كانت أعلى من مستوى المتكلم العادي وأن الوحيد الذي يستطيع أن يتعلمها هو الشاعر المحترف والراوي المحترف بعد تدريب طويل.

هذا المنظور تجاه الوضع اللغوي قبل الإسلام يقع على خط واحد مع الأفكار الأكثر رواجًا بشأن ظهور النمط الجديد للغة العربية بعد الفتوح العربية الإسلامية، يعتقد معظم النحويين أن التغيرات التي حدثت بين العربية القديمة والعربية الجديدة (المولدة) إنما هو استمرار لتطور كان ساريًا قبل الفتوحات في اللهجات الجاهلية القديمة – من بين تلك التغيرات اختفاء علامات الإعراب، وبما أن معلوماتنا عن تلك اللهجات قليلة جدًا فمن الواجب علينا أن نعود لمصادر بديلة لنحاول أن نعرف ما إذا كانت التغيرات التي حدثت في العربية المولدة كانت راجعة للهجات الجاهلية. والسؤال الدقيق هنا: هل كان البدو يتكلمون لهجات تحقق علامات الإعراب أم لا؟

واحد من أهم مصادر المعلومات في تلك المسألة هو النقوش القديمة، ولكننا رأينا سلفا أن النقوش لا تقدم لنا دليلاً حاسمًا فيما يخص وجود علامة الإعراب من عدمه في المراحل المبكرة للغة العربية، في النقوش لا توجد علامات إعرابية، والسبب في ذلك إما أن اللغة المستخدمة لا تمتلك نظام العلامة الإعرابية، أو لأن تلك اللغة كانت تميز بين كلمات في سياق ولذلك تحتوي على علامات إعرابية وكلمات في حالة الوقف ولذلك

لا تحتوى على تلك العلامات. ولا تجد في تلك النصوص إلا الكلمات في حالة الوقف، هناك بعض الأدلة في النقوش النبطية على أن اللغة العربية الموجودة فيها تعكس وجود علامات جامدة في بعض الكلمات، فالأسماء المركبة التي تحتوى على اسم إله غالبا ما تنتهي بـ v وكذلك عنصر "أبو" و"ابنو" في الأسماء المركبة دائما يكتب بالواو في آخره بغض النظر عن موقعه في الجملة، الخلاصة المنطقيه أنه في هذا النمط من اللغة العربية سقطت علامات الإعراب من الاستخدام قبل القرن الميلادى الأول، ولكننا يجب أن ننتبه إلى الحقيقة الهامة التي تقول إن كل تلك النقوش صدرت من منطقة حدودية حيث اتصل العرب بشعوب أخرى لفترات طويلة، ولذلك من الممكن أن تكون لغة تلك المناطق قد تأثرت بنفس العوامل التي تأثرت بها اللغة العربية بعد ذلك بقرون طويلة عند الفتوحات الإسلامية - وخاصة في مجال علامات الإعراب. كان بعض عرب شمال الجزيرة العربية على اتصال بشعب حضرى يتكلم الآرامية، ولذلك من الممكن أن يكون نوع من العربية المولدة ظهر في هذا الإقليم الصغير وفي مستعمرات التجارة في صحراء شمال الجزيرة العربية والصحراء السورية قبل الإسلام بقرون طويلة، ومن الممكن أن يكون هذا النوع من اللغة العربية ما سماه العرب بعد ذلك بالنبطية.

هناك إمكانية أخرى وهي العودة إلى خط كتابة القرآن الكريم، فلغة القرآن تمتلك نظام علامات إعرابية كامل وعامل، فبحسب موقع الاسم في الجملة وعدده تكون له علامة الإعراب الخاصة به، ولكن السؤال يبقى: هل يعكس ذلك أى وضع لغوى حقيقى في منطقة الحجاز؟ كما رأينا سالفًا، كتابة القرآن تعكس تطويع النظام الصوتى الحجازى لمجموعة أصوات مختلفة عنه. ولكن ليس هناك دليل مشابه بالنسبة لعلامات الإعراب، ولكن الشيء الوحيد الذى يمكن أن نقوله بثقة هو أن كتابة القرآن الكريم تعكس تقاليد الكتابة في الخط الآرامى النبطي، يبدو هذا واضحًا في نظام تسجيل الصوامت وكذلك في تسجيل علامات الإعراب، والمبدأ الأكثر أهمية في هذه الكتابة هو أنه عند تسجيل الكلمة تسجل في شكل الأصوات الصامتة فقط، وتسجل الكلمة في شكل الوقف. ولذا لا تجد التنوين مكتوبًا في اللغة العربية أبدا، إلا في حالة النصب، حيث تنتهي الكلمة بـ an وتكتب بالألف المد، من الممكن أن يكون أصل التنوين في اللغة العربية هو الواو والياء والألف المد، وهذا واضح من النقوش العربية القديمة ومن

الأسماء العربية الموجودة في النقوش النبطية، ينطبق نفس المبدأ على طريقة كتابة لاحقة المؤنث المفرد، حيث يعكس التباين في القرآن بين التاء والهاء . اختلاف الكتابة يدل على اختلاف حقيقي بين أشكال الوقف والأشكال الأخر التي كانت عاملة قبل التنزيل بفترة.

واحد من عناصر النص القرآني التي ذكرها الباحثون في معرض الحديث عن العلامة الإعرابية هو وحدة أواخر الكلمات، ففي الشعر الجاهلي كانت العلامة الإعرابية على آخر الكلمة تنطق مداً طويلاً، ولكن هناك نظاما آخر في القرآن الكريم، وفي بعض الشعر أحياناً، وهو أن تحذف العلامات الإعرابية كلية من أواخر كلمات القافية ليقف المتكلم عند الصوت الصامت الأخير، يقول بركلاند (١٩٤٠) إن هذا يعد تطورا كبيرا ناحية إهمال علامة الإعراب، والعلامة الوحيدة التي ظلت هي تنوين المنصوب التي كانت تكتب ألفاً. يقول بركلاند وآخرون إن تلك العلامة بالذات قاومت الحذف والإهمال لفترات طويلة ليس لأنها علامة إعرابية فقط بل لأنها علامة على المفاعيل (بمعناها العام)، هناك بقايا لهذا التنوين في بعض لهجات الجزيرة العربية حتى الآن، بل من المفروض أن يكون هذا التنوين سمة من سمات لهجة الحجاز القديمة لأن كتابة القرآن الكريم كانت تسجل تنوين المنصوب هذا بشكل مستمر ومستقر باستخدام ألف، بينما أهملت نفس الكتابة تسجيل تنوين الرفع والجر، ولكن ليس من الواضح إلى أي مدى تفيدنا أواخر الكلمات في تحديد ما إذا كان تسجيل الكلمات في حالة الوقف دليل على اختفاء العلامة الإعرابية أو لا، فلا أحد ينكر– على أية حال – أنه في أواسط الجمل والتركيبات تستخدم علامة الإعراب على أواخر الكلمات

والخلاصة من كتابة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم أننا لا نستطيع أن نحل مسألة غياب العلامة الإعرابية من عدمه، ويعني ذلك أن سؤال ما إذا كانت اللهجات الحجازية كانت تنتمي إلى العربية القديمة أو إلى نوع من العربية المولدة لن يجد إجابة في بحث دراسة نظام الكتابة، ومع ذلك فإن معظم الباحثين الغربيين مايزالون يعتقدون أن هناك تقابلا كبيرا بين دارجة القبائل ولغة الشعراء قبل الإسلام، ويعني ذلك أن التغيرات الكبيرة التي أصابت العربية بعد الفتوحات الإسلامية كانت كامنة في فترة

ما قبل الفتح، ومن أهم الأدلة على ذلك التنظير أن الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب في العربية الفصحى الكلاسيكية في مرحلة ما قبل الفتوحات كان قليلاً جداً، ولذلك كان من الممكن لتلك العلامات أن تختفي دون أي مخاطرة بالغموض في الكلام، كان ذلك هو رأى كورينتي (١٩٧١ ب) الذي قاله في معرض مساجلة مع بلاو، وأضاف أن العربية الفصحى لا تحمل السمات التوليدية التي دائمًا ما يعزوها الباحثون إليها. ويعترف كورينتي أن كلام البدو في الصحراء وسكان المدن كان يحتوى على علامة الإعراب، ولكن ذلك لا يعني شيئا إذ لم يكن لتلك العلامة سياق يتم تحديده بإمكانية التخلص منها من عدمه، يعني ذلك أنه إذا أهملنا علامة الإعراب دون أن يؤثر ذلك على الجملة فإن ذلك يعني أنها علامات خاملة (كورينتي ١٩٧١ ب، ٢٨) وأن المورفيمات التي تعبر عنها زائدة.

قرر بلاو في رده على نقد كورينتي للعنصر التوليدي في اللغة العربية أن الزيادة مسألة عادية في أي لغة، والتحول من طبيعة توليدية لطبيعة تحليلية يقتضي أن تخترع اللغة المعنية مورفيمات جديدة، كما حدث في العربية المولدة عندما اخترعت أداة إضافة تحليلية لتعبر عن تركيب الإضافة العربي التوليدي، ولكن ليس هناك أي دليل على أن مثل تلك الاختراعات قامت في العربية القديمة قبل الفتوحات، بل إن هناك تركيب إضافة توليدي غاية في الزيادة لأن الاسم الأول يفقد أداة التعريف الخاصة به فيعطي علامة نحوية على الملكية، ولذلك ليست هناك حاجة نحوية لوجود اختلاف في علامة الإعراب كعلامة على التركيب، ولكن تلك الزيادة لم تدفع العرب إلى استخدام أداة إضافة تحليلية كالتي تستخدمها اللهجات العربية الحديثة، وخلص بلاو إلى أن شيئا آخر يجب أن يكون قد حدث في مرحلة التطور من العربية القديمة إلى العربية المولدة، وأن هذا الشيء ليس له علاقة بالحمل الوظيفي لعلامة الإعراب، بالرغم من أن كونها زائدة قد يكون سهل اختفاء ها. يعتقد بعض الباحثين في بعض الأحيان أن فائدة علامات الإعراب التوليدية أن تمكن المتكلم من استخدام ترتيب كلمات حر، ولكن مسألة ترتيب الكلمات عادة ما تكون مجرد مسألة أسلوبية، ومن الحقيقي أن بعض ترتيب الكلمات في العربية القديمة قد يسبب عدم فهم في العربية المولدة (انظر مثلا وضع المفعول به في أول الجملة أو قبل الفاعل) كما هي الحال في الآية رقم (٣) من سورة

التوبة إذ يقول عز وجل "أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ"، ولكننا يجب أن ننظر إلى ترتيب الكلمات الحر على أنه نتيجة لوجود علامة الإعراب وليس سببا لهذا الوجود.

بعض الباحثين يعزو إهمال علامات الإعراب إلى ظاهرة صوتية، الفكرة الأساسية هنا هي أن هناك نزعة لإهمال أصوات اللين القصيرة في أواخر الكلمات فقد أهملت علامات الإعراب – في المفرد على الأقل، ويعد سقوط علامة إعراب الجمع في تلك النظرية حالة بالمثل. ولكن لو أن مسألة النزوع لإهمال أصوات اللين القصيرة في أواخر الكلمات حقيقية، فإنها لا تعدو كونها مسألة أسلوبية من بين أساليب كثيرة موجودة في أي لغة. وعندما يتعلم الأطفال لغتهم الأم فإنهم يتعلمون معها كل الأساليب ويتعودون على الأشكال الطويلة والقصيرة الموجودة في لغتهم. علاوة على ذلك لا يمكن لنزعة إهمال أصوات اللين القصيرة في الكلام السريع في حد ذاتها أن تؤدي إلى سقوط علامات الإعراب، ولكننا نستطيع أن نتوقع تزامن أكثر من شكل لغوي واحد للغة واحدة ، وتغييراً كبيراً في بنية تلك اللغة إذا كان هناك اضطراب في التعلم الطبيعي للغة كلغة أم، وعلى ذلك فتصبح نزعة إهمال الأصوات اللينة محفزا على التجديد اللغوي الذي وجد شرارته في ظاهرة أخرى.

ورفض الباحثون أي تفسير صوتي لأنه غير متسق من الناحية التاريخية، يقول ديم (١٩٩١) إن الكلمات التي تحتوي على ضمير ملكية متصل في اللهجات العربية الحديثة مثل "بنتَك" و"بنتِك" تمثل حالة من تجانس أصوات اللين لحالات كلمات سابقة هي "بنتَكَ" و"بنتِكِ" على التوالي، ويستمر ديم ليقول إن صوت اللين بين الكلمة واللاحقة هو علامة إعرابية معممة، تم اختيارها بهذا الشكل لتتجانس مع صوت اللين الموجود في الضمير المتصل، ويخلص ديم من هذا لأن علامة الإعراب يجب أن تكون قد أهملت في وقت كانت فيه أصوات اللين في أواخر الكلمات ماتزال مستخدمة – وإلا لما كان شكل مثل "بنتَك" قد ظهر، إلى جانب ذلك لا يمكن تفسير وجود علامات إعرابية جامدة في بعض اللهجات البدوية العربية الحديثة إذا افترضنا أن أصوات اللين القصيرة على أواخر الكلمات قد اختفت قبل انهيار نظام العلامات الإعرابية.

ويمكننا أن ننظر لمسألة اللهجات العربية في الجاهلية من زاوية أخرى لو أننا اتجهنا للغة حديث البدو في ما بعد الفتوحات الإسلامية، يظن النحويون العرب أن

البدو كانوا يتكلمون عربية "فصيحة" قبل الفتح وبعده لقرون عدة. يقول بن خلدون (توفي عام ٧٥٧ هجرياً) إن البدو كانوا يتكلمون بما تمليه عليهم سليقتهم اللغوية دون الحاجة إلى النحويين ليعلموهم كيفية استخدام علامات الإعراب، وأوضح بن خلدون أنه في القرون الأولى من الإسلام وقبل أن يفسد الحضر لغة أهل البادية كانت لغة البدو تحتوى على علامات إعراب كاملة. تعتمد قيمة هذه المقولة على ثقتنا بتقارير الكتاب العرب عن نقاء لغة البدو، تنزع تلك التقارير إلى الإيحاء بأن الخلفاء وعلية القوم عمدوا إلى إرسال أبنائهم إلى البادية ليتعلموا الصيد والرماية، ويتعلموا اللغة العربية الفصيحة، تأتي بعض التقارير من نحويين محترفين أقاموا لفترات في البادية مع قبائل البدو ليدرسوا عربيتهم التي اعتبروها أفصح من عربية الحضر والبلاد المفتوحة.

بطبيعة الحال يمكن أن يعتبر أي شخص تلك التقارير من نزعات العرب الرومانية إلى الماضي البدوي الصحراوي . وعلاوة على ذلك قد يكون البدو احتفظوا بنوع من الشعر العربي الفصيح الكلاسيكي الذي كان يحقق علامات الإعراب بينما يستخدمون عربية مولدة في كلامهم العادي، كما هي الحال اليوم في بعض اللهجات النجدية. ولما كان النحويون يبحثون عن بقايا "العربية" ولما كانوا يستخدمون الرواة في تلك المهمة فقد كانوا يحصلون على طلبهم من تلك القبائل البدوية دون الاهتمام بلهجاتها الخاصة، وإذا اعتمدنا وجهة النظر تلك فسوف نعتبر الصحة اللغوية التي عزيت لسكان البادية من ضروب الخيال والتفخيم كما هي الحال بالنسبة للكرم البدوي العربي والفروسية البدوية. ولكن إذا اعتقدنا بصحة كلام النحويين فيجب أن نعتقد أيضا أن البدو كانوا قبل الإسلام يتكلمون عربية قريبة من لغة الشعر، وهي نفس اللغة التي أرسل الله بها رسالته الأخيرة .

في الكتب التي ألفت عن الوضع اللغوي في الجاهلية كانت هناك أهمية كبيرة للحن في صدر الإسلام ، في واقع الأمر هناك الكثير من القصص حول الأخطاء اللغوية التي كان الموالي يرتكبونها، ويعتقد الكثيرون أن تلك القصص تدلل على وضع لغوي يسوده الفساد اللغوي والعجمة التي أصابت العربية الفصحى النقية، ولكن تلك القصص لا تدعم وجهة النظر التي تقول بأن نظام علامات الإعراب قد أصبح عاطلا،

ولو كانت تلك القصص تدل على شيء، فهي تدل على أن لغة العرب التي حاول الموالي تقليدها وتعلمها كانت تحتوي على علامات الإعراب، في أكثر قصص تلك الأخطاء اقتباس ليتصور المرء أن هناك صلة بين الاستخدام الخاطئ للعربية واختراع النحو العربي على يد أبي الأسود الدؤلي (توفي عام ٩٦ هجرياً).

تقول قصة من تلك القصص إن رجلاً أخطأ في قراءة الآية رقم (٣) من سورة التوبة حيث يقول عز وجل "إن الله بريء من المشركين ورسولُهُ" وقرأها كما يلي: "إن الله بريء من المشركين ورسولِهِ"، وفي قصة أخرى يقول الراوي إن أحد الموالي قال "توفي أبانا وترك بنون" (انظر ابن الأنباري في النزهة، ص ٦-٧). فبينما يمكن اعتبار المثل الأول ملفقًا ومصطنعًا، يدل المثل الثاني بوضوح على أن المولى كان يحاول أن يكون صحيحا في استخدام لغته العربية بشكل زائد، ولذلك استخدم "بنون" بدلاً من "بنين" في المنصوب. في نظرية كل من ابن الأنباري وابن خلدون عن تطور العربية هناك ربط بين فساد اللغة بعد الفتوح الإسلامية وقيام النحو العربي.

تظهر أول أمثلة مكتوبة على الاستخدام الخاطئ لعلامات الإعراب في النصف الأول من القرن الأول الهجري، نجد في برديتين مصريتين (ديم ١٩٨٤) يرجع تاريخهما لعام ٢٢ من الهجرة أن اسم العلم "أبو قير" في موقع يستحق الجر، وكذلك نجد التعبير الصحيح بشكل زائد "نصفُ ديناراً"، ويمكن العثور على أمثلة أكثر بكثير على تلك الأخطاء في البرديات الأحدث من هاتين البرديتين المبكرتين. ولما كانت تلكما البرديتان مكتوبتين في سياق تعدد لغوي، ولما كان من الجائز جدا أن كاتب البرديتين نفسه كان متعدد اللغات فليس من السهل أن نعتمد على هذه الاستخدامات الخاطئة كدليل على اختفاء علامة الإعراب قبل الفتح الإسلامي ، بل على العكس من ذلك ، فوجود علامات صحيحة بشكل زائد يشير إلى وجود نظام علامات الإعراب في اللغة المتداولة.

ولكن ما هي الخلاصة إذن بشأن وجود الازدواجية اللغوية من عدمه في تلك الفترة المبكرة قبل الإسلام؟ هناك نقطة واحدة أكيدة وهي انعدام الأخطاء اللغوية من النصوص التي وجدناها من فترة ما قبل الإسلام، وتلك الأخطاء عادة ما تدلل على وجود فارق كبير بين اللغة الأدبية ولغة الكلام اليومية، ويعني غياب تلك الأخطاء انعدام

الفارق واستخدام علامات الإعراب على عكس ما يدعي أنصار فكرة "اللغة الشعرية"، وبطبيعة الحال يمكن أن نعترض على ذلك ونقول إن أي أخطاء لغوية كانت موجودة في الشعر الجاهلي مثلا يمكن أن تكون قد اختفت بفعل النساخ والجامعين بعد ذلك، والخلاصة هي أنه حتى بالرغم من أن بعض التطورات التي حدثت بعد الفتوحات الإسلامية كانت جذورها في مرحلة الجاهلية، إلا أن الاختلافات الوظيفية والبنيوية بين اللهجات العربية القديمة في الجاهلية والعربية المولدة بعد الفتوحات، والتي تمثلها اللهجات الحضرية، ماتزال بحاجة لتفسير، ذلك لأن ظهور العربية المولدة كان مصحوباً ليس بغياب علامة الإعراب وحسب، بل أيضاً بعدد آخر من السمات اللغوية التي تحتاج الدراسة.

الفصل الخامس

نشأة العربية الفصحى الكلاسيكية

٥-١ مقدمة

في بداية العصر الإسلامي كان هناك مصدران اثنان فقط للغة الأدبية العربية، هما القرآن والشعر الجاهلي، ولذلك ليس من الغريب أن يلعب هذان المصدران الدور المحوري في تقعيد اللغة العربية الفصحى وتطورها، وليس من الغريب كذلك أن تكون أول أنشطة علمية في الإسلام متركزة على النص القرآني، الذي كان لينتشر وينتقل على مستوى النص، وينتظر التفسير على مستوى المحتوى، وفي نفس الوقت، عندما انقطعت الصلات المباشرة بالصحراء، ترك الناس الاهتمام بممارسة الشعر بالسليقة إلى الدراسة العلمية للشعر الجاهلي، وبدأت عمليات نقل النص القرآني والشعر الجاهلي بشكل شفاهي وبشكل غير منضبط في بداية الأمر، ولكن هذا الشكل من النقل لم يكن ليستمر في الإمبراطورية التي كانت تتوسع بشكل مضطرد وسريع.

وقد مرت اللغة نفسها بمرحلة تقعيد، فبينما كان البدو في الجاهلية يظنون أنهم جماعة لغوية واحدة، لم يكن لهم مرجعية لغوية واحدة، وحتى في لغة الشعر التي كان الناس يظنون أنها لغة تعبير كل القبائل، كان هناك تنوع كبير، أما بعد الفتوحات وعندما أصبح للعرب إمبراطورية ظهرت حاجة ملحة لتقعيد اللغة، وذلك لثلاثة أسباب: السبب الأول ، هو أن الفروق الكبيرة بين لغة العرب البدو واللهجات المحلية الحضرية التي ظهرت بعد الفتح سببت خطرا كبيرا على التواصل في الإمبراطورية الجديدة. السبب الثاني ، أن الحكومة المركزية في دمشق وفي بغداد كانت ترمي إلى السيطرة على الشعوب ليس فقط من الناحية الاقتصادية والدينية بل من الناحية اللغوية أيضا،

فلو كان للعربية أن تستخدم كلغة الحكومة المركزية فيجب أن تقعَّد، السبب الثالث ، هو أن التوسع السريع قد أدى إلى توسع المعجم العربي، وكان يجب التحكم فى هذا التوسع لضمان حد أدنى من الوحدة.

سوف يتعامل هذا الفصل مع موضوعات ثلاثة رئيسية متعلقة بعملية التقعيد اللغوى، أهم مسألة في عملية تقعيد اللغة المكتوبة هى اختراع نظام كتابة أو بالأحرى تطويع نظام كتابى قائم فعلا لمتطلبات الموقف الجديد، وبعد ذلك تم تقعيد نمط لغوى محدد، فتوسع المعجم وصنفه المصنفون، وبعد ذلك عندما تم تقعيد تلك الجوانب اللغوية الأساسية حدث تقعيد أسلوبي. فكان النموذج البدوى القائم خير عون فى قيام النمط التقعيدى فيما يخص أساليب الشعر، ولكن ظهور النثر العربى كان البداية الحقيقية للعربية الفصحى الكلاسيكية كما نعرفها، وفى القسم الختامى من هذا الفصل سوف نتعامل مع وضع اللغة العربية كلغة رسمية .

٥-٢ تطور نظام الكتابة العربية

كان أهم شيء بالنسبة للعلماء العرب الأوائل هو أن يوثقوا النصوص التى يعملون بها، وبالرغم من أن النقل الشفاهى ظل مكونا أساسيا من مكونات الثقافة الإسلامية، فقد أصبحت الفروق بين النصوص كبيرة بدرجة لا يمكن تجاهلها، وكانت الحاجة لنص واحد عمدة ملحة وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وقد كان للحكومة المركزية فى هذا الأمر ضلع كبير، فقد مكنت لنص واحد أن يصبح هو أساس أى نشاط سياسى أو دينى فى عموم الإمبراطورية الجديدة.

كان توحيد النص القرآنى لحظة حاسمة فى تطوير تقعيد الكتابة العربية، من الناحية العملية استتبعت كتابة القرآن قرارات كثيرة تخص نظام الكتابة والخط العربى وكذلك استتبع قيام عدد من التقاليد الكتابة التى كانت ترمى إلى جعل الكتابة أكثر وضوحًا وسهولة من الكتابة فى العصر الجاهلى، وقد عرفنا فى الفصل الثالث أن الكتابة لم تكن مجهولة فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولكن، ولأسباب دينية ما، ركزت المصادر الإسلامية على حقيقة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان أميا، وعممت

ذلك على المجتمع الجاهلي كله. وكانت المصادر الإسلامية الأولى تشدد على حقيقة أن كون النبي عليه الصلاة والسلام أميا هو الذي جعل نزول القرآن وقراء ته معجزة.

هناك دلالات واضحة على أنه في القرن السادس الميلادي كانت الكتابة شائعة نسبيًا في المراكز الحضرية في شبه الجزيرة العربية، في المدن التجارية كمكة. من المفروض أن التجار كانوا يمتلكون أكثر من طريقة لتسجيل معاملاتهم، وهناك كذلك إشارات إلى اتفاقيات مكتوبة كانت محفوظة ببطن الكعبة، وحتى رواة الشعر كانوا أحيانا ما يعتمدون على سجلات مكتوبة بالرغم من أنهم كانوا يلقون القصائد شفاهيًا، وفي القرآن هناك انعكاس لمجتمع يعتمد الكتابة في الأغراض التجارية، بل ويبدو من القرآن أن ممارسة الكتابة لهذا الغرض كانت مستقرة وعادية، فتجد في سورة البقرة (الآية ٢٨٢) (على سبيل المثال) تحديداً دقيقًا لأسلوب كتابة توثيق الديون، انظر قوله عز وجل " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ .. "

وفي السيرة النبوية هناك إشارات كثيرة لاستخدام النبي لكتاب يكتبون مراسلاته مع قبائل العرب، كما كان يستخدمهم أيضا في كتابة المعاهدات والاتفاقات، من أشهر تلك المعاهدات تلك التي كتبت بين العرب المسلمين وقبائل من شمال الجزيرة العربية أيام غزوة تبوك في العام التاسع من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد وضعت تلك المعاهدة لأول مرة أسس العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين. حفظت لنا كتب التاريخ أسماء الشهود والكاتب كما أنها ذكرت أن النبي عليه الصلاة والسلام وقع على تلك المعاهدة بأظافره (انظر مغازي الواقدي، الجزء الثالث). ربما تكون تلك الملحوظة الأخيرة إضافة لاحقة على وقائع القصة.

من المحتمل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه من المؤكد كان لديه كتبة يعينونه، بالضبط كما كان الحال مع بني قومه من التجار المكيين الذين كان لهم من يعينهم على التجارة، كان الوحي في بداية الأمر عبارة عن آيات صغيرة يوصلها النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمنين، وكان من السهل أن يحفظ هؤلاء تلك الآيات، ولكن سرعان ما كبرت الآيات وكثرت، وأصبح من الحتمي وجود معين

كتابي مع الذاكرة. حفظ لنا التراث أسماء العديد من الكتبة الذين أملاهم الرسول عليه الصلاة والسلام الوحي، ومن بينهم زيد بن ثابت (توفى عام ٤٥ هجريا)، ويوثق لنا القرآن نفسه هذا التحول من النص الشفاهي إلى النص المكتوب، فالمصطلح الشائع للوحي في السور الأولي هو "القرآن" ويتحول ذلك المصطلح في السور الأخيرة من الوحي إلى "الكتاب".

يتفق كل من المسلمون والباحثون الغربيون على أنه لم يكن هناك جمع كامل للقرآن الكريم في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كانت هناك شرائم من مواد مختلفة استخدمها المسلمون الأوائل لتسجيل آيات من القرآن، وقد جمعت كل تلك المواد بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويروى لنا التراث أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (حكم من ٢٥ إلى ٣٥ هجريا)(*) هو الذي أمر بجمع القرآن في مصحف موحد، وأوكل تلك المهمة لكاتب وحي النبي زيد بن ثابت، وعندما تم جمع القرآن في مصحف موحد، أرسلت نسخة منه لكل مركز من مراكز الإمبراطورية حيث حل محل كل القراءات الأخرى البديلة، ولكن الناس لم تقبل هذا المصحف بسرعة، وظلت القراءات "الشاذة" متداولة لحين، ولكن بحلول نهاية القرن الثاني الهجري أصبح مصحف عثمان أساس الفقه والقراءات في كل مكان تقريبا، فتجد في كتاب سيبويه (توفى عام ١٧٧ هجريًا)(**) وهو أول كتاب وضع في النحو العربي، رفضا تاما لكل شذوذ عن مصحف عثمان، ولم يسمح إلا باختلافات صوتية محدودة. وظهرت كتابات كثيرة عن القراءات في القرآن، وهي الدراسات التي أسهمت في تحليل لغة القرآن وفي تحليل نص القرآن الكريم نفسه.

بغض النظر عن المشاكل التي ظهرت وقت جمع نص القرآن الكريم، كانت المشكلة الكبرى التي واجهت زيد بن ثابت وفريقه هي غموض الكتابة العربية، فقد كان نظام الكتابة الذي استخدمه المكيون نظامًا بدائيًا، لقد كانت هناك مشكلتان أساسيتان في الألفباء العربية البدائية، فلم يكن هناك نقط على الحروف للتمييز بين بعض الفونيمات فكان الكثير من الحروف يعبر عن صوتين أو أحيانا أكثر، وقد كانت تلك الكتابة موروثة

(*) كذا في الأصل ، والمعروف أن عثمان رضي الله عنه حكم من سنة ٢٣ إلى ٣٥ (المراجع اللغوية)

(**) توفي سيبوية عام ١٨٠ هـ . (المراجع اللغوية) .

من الخط النبطي الذي قدم الأساس للكتابة العربية المبكرة، ولكن الخط الآرامي الأصل لم يستطع التعبير عن الفونيمات العربية كاملة. ترتبط المشكلة الثانية بسمة موجودة في كل اللغات السامية، وهي أن نظم الكتابة في تلك اللغات لا تسجل أصوات اللين القصيرة، وحتى في حالة الكتابة النبطية فقد كان تسجيل الكثير من أصوات اللين الطويلة قاصراً، من الممكن أن تكون مشكلة النقط قد حلت قبل الإسلام، فهناك بعض الإشارات إلى أن الكتاب المبكرين كانوا يستخدمون النقط للفصل بين الحروف المتشابهة، ومن الممكن أن يكون العرب قد استعاروا النقط من السريانية، ذلك لأن النقط في الخط السرياني مستخدم للفصل بين ألوفونات الفونيم الواحد، بل ويقول بعض العلماء إن هناك بعض الإشارات إلى استخدام النقط في الكتابة الآرامية أيضا.

لقد كانت مشكلة أصوات اللين القصيرة مسألة مختلفة تماما، في القرن الأول الهجري وعندما بدأ المسلمون في جمع القرآن وتسجيله، أحس الناس بالحاجة إلى نظام كتابة موحد وواضح. وعزى الناس إلى نحويين كثيرين، من بينهم المخترع المزعوم للنحو العربي أبي الأسود الدؤلي (توفي عام ٦٩ هجريا)، اختراع نقط ملونة توضع أعلى الحروف وأسفلها للتعبير عن أصوات اللين القصيرة، يقول ابن الأنباري إن أبا الأسود الدؤلي أمر كاتبه فقال: "فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة من أسفله، فإذا أتبعت شيئًا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين" (نزهة ابن الأنباري، تحقيق عطية عامر: ١٩٦٣، ص٦-٧).

في هذه الرواية ينسب الراوي النقط بأصوات اللين القصيرة لأبي الأسود الدؤلي، ونستشف أيضًا أن أسماء "الفتحة" و"الكسرة" و"الضمة" مرتبطة بطريقة نطق تلك الأصوات، وعرفنا من المصادر العربية الإسلامية أنه كانت هناك معارضة شديدة لاستخدام نقط أصوات اللين في مخطوطات القرآن الكريم، وفي حقيقة الأمر لا يوجد نقط في المخطوطات الأولى للقرآن، وهي المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي ، وكذلك لا توجد أي رموز لتلك الأصوات في النقوش العربية المبكرة التي تعبر عن نص قرآني، وفي بعض المخطوطات أضيف النقط المعبر عن أصوات اللين القصيرة باليد بعد فترة من كتابة المخطوط القرآني الأولى.

هناك اختراعان آخران يعزوهما العرب لأبي الأسود وهما تسجيل الهمزة وتسجيل الشدة، كلا الشكلين غير موجود في الخط النبطي الأصل. ورأينا في الفصل الرابع أن الهمزة ربما لم تكن موجودة في اللهجة الحجازية، ولكن في النمط اللغوي الذي نزل به القرآن ونظم به الشعر الجاهلي كانت الهمزة صوتًا حقيقيًا، وبسبب المكانة العالية للغة القرآن والشعر الجاهلي كان على الكتبة الحجازيين اختراع طريقة للتعبير عن هذا الصوت. ولما كانت الهمزة في لهجتهم قد تحولت لصوت لين طويل، فقد كتبوا الكلمات التي تحتوي على همزة بصوت لين طويل يعبر عنه رمز الواو أو الياء أو الألف. ويقول العرب إن أبا الأسود حسن هذا النظام بكتابة عين صغيرة فوق الواو أو الياء أو الألف، وكانت تلك العين الصغيرة معبرة عن وجود صوت حلقي، وقد سجل أبو الأسود شدة الصوت بوضع نقطة عليه.

ولكن التطوير الخطير في نظام تسجيل أصوات اللين القصيرة يعزى لأول معجمي عربي، وهو الخليل بن أحمد (توفي عام ١٧٥ هجريا)، فقد وضع مكان النقط أشكالا خاصة بأصوات اللين القصيرة، وضع واوًا صغيرة لتعبر عن الضمة وألفا صغيرة لتعبر عن الفتحة وجزءا من ياء صغيرة لترمز للكسرة. وكذلك غير رمز الشدة فاستبدل بالنقطة أعلى الحرف سينا صغيرة، وقد وضع هذا النظام أساسا لكتابة الشعر الذي مر بمرحلة تسجيل هو الآخر، ولكنه سرعان ما انتشر في مخطوطات القرآن الكريم، وقد كان هذا النظام الجديد أقل غموضا من سابقه الذي كانت النقط فيه تلعب أدوارا متعددة.

وبإصلاحات الخليل أصبح الخط العربي كاملاً تقريبًا، واستمر على هذا النحو حتى الآن، باستثناء بعض الإضافات القليلة جدًا، ومع ذلك فتوارد رموز أصوات اللين القصيرة والنقط يختلف كثيرا من نص لنص، فهناك نصوص كاملة التشكيل وأخرى بدون حتى النقط فوق الحروف وتحتها، وبعد قيام الخط العربي واستقراره ظهرت خطوط كثيرة، وكان لكل منها وظيفته الخاصة، وإذا نحينا الخط الكوفي المستخدم في مخطوطات القرآن المبكرة جانبًا، فسنجد أنه تم اختراع نوع من الخطوط يستخدم في الدواوين، ذلك بعد إصلاحات عبد الملك بن مروان، بل وأصبح الخط واحدا من أهم عناصر الفن الإسلامي، ولما كانت الفنون التصويرية مكروهة فقد أصبح الخط العربي واحدًا من أهم عناصر الزخرفة والتزيين.

ولكن تملك خط مقعد وسليم مسألة تختلف تماما عن امتلاك لغة مقعدة وسليمة للأغراض الرسمية والتجارية والإدارية، لحد علمنا لم يمتلك التجار المكيون أرشيفات، ويجب أيضا أن نفترض أنهم لم يطوروا مصطلحًا قانونيًا أو أسسًا معيارية لمسك الدفاتر. ولذلك لجأت الحكومة الإسلامية في أول عهد الخلافة إلى الموظفين الذين كانوا يتكلمون باليونانية في مصر والشام والموظفين الذين كانوا يتكلمون الفارسية في المشرق ليسيروا المسائل الإدارية ويتولوا الضرائب، ولكن الانتقال من اليونانية للعربية في الديوان مسألة مرتبطة باسم الخليفة عبد الملك بن مروان، وفي الأثر أن الخليفة أمر الكتاب بالانتقال من استخدام اليونانية لاستخدام العربية في العام ٨١ من الهجرة، وتزعم كتب التاريخ أن السبب في ذلك التحول كان أن الناس ضبطت كاتبًا يونانيًا يبول في المحبرة (البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٦)، ومهما كانت الأسباب، فإن عملية التحول تعني ثقة العرب في أنفسهم وتملكهم لنظام كتابة سليم ويعتمد عليه.

٥-٣ تقعيد اللغة

حتى قبل تعريب الدواوين، كانت العربية تستخدم كلغة كتابة، ويرجع تاريخ أول بردية عربية إلى العام ٢٢ هجريا، كما أنه بحلول نهاية القرن الأول الهجري كان عدد كبير من النصوص العربية متداولا في شكل برديات، أما لغة تلك البرديات المبكرة فهي غير متسقة ومنتظمة من وجهة نظر قواعد الفصحى الكلاسيكية. ولكن حقيقة وجود عدد كبير من التصويبات الخاطئة hypercorrections توحي بأن كتبة تلك النصوص كانوا يحاولون تقليد نموذج لغوي معين، سوف نتعامل مع السمات اللغوية لمادة البرديات العربية في الفصل الثامن الذي يتعامل مع العربية الوسيطة، ولكن مهمتنا هنا هي تحديد ملامح عملية التقعيد اللغوي.

تحمل لغة القرآن نكهة دينية خاصة بها لا يحملها نمط آخر، بالرغم من أنها مطابقة للغة الشعر الجاهلي، وتميزت لغة القرآن عن باقي الأنماط اللغوية ببعض السمات الأسلوبية واللغوية، وكذلك كانت لغة الشعر متميزة ببعض الرخص التي لم يكن مسموحا بها في باقي الأنماط. بالرغم من أن القرآن الكريم والشعر الجاهلي كانا نموذجًا لغويًا، فإنهما لم يكونا نموذجًا يصطنع منه نثر عربي، وبالرغم من أن النحاة

كانوا يستدعون البدو، حكام الصحة اللغوية، ليفصلوا فى أمور اللغة، إلا أنهم لم يكونوا مؤهلين لفرض نمط لغوى تقعيدى بسبب اختلافاتهم اللغوية وتباينهم فيما بينهم، لقد رأينا فى الفصل الرابع أن لغة القبائل البدوية كانت مختلفة بعضها عن بعضها الآخر لحد ما، وبالرغم من أنه من المعقول أن نفترض أنه لم يكن هناك مشاكل كبيرة فى التواصل بين تلك القبائل، فإنه لم يكن هناك نمط قاعدى، وعلى الجانب الآخر كانت الجماعات الحضرية الناشئة، والتى كانت تمتلك ناصية اللغة العربية بدرجات متفاوتة، بحاجة إلى مثل هذا النمط التقعيدى، ولكن كان من الصعب على الحضر المستعربين أن يتحملوا مسؤولية قرارات تتعلق بالصحة اللغوية، بل فى حقيقة الأمر كان الاستخدام اللغوى المغاير من قبل تلك المجتمعات الحضرية هو الذى سبب القلق على مستقبل العربية عند من يرون أنفسهم ورثة الحضارة البدوية من العرب الأصلاء، وحتى لو لم نكن نصدق ما قاله المؤرخون المسلمون كابن خلدون من أن الفساد اللغوى هو الذى أدى إلى قيام النحو العربى، فلا يمكن أن ننكر أنه فى الحقب الأولى من الفتح كانت هناك حاجة ماسة لمن يتخصصون فى اللغة العربية وتعليمها.

تذكر معظم مصادرنا أن الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنه (حكم من ٣٥- ٤٠ هجريا) هو الذى أصر على وجود حل لمشكلة تزايد الأخطاء اللغوية، بينما تعزو مصادر أخرى هذا الإصرار إلى زياد بن أبيه أمير العراقين، وارتبط اسم أبى الأسود الدؤلى بعملية إصلاح اللغة وتقعيدها كما ارتبط بمسألة تحسين نظام الكتابة التى تكلمنا عنها سالفًا. وتذكر كتب التاريخ أن أبا الأسود لم يرض أن يقوم بتلك المهمة إلا أنه اقتنع فى نهاية الأمر عندما ارتكبت ابنته هو خطأ فاحشا فى علامة الإعراب فنطقت "ما أحسنُ السماءِ" بدلا من "ما أحسنَ السماءَ" (انظر أخبار السيرافى، طبعة بيروت ١٩٣٦، ص ١٩)، وهناك تنويعات أخرى كثيرة على تلك القصة باختلاف الأشخاص، وذكرنا منها سالفًا قصة يلحن فيها شخص فى القرآن الكريم.

صحة تلك القصص من الناحية التاريخية محل شك فى نظرى، وقد بين تلمون (١٩٨٥) أن النحويين المتأخرين كانوا يستخدمون اسم أبى الأسود الدؤلى كعلامة

بداية مدارسهم النحوية المختلفة، فقد كان مجرد اسم. ولكن النقطة التي تهمنا هنا باقية، وهي أن النحويين قد لعبوا دورا مهما في عملية تقعيد اللغة العربية، وكانت أول جهود البحث العلمي العربي الإسلامي هي جهود تفسير الوحي، ولكن لما كان من الصعب دراسة لغة القرآن بمعزل عن مصادر العربية الجاهلية الأخرى، الشعر، فسرعان ما بدأ النحويون يضمون هذين المكونين الأساسيين للمادة اللغوية العربية في كتبهم.

لقد كان أول نحوي يقدم وصفًا كاملاً للعربية في أول شكل كتاب عربي مكتوب بالنثر هو سيبويه الذي لم يكن عربيًا بل فارسيًا من همذان، فقد كان المثل الذي احتذته الأجيال التالية من النحويين. واعتقد النحويون أن مهمتهم الأساسية كانت تقديم شرح وتفسير لكل ظاهرة لغوية في العربية، ولم تكن مهمتهم مجرد الوصف، كما أنهم قدموا بعض النصائح حول كيفية استخدام العربية بالشكل السليم، ولذلك فقد ميز النحويون بين ما هو مسموع ومنقول فعلاً وبين ما هو صحيح في اللغة من الوجهة النظرية، من حيث المبدأ قبل النحويون العرب كل ما ورد عن طريق النقل من مصادر موثوق بها وهي أولاً القرآن الكريم، وثانيًا كل ما هو محفوظ من الشعر الجاهلي، وثالثا شهادات البدو الذين توثق بعربيتهم، وفي هذا الإطار قبل النحويون كل العناصر الشاذة والغريبة والنادرة في العربية، وإن لم يقبلوها كعناصر منتجة يستخدمها الناس ويعيدون إنتاجها. ويعتبر هذا التمييز سمة أساسية من سمات العلوم الإسلامية كافة حيث يفصل العلماء المسلمون بين العقل والنقل فصلا تاما. وكذلك فصل العلماء بين دراسة الأشكال اللغوية المسموعة والمنقولة بين النظريات النحوية، واستطاعوا أن يفرضوا قاعدة للصحة اللغوية.

وتزامنت كتابة قواعد العربية مع بداية دراسة القاموس وتوسعته الضرورية، وتعتبر عمليتا التقعيد اللغوي هاتان متلازمتين لحد كبير، فكما كان الناس يحتاجون النحويين بسبب الفساد اللغوي المفترض، فإن الهدف الأساسي للمعجميين العرب يبدو أنه كان الحفاظ على المعجم البدوي القديم– الذي كان يمر بمرحلة حرجة، هناك أسباب

كثيرة أدت إلى قلق المعجميين على القاموس العربي، أولاً كانت الحضارة الحضرية في صدر الإسلام مختلفة كلية عن حضارة الصحراء والقبائل البدوية التي كانت حارسة المعجم الشعري القديم، فلم يكن من الممكن لأي شخص حضري يسكن المدينة أن يعرف المعاني الدقيقة للكلمات الخاصة بالجمال والحيوانات البرية والخيام، وهناك قصص كثيرة عن نحويين أبرزوا أهمية هذا الجانب العلمي في حياة أي نحوي، ومن تلك القصص ما ورد عن النحوي أبي عمرو بن العلاء (توفي عام ١٥٤ هجرياً) عندما بدأ يعلم الناس اللغة، إذ سأله بدوي عن معاني بعض الكلمات النادرة الغامضة، فلما أجاب عمرو وأصاب قال البدوي: "خذوا عنه فإنه دابة منكرة" (انظر مجالس الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٢، ص٢٦٢)، تثبت هذه القصة كيف أن النحوي كان يثبت كفاءته العلمية بحجم معرفته بالقاموس البدوي.

أما متكلم اللغة العادي الذي ولد في مدينة إسلامية وعاش فيها دون أن يعرف شيئاً عن الحياة البدوية فقد كانت الكلمات العربية حتى الشائعة منها مجهولة له، ويمكننا أن نتعرف على الكلمات التي خرجت من الاستخدام بعد الفتح من تفاسير القرآن المبكرة، يحتوي تفسير مقاتل بن سليمان (توفي عام ١٥٠ هجريا) على عدد كبير من شروح معاني كلمات وردت في القرآن الكريم وظن المفسر أنها بحاجة لشرح، فقد كان مقاتل يضع كلمات مكان كلمات، فيضع مثلاً "وجيع" مكان "أليم"، ويضع "بين" مكان "مبين".

كان مصدر التهديد الثاني للمعجم العربي هو الاتصال بلغات أخرى، فعندما اتصل العرب بالثقافات الحضرية في البلاد المفتوحة تعرفوا على مفاهيم جديدة وأشياء لم يروها ولم يكن لها أسماء عربية تدل عليها، فكانت المصادر الأساسية لاستقاء المصطلحات الدالة على تلك الأفكار الجديدة هي اللغات المتكلمة في البلاد المفتوحة – وكان ذلك بالتحديد ما خاف منه بعض العلماء العرب، فقد تصوروا أن تدفق الكلمات من لغات أخرى سيفسد اللغة العربية التي اختارها الله لينزل بها على عباده آخر الوحي.

لم يكن هذا التوجه محسوسا بقدر كبير في القرن الأول الهجري- كما يتضح من شرح المفسرين لمعاني كلمات القرآن الكريم في التفاسير المبكرة- وفي العصر الجاهلي اقترض العرب عدداً كبيراً من الكلمات من الثقافات المحيطة بهم، وتم اقتراض عدد كبير من تلك الكلمات عن طريق لغة اليهود الآرامية في سوريا أو عن طريق السريانية المسيحية في العراق حيث كانت الحيرة أكبر مركز اتصال ثقافي ولغوي، وفيما يلي أمثلة على كلمات مقترضة في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، (١) كلمات مقترضة من البهلوية عبر السريانية والآرامية: "زنجبيل"، وهي في السريانية zangabiil وفي البهلوية zingabeer وكلمة "وردة"، وهي في الآرامية wardaa (٢) ومن الكلمات التي اقترضت من البهلوية بشكل مباشر: "إستبرق" في البهلوية هي stabr، وكلمة "جند" في البهلوية هي gund (٣) وهناك كلمات مقترضة من اليونانية أو اللاتينية عبر السريانية أو الآرامية، فكلمة "برج" في العربية معناها في السريانية buurgaa وفي اليونانية purgos، وكلمة قصر" تعني في الآرامية qasraa وفي اليونانية kastron وفي اللاتينية kastrum (٤) وهناك بطبيعة الحال عدد كبير من الكلمات مأخوذ مباشرة من السريانية والآرامية مثل كلمة "صلاة" وهي في الآرامية slootaa وهناك أيضا مجموعة خاصة من الكلمات المقترضة من طريق الجنوب من اللغات العربية الجنوبية والإثيوبية، مثل كلمة "صنم" التي تعني في العربية الجنوبية snm

لم تكن هناك مشاكل عند المفسرين الأوائل من أمثال مجاهد (توفي عام ١٠٤ هجريًا) في رد الكلمات المستعارة في القرآن الكريم إلى أصلها الأجنبي، فتجد مجاهد على سبيل المثال يقول إن كلمة "الطور" بمعنى "الجبل" من أصل سرياني، وإن كلمة "قسطاس" من أصل يوناني، وفي حقيقة الأمر أصاب مجاهد بعض الشيء في تخميناته فكلمة "الطور" فعلا من أصل سرياني هو thuur، وكلمة "قسطاس" ربما تكون من أصل يوناني بعيد هو dikastes بمعنى "القاضي"، وقد تكون مرت عبر الكلمة السريانية diiqasthuus قد تكون بعض أصول الكلمات التي أوردها المفسرون الأوائل وهمية، ولكن الشيء المهم لنا هو أنهم كانوا ينظرون لإثراء اللغة بكلمات أجنبية كميزة وعلامة من علامات الرفعة وأمارات العبقرية المتجسدة في القرآن الكريم، ولكن بنهاية

القرن الثاني الهجري بدأ بعض أهل اللغة ينتقدون فكرة أن يكون القرآن حاويا لكلمات أجنبية، وحاولوا أن يردوا كلمات القرآن لأصل بدوي ما. وعلى ذلك تجد أبا عبيدة (توفي ٢١٠ هجريًا) يقول: "نزل القرآن بلسان عربي مبين فمن زعم أن طه بالنبطية فقد أكبر" (انظر مجاز أبي عبيدة، من تحقيق سزكين، طبعة القاهرة عام ١٩٥٤، ص ١٧)، وبالرغم من أن معظم المعجميين العرب كالسيوطي (توفي عام ٩١١ هجريًا) ظلوا يردون الكلمات القرآنية لأصل أجنبي فإن فكرة نقاء اللغة العربية من كل شائبة ظلت الفكرة الأساسية عند بعض العلماء المسلمين، وكذلك رفض العلماء المسلمون وظلوا يرفضون حتى الآن كل المحاولات الغربية للبحث عن أصول أجنبية في لغة القرآن.

تظهر المشكلة الحقيقية في حالة الكلمات القرآنية التي تطور معنى تقنيا ليس له علاقة بدلالة الجذر التي اشتقت منه أصلاً، وفي أمثال تلك الحالات يجتهد المفسرون لاصطناع علاقة بين الجذر والكلمة القرآنية، (انظر على سبيل المثال تفسير عبارة "يوم القيامة") فمعظم التفاسير تتفق على أن كلمة "قيامة" من الجذر "ق-ي-م"، ولكنه من الممكن أن تكون الكلمة السريانية qiyaametaa التي تعتبر ترجمة للكلمة اليونانية anastasis "البعث" هي التي مهدت لهذا التوسع الدلالي في الكلمة العربية، هناك أمثلة مشابهة لنفس التفسير في كلمات مثل "زكاة" و"مسجد" و"صحف" و"سبت" و"سورة" كالأفكار الأساسية في القرآن كالـ"ساعة" و"الكتاب"، فتجد أن المفسرين العرب الأوائل أرجعوا كلمة "صحف" إلى الجذر "ص-ح-ف" الذي لا يظهر إلا في صيغة المضعف التي تعني الخطأ في القراءة، وظهر الاسم المفرد المؤنث "صحيفة" في الشعر الجاهلي بمعنى صفحة مكتوبة. ولكنه من الصعب أن نرجع الاستخدام القرآني لكلمة "صحف" في سورة طه حيث يقول عز وجل في الآية رقم ١٣٣ "الصحف الأولى" إلى هذا الجذر، وهو ما دفع الباحثين الغربيين لإرجاع تلك الكلمة لكلمة عربية جنوبية وهي sHf أو لجذر إثيوبي يعني الكتابة.

على نفس منوال فكرة النقاء اللغوي كان العلماء العرب يعتقدون أن أفضل وسيلة لتوسيع المعجم العربي كانت عملية التوسع الدلالي في الكلمات الموجودة فعلاً، وظن العلماء العرب أن لغة القرآن نفسه هي التي قدمت المثل المحتذى في هذه العملية. فلما

كان النحويون العرب قد فسروا كلمات كـ"صلاة" و"زكاة" و"إسلام" على أنها كلمات عربية بدوية أعطاها السياق الديني معناها الفني الخاص، فقد أصبحت عملية التوسع الدلالي طريقة مقبولة لاصطناع مصطلحات جديدة. لقد كان العلماء العرب على حق دون شك في أن جزء من المعجم الديني القرآني قام نتيجة لتطور داخلي دون أي تأثير خارجي، من بين الأمثلة على صحة تلك النظرية كلمة "إسلام" التي كانت تعني بوجه عام "تسليم النفس"، ولكنها تخصصت وأصبحت تعني "تسليم النفس لله والدخول في الدين الجديد الذي أتى به النبي العربي صلى الله عليه وسلم"، وحتى عندما كان معنى كلمة قرآنية يتشابه مع كلمة في لغة أخرى، فقد ثبت القرآن المعنى الجديد في اللغة العربية ككلمة أصيلة فيها.

ولكن التصدي لسيل الكلمات الجديدة التي توافدت على العالم العربي الإسلامي في القرون المبكرة لم يكن ممكنًا بتوسيع معاني الكلمات الكائنة فقط، فبالرغم من معارضة أنصار النقاء اللغوي تمت استعارة كلمات كثيرة ببساطة من لغات أخرى بشكل مباشر أو بتعديلات بسيطة لتوائم الصرف العربي أو الأصوات العربية، وتجد الكلمات الفارسية تكثر في حقول الصيدلة والمعادن والنباتات، فتجد كلمات فارسية في العربية مثل "بنفسج" و"باذنجان" و"نرجس" و"فستق" و"بابونج".

وفي الترجمات المبكرة للكتابات المنطقية والفلسفية والطبية اليونانية كانت المصطلحات المستخدمة عبارة عن مجرد نقل حرفي للكلمات اليونانية لأن المترجمين لم يجدوا معادلاً عربيًا مناسبًا، ولذلك تجد كلمات من أمثال "هيولا" كترجمة للكلمة اليونانية hulee، أفضل بديل لذلك الحال كان صياغة كلمة عربية جديدة من جذر كائن فعلا باستخدام صيغة صرفية عربية معروفة. في بداية الأمر كان كل مترجم يصوغ مصطلحاته الخاصة، ولكن الاضطراب الذي نتج عن هذا الاختلاف انتهى بإنشاء بيت الحكمة الذي كان جامعة المترجمين، وقد أنشأه الخليفة المأمون عام ٢١٥ هجريًا، انظر مثلاً إلى المصطلح اليوناني kategoroumenon "المحمول" الذي كان يترجم على أنه "مقول" أو "محمول" أو "صفة" أو "نعت" إلى أن عمم استخدام كلمة "محمول"، وكذلك ترجم العرب مصطلح apophansis "قضية" على أنه "حكم" أو "خبر" أو "قول جازم" أو "قول قاطع" أو "قضية" إلى أن تم تعميم استخدام "قضية".

وكانت تلك الطريقة نافعة جدا في ترجمة المصطلحات الطبية اليونانية بوجه خاص، سأقدم هنا أمثلة قليلة لأبين استخدام تلك الطريقة في اختراع كلمات جديدة، انظر مثلا مصطلحات حنين بن إسحاق في موضوع أغشية العين، فستجده يترجم المصطلح اليوناني الذي ينتهي بـ eides باستخدام صفات غير مادية، فهو يترجم الكلمة اليونانية keratoeides على أنها "قرنية زجاجية". واستخدم العلماء العرب وزن فُعال لأسماء الأمراض، فتجد "صداع" و "زكام" و"صفار" و"دوار" و"طحال".

ولكن الخطوة الضرورية التي كانت واجبة قبل استخدام القاموس بشكل خلاق كانت تسجيله، وكان أول معجم كامل للغة العربية من تأليف الخليل بن أحمد أستاذ سيبويه، لقد عرفنا سالفًا أن الخليل كان مشتركًا في مشروع إصلاح الخط العربي، وكذلك يعزو إليه العلماء العرب بداية نظرية العروض في الشعر. وكان هدف كتاب العين الذي أعزي للخليل هو جمع كل الجذور العربية ؛ يقدم المؤلف في مقدمة الكتاب تصويرا عاما لأصوات اللغة العربية، وقد ضم المعجم كل المادة المتاحة في اللغة العربية من خلال تضمين اقتباسات من القرآن الكريم والشعر العربي الجاهلي- وهما مادتان درسهما النحويون العرب دراسة مستفيضة.

وقد مهد تنظيم كتاب الخليل، الذي يبدو أن تلاميذه أكملوه من بعده، الطريق أمام الكتابات المعجمية اللاحقة، فالمعجم منقسم لكتب، وكل كتاب يختص بحرف من الحروف، ويبدأ الكتاب بحرف العين، وهذا هو السبب في تسمية الكتاب. وينقسم كل كتاب بدوره لفصول، يختص كل منها بأحد تنظيمات الحروف، ويحتوي كل فصل على كل التوليفات الممكنة لتلك الحروف. فتجد في الفصل المخصص مثلا لـ"ع-ق-ز" توليفات مثل "ع-ز-ق" و"ق-ز-ع"، وهذه التوليفات هي المستخدمة في اللغة فعلاً، وأطلق عليها تسمية "مستعملات". وربما يعكس ذلك الترتيب تصوراً ما عن علاقة دلالية بين كل توليفات حروف الجذور بالرغم من أن الخليل نفسه لم يذكر ذلك، وظل نظام كتاب العين مستخدماً لفترة طويلة من الزمن وحتى بعد أن قدم الجوهري (توفي عام ٣٩٣ هجرياً) معجمه الصحاح، ونظم الجوهري الجذور بطريقة ألفبائية، فيبدأ بالحرف الأخير ثم الحرف الأول ثم الحرف الثاني، وأصبح هذا النظام معتمدا في كتابة المعاجم

واستخدمه ابن منظور (توفي عام ٧١١ هجرياً) في معجمه لسان العرب – الأشهر بين المعاجم العربية.

كان التركيز في كتاب العين على الكلمات المستخدمة في الكتابة العربية، ولكن كاتبي المعجم اللاحقين حاولوا جمع كل اللغة شائعها ونادرها، وقد أدت تلك النزعة إلى تضمين كلمات ليس لها معان، أو معاني مختلفة لكلمة واحدة على أساس استخدام واحد فقط وشاذ، وكان من أهم مصادر الكلمات لتلك المعاجم هو شعر الرجز الذي كان يتمتع بطبيعة ارتجالية. ويمط الشاعر في هذا النمط الفني في معاني الكلمات وحقولها الدلالية بقدر الإمكان ليفي بغرضه، وقد أثبت أولمان (١٩٦٦) أن الكلمات الموجودة في الرجز إنما هي استخدام لصيغ مختلفة لنفس الجذر وليس استخدام كلمات جديدة من جذور مختلفة. علاوة على ذلك يستطيع شاعر الرجز أن يغير الكلمات التي ترجع لجذر ثلاثي باستخدام سوابق أو لواحق أو مورفيمات تدخل في وسط الكلمة، على ذلك استطاع الشاعر أن يستخرج فعل "ادلهم" على سبيل المثال من الكلمة الكائنة فعلا وهي "أدلم" التي تعني شديد السواد، وكذلك أمكن نحت أفعال جديدة بإضافة مورفيمات في وسط الكلمة مثل "–رَن– وـلَن– و–عَن–" وغيرها، فقد نحت الفعل "اسلنطح" بمعنى "اتسع" من الفعل "سطح". وكذلك تمت صياغة أسماء جديدة من كلمات قائمة باستخدام اللاحقة –م في آخر الكلمة، فنتجت كلمات مثل "بلدمٌ" لتعني "بليد". كل ما نود توضيحه هنا هو أن المعجميين العرب أخذوا تلك الكلمات المنحوتة التي ليس لها أصل من الاستخدام الواقعي وضمنوها في معاجمهم.

بدأت دراسة النحو والمعاجم في اللغة العربية في وقت كان البدو مايزالون متواجدين ويستطيعون إبداء الرأي، وليس لدينا أي شك في أن النحويين العرب والمعجميين اعتبروا البدو فصحاء العرب، ففي القرن الرابع الهجري مدح المعجمي العربي "الأزهري" (توفي عام ٣٧٠ هجرياً) فصاحة البدو إذ اختطفته قبيلة بدوية وأجبرته على الإقامة فيها فترة طويلة. وفي تلك الفترة كتب الأزهري معجمه تهذيب اللغة، وكتب في مقدمته يقول إن البدو يتكلمون بحسب سليقتهم الصحراوية، فيقول : "يتكلمون بطبائعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها ولا يكاد يدخل في منطقهم لحن

أو خطأ فاحش" (تهذيب اللغة، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون عام ١٩٦٤، ص٧)، وجمع نحويون كثيرون غير الأزهرى مادتهم من العرب البدو، كما يحكى فى كتب الأدب أن الخلفاء وعلية القوم كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لتعلم العربية الفصحى.

وبمرور القرون دخلت القبائل البدوية فى نطاق تأثير الحضارة المدنية وتأثرت لغتها بلغة أهل الحضر. وتجد أن الهمداني (توفي عام ٣٣٤ هجريا) فى وصفه لجزيرة العرب يقيم تراتبا للقبائل العربية بحسب صحتها اللغوية. فيقول إن العرب الذين يقيمون فى مدينة أو بالقرب من مدينة تفسد عربيتهم ولا يمكن الثقة بها، وينطبق ذلك حتى على المقيمين فى مكة أو المدينة. ويضمن النحوى ابن جنى (توفي عام ٣٩٢ هجريا) فى كتابه الخصائص فصلاً عن الأخطاء اللغوية التى يرتكبها البدو، ويقول : "لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا" (الخصائص، الجزء الثاني، تحقيق النجار، طبعة القاهرة عام ١٩٥٢، ص٥)، وفى نفس الوقت ينصح ابن جنى تلاميذه أن يختبروا معلوماتهم اللغوية مع البدو.

وحتى فى العهود المبكرة للنحو العربى تسجل المراجع أمثلة لبدو يبيعون خبراتهم اللغوية للشخص الذى يفضلونه، كما هى الحال فى المسألة الزنبورية الشهيرة، إذ كان هناك جدل بين سيبويه وأحد النحويين المنافسين له، فطرح سؤالا حول التعبير التالي: "كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها". فقد سيبويه الإجابة الصحيحة إذ قال "فإذا هو هي"، ولكن حكم العربي البدوى الذى تلقى رشوة من النحوى المنافس (ابن الأنباري، الإنصاف، تحقيق ويل، ليدن عام ١٩١٣، ص٢٩٢).

وكثيرا ما يشير النقاد المحدثون لفصاحة البدو المزعومة إلى أن النقاء اللغوى قد يكون جزءاً من نزعة عامة لتعظيم قيم حياة البادية، فتسمع بعض الناس حتى الآن يقولون إن البدو يتكلمون عربية فصحى سليمة، غالبًا ما يعنى ذلك أنهم يستخدمون كلمات قد أهملت فى مناطق أخرى ولهجات أخرى، أو أن تلك الفصاحة المزعومة راجعة إلى النمط الشعرى الذى يستخدمونه والذى يشبه الشعر الفصيح فى بعض جوانبه. لسنا هنا مهتمين بما إذا كان البدو احتفظوا فى لغة كلامهم بعلامات الإعراب فى القرن الثالث الهجرى، ولكن المهم لنا هنا هو أن النحويين فى القرن الرابع كانوا

مايزالون يجمون بدوا يثقون بعروبتهم، ومع ذلك فقد اختفت تلك الظاهرة بعد القرن الرابع الهجري، ولكن بالنظر لقصة سيبويه والمسألة الزنبورية، نجد أن هناك عنصر فساد في الجو، فأصبحت الصورة العامة البدوى هي صورة اللص والكذاب ذو الثقافة المتدنية بالمقارنة بالحضري ، وكانت النتيجة بالنسبة للنحو العربي هي أن عملية تقعيد النحو قد انتهت، فلما لم يعد هناك بدو يقدمون معلومات جديدة فقد تجمدت المادة اللغوية وأصبح البحث الميداني لا يقدم معلومات موثوق بها، ومع ذلك فقد ظلت هناك إشارات كثيرة لـ"كلام العرب" في كتب النحو، ولكن تلك الإشارات لم تعد إشارات للغة حية متكلمة يشهد عليها بدو أحياء.

٥-٤ تطور أسلوب أدبي عربي

تزامن تطوير أسلوب عربي أدبي مع تقعيد اللغة العربية، ولم يكن تطور هذا الأسلوب الأدبي ليبدأ من الصفر، فقد أصبح القرآن والشعر الجاهلي هما النموذجان الأساسيان للأسلوب الأدبي المنشود، وقد سبق ظهور الشعر المنظوم في الثقافة العربية، كما هي الحال في باقي الثقافات، ظهور أسلوب نثر أدبي خاص، ولكن في حالة الثقافة العربية لم يكن نمط شعر البادية مرضيا لكل الاحتياجات التي نشأت في الحضارة المدنية العربية الأنيقة، ولذلك ظهرت في عهد الأمويين أنماط شعرية جديدة، إذ أصبحت قصائد الغزل من العلامات المميزة لشعر المرحلة، وأصبح شعراء كعمر بن أبي ربيعة (توفي ٤٣ هجريا) من رموز الأشكال الشعرية الجديدة، وقد أدى ذلك بشكل حتمي إلى استخدام اللغة بشكل أكثر حرية وإلى ظهور أنواع من الشعر ليست نابعة من النموذج البدوي والحس البدوي، ووجدت التعبيرات الشعبية التي تعبر عن الحضارة العربية الجديدة طريقها إلى تلك الأشكال الشعرية، وأصبحت بعض التجاوزات الصرفية والنحوية والمعجمية مقبولة في هذا الشعر كاستخدام الأشكال الفعلية المختصرة مثل "نسيها" بدلا من "نَسِيَهَا" (فك ١٩٥٠: ٧٣)، ولكنه كان مسموحا للرجازين أن يجربوا نحت كلمات جديدة أو صيغ جديدة أكثر من الشعراء العاديين الذين يستخدمون البحور الشعرية العربية المعروفة، وعلاوة على ذلك كان من المستحيل

على المولدين الذين لم يروا البادية قط أن يتقنوا العربية كشعراء الجاهلية، وبالرغم من أن النموذج البدوى ظل لفترة طويلة هو المرجع الأساسي للشعر، فإن كتاب سيبويه لم يستثن شعر المولدين، والدليل على ذلك هو أن ما يزيد على ألف شاهد شعرى ضمها كتاب سيبويه حوت شعراً جاهلياً وشعراً أموياً حضريا، بل إنك تجد كتاب سيبويه يضم شواهد من شعر عمر بن أبى ربيعة ومن شعراء الرجز أيضا.

وبمرور الوقت ظهر فرق بين نمط الشعر الرسمى الذى تمسك بالنموذج القديم وتلذذ باستخدام الكلمات القديمة وأحجم عن تطويع الذات للتطور المعجمى وبين نمط شعرى ارتجالى أسرع وأكثر سلاسة يمتلئ بالكلمات العامية. وزادت الهوة بين النوعين بمرور الوقت حتى أصبح الشعر الرسمى أكثر إغراقا فى التعقيد لدرجة أنه تعذر على الفهم دون شرح، فتجد شاعرا كالمتنبى (توفى عام ٣٥٥ هجرياً) مثلاً ينشر شعره مصحوباً بتعليق ونقد، أما النوع الآخر من الشعر فقد مر بمرحلة تطور مختلفة، ففى أكثر أشكال هذا النوع تطوراً، الموشحات والزجل، استخدمت العامية فى المذهب. وانتشر هذا النوع من الشعر فى المغرب الإسلامى بشكل خاص.

ولما كان الشعر ذا طبيعة خاصة فإنه أقل أهمية من النثر فى مسائل التقعيد اللغوى (لقد قلنا سالفاً إن العربية كانت مستخدمة منذ نشأة الإمبراطورية العربية الإسلامية فى أغراض التجارة والإدارة) ولم يكن لذلك النوع من الكتابات أى تطلعات أدبية بالرغم من أن الكتبة كانوا يحاولون محاكاة الفصحى، وهو ما يدلل على وجود نمط لغوى تقعيدى فى تلك المرحلة المبكرة، ولكن كانت هناك أشكال أخرى من الكلام لبعض منها مرجعية فى العصر الجاهلى، فقد تمتعت الثقافة العربية بسمعة عريضة فى استخدام الكلام استخداماً بلاغياً جميلاً، فقد شغف البدو بفصاحة الكلام وحلاوته، كما كانت الخطابة من عادات العرب التى استمرت لصدر الإسلام، فتجد أن أقدم الخطب المحفوظة لدينا تعكس استخدام الأساليب البلاغية والتقاليد الأدبية العربية المعروفة، من أجمل الأمثلة وأشهرها على هذا النوع من الكلام خطبة الحجاج بن يوسف (توفى عام ٩٥ هجرياً) فى مناسبة توليه إمارة الكوفة، إذ قال: "إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها عموداً فوجهنى إليكم

فإنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصى ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب جرائب الإبل (الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص ٢٩٤).

نوع آخر من النصوص التى كان لها جذور في العصر الجاهلي هي الحكايات والقصص، من بداية التاريخ المعروف . كان القصاص يلعب دوراً كبيراً في حياة القبيلة إذ كان منوطاً به أن ينقل أيام القبيلة لأبنائها. واستمر هذا التقليد بعد الإسلام بشكل معدل عندما أخذ القصاصون يتناقلون سيرة (النبى صلى الله عليه وسلم) وحكايات المغازى وفتوح البلدان، وتوجه القصاصون بقصصهم للجمهور العادى ونظن أنها كانت تحكي بأسلوب حي مليء بالمحادثات الوهمية وخال من الحليات الأدبية، ولكن الموضوعات التي تناولها القصاصون كانت أيضاً محل اهتمام العلماء، وكان العلماء يشتركون مع القصاصين في كراهية كتابة مادتهم العلمية لأن القرآن وحده هو الذى كان يكتب في كتاب. ولكنهم استخدموا الكتابة لتسجيل أفكارهم وملاحظات من يدلون إليهم بمعلومات، ولكن هذا النوع من الكتابة كان لاستخدام العلماء الشخصي فقط، ولم تظهر أول محاولة لتسجيل سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) وذكر الأيام الأولى للإسلام بشكل منظم إلا في نهاية القرن الأول الهجري- أى عندما كان الرجال والنساء الذين رأوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكموه في سن الشيخوخة. وشهدت تلك الفترة نشاطا محموما للعلماء لجمع كل ما يستطيعون من الصحابة الباقين على قيد الحياة، جمع علماء كالزهرى (توفى عام ١٢٤ هجرياً) الأحاديث النبوية في كتاب كان ينتظره الخلفاء بكل شوق، وربما أودع هذا العمل الأول من نوعه في خزانة القصر.

أفضل أجناس الكتابة توثيقاً في صدر الإسلام كان الرسائل، وأقدم أمثلة لنصوص الرسائل الموجودة موجودة في ما ذكر في بطون الكتب عن مكاتبات الرسول (صلى الله عليه وسلم) لشيوخ قبائل العرب، وأثناء فترة الفتوحات من المفروض أنه كانت هناك طائفة كبيرة من المكاتبات بين الحكومة المركزية في المدينة المنورة والقادة العسكريين في الميدان، ونعتقد أن محتوى معظم تلك الرسائل كان تجارياً، ولكنه من المفروض أن بعض تقاليد كتابة الرسائل قد وجدت طريقها للنور في تلك الفترة، من

الصعب جداً تحديد مقدار صحة نصوص الرسائل التي حفظها لنا المؤرخون المتأخرون وأصالتها، وتجد بعض العلماء يشيرون إلى وثائق حقيقية معروفة كمعاهدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأهل دومة الجندل، وهي المعاهدة التي يدعي الواقدي أنه رآها رأى العين (انظر كتاب المغازي، الجزء الثالث)، ولكننا عموما لا نضمن صحة تناقل نص الوثائق المنقولة بالرغم من إمكانية أن يكون العلماء قد حفظوا فحوى تلك الوثائق بشكل كاف. يصدق نفس الحكم على نصوص مكاتبات الخلفاء الراشدين ومعاهدة صفين أيضاً.

ولما كان معظم كتاب العصر الإسلامي المبكر من السوريين والفرس، أو حتى من العرب المسيحيين الذين كانوا ينتمون لقبائل عربية خارج شبه الجزيرة، فقد وجدت بعض الأمثلة والتقاليد الأدبية الأجنبية طريقها للنتاج الأدبي العربي في تلك المرحلة، ولكن الإصلاحات التي أجراها الخليفة عبد الملك (حكم من ٦٥ إلى ٨٦ هجريا) بتعريب الديوان كانت النقطة التي ظهرت عندها طرائق جديدة لكتابة العربية للأغراض الرسمية، ولما كان الكتبة في تلك المرحلة مسؤولين عن صياغة المكاتبات الرسمية والوثائق، فقد كان دورهم في تطوير أسلوب كتابة فن الرسائل كبيراً، وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (حكم من ١٠٥ إلى ١٢٥ هجرياً) وضع العرب أسس النظام الإداري العربي الذي أخذه العباسيون بعد ذلك وحسنوه وطوروه.

ومنذ بداية عهد بني أمية كانت رعاية الخلفاء مهمة جداً في ظهور أي نص مكتوب، سواء كان النص أدبياً أو إدارياً، بل إن بعض المصادر تقول إن معاوية بن أبي سفيان (حكم من ٤١ إلى ٦٠ هجرياً) كانت له مكتبة يودع فيها نصوص الأحاديث المكتوبة والتي أمر هو نفسه بجمع بعضها، وقد كان لحفيده خالد بن يزيد بن معاوية اهتمام عظيم بالكيمياء، بل وقد يكون هو الذي بدأ أول ترجمة من اليونانية إلى العربية، وهناك إشارات كثيرة إلى طلب الخلفاء الأمويين المتأخرين لترجمات بعض الكتب من اليونانية أو السريانية إلى العربية وخاصة في مجالات الطب، ويدلل هذا بشكل كاف عل وجود خزانة كتب في تركيبة كل قصر خلافي، وبالرغم من أن العباسيين حاولوا جاهدين طمس كل شيء حسن عن الأمويين، فإنه من الواضح أن خلفاء بني أمية قدموا كل الرعاية للعلماء من أمثال الزهري في مجال الحديث.

وقد تزامن تطوير أسلوب لغة عربية مكتوبة مع تطوير مادة كاملة من النثر الأدبي العربي المكون من ترجمات عن الفارسية مثل "كتاب في السياسة العامية مفصلا"، وتضمن الكتاب تفاصيل كثيرة كانت تعزى في بعض الأحيان إلى كاتب هشام بن عبد الملك أبي العلاء سلام، وقد أتم عبد الحميد بن يحيى (الكاتب) (توفي بعد عام ١٣٢ هجريًا) كاتب مروان بن محمد (حكم من ١٢٧ إلى ١٣٢ هجريًا) الذي جمع بعضا من أوجه الفن في كتب حفظت لنا بعضها مثل "رسالة إلى الكتاب". وكان أسلوب عبد الحميد الكاتب يتميز بالزخرفة والسجع في بعض الأحيان كما كان مليئا بالصور الأدبية، ولكن أسلوب كتابته لم يكن يحتوي على غريب الكلمات والصور المعقدة التي كان الشعر يتميز بها.

تبنت أقدم نصوص المواعظ كتلك التي كتبها الحسن البصري (توفي عام ١١٠ هجريا) أسلوب الرسائل في توجيهها للخليفة، ولكن كتبة هذا النوع من النثر طوعوا أسلوب الرسائل لمحتوى مادتهم المكتوبة، ولما كانت طبيعة تلك النصوص دينية في الأساس فقد اقتبست من القرآن الكريم أكثر مما فعل عبد الحميد الكاتب بكثير، انظر الحسن البصري إذ يقول: "فكتاب الله تعالى حياة عند كل موت ونور عند كل ظلمة وعلم عند كل جهل، فما ترك الله للعباد بعد الكتاب والرسول (صلى الله عليه وسلم) حجة وقال عز وجل"ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة إن الله لسميع عليم" ففكر أمير المؤمنين في قول الله تعالى: "فمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة)" (الحسن البصري، رسالة في القدر، تحقيق عمارة، بيروت عام ١٩٨٧، ص ١١٣).

استمرت أسرة العباسيين في تقليد تشجيع كتابة الكتب التي بدعها بنو أمية، فقد ألفت كتب بناء على طلب من بعض الخلفاء بغية تعريف الصفوة المثقفة بإنجازات الثقافات الأخرى. وقد أعطيت أوامر تلك الكتب لكتاب غالبيتهم من غير العرب، فقد قدم الكاتب الفارسي ابن المقفع (توفي عام ١٤٢ هجريًا) ترجمات أدبية من البهلوية، ومن أشهر ترجماته كان كتاب القصص الهندية كليلة ودمنة. كما أنه ألف كتبًا جديدة من أمثال "كتاب الأدب الكبير" و"رسالة في الصحابة". وقد كانت معظم أعماله مكرسة لأصول أدب البلاط وأصول معاملة الحاكم والمحكوم.

ولما كانت النصوص المحفوظة من العصر الأموى نادرة لحد ما، فإنه يصبح من الصعب تحديد النموذج الأسلوبي الذى انتهجته كتابات العصر العباسي المبكر، لقد تزايد تأثير لغة القرآن في العصر العباسي، ولكن يصعب القول بأنها كونت النموذج النثرى لكتابات الفترة، فتمتلئ لغة ابن المقفع بجمل غاية في التعقيد النحوى تعج بالصور والتشبيهات وأسماء الأفعال والمصادر، ولكنها مع ذلك ظلت سهلة مسترسلة كما هي الحال في المثل التالي: "واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه والمرء جدير أن يكون حبه المدحَ هو الذي يحمله على رده، فإن الراد له محمود والقابل له معيوب" (انظر أدب ابن المقفع، طبعة بيروت عام ١٩٦٤، ص ٦٩).

وصل تيار دعم الترجمة الذى بدأه الأمويون إلى قمته في أيام العباسيين، وقد كانت الترجمات العربية للنسخ السريانية من المؤلفات اليونانية قبل إنشاء المأمون لبيت الحكمة مكتوبة بأسلوب ركيك لا يتناسب مع الأصل اليوناني بأى حال، انظر المثل التالي من ترجمة كتاب أبوقراط "في طبيعة الإنسان": "وإذا جاء الربيع فينبغى أن يزاد في الشراب ويكسر بالماء وتنقص من الطعام قليلا قليلا وتختار منه غذاء وأرطب وتستعمل مكان الاستكثار من الخبز الاستكثار من السويق" (كتاب بوقراط في طبيعة الإنسان، طبعة كمبردج عام ١٩٦٨، ص ٢٧– ٢٨).

تعتبر الإساءة بذكر العادة اليونانية في خلط النبيذ بالماء في سياق إسلامي من ضمن الإهمال العام في أسلوب ترجمة النص ككل. ولكن في كتابات شيخ المترجمين حنين بن إسحاق (توفي عام ٢٦٠ هجريًا) لا يوجد أى أثر لأخطاء الترجمة تلك بتاتا. فهو يرفض تمامًا أساليب من سبقه من المترجمين وترجماتهم الحرفية، ويستخدم أسلوبا بسيطًا واضحًا يستفيد من الإمكانيات النحوية الكبيرة للغة العربية، وهو كذلك يبتعد عن أسلوب كتابة الرسائل المنمق المزخرف، وربما يعكس تفضيل حنين بن إسحاق لاستخدام الجمل المركبة والمصادر الكثيرة تعقيد النص اليوناني الأصلي ، انظر: "فكتبت له كتابًا بالسريانية نحوت فيه نحو الذى قصد إليه في مسألته إياى وضعه" (رسالة حنين بن إسحاق إلى على بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعد ما لم يترجم، تحقيق برجشتراسر، طبعة ليبزج عام ١٩٢٥، ص١).

لقد كانت كل من رسائل ابن المقفع وترجمات الكتب اليونانية الفلسفية والمنطقية والرياضية كتبا منشورة بمعنى الكلمة. وكانت كتبًا لكل الناس وليست مقصورة على استخدام البلاط، أما فيما يخص الكتابة في المسائل الفقهية والحديث والتاريخ والمغازي والتفسير فقد كان الوضع مختلفا، وعندما طلب الخلفاء العباسيون من العلماء أن يكتبوا معارفهم في شكل كتب ليستفيد منها أولياء العهد الذين كانوا بحاجة لتلك الكتب في تعليمهم، فعلوه كرد فعل على نشاط الأمويين السابق، فقد كان الأمويون يدعمون نشاط علماء الحديث ولكن آلة الدعاية العباسية حاولت أن تكرس فكرة اهتمام الأمويين بالدنيا وهمشوا اهتمامهم بجمع الحديث وجمع علوم الدين، وكان ابن إسحاق (توفي عام ١٥٠ هجريًا) من أوائل علماء البلاط وكان من أول من جمع مادة عن التاريخ العربي الإسلامي ليستخدمها في أغراض التعليم. وطلب منه الخليفة المنصور (حكم من ١٣٦ إلى ١٥٨) أن يعرضها في بلاطه، وقام بعد ذلك بإيداعها مكتبة الخليفة كنص متكامل (انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، الجزء الأول، ص ٢٢٠).

وبالرغم من أن نسخ هذا الكتاب والكتب الأخرى المماثلة قد اختفت تماما إلا أن نشاط ابن إسحاق كان بداية الكتابة التاريخية باللغة العربية، بل إن تلك الكتابات والأعمال حددت أساليب الكتابة التاريخية لفترة طويلة، يمكننا أن نتكهن بأن ذكر الأحداث التي وقعت في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) والمغازي كانت مكتوبة بلغة مشابهة للغة كتابات القصص التاريخي المبكرة، وهو أسلوب نثري خرج من عباءة أخبار القصاص الأوائل. فقد كان التركيز على حيوية القصة، ولم يكن العلماء يستخدمون أسلوبًا مزخرفًا بل استخدموا كلمات مبسطة في تراكيب واضحة، يوضح المثل التالي أسلوب الكتابة التاريخية العربية في تلك الفترة ويوضح تقسيم النص لقسمين: الإسناد والمتن: "قال بن مالك حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس بن مالك، قال رأيت قباء أكيدر حين قدم به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتعجبون من هذا فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا" (انظر سيرة بن هشام، الجزء الرابع، طبعة القاهرة عام ١٩٣٦، ص ١٦٩– ١٧٠).

لم يكن لتلك النصوص بطبيعتها نفس النزعات الأدبية والأسلوب المنمق الذي كان للشعر. بالطبع كان للمؤرخين المتأخرين كالطبرى (توفي عام ٣١٠ هجرياً) نزعتهم في كراهة مجرد نقل قصص المؤرخين السابقين، ونزعوا إلى ترتيبها وتصنيفها. بالمقارنة بالشعر كان لمثل هذه النصوص التاريخية حرية نثرية كبيرة ومحددات شكلية قليلة، وهو ما أشاح بالنقاد الأدبيين بعيداً عن الاهتمام بتلك الكتابات اللهم إلا في حالة نعي الأخطاء النحوية الكثيرة التي وجدت سبيلها لهذا النثر. وميز قدامة بن جعفر (توفي عام ٣٣٧ هجرياً) بين أسلوبين في كتابه نقد النثر، أسلوب سخيف وأسلوب جزل، وحدد استخدام كل منهما بعناية.

أما الأسلوب الجزل عند ابن قدامة فهو الأسلوب الذي نجده في المكاتبات الرسمية المكتوبة بأسلوب مزخرف ويتركيز على الشكل، نجد في هذه الكتابات متواليات السجع التي أصبحت تميز الكتابة العربية، وحتى في الكتابات غير الأدبية، نجد مقدمة يستخدم فيها هذا النوع من النثر المسجوع، وفي الجدل الذي قام بين النقاد حول ما إذا كان اللفظ أو المعنى هو الأهم في العمل الأدبي غلب الرأي الذي يقول بضرورة الحكم على العمل الأدبي من خلال لفظه وشكله لأن المعنى الذي يريده الكاتب عام ومعروف للجميع في حين أن الشكل عنصر لا يستطيع أن يتعامل معه إلا الكاتب المقتدر. وقد أدى هذا التوجه إلى ظهور أسلوب كتابة يعتمد على الكليشيهات لأن الشكل أصبح أهم بعد في الأسلوب وانزوى المعنى خلفه، ووصلت تلك النزعة إلى قمتها في أسلوب كتابة المقامات، فتجد أن إبداعات كتاب من أمثال الحريري (توفي عام ٥١٦ هجرياً) تحتوي على فصول عبارة عن لعب بالشكل اللغوي ليس غير.

هناك نوع آخر من الكتابة العربية يتطابق مع الأسلوب السخيف الذي تكلم عنه قدامة بن جعفر، وهو أسلوب كتابة المكاتبات الشخصية والكتابات غير الأدبية كالكتابات في علم الجغرافيا والتاريخ ووفيات الأعيان والسير وكتب الفقه البسيطة وحتى كتب النحو، في أمثال تلك الكتابات نجد تبسيطاً للمعايير الأسلوبية دخول العامية واستخدام الأسلوب المباشر، بل إن بعض الكتاب تمادوا واستخدموا أسلوباً نثريا أهمل قواعد العربية الفصحى وتقرب من العامية المتكلمة في عصرهم، ولكن

عندما استخدم هؤلاء الكتاب تراكيب أو مفردات عامية كانوا يكتبون فى داخل إطار الفصحى. ومن وجهة نظر علم اللغة التاريخى تصبح نصوص مثل مذكرات أسامة بن منقذ (توفى عام ٥٨٤ هجريًا) ويسير بن أبى أصيبعة (توفى عام ٦٦٨ هجريا) من بين نصوص العربية الوسيطة، ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين هذا الجنس الأدبى الذى يحاول العلماء فيه البحث عن أسلوب بسيط وبين الوثائق الكثيرة المكتوبة بلغة مخلوطة بالرغم من أن النوعين يندرجان تحت تصنيف العربية الوسيطة.

لقد كان التزامن بين أسلوب جزل وأسلوب سخيف والصراع بينهما محسوسًا منذ فترة مبكرة فى الثقافة العربية الإسلامية فى البرديات، وقد ظهرت تلك الازدواجية اللغوية فى النصوص الأدبية ونصف الأدبية، وسوف نرى فى الفصل الثانى عشر أن هذا الصراع لم ينته منذ بدأ فى تلك الفترة المبكرة، فتجد فى الأدب العربى الحديث أن المؤلف يختار الأسلوب الذى يريد التعبير به، ولكن العائق الوحيد أمام كل النتاج العربى المكتوب هو موقع الفصحى كلغة التميز والارتفاع، فمهما كان الأسلوب الذى يستخدمه المؤلف من جزل أو سخيف تبقى الفصحى معيار العمل الأساسى، وحتى لو اختار المؤلف أن يكتب بغير الفصحى فلن يستطيع فى النهاية أن يهرب من أنيابها.

٥-٥ مكانة العربية كلغة رسمية

ظلت اللغة العربية طيلة العصر الذهبى للإسلام لغة رفيعة تستخدم فى كل المجالات الدينية والثقافية والإدارية والعلمية. ولم يوجد ما يهدد هذا الموقع الفريد فى العصور الإسلامية المبكرة، وآمن العرب أنه لا يوجد بديل للغة العربية فى العالم. يفسر هذا التوجه اختفاء كل لغات الحضارة الأخرى فى الإمبراطورية الإسلامية كالقبطية واليونانية والسريانية وحتى الفارسية، وكذلك لم يبد النحويون العرب أى اهتمام بدراسة أى لغة أخرى وتحليلها إلا فيما ندر. وبنفس الطريقة، لم يجد متكلمو اللغات الأخرى ما يفخرون به فى لغاتهم وفضلوا أن يتكلموا بالعربية ويكتبوا بها، وفى القرون الأولى بعد الهجرة ظن الفرس أن لغتهم دونية بالمقارنة بالعربية، فقد رأينا أن أول من وضع وصفًا كاملاً للعربية، سيبويه، كان متكلما بالفارسية كلغة أم، ومع ذلك لا نجد فى

الكتاب أي إشارات للفارسية، وانظر أيضًا إلى نحوى جليل آخر وهو (أبو على) الفارسى (توفى عام ٣٧٧ هجريًا) عندما سأله تلميذه ابن جنى عن لغته الأم وهى الفارسية، وقال إنه لا يوجد معرض للمقارنة بين اللغتين لان العربية أعلى (الخصائص، الجزء الأول، ص٢٤٣)، وبمرور الوقت ظهرت حركة شعوبية فارسية تناهض العرب وتفت فيهم ولكنها لم تستطع أن تنال من مكانة اللغة العربية.

ومع ذلك، ومن بداية القرن التاسع الميلادى بدأ استخدام الفارسية كلغة أدبية يتزايد فى شرقى إيران حيث لم تضع الثقافة العربية قدمًا، فقد استخدمت الفارسية الوسيطة كلغة شعرية فى بلاط ملوك شرق إيران المستقلين، وحلت الفارسية محل العربية كلغة ثقافة فى عصر الدولة السامانية فى القرن العاشر الميلادى، وبعد سقوط بغداد عام ٦٥٦ هجريًا وأثناء الحروب المغولية فقدت اللغة العربية مكانتها الرفيعة فى الإمبراطورية الإسلامية شرقى إيران إلا فيما يتعلق بمسائل الدين، أما فى إيران نفسها فقد تبنت الدولة الصفوية تحت قيادة الشاه إسماعيل الفارسية كلغة دولة والتشيع مذهبًا.

واحتفظت العربية بمكانتها فى كل المناطق الأخرى لفترة طويلة، أفضل الأمثلة على ذلك هى مصر المملوكية، فلم يكن العرب يحترمون الأتراك بل كانوا ينظرون إليهم كمجرد عسكر جيدين، ولذلك استخدموهم للدفاع عن الإسلام، ولكنهم لم يكونوا بالنسبة للعرب قوم حضارة، وكانت عربيتهم، إن تكلموها أصلاً- لاحنة، ولكن المماليك الصغار كانوا يتعلمون العربية بجرعات كبيرة، ولذلك نتوقع أن بعضا منهم كان على الأقل يفهم العربية. وتوجد فى كتب السير، مثل كتاب الوافى بالوفيات للصفدى، إشارات إلى علماء مماليك شغلوا أنفسهم بالبحث فى مجالات علوم الدين والنحو وعلوم الأدب العربية، وحتى عندما بدأ المماليك فى القرن الرابع عشر يصدرون كتابات بالتركية فى مصر ظلت العربية هى لغة البلاد الأدبية.

وعندما فتح السلاجقة الأناضول أصبحت التركية لغة الدولة الرسمية، واحتلت الفارسية مكان اللغة الأدبية، وحتى فى تلك الظروف ظلت العربية ذات مكانة عالية أولا

لأنها ظلت مصدراً لاقتراض الكلمات وإثراء التركية، وثانياً لأنها كانت لغة الدين، ومع ذلك فقد فقدت مكانتها كلغة الإدارة وهي المكانة التي احتلتها التركية. وفي نهاية القرن التاسع عشر، في فترة إحياء اللغة العربية ونهضتها، كانت هناك محاولات لإعادة العربية كلغة إدارة، ولكن ظهور الاستعمار قصر من عمر تلك المحاولات، ولم تصبح العربية لغة إدارة الدولة في البلاد العربية إلا بعد استقلال تلك البلاد كوحدات سياسية منفصلة في القرن العشرين.

الفصل السادس

ظهور العربية المولدة

٦-١ الوضع اللغوى فى الإمبراطورية الإسلامية

كانت مرحلة الفتوحات الإسلامية التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عام ١٠(*) هجرياً مباشرة بمثابة بداية التغيير الشامل في تاريخ اللغة العربية. ففي غضون حقب قليلة جداً انتشر متكلمو العربية فى منطقة جغرافية واسعة وفرضوا على سكان البلاد المفتوحة، وبالرغم من أن متكلمي العربية كانوا موجودين في مصر وسورية قبل الفتوحات، إلا أن لغتهم لم تكن قط لغة رفيعة خارج شبه الجزيرة العربية، وبناء على ذلك لم يكن هناك دافع عند أي غير عربي أن يتعلم العربية .

سوف نهتم في هذا الفصل بتبعات الفتح العربي وعملية التعريب فيما يخص بنية اللغة العربية، سوف نهتم أولاً بالوضع اللغوى في البلاد المفتوحة ثم سوف نناقش التغيرات اللغوية التي تلت الفتح. وسوف نهتم بعد ذلك بالتفسيرات المختلفة التي قدمها العلماء لتلك التغيرات.

استطعنا أن نتعرف على تفاصيل الفتوحات العربية من الأوصاف المفصلة التي قدمها لنا المؤرخون المسلمون، ولكننا لا نعرف نفس القدر من المعلومات عن التعريب. لقد كانت جهود السلطات الإسلامية في المدينة من الناحية العسكرية في الفترات الأولى من الفتوحات موجهة للسيطرة على القبائل التي تتكلم العربية، وكان هذا النشاط على مرحلتين: الأولى في شبه الجزيرة العربية في فترة حروب الردة، والثانية

(*) حجة الوداع كانت عام ١٠ هـ ، وتوفي الرسول صلى الله وعليه وسلم في ربيع الأول عام ١١هـ (المراجعة اللغوية) .

خارج الجزيرة العربية في الصحراء العراقية والسورية حيث أقامت القبائل العربية منذ عصور قديمة خلت ، ربما كانت الفكرة الأساسية وراء الفتح في جمع القبائل التي تتكلم العربية تحت راية الإسلام، وفي ذلك السياق تكون فكرة غزو المناطق المحيطة بشبه الجزيرة فكرة لاحقة.

يصعب تحديد درجة التعريب في الأمصار الإسلامية بسبب نقص الوثائق، وفي مناطق معينة لا نملك إلا التخمين في مسألة الفترة التي تم فيها تبني العربية لغة للبلاد، ولكننا نعرف أن التعريب كان عملية أشمل من الأسلمة بل وكان أسرع منها، ومن المحتمل أنه كانت للدخول في الإسلام مميزات مادية كالإعفاء من الجزية مثلا، ولكن نزعة التسامح العامة التي كانت عند المسلمين تجاه المسيحيين واليهود لم تخلق حافزا عادلاً للدخول في الإسلام، وكان من نتيجة ذلك أن اللغة أصبحت عنصر توحيد في الإمبراطورية الإسلامية أكثر من الدين، ومازال تجد حتى الآن جماعات كبيرة من المسيحيين واليهود تقطن العالم العربي وتتكلم العربية كجيرانهم من المسلمين.

أما بالنسبة للوضع اللغوي في الإمبراطورية الإسلامية الناشئة فقط كان واضحا نسبيا، ففي شبه الجزيرة العربية كانت اللغة الأجنبية الوحيدة التي صادفها العرب هي العربية الجنوبية، ولم تكن تلك اللغة مستخدمة في شكلها الكتابي بل في شكل لهجات عامية فقط، يتضح ذلك من أن تلك اللهجات العربية الجنوبية ما تزال مستخدمة في بعض الجيوب اللغوية في محافظتي ظفار في عمان ومهرا في اليمن وفي جزيرة سوقطرة حيث يتكلم تلك اللهجات عشرات الآلاف من أبناء تلك اللغة الأصليين، حدد العلماء ست لغات منفصلة في تلك الجيوب وهي المهري والحرسوسي والبطحاقي والسوقطري والجبالي والهبيوت. وتعتبر كل تلك اللغات غير مفهومة تماما لمتكلم العربية، وقد رأينا في وصف الهمداني لجزيرة العرب أنه يفصل بين تلك اللغات وباقي اللهجات العربية التي تأثرت بالعربية الجنوبية، وعبر عن ذلك الفصل بقوله إن تلك اللغات أعجمية على متكلم العربية، وليست اللغات العربية الجنوبية الحديثة مستمدة بشكل مباشر من العربية الجنوبية القديمة، بل هي أشكال منفصلة متعزلة لم يرد عليها أي تأثير عربي إلا في العصر الحديث فقط.

كان معظم الشعب فى العراق يتكلم الآرامية التى كانت اللغة المشتركة الأوسع انتشارا، وكانت اللغة البهلوية مستخدمة كلغة إدارة فى المناطق الخاضعة للسيطرة الساسانية، وكانت العربية لغة عدد لا يستهان به من شعب العراق، أى القبائل البدوية التى كانت تجوب الصحراء، وأصبحت بعض قبائل العرب فى تلك المنطقة قبائل حضرية كما هى الحال عند بنى طنوخ، التى سكنت ربع قبيلة حلب قبل الفتح، تحولت معظم تلك القبائل إلى المسيحية منذ فترة طويلة، وخاصة تلك العشائر التى كونت إمارة الحيرة، بالرغم من أن منطقة نفوذ بعض القبائل فى شمال وشرق الجزيرة العربية كانت داخل الجزيرة نفسها إلا أنها كانت متصلة بالقبائل المقيمة فى العراق اتصالا وثيقًا.

وفى سوريا ظلت اللغة اليونانية مستخدمة كلغة كتابة لفترة من الزمن، ولكن العربية حلت محلها فى تلك الوظيفة فى نهاية القرن الأول الهجرى، وظل المسيحيون السوريون يستخدمون السريانية كلغة كلام حتى القرن الثامن الميلادى، وظلت السريانية مستخدمة كلغة أدبية حتى القرن الرابع عشر الميلادى، ولكن هناك بعض الجيوب اللغوية السريانية حتى الآن فى قرية معلولة حيث يتكلم السكان نوعا من الآرامية الغربية، وفى غرب كردستان فى شكل الآرامية الوسيطة. ومايزال حوالى ٣٠٠ ألف شخص يتكلمون الآشورية أو الآرامية الشرقية فى إيران وتركيا والعراق ومن المهاجرين العراقيين فى القوقاز وسوريا، وكل من يتكلمون تلك اللغة ينتمون للمجتمع المسيحى.

يمثل تاريخ اللغة الفارسية حالة خاصة، فقد ظلت البهلوية مستخدمة كلغة إدارية فى فارس فى القرن الأول للفتح العربى، ولكن العربية حلت محلها بعد إصلاحات عبد الملك بن مروان ولكن تعريب الديوان بدأ فى خرسان حوالى عام ١٢٤ هجريًا متأخرًا عن غرب إيران، وبعد ذلك ظلت البهلوية مستخدمة كلغة كتابة فقط فى دوائر المزدكيين وأفسحت المجال للعربية كلغة أدب وإدارة ودين. وبحلول القرن الثالث الهجرى أصبحت العربية لغة الثقافة والأدب فى عموم إيران، فترجمت معظم الأعمال الأدبية الفارسية إلى العربية، وقبل المثقفون الفرس ، حتى أثناء هجومهم على العرب فى حركة الشعوبية ، اللغة العربية كوسيلة طبيعية للخطاب.

ومع ذلك كانت لغة الكلام في الأقاليم الإيرانية مسألة مختلفة؛ لقد كانت العربية لغة العرب الوافدين الذين اختاروا الحياة في المدن، وكذلك كانت لغة القبائل العربية التي نزحت إلى خرسان، ولكن بحلول القرن الثامن الميلادي تحول العرب لاستخدام العامية الدارجة للشعب الإيراني الذي يعيشون وسطه، فتبنوا الدرية أو الفارسية الوسيطة التي كانت لغة البلاط الساساني، وبانتشار الإسلام توسعت الدرية وحجبت باقي اللهجات المحلية الأخرى، إذ أصبحت الكثير من الأقاليم الإيرانية تتكلمها بدلا من لهجاتها المحلية. سوف نرى فيما بعد أنه في القرنين التاسع والعاشر استعادت الفارسية التي كانت لغة كلام فقط موقعها السابق كلغة أدب في بلاط الممالك والإمارات المستقلة في شرقي إيران.

وفي مصر، كما كانت الحال في سوريا، كانت اليونانية لغة الصفوة الهلينية المحدودة، وإلى جانب ذلك كانت لغة الإدارة. ولكن معظم الشعب المصري كان يتكلم القبطية التي أصبحت في القرن التاسع لغة أدبية عندما ترجم الكتاب المقدس للهجة الصعيدية. علاوة على ذلك كانت القبطية لغة الدين للمؤمنين العاديين الذين لم يفهموا اليونانية . عندما بدأ عمرو بن العاص فتح مصر بجيش عليل لا يزيد عدد رجاله على أربعة آلاف اتبع نفس سياسة التوطين التي اتبعت في العراق من قبل، وبذلك جعل من مخيم الفسطاط مركز الإدارة الجديدة، وسرعان ما توافد الأقباط على المدينة الجديدة وتزايد التواصل بين متكلمي القبطية ومتكلمي العربية في كل مكان، وبمجرد ما انخرطت مصر في سلك الإمبراطورية العربية الإسلامية بدأت هجرات من قبائل عربية تتوافد إليها بشكل عشوائي.

في القرون الأولى من الحكم الإسلامي تعين على الآباء القبط أن يتواصلوا مع الحكام العرب من خلال مترجمين، ولكن بحلول القرن العاشر، اشتكى سويرس الأشموني صاحب سير الآباء والبطارقة من أن معظم القبط لم يعودوا يفهمون اليونانية والقبطية، بل يتكلمون بالعربية فقط، قد يعني ذلك أن كل المسيحيين في مصر السفلى قد انتقلوا للعربية وتركوا القبطية، ولكن الحال في صعيد مصر قد يكون مختلفا قليلا، إذ ظلت القبطية موجودة لفترة أطول، ولكن بحلول القرن الرابع عشر الميلادي تقلص استخدامها وأصبح مقصوراً على بعض الجيوب اللغوية في الريف والكهنة في الأديرة،

بالرغم من وجود بعض الإشارات لاستخدام القبطية فى بعض القرى حتى القرن السادس عشر الميلادى فإن الاعتقاد العام أن استخدام اللغة في تلك الفترة كان مقصوراً على الكنيسة، كانت فترة الازدواجية اللغوية فى مصر السفلى والتى دامت قرنين أقصر من مثيلتها فى سوريا وقد يكون ذلك هو السبب فى التأثير الضعيف للقبطية على اللهجة العربية المصرية، فحتى عدد الكلمات المقترضة من القبطية فى عربية مصر محدود جداً.

عملية تعريب شمال إفريقيا عملية خاصة جداً لأنها حدثت في موجتين، وكان الفارق الزمنى بين الموجتين قرونا ؛ أثناء الفتح العربي الأول احتلت الجيوش العربية المدن القليلة التى تركها السكان فى ترحالهم في القرنين الرابع والخامس الميلادى، ولكن مركز نشر الثقافة واللغة العربيتين كان مدينة جديدة، وهى مدينة القيروان التى سرعان ما أصبحت أهم مدينة فى شمال إفريقيا، ففي القيروان كما كانت الحال فى المدن العربية الأخرى أصبحت العربية لغة التواصل، ذلك بالرغم من أن هناك بعض الإشارات إلى أنه فى القرن الثانى عشر الميلادى كان هناك متكلمون للهجات البربرية مايزالون موجودين، وظل معظم سكان الريف والقبائل البدوية يتكلمون البربرية حتى الفتح الثانى فى القرن الحادى عشر عندما دخلت قبائل بنو سليم وبنو هلال المغرب، جاءت تلكما القبيلتان من سوريا وشمال الجزيرة العربية في الأساس، ودخلت معهما قبيلة أخرى وهى قبيلة معقل التى تنتمى لأصل عربى جنوبى، هاجرت تلك القبائل لمصر فى بداية الأمر ولكن الخلفاء الفاطميين رحلوها إلى المغرب، وأغلب الظن أن السبب فى ذلك كان الخطر الذى مثله وجود عدد كبير من البدو فى المجتمع المصرى.

قدرت المصادر المعاصرة لتلك الهجرات عدد المهاجرين البدو بحوالى مليون وفدوا على شعب يناهز الملايين الستة، ولكن ذلك الدخول القوى لم يكن حدثًا واحداً، فقد استغرق البدو عامين ليصلوا إلى تونس ولكنهم احتاجوا مائة عام ليدخلوا الجزائر، واحتاجوا كذلك ثمانين عامًا أخرى للتوغل في المغرب. احتل العرب أجزاء من المغرب الأقصى قبل ذلك بفترة فقد دخل بعض المعاقلة موريتانيا، حيث مايزال الناس يتكلمون لهجتهم التى تسمى الحسانية حتى الآن. وقد أصبح العرب البدو عنصراً عسكرياً مهماً أينما حلوا، فلم يكونوا هم أنفسهم مهتمين بالمسائل السياسية، ولكن الجو السياسى فى شمال إفريقيا بصراعاته الكثيرة مكنهم من تغيير تحالفاتهم طول الوقت .

كانت نتيجة غزو القبائل البدوية لتلك المنطقة أن قسماً كبيراً من الشعب البربرى فى الريف تحول إلى العربية. أما اللغة البربرية فهى موجودة فقط فى الجبال حيث لم تستطع الموجة الثانية من الفتح أن تعرب تلك المناطق، ومازالت هناك نسبة كبيرة من الشعب تتكلم البربرية كلغة أولى أو كلغة وحيدة، لا توجد هناك أرقام محددة ودقيقة بشأن أعداد متكلمى البربرية ربما بسبب وضع اللغة والثقافة البربرية الحساس، ولكن التقديرات العادية هى أن عدد متكلمى البربرية فى المغرب يصل من ٤٠ إلى ٤٥ بالمائة، وفى الجزائر يصل إلى ٢٠ بالمائة، ويصل فى تونس إلى ٥ بالمائة ويصل فى ليبيا إلى ٢٥ بالمائة، أما فى مصر فاللهجة البربرية ماتزال مستخدمة فى واحة سيوة فقط.

كان فتح شمال أفريقيا نقطة انطلاق لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية، وبداية محاولة لاختراق أوروبا بعد ذلك، أصبح الوجود العربى فى الأندلس من عام ٧١١ ثابتا وغير منقطع حتى عام ١٤٩٢ ميلادياً، وسرعان ما أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة والثقافة والدين وحتى لغة الكلام فى معظم شبه الجزيرة. وفتح الأغالبة جزيرة مالطا من تونس عام ٢٥٦ هجرياً، وسوف نتعامل مع تاريخ العربية فى تلك الجزيرة فى الفصل الثالث عشر.

وفى بدايات مراحل الفتح انتشرت اللغة العربية أساسا من المدن، سواء كانت مدنا قائمة فعلاً مثل دمشق أو معسكرات تحولت لمدن كما هى الحال فى عموم الإمبراطورية العربية الإسلامية، وقد كانت تلك المعسكرات مكان معظم الاتصالات التى جرت بين العرب والسكان الأصليين للبلاد المفتوحة، وسرعان ما نمت تلك المعسكرات وأصبحت مدناً كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان. وقد أدت الاتصالات بين الفاتحين والسكان الأصليين بشأن الضرائب والتجارة والإدارة فى تلك المدن إلى نوع من عمليات التطويع اللغوى من قبل السكان الأصليين. تذكر المصادر الجغرافية العربية الفرق بين عربية أهل المدن وعربية العرب البدو كثيرا، ولكن المصدر اللغوى الوحيد الذى بين أيدينا عن كلام العرب مع غير العرب هو القصص الكثيرة الموجودة فى الكتب عن لغة الموالى، السيناريو الأساسى لأمثال تلك القصص هو أن أحد الموالى يدخل على الخليفة فيحاول أن يتكلم بعربية سليمة، ولكنه يفشل، وهذه القصص لا توثق

عامية الموالي الحقيقية، ولكنها توثق محاولاتهم استخدام العربية الفصحى في بعض المواقف، بل إن تلك القصص تدلل على أن العربية الفصحى بتصرفها الإعرابي كانت ماتزال متاحة في بدايات الفتح كنموذج لغوي يتبع. فالخطأ في علامة الإعراب يأتي عندما يحاول فرد أن يقلد النظام اللغوي الذي يحتوي على تلك العلامات.

وعلى طول تاريخ البيئات اللغوية العربية كتبت رسائل كثيرة في لحن العامة، بالرغم من أي فكرة يمكن أن نصل إليها من مصطلح "لحن العامة" فهي ليست رسائل معنية بالعاميات الدارجة في حد ذاتها، بل إن غرض تلك الدراسات الأساسي هو الحفاظ على نقاء العربية الفصحى، وبينما يمكن أن يكون سبب بعض تلك الأخطاء هو تدخل العاميات، إلا أن من الخطأ أن نزعم أننا نستطيع أن نعيد بناء عاميات تلك الفترة بناء على المادة الموجودة في تلك الرسائل، سأقدم فيما يلي بعض الأمثلة المأخوذة من أحد كتب لحن العامة الأندلسية المكتوبة في القرن السادس الهجري، يشير ابن هشام اللخمي (توفي عام ٥٧٧ هجريًا) في كتابه "مدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان" إلى عدد كبير من الأخطاء التي يرتكبها العامة، ويبدأها بقوله "يقولون. . . . . " ثم يعطي الشكل الصحيح بقوله "والصواب. . . . ". من بين الأخطاء في نطق الأصوات ذكره "متدعدع" بدلا من "متضعضع". ومن بين أخطاء الأفعال "أرسى" بدلا من "رسا" قد تكون العامية الدارجة وراء بعض تلك الأخطاء ولكن الاهتمام الأساسي في تلك الرسالة هو الأخطاء التي يرتكبها المرء في الكتابة، لذلك تجده يذكر من بين الأخطاء كتابة "حلوة" بالتاء المربوطة بدلا من "حلوى" بالألف المقصورة. قد تعلمنا تلك الأخطاء بعض الشيء عن العامية التي كانت دارجة ساعتها وتدخلها السلبي في استخدام الفصحى، ولكنها في مجموعها لا تقدم صورة كاملة عن بنية عامية الزمن الذي كتبت فيه الرسالة.

تعتبر نصوص العربية الوسيطة مصدراً آخر مهمًا جداً لإعادة تركيب عامية العصور الإسلامية المبكرة، وتنقسم تلك النصوص إلى البرديات كشق أول والنصوص الأدبية التي تحتوي على أخطاء حيود عن قواعد الفصحى الكلاسيكية كشق ثان ، يمكن تعليل بعض الأخطاء الموجودة في العربية الوسيطة بتدخل اللهجات الدارجة

ساعة الكتابة، ولكن بما أن الكتابة كانت دائمًا مجالاً من مجالات الفصحى فمن الصعب أن تمدنا العربية الوسيطة بتطور تاريخي للهجات الدارجة، الذي توثقه تلك النصوص هو تغير قواعد العربية الفصحى.

واحد من أبرز التغيرات في تلك النصوص هو استخدام الضمائر الشخصية العامية في كتابات المغرب العربي، بينما يوجد ضمير المتكلم المفرد المضارع \أن \أفي "نقتل" بكثرة في تلك النصوص فإن استخدام النون في ضمير المتكلم الجمع مثل "نقتلو" نادر جدا في العربية الوسيطة. يمكن أن نفترض أن تفادي استخدام شكل الجمع من ضمير المتكلم يرجع إلى أنه لا يمكن ظهور مثل هذا الشكل في الكتابة، بينما يعتبر شكل المفرد من هذا الضمير العامي ممكنا في الفصحى ولذلك يجوز استخدامه في الكتابة وإن كان يعطي معنى مختلفا. وعندما يظهر ضمير المتكلم الجمع في النصوص المتأخرة، لا يعني ذلك أن هذا الشكل من الضمير قد تم إدخاله على العامية المغربية حديثا بل يعني ببساطة أن قواعد اللغة المكتوبة قد تغيرت، وأن الشكل الحادث لم يعد مرفوضا بنفس الدرجة القديمة.

٦-٢ النوع الجديد من العربية

مصدرنا الأساسي لإعادة بناء العملية التاريخية لظهور العاميات العربية هو اللهجات العربية الحديثة، سوف نستخدم هنا مصطلح "العربية المولدة" للتعبير عن اللهجات الدارجة التي كانت موجودة أيام الفتح الأولى والتي تطورت إلى اللهجات العربية الحديثة، وهي في ذلك تتقابل مع "العربية القديمة"، أي العربية التي كانت مستخدمة أيام الجاهلية، ورأينا سالفًا أن العلماء اختلفوا بشأن الوضع اللغوي في الجاهلية، ولذلك فإننا نعني بمصطلح "العربية القديمة" لغة القرآن والشعر الجاهلي وأي لهجة من المفروض أنها كانت قائمة قبل الإسلام، على أية حال، نعني بالعربية القديمة تلك اللغة التي تطورت فأصبحت اللغة الرفيعة الفصحى في الإمبراطورية العربية الإسلامية، وفي مرحلة ما بعد الفتح تجاورت العربية المولدة والعربية الفصحى القديمة في علاقة اجتماعية لغوية تسمى بالازدواجية اللغوية.

ومهما كانت آراؤنا بشأن الوضع اللغوى فى الجاهلية فما زلنا بحاجة إلى تفسير لظهور العربية المولدة، فحتى لو كانت بعض سمات العربية المولدة موجودة فى عربية العصر الجاهلى كاحتمال غياب علامة الإعراب فى اللهجات الحدودية فإن أحداً لا يزعم أن كل سمات اللهجات العربية الحديثة يمكن ردها إلى عربية العصر الجاهلى، على ذلك فإن كل نظرية تأخذ على عاتقها تفسير ظهور اللهجات الحديثة عليها أن تفسر التغييرات التى حدثت بعد الفتوحات والتى تفصل العربية المولدة عن العربية القديمة، وفى نفس الوقت لا يجب على تلك النظرية فقط أن تبرر السمات المشتركة بين اللهجات فى مقابل الفصحى الكلاسيكية، بل يجب عليها أيضًا أن تقدم تفسيراً للاختلافات الكثيرة بين اللهجات نفسها. فى الجاهلية كان من السهل نسبيا على العرب من مختلف القبائل أن يفهموا بعضهم البعض، أما فى الوقت الحاضر فيصعب على العراقى والمغربى إذا تكلما لهجتيهما أن يفهما بعضهما البعض، ومن الممكن أن نقول إن الفروق بين اللهجات العربية أكبر فهى تساوى الفروق بين اللغات الجرمانية والرومانسية إن لم تفقها.

قبل الدخول في النظريات التي ظهرت لتفسير الوضع اللغوى الحالى للغة العربية سوف نقدم السمات المشتركة التي تجمع اللهجات في مقابل الفصحى، لا تعكس كل لهجة تلك السمات كلها ولكنها في مجموعها تعتبر قاسمًا مشتركًا بين اللهجات المجددة، في العموم تعتبر التجديدات منتشرة بشكل واسع في اللهجات الحضرية بينما تنزع اللهجات البدوية لأن تكون أكثر محافظة، استخدمنا هنا أمثلة كثيرة من اللهجة الحضرية السورية، تظهر عدداً من التغييرات في النظام الصوتى في اللهجات العربية:

* صوت الهمزة الذى لم يكن موجوداً فى اللهجات الجاهلية الغربية اختفى تماما من كل اللهجات الحديثة، انظر مثلاً الكلمة الفصيحة "رأس" التى تحولت فى السورية إلى "راس".

* تحولت الأصوات الاحتكاكية الأسنانية إلى أصوات انفجارية فى اللهجات الحضرية، فتحول صوت الثاء فى الكلمة الفصيحة "ثلاث" إلى التاء فى "تلاتة" السورية، وظلت الأصوات الفصيحة موجودة عاملة فى اللهجات البدوية.

* اندمج صوتا الضـاد والظاء في الفصـحي في صـوت الضـاد في اللهجـات الحضـرية الحديثة، انظر كلمة "ظهر" الفصحى التي تحولت إلى "ضـهر" في السـورية، وبقى فونيم الظاء في اللهجات البدوية عاملاً على نحو كامل .

* أهملت اللهجات الحديثة أصوات اللين القصيرة في آخر الكلمات، وقصرت الأصوات اللينة الطويلة، انظر "كَتَبَ" التي تحولت إلى "كتب" و"كتبوا" التي تحولت إلى "كتبُ" في السورية.

* أصبح النبر في اللهجات العربية انفجاريا بشكل أكبر كما يشـهد على ذلك حذف أصوات اللين القصيرة من المقاطع المفتوحة، انظر كلمة "كاتِبَة" الفصيحة التي تحولت إلي "كاتبَة" في السورية، وفي لهجات شمال أفريقيا لم يبق إلا أصوات اللين القصيرة المنبورة.

* انتـهى في الكثيـر من اللهـجات الحـضـرية التـقابل بين صـوتي \i \و \u \ وأصبحـــا صوتًا واحداً . انظر الكلمة السـورية "قصـة" ' əssa التي هي في الفصحي qissa وكلمة merr "مر" السورية التي هي في الفصحي .murr

كنتيجة جزئية للتغيرات الصوتية حدثت اختلافات صرفية بين اللهجات الحديثة والفصحى الكلاسيكية:

* استـخدام الكسر بدلاً من الفتح في سـابقة الفعل المضارع، وهو تغير حدث بالفعل في الجاهلية وخاصة في اللهجات الغربية.

* استخدام صيغة "فُعال" بدلا من "فِعال" في جمع الصفات انظر صفة "كِبار" الفصيحة التي تحولت في السورية إلي "كُبار".

* غياب صوت الهاء ضمير الوصل للغائب المذكر بعد الصوائت.

* استخدام صيغة "فعاليل" بدلاً من صيغة "فَعاليل" في الجموع الرباعية.

* استخدام صوت اللين - في النسبة بدلا من - -yyi

ويعتبر تخفيض التصنيفات الصرفية بشكل كبير من أهم سمات النظام الصرفي في اللهجات العربية الحديثة.

* فقدت اللهجات الحضرية الفصل في الجنس بين المذكر والمؤنث في المتكلم والغائب في الأفعال والضمائر، بينما احتفظت اللهجات البدوية بهذا الفرق.

* اختفاء تصنيف المثنى في الضمائر والأفعال، وفي الأسماء . احتفظت أسماء أعضاء الجسم المزوجة بلاحقة المثنى التاريخية التي استخدمت بعد ذلك كلاحقة جمع لتلك الأسماء، وطورت معظم اللهجات لاحقة مثنى جديدة لا تعبر إلا عن المثنى، وتستخدم مع تصنيفات أسماء كثيرة.

* اختفى المجهول العربي المصاغ بصيغة "فُعِلَ\يُفعَلُ" وحل محله في اللهجات "انفَعَلَ" أو "افتَعَلَ"، انظر "انضرب" السورية وانظر "اتضرب" المغربية في مقابل "ضُرِبَ" الفصيحة، وماتزال بعض اللهجات البدوية تستخدم المجهول الفصيح حتى الآن.

* اختفاء صيغة "أفعَلَ" من اللهجات الحضرية، ووجودها في بعض اللهجات البدوية الحديثة.

* اختفت صيغة "فَعُلَ" من صيغ الفعل الماضي الثلاثة، واندمجت أفعال تلك الصيغة في صيغة "فَعِلَ".

* اندمجت نهايات المؤنث الثلاثة في الفصحى في نهاية واحدة في اللهجات الحضرية وهي . -ه

* فقد الاسم الموصول (الذى، التي، اللذين، اللاتي) تصرفه في اللهجات الحديثة.

هذا وقد حذفت من اللهجات العربية الأشكال والصيغ الشاذة ؛ ففي الفصحى الكلاسيكية كان هناك تصنيف الفعل المعتل الذى ينتهي بواو والمعتل الذى ينتهي بياء، وكان الفصل بينهما واضحًا، أما في اللهجات العربية الحديثة فقد اندمج التصنيفان في المعتل بياء في آخره، لذلك تجد في اللهجة السورية "لقيت" و"شكيت" وتجد في الفصحي "لقيت" و"شكوت". وبنفس الشكل حلّت اللهجات العربية الأفعال المضعفة مثل "رد" في الفصحي وتعاملت معها كما تتعامل مع الأفعال معتلة الآخر بياء، لذلك تجد في السورية شكل الفعل كما يلي: "رديت" في المتكلم المفرد.

قطعت اللهجات العربية منفردة شوطًا طويلاً في توحيد نهايات الأفعال المعتلة والسالمة، وفي بعض اللهجات حلت نهايات الأفعال الصحيحة محل نهايات الأفعال المعتلة، فتجد في السورية تماثلاً بين "رمو" و"كتبو" في مقابل الفصحى التي تفرق بين "رمَوا" و"كتبوا"، وفي لهجات أخرى كلهجة مسلمي بغداد حلت نهايات الفعل المعتل محل بعض نهايات الفعل الصحيح، وفي لهجة يهود بغداد تنعكس تلك الظاهرة في نهايات الفعل المضارع، أما في لهجة شيعة البحرين فقد أخذ المتكلم المفرد في كل تصنيفات الفعل الماضي نهاية الفعل المعتل، فتجد "كتبيت" و"نميت".

تطورت اللهجات العربية الحديثة باتجاه نمط لغوي تحليلي وخاصة في بعض التراكيب النحوية، وفي هذا النمط يتم التعبير عن الوظائف النحوية باستخدام كلمات منفصلة بدلا من مورفيمات متصلة بالكلمات، حدث ذلك في حالة اللهجات العربية وتم بعده تقعيد تلك الكلمات فأصبحت مورفيمات نحوية في حد ذاتها، عندما اختفت علامات الإعراب من اللهجات حل تركيب إضافة تحليلي محل تركيب الإضافة العربي الكلاسيكي القديم، وفي هذا التركيب تحل أداة إضافة تحليلية محل علامة الإعراب القديمة، أما في النظام الفعلي في اللهجات فقد اختفى الفرق بين صيغ المضارع الثلاثة، فقد استولى الفعل المضارع الخالي من لواحق الصيغ على معظم وظائف الصيغ في اللهجات العربية، هذا وقد طورت بعض اللهجات العربية مجموعة من الأدوات الجديدة للتعبير عن الزمن النحوي والجهة على الفعل.

تغير بناء الجملة العربية بشكل جذري في اللهجات الحديثة؛ فقد اختفى الفصل بين الجملة الاسمية التي تبدأ بمبتدأ والفعلية التي يبدؤها فعل، ويبدو أن ترتيب الكلمات الأساسي أصبح الجملة الاسمية ولكن الجملة التي تبدأ بفعل تظهر في بعض اللهجات لم تزل، وحتى في تلك الجمل التي يسبق فيها الفعل تكون هناك مطابقة كاملة في العدد بين الفعل والفاعل، ويعني ذلك أن تلك المركبات ليست مجرد ترجمة من الفصحى بل هي مركبات أصيلة في اللهجات.

في الفصحى الكلاسيكية كان ضمير المفعول بعد حرف الجر حرا في الجملة، فتجد كلاً من "أريد أن أكتب لكم راسلة" و"أريد أن أكتب رسالة لكم"، أما في اللهجات

الحديثة فهذا الضمير مربوط بالفعل، وتختلف اللهجات بعضها مع بعضها الآخر في درجة حرية وجود أمثال تلك الضمائر بعد الأفعال، فبعض اللهجات تحد من هذه الحرية بينما تسمح لهجات أخرى بحرية أكبر في إضافة ضمائر المفعول بعد الفعل، انظر هذا المثل المغربي المعقد الذي تشترك فيه الضمائر مع أداة النفي \ما-ش: \

ما جنكتيلكش

وانظر المثل المصري التالي:

ما بتجيبهالناش

في التعبير عن صيغ الإرادة والتوجب وما شابه ذلك تستخدم الفصحى الكلاسيكية تركيباً من فعلين مضارعين غير معلمين، تحكم \أن \الفعل الثاني فيهما، وهو الفعل المنصوب، كما في المثل التالي" :يريد أن يقتلني". استبدلت اللهجات الحديثة هذا التركيب بتركيب آخر مكون من فعلين مضارعين غير معلّمين، انظر مثلا "بده يقتلني" بالسورية. انظر المثل المصري: "لازم تعملي ده".

هناك مجموعة من المفردات موجودة في كل لهجة عربية حديثة تقريبا مثل "جاب" و"شاف" و"راح" و"سوى"، كانت بعض تلك الكلمات مستخدمة في الفصحى الكلاسيكية بطريقة أقل عمومية، وأصابها في اللهجات توسيع دلالي، فقد كان "شاف" مثلاً مستخدما بمعنى المراقبة من أعلى، وكذلك كان فعل "راح" يعني الذهاب بالليل. ومن خصائص اللهجات المعجمية أيضًا أدوات الاستفهام فهي كلها تحتوي على جزء من الكلمة الفصيحة "أي"، انظر "إيه" في اللهجة المصرية و"آش" في المغربية و"إيش" في السورية.

٣-٦ نظريات ظهور العربية المولدة

الرأي السائد حول الوضع اللغوي في الجاهلية هو أن التحول من العربية القديمة للعربية المولدة حدث فعلا في الجاهلية في شكل العاميات التي كانت قبائل العرب تتكلمها، ولكن المصادر العربية تنظر إلى تطور اللغة من منظور مختلف تماما، يقول النحويون العرب إنه طالما كانت القبائل تعيش في الجزيرة كانت لغتها واحدة مع وجود

اختلافات بسيطة، ولكن عندما اتصل العرب بشعوب لا تتكلم العربية بعد الفتح فقد نقلوا لغتهم لتلك الشعوب التي نطقتها بكثير من الأخطاء. وفسدت اللغة بناء على ذلك، فتدخل النحويون العرب لما ظهر خطر استعصاء القرآن الكريم على الفهم ، يلخص لنا ابن خلدون (توفي عام ٧٥٧ هجريًا) تلك النظرية كما يلي: "فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المستعربين والسمع أبو الملكات اللسانية وفسدت بما ألقى إليها، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مضطردة يقيسون عليها سائر أنواع الكلام" (انظر مقدمة بن خلدون، طبعة بيروت، ص ٦٤٥).

يبين هذا الاقتباس أن العرب تصوروا أن التغييرات التي حدثت في لغتهم وظهور العاميات كان مرتبطًا بالوضع التعددي في العالم الإسلامي وظهور العربية كلغة مشتركة.

وقد حاول بعض الباحثين أن يبرروا وجود سمات مشتركة كثيرة بين اللهجات في مقابل الفصحى الكلاسيكية باستخدام نظرية أصل واحد تقول بأن كل اللهجات الحديثة قد خرجت من أصل واحد في مرحلة تاريخية معينة. يقول فرجسون (١٩٥٩) على سبيل المثال إن الأصل اللغوي الواحد للهجات العربية كان في المعسكرات التي أقامها جيش الفتح في العراق حيث اختلط متكلمو مختلف اللهجات العربية، وقد أدى ذلك الاختلاط بين اللهجات إلى ظهور مزيج لغوي مشترك تطورت منه السمات المشتركة بين اللهجات الحديثة، بنى فرجسون نظريته على قائمة مكونة من ٤١ سمة لغوية زعم أنها لا يمكن أن تكون قد خرجت من عملية تطور مستقلة في حالة كل لهجة على حدة، بل لا بد أن تكون قد ظهرت من أصل واحد، من بين تلك السمات مثلا استخدام مفردتي "شاف" و"جاب"، واختفاء المثنى من الفعل والضمائر، واندماج الأفعال التي آخرها واو وياء.

إذن ظهرت نظرية الأصل المشترك التي عرضها فرجسون من أجل تبرير السمات المشتركة بين اللهجات العربية الحديثة، وتفسر تلك النظرية الاختلافات بين اللهجات

على أنها نتجت من عمليات تشعب لاحقة ربما تكون قد نتجت عن تأثير اللغات الأصلية في المناطق التي دخلت العربية عليها، وقداعترض نقاد تلك النظرية بقولهم إن السمات المشتركة في اللهجات قد تكون ناتجة عن نزعة لغوية عامة أو عن عملية توحيد متأخرة جمعت شتات المناطق اللهجاتية المختلفة. يشير أصحاب نظرية النزعة اللغوية العامة إلى أن اللغات التي ليست لها علاقة بالعربية قد فقدت المثنى، ولذلك يصبح من الممكن جدا أن نتصور أن اللهجات العربية فقدت هذا التصنيف بشكل فردي مستقل ومشكلة نظرية النزعة اللغوية العامة هي أنها لا تحتوى على قوة إقناع وشرح كبيرة لأن حقيقة أن نفس الظاهرة تحدث في لغات مختلفة لا تفسر سبب الظاهرة.

يركز نقاد آخرون لنظرية الأصل المشترك على دور عمليات التوحيد المتأخرة في تطور اللغة العربية، يقول كوهين (-١٩٧٠) إن الجيوش العربية كانت تتكون من خليط من قبائل مختلفة، ولذلك تمت تسوية الاختلافات اللغوية بين اللهجات الجاهلية في تلك المعسكرات، وقد تطورت اللهجات الحضرية في البلاد المفتوحة من عمليات نشوء وارتقاء محلية ومستقلة، وفي مرحلة لاحقة بدأت عملية التجميع من خلال تأثير الفصحى الكلاسيكية الكبير وانتقال التجديدات اللغوية من مركز حضاري لآخر في شكل موجات، وأخذ المتكلمون تلك التجديدات وتبنوها لأنها من واردات اللغة الرفيعة، تنظر نظرية التجميع إلى نشأة اللهجات العربية على أنها نابعة من أصول مختلفة، فبحسب هذه الفكرة فقد تطورت كل لهجة عامية في كل إقليم بشكل مستقل، ولكنها تشابهت بعد ذلك بسبب الاتصالات. بينما يمكن دون شك اعتبار بعض التشابهات داخل الإقليم الواحد ناتجة عن عملية تجميع نشأت من انتشار تجديدات لغوية من مركز حضاري معين، إلا أن هذه النظرية يصعب أن تفسر التشابهات بين الأقاليم البعيدة بعضها عن بعضها الآخر في العالم العربي، إذ لم تكن تلك الأقاليم متصلة بعضها ببعضها الآخر قط.

مهما كان الأمر فهناك اختلافات كثيرة بين اللهجات، ينظر أصحاب نظرية التطور المستقل لهذه الاختلافات على أنها نتيجة طبيعية لنشوء العاميات بشكل منفرد، ولقد كان المدخل اللغوي في كافة الأقاليم خارج الجزيرة العربية مدخلاً واحداً، ألا وهو اللغة

العربية التي كانت الجيوش العربية تتكلمها، ولكن الظروف الداخلية في كل إقليم كانت مختلفة بسبب وجود لغات أخرى، وعندما اتصل متكلمو تلك اللغات بمتكلمي العربية بدوا يتكلمون اللغة العربية بطريقتهم الخاصة التي حتمتها تدخلات اللغة الأم التي عادة ما تحدث في كل عملية تعلم لغة ثانية. وتطورت هذه التدخلات بمرور الوقت إلى سمات محلية تأصلت حتى بعد أن انتقل متكلمو تلك اللغات إلى العربية كلغة أم.

في حالة اللغات البربرية فإن لغة السكان الأصليين التي من المزعوم أنها سببت الاختلافات بين العربية المغربية واللهجات العربية الأخرى والفصحى في آن ما تزال مستخدمة وحية، نحن نتكلم هنا عن تأثير لغة معاصرة للعربية تأثيرها على استخدام اللهجة العربية عند مزدوجي اللغة وأحاديي اللغة متوقع وحادث، لذلك تجد مركياس يتتبع بعض السمات التي يظن أنها من أثر اللهجات البربرية في الجزائر، يتجلى التأثير البربري في وجود أكثر من ١٥٠ كلمة عربية من أصل جزائري تبدأ كلها بسابقة a- مثل كلمة agruum التي تعني "خبز". وقد توسع استخدام هذه السابقة في الكلمات عربية الأصل. انظر مثلا كلمة "أصدر" التي هي بالعربية "صدر" وفي حالات كثيرة يمكن حذف هذه السابقة، لذلك تجد الكلمتين "صدر" و"أصدر" موجودتين معا في آن واحد. أصل تلك السابقة البربرية مجهول وغير واضح، ولكن متكلمي البربرية المحدثين ينظرون إليها على أنها أداة تعريف، فلا تجدها مجتمعة مع أداة التعريف العربية في كلمة واحدة، يشير مركياس أيضا إلى القليل من الظواهر النحوية التي فيها تأثير بربري، فتجد بعض الكلمات العربية يختلف جنسها عن الجنس العربي بحسب جنسها في البربرية، فكلمة "لحم" في عربية تلك اللهجة الجزائرية مؤنثة مثل الكلمة البربرية tifi وكلمة "ماء" في تلك اللهجة العربية كلمة مجموعة مثل معادلتها الجزائرية aman وفي تراكيب الإضافة التي تحتوي على أسماء قرابة يحمل الاسم الأول ضميرا متصلا، انظر "ختو دا محمد" التي تعني "أخت محمد".

الصلة بالبربرية واضحة من الأمثلة التي سقناها من تلك اللهجة الجزائرية، ذلك لأن معظم متكلمي تلك اللهجة العربية يتكلمون البربرية أيضاً وأن تلك الظواهر لا تظهر في أي لهجة عربية أخرى، ولكن في حالات كثيرة في العالم العربي اختفت اللغة

الأصلية لسكان المناطق بالكلية، كما هي الحال بالنسبة للسريانية والقبطية، وعندما تدعي تأثيرا لتلك اللغات البائدة في تطور العربية فإننا نتكلم عن تأثير لغة تحتية أصعب في إثباته من تأثير لغة حية مزامنة كالبربرية، فالظواهر التي تظهر في منطقة معينة ويمكن من حيث المبدأ أن نعزوها لتأثير اللغة التحتية التي كانت متداولة في هذا الإقليم قبل العربية أحياناً ما تظهر في منطقة أخرى لم تكن نفس اللغة التحتية متداولة فيها، على سبيل المثال، اختفت من اللهجات العربية المصرية الأصوات الأسنانية، وقد عزى بعض العلماء ذلك إلى تأثير قبطي، ولكن اختفاء الأصوات الأسنانية ظاهرة موجودة في معظم اللهجات الحضرية العربية في أماكن لم تكن القبطية متداولة فيها. وعلى ذلك فلا يمكن أن نعزو اختفاء الأصوات الأسنانية إلى تأثير اللغة التحتية بل يجب أن نفكر في تلك الظاهرة على أنها نتاج لعملية أوسع في إطار تعلم اللغة الثانية، وهي العملية التي تختفي بمقتضاها الظواهر غير الاعتيادية لصالح ظواهر اعتيادية.

نتوقع أنه كانت هناك حالة من التعدد اللغوي بين الآرامية والعربية في المنطقة السورية مشابهة لتلك الحالة الموجودة حاليا في شمال أفريقيا، بل ومازال تلك الحالة قائمة في منطقة جبال قلمون شمالي دمشق حيث مازال ثلاث قرى بجوار معلولة تتكلم الآرامية الجديدة الغربية، في شكل جيوب لغوية محدودة، وتجد أن اللهجات العربية المستخدمة في القرى المحيطة بتلك الجيوب اللغوية تعكس تأثيرات آرامية. يقول أرنولد وبينشتيد (١٩٩٢) إن مناطق السمات الآرامية في تلك اللهجات تتزايد عندما نقترب من المنطقة التي مازال الآرامية مستخدمة فيها. ويخلص الباحثان إلى أن الآرامية ربما كانت لغة الحديث في الإقليم كله حتى القرن الرابع عشر وبعد ذلك أجبرت بشكل تدريجي على التراجع لمنطقتها الحالية. قد تساعدنا بعض الظواهر اللغوية في عربية تلك المنطقة في استجلاء أمر التأثير الآرامي المحتمل في عربية سوريا بوجه عام. يبين أرنولد وبينشتيد مثلاً أن ضمير الغائب لجمع المذكر في تلك اللهجة "هِنّي" والضمير المتصل "هون" قد يكون ظهر في بيئة متعددة اللغات كان ضمير الغائب الآرامي hinn منتشراً فيها.

من بين ظواهر اللهجة السورية الأخرى التي يعزوها العلماء إلى التأثير الآرامي المحتمل حذف أصوات اللين القصيرة \u\ و \i\ ، والنطق المهموس لصوت القاف وغياب الأصوات التي تصدر من بين الأسنان. ولكن ظهور نفس تلك الظواهر في مناطق أخرى كثيرة من العالم العربي يبرز الحاجة إلى تفسيرات أخرى، ولكن ذلك لا يعني أن فكرة تأثير اللغات التحتية مسألة غير ذات موضوع، فبطبيعة الحال عندما يكون متكلمو لغة ما تحتوي على أصوات تخرج من بين الأسنان يتعلمون العربية، فليس لديهم حاجة للتخلي عن تلك الأصوات لصالح الأصوات الأسنانية، ولكن المسألة تختلف في حالة متكلمي لغات كالسريانية والقبطية التي لم تكن تمتلك أصوات تخرج من بين الأسنان، ففي تلك الحالة لا يوجد مانع في لغتهم الأصلية يعيق اتباعهم للنزعة العامة في تبسيط نطق الأصوات التي تخرج من بين الأسنان، ولذلك يمكننا أن نقول إن بنية القبطية والآرامية ساعدت على تطورات كانت سارية في العربية أصلاً.

يمكننا أن نقول على وجه العموم إن فكرة تأثير اللغة التحتية قد استخدمت كثيراً في حالات اللهجات العربية دون أي تبرير، وقد تابع ديم في مقال كتبه عام ١٩٧٩ كل حالات ادعاء تأثير اللغة التحتية على اللهجات العربية، وقال إنه يسمح بمثل هذا التفسير بشرطين: الشرط الأول هو وجود ظاهرة لغوية معينة في اللهجة العربية الحديثة وفي اللغة التحتية التي كانت مستخدمة قبل العربية في ذلك الإقليم، والشرط الثاني هو غياب تلك الظاهرة من أي إقليم آخر. وخلص ديم إلى أنه في معظم حالات ادعاء تأثير اللغة التحتية على لهجة عربية ما يمكن العثور على ظاهرة مماثلة في لهجات أخرى لم تكن اللغة التحتية مستخدمة فيها قط، ولذلك فقوة تلك النظرية محدودة جداً في حالة العربية، ويوافق ديم على وجود بعض الحالات القليلة لتأثير اللغة التحتية على اللهجات العربية، وذلك عندما يتوافق فيها تركيب العربية مع تركيب اللغة التحتية الأصلية كما هي الحال في حذف صوت الفتحة القصيرة في المقاطع المفتوحة في لهجات شمال لبنان. وقد يكون السبب في ذلك الحذف هو بنية فونيمات اللهجة الآرامية المستخدمة في تلك المنطقة، وفي حالة تأثير البربرية على عربية شمال أفريقيا يذكر ديم بعض الظواهر مثل جعل صوت التاء احتكاكيًا مع سمته الانفجارية الأساسية، ولكنه يعود ليقول إنه من الصعب إدراك ما إذا كان هذا مثلاً على تأثير لغة تحتية أو تداخل لغة مزامنة بسبب حالة التعدد اللغوي الطويلة التي يعيشها ذلك الإقليم.

من بين الظواهر المهمة تلك السمات الموجودة فى عربية اليمن والتى يعزوها الباحثون لتأثير اللغة العربية الجنوبية التحتية، يسهل وجود العربية الجنوبية الحديثة فى تلك المنطقة تحديد تأثير اللغة التحتية إن وجد، من بين الظواهر التى ذكرها ديم لهذا التأثير استخدام سابقة k وصيغة الجمع "فَعاوِل"، وفى بعض لهجات اليمن هناك لاحقة -k فى آخر الفعل الماضى فى المتكلم والمخاطب المفرد بدلاً من التاء الموجودة فى العربية، وتظهر هذه السمة التى تشترك فيها اللهجات اليمنية مع اللغات السامية الجنوبية فى منطقة الجبال الغربية، حيث كانت اللغة الحميرية مستخدمة كما تقول المصادر العربية القديمة.

تستخدم صيغ الجمع "فَعَوْل" و"فِعول" فى منطقة اليمن فقط، بالنسبة للصيغة الأولى وجد ديم أمثلة كـ"بلود" و"كتوب". تتطابق تلك الصيغة مع صيغة جمع موجودة فى اللغة المهرية، وفى تلك الحالة لا يصبح من الغريب أن نقول إن العربية اقتبست تلك الصيغة من العربية الجنوبية فى فترات الاستقرار العربى المبكرة فى المنطقة، وربما كان ذلك قبل الفتح العربى، أما صيغة الجمع "فِعوَل" فهى موجودة فى المناطق الجبلية التى استقرت بها أول قبائل عربية وفدت إلى الإقليم، فتقدم لنا لهجة تلك المنطقة صيغ جمع مثل "طروج" بمعنى "طرق"- وهى صيغ تشبه جموع اللغات العربية الجنوبية الحديثة.

فى معظم الحالات فإن التدخل الذى نتج عن الاتصال بين اللغات لم يؤد إلى حدوث ظواهر لغوية جديدة بقدر ما رجّح كفة الميزان لصالح بديل من بديلين كانا موجودين، فى هذه الحالة من الممكن أن تكون اللغة الأصلية لمتعلمى العربية قد أثرت عليهم فى اختيار بديل وإهمال آخر، واحد من أهم الأمثلة هو حالة أدوات الاستفهام فى اللهجة العربية المصرية، فى تلك اللهجة ليس هناك تقديم لأداة الاستفهام فى أول الجملة، بل تبقى فى مكانها الطبيعى فى الجملة، وانظر الجملتين التاليتين.

قلت ده للمعلم

قلت إيه للمعلم

في لهجات عربية أخرى، يعتبر ترتيب الكلمات هذا مقبولا، ولكنه ترتيب غير اعتيادي ، ويمكن في المصرية أن تقول "إيه قلت المعلم؟" توجد تلك البدائل في كل لغات العالم كظواهر خطابية لها علاقة بالتركيز على عنصر بعينه. وكان متكلمو القبطية معتادين على لغتهم التي لم تكن تقـدم أداة الاستفهام إلى أول الجملة، انظر مثلا ekdo de u التي تعني "ماذا تقول؟" تلاحظ أن ضمير الاستفهام u ظل في مكان المفعول به ولم يتقدم، وعندما تعرف القبط على الاختيارين الموجودين في العربية فقد اختاروا النوع المشابه للغتهم الأصلية - حتى ولو كان النوع الذي اختاروه غير اعتيادي بالنسبة لمتكلمي العربية.

ليس تأثير اللغة التحتية بتفسير كاف للاختلافات بين اللهجات العربية، وكذلك ليس التجميع في مرحلة متأخرة تفسيراً مقبولاً للسمات المشتركة بينها. هناك أمثلة كثيرة لتغييرات تركيبية حدثت في كل اللهجات ولكنها أخذت شكلاً مختلفاً في كل لهجة عن الأخرى. من بين تلك التغييرات تركيب الإضافة وأدوات الجهة. من أهم سمات العربية المولدة اختفاء علامات الإعراب - وهو ما يعتبره الكثيرون الفارق الأساسي بين اللهجات والفصحى الكلاسيكية. (رأينا في الفصل الرابع أن هناك أسبابا كثيرة تجعل من التفسير الصوتي لتلك الظاهرة غير مقبول)، وفي اللهجات الحديثة حلت أداة تحليلية محل علامة الكسر في الفصحى، انظر:

الفصحى	بيت الملك
عربية مصر	البيت بتاع الملك

في تركيب الإضافة التحليلي تعبر أداة الإضافة \بتاع \عن معنى الملكية، وهي أداة تحل محل تركيب الإضافة التوليدي الذي تعبر علامة الكسر فيه عن الملكية. هذا التركيب التحليلي الحادث موجود في كل اللهجات العربية ولكن تلك اللهجات اختلفت في شكل أداة الإضافة المستخدمة للتعبير عن الملكية. فلهجة مصر القاهرية تستخدم "بتاع"، بينما تستخدم لهجة دمشق السورية "تبع"، وتستخدم لهجة الرباط المغربية "ديال"، وتستخدم لهجة ملطا "تاع"، وتستخدم لهجة السودان "حق"، بينما تستخدم لهجة تشاد "هنّ" وتستخدم لهجة قبرص "شايت"، وتستخدم لهجة بغداد "مال" و"ليل".

أما بخصوص ظاهرة التطور الواحد ذو الأشكال المنفصلة الثانية فهي مرتبطة بفقدان علامات النصب والجزم على الفعل، في الفصحى هناك فصل بين الفعل المرفوع "يكتبُ" والفعل المنصوب "يكتبَ" والفعل المجزوم "يكتبْ". أما في اللهجات فقد اختفى تصنيف الصيغة الصرفي، ولذلك تجد شكل الفعل في المفرد دائمًا "يكتب"، ولكن الفعل المضارع غير المعلم في معظم اللهجات قد اكتسب معنى صيغي، فتجد في اللهجة المصرية مثلاً شكل الفعل المضارع "تشرب" يعبر عن سؤال عن رغبة المخاطب إن كان يود أن يشرب شيئا. أما بالنسبة للصيغ، فقد طورت اللهجات علامات تدل عليها، وكانت تلك العلامات في أساسها أفعالاً مساعدة أو ظروف زمان تجمدت وأصبحت جزءا من الشكل الصرفي للفعل. علامة جهة الاستمرار في العامية المصرية مثلا هي \بـ \قبل الفعل وعلامة المستقبل هي هـ:\

بتشرب

هتشرب

في هذا التطور أيضاً كل اللهجات العربية اكتسبت نفس التجديد، ولكن كلاً منها انتخب شكلاً منفصلاً للأدوات الجهوية، معظم اللهجات تمتلك نظامًا مكونًا من أداتين، الأولى أداة الجهة الاستمرارية والاعتيادية، والثانية لجهة المستقبل. ولكن الوظيفة الدلالية لكل من الأداتين تختلف من لهجة لأخرى، فتستخدم اللهجة السورية \عم \ للتعبير عن الاستمرار، بينما تستخدم \بـ \للتعبير عن الأحداث التي ينوى الشخص القيام بها في المستقبل أو للأحداث الاعتيادية، وفي لهجة العراق تستخدم \دَ \للتعبير عن الاستمرار والعادة، وتستخدم الفعل غير المعلم بسابقة جهة للتعبير عن الأحداث الصحيحة بشكل دائم والحقائق. في الكثير من الحالات لا يمكننا تحديد أصل تلك الأدوات بدقة، ولكنه يبدو من الواضح أن أداة الاستقبال غالبا ما تكون مأخوذة من أفعال تعطي معنى الاستقبال كما هي الحال في لهجة يهود تونس حيث يستخدمون \ماشي \لتلك الوظيفة، أما السوريون فيستخدمون \راح \لنفس الوظيفة، أما أدوات جهة الاستمرار فيبدو أنها مأخوذة من فعل \كان \أو من أسماء أفعال تدل على الجلوس والبقاء والقيام، انظر مثلاً \واقف \التي تعمل كأداة جهة الاستمرار في عربية أوزبكستان و \تَ \المغربية التي تقوم بنفس الغرض.

نجد فى حالتى الإضافة التحليلية وأدوات الجهة نمط سلوك واحد: ظاهرة عامة حدثت فى كل اللهجات العربية، وكل منطقة عبرت عن تلك الظاهرة بشكل مختلف، لذلك يجب على أى نظرية تحاول تبرير ظهور العربية المولدة أن تأخذ تلك الظاهرة بعين الاعتبار، ويجب أن نضع فى اعتبارنا أيضاً أن اختلاف التعبير عن نفس الظاهرة ينفى أى اعتقاد بوجود عملية تجميع لاحقة تاريخياً على اكتساب العربية، لأنه من الطبيعى فى حالة الاتصال بين اللهجات أن تكتسب لهجة من الأخرى علاماتها النحوية، ولكنه ليس من الطبيعى اكتساب تركيب يتم اختراع تعبير لغوى له فى شكل علامة نحوية بعد ذلك.

جدول سوابق الجهة فى اللهجات العربية الحديثة:

اللهجة	الاستمرار \ العادة	المستقبل
اللهجة السورية	\عم \ او \ بِـ \	\راح \
اللهجة المصرية	\بِـ \	\حَـ \
اللهجة المغربية	\كَـ \	\غ \
اللهجة العراقية	\دَ \	\راح \
اللهجة اليمنية	\بِـ \	\عَـ \

أحد السيناريوهات المطروحة لتفسير ظهور العربية المولدة يربط بين أصل التغيرات التى حدثت فى اللغة وبين عملية تعلم العربية ؛ ففى القرن الأول الهجرى تعلم الناس العربية كلغة ثانية بشكل غير منظم وبدون عملية تعليمية، وكان التركيز الأساسى على التواصل والفهم ولم يكن على الصحة اللغوية. أثناء فترة التعدد اللغوى استخدم معظم الناس العربية كلغة ثانية، واستخدمتها أقلية من شعب الإمبراطورية كلغة أم ، فى أمثال تلك الحالات تختفى الأشكال الزائدة، مما يؤدى لقدر أكبر من الانتظام، ويكون التركيز على التراكيب التحليلية، ويتم تقليص تصنيفات كثيرة ليسهل

تعلمها، وعلاوة على ذلك تحدث عادة عملية إعادة بناء القاموس اللغوى حيث يتم إهمال المفردات غير الواضحة أو تلك التى تعبر عن أكثر من معنى وتُستَخدم مفردات واضحة بدلا منها.

فى مثل هذا السيناريو كل عبء المبادرة واقع على سكان البلاد المفتوحة الأصليين، ومع ذلك فإن معظم نظريات نشوء اللهجات العربية ترجع أسباب التغييرات اللغوية إلى نزعات طبيعية كانت كامنة فى عربية العصر الجاهلى، ويتفق الباحثون على وجه العموم أنه كانت هناك أنماط لغوية مبسطة فى بدايات الفتوحات العربية، ولكن تلك الأنماط اختفت دون أثر يذكر. تعتمد تلك المسألة على تطور العربية الفصحى الكلاسيكية، فلو أن اكتساب العربية فى بداية الأمر قد أدى إلى تغييرات جذرية فى بنية اللغة وإلى قيام أنماط لغوية مبسطة فيجب أن نفترض أن تأثير العربية الفصحى فى وقت لاحق وخاصة عربية القرآن قد أعادت تقديم كثير من سمات العربية الفصحى الموجودة الآن فى اللهجات العربية. تفترض تلك النظرية أن سكان المناطق الحضرية فى البلاد المفتوحة من غير العرب كانوا يتواصلون مع العرب الفاتحين بلغة عربية مبسطة، وأصبحت تلك الأنماط المبسطة فى المدن العربية الناشئة - التى كانت بوتقة تجميع الحضارات والألسن - اللغة الأم للأطفال الذين نتجوا عن زيجات مشتركة بين رجال عرب وسيدات من السكان الأصليين، أو قل بين أناس من خلفيات لغوية مختلفة تجمع العربية بينهم كلغة ثانية للتواصل.

وقد أدى انتشار الفصحى كلغة رفيعة للأدب والدين إلى تقديم نموذج أثر فى الوضع اللغوى تأثيراً كبيراً لدرجة أنه أقام تدريجا من المستويات اللغوية التى تشبه حالة الازدواجية اللغوية القائمة فى العالم العربى حاليا. وقد أهمل المتكلمون المستويات الأقل فى هذا المدرج ليستخدم المستويات الأعلى فيه، وليست عملية الاستبدال تلك عملية غريبة أو غير اعتيادية من حيث المبدأ، فبالرغم من أنه لا توجد لدينا أى أدلة على عملية إعادة البناء تلك فى العصور القديمة، إلا أن تلك الحالة يمكن مقارنتها لحد ما بتدخل العربية الفصحى فى لغة الكلام فى العصر الحديث مما ينتج عنه تغيرات وتحولات فى لغة متكلمى العامية. انظر على سبيل المثال إلى الكثير من متكلمى العربية المتعلمين الذين أصبح استخدام مركب الإضافة التوليدى القديم متجاورا فى لغتهم مع

استخدام المركب التحليلي العامي، فأصبح بذلك جزءاً من كفاءتهم اللغوية، وتجد علاوة على ذلك أن استخدام هذا المركب بعينه يتسرب للغة الأميين من أبناء اللهجات العربية الحديثة، ولكن الاختلاف الكبير من الحالة الراهنة والحالة التي كانت قائمة في القرون الأولى من الفتح هو وجود وسائل الإعلام في العصر الحديث.

تحدث عملية مشابهة بين اللهجات بعضها مع بعضها الآخر، ففي لهجة القاهرة العربية أدى تزايد الهجرات الريفية إلى المدينة الكبيرة إلى تهميش السمات اللغوية المشتركة بين تلك اللهجة ولهجات الريف التي ورد منها المهاجرون، وكانت النتيجة أن أصبحت تلك السمات المهملة محدودة بالطبقات الدنيا، بل وقد تختفي تلك السمات تماماً في فترة ما. نستطيع أن نسوق هنا مثلاً بسيطاً، ففي القرن التاسع ربما كانت كل اللهجات المصرية تستخدم /تُم/ كلاحقة ضمير الغائب الجمع في الفعل الماضي، ولكن تلك اللاحقة الآن مستخدمة في الأحياء الفقيرة في القاهرة فقط. هناك مثل آخر وهو ظهور الفعل المضارع المعلم بـ /بِ/ في لهجات البدو في صحراء النقب وسيناء. يقول بالفا (١٩٩١) إن تلك اللهجات تنتمي لمجموعة لهجية لا تمتلك تلك السابقة على المضارع، ويقول إنها ظهرت كنتيجة للتسوية باللهجات الحضرية، ويمكن أن تلاحظ بعض الاختلاف والتنوع في استخدام هذه السابقة في حالات اجتماعية معينة، أي في حالات الكلام المهذب مع حضريين بينما يستخدم المضارع المعلم بـ /بـ/ مع البدو.

ويمكن التمثيل على اختفاء السمات اللغوية الدنيا التي تقبع في آخر مدرج الكلام بشكل درامي في حالة التطورات اللغوية في السودان. ما يحدث في السودان هو أن الأنماط المهجنة التي تسمى "عربية جوبا" قد بدأت في استعادة بعض تصنيفات اللهجات العربية العادية تحت تأثير لهجة الخرطوم الرفيعة والمحترمة، تستخدم عربية جوبا شكلاً فعلياً واحداً تستخدمه بصحبة أدوات الجهة المختلفة، وعندما تعرض متكلمو عربية جوبا إلى اللغة العربية الفصحى ولهجة الخرطوم من خلال وسائل الإعلام وتعرفوا على تصريف الفعل العربي بالسوابق واللواحق، فقد أعادوا تحليل السوابق الموجودة على الفعل المضارع العربي /يَ/ أو /تَ/ أو /نَ/ لتكون أدوات جهة يستخدمونها بمعية الأدوات الموجودة فعلاً في عربية جوبا أو بدلاً منها- دون أي

مراعاة للمطابقة. وفى مرحلة لاحقة استطاعوا أن يدركوا الوظيفة الحقيقية لتلك السوابق وتعلموا أن يستخدموها بشكل سليم، من الناحية التاريخية يعنى هذا السيناريو أن متكلمى عربية جوبا قد قدموا مقابلة بين الفعل الماضى والفعل المضارع مما يجعل لهجتهم قريبة فى بنيتها من اللهجات العربية العادية فى ذلك المجال.

حدث هذا التطور الذى أصاب عربية جوبا فى كلام فئة محدودة من المتكلمين، ولكن التنوع القائم فى تلك اللهجة حاليًا يبين أن أى لهجة عربية تستطيع أن تفقد الفرق بين المضارع والماضى وتستعيده بعد ذلك عن طريق تدخل نمط لغوى رفيع ومحترم، وإن لم يكن لدينا علم ببنية لغة هؤلاء المتكلمين السابقة فقد نعتقد أنها مجرد لهجة إقليمية عربية من بين اللهجات الكثيرة، ولما كانت كل معلوماتنا عن اللهجة الدارجة فى القرون الإسلامية الأولى مستقاة من المصادر المكتوبة الكلاسيكية الفصيحة فى طبيعتها، يجب على الأقل أن نسمح بإمكانية أن اللهجة الدارجة كانت تشبه لهجة عربية جوبا غير المتأثرة بالفصحى، وفى فترة لاحقة تم إدخال عناصر فصيحة عليها لدرجة أنها أهملت بنيتها الأصلية التى اختفت بناء على ذلك.

وجهت انتقادات كثيرة لسيناريو تدخل الفصحى السابق، من بين الأدلة على قصور هذا السيناريو وجود عناصر فصيحة كلاسيكية فى اللهجات لا يمكن أن تكون قد دخلت إليها عن طريق التدخل سالف الذكر، يذكر فرجسون (١٩٨٩) حالة المثنى فى اللهجات الحديثة كمثل ، ويزعم فرجسون أن معظم اللهجات تفرق بين شبيه المثنى والمثنى الحقيقى، يستخدم شبيه المثنى مع أجزاء الجسم المزدوجة "إيدين-رجلين-وِدنين" وجموع تلك الكلمات، فى حالة وجود ضمير متصل مع واحدة من تلك الكلمات تفقد نون المثنى فى آخرها، يحتوى المثنى الحقيقى على نفس نهاية شبيه المثنى فى الغالبية العظمى من الحالات، ولكن تلك النهايات لا تستخدم للجمع ولا يمكن أن يلحق بها ضمير متصل، فى اللهجة المصرية مثلا عندنا "رجلين" كشبيه المثنى، ونفس الكلمة كجمع، وفى حالة وجود ضمير متصل تحذف النون فتصبح الكلمة "رجليك"، أما كلمة "ولدين" فهى كلمة مثنى حقيقى، وفى بعض اللهجات هناك فصل بين نوعى المثنى، فتجد فى اللهجة المغربية مثلا "رجلين" كشبيه المثنى وتجد "يومَين" ككلمة مثنى حقيقى، المسألة المهمة هنا أن المثنى الحقيقى فى اللهجات الحديثة يحصل على مطابقة عددية

في الجمع، ولذلك لا يمكن الزعم بأنه وارد من الفصحى الكلاسيكية، تبين الأدلة المأخوذة من نصوص العربية الوسيطة أن المثنى عندما يستخدم كوسيلة لتفصيح الكلام أحيانا يحصل على مطابقة مفرد مؤنث وأحيانا أخرى يحصل على مطابقة جمع، لذلك يزعم فرجسون أن نوعي المثنى لا يمكن أن يكونا إلا سمة قديمة من سمات اللهجات العربية، ولأنهما كانا مستخدمين مع أسماء مجموعة فإنهما يحصلان على مطابقة جمع.

يشير فرجسون كذلك إلى وجود نمط مطابقة غامض كبديل لمطابقة الجمع في اللهجات، فيمكن أن تستخدم في لهجة دمشق مثلاً بدلاً من مطابقة الجمع بين المبتدأ والخبر نمط مطابقة مختلف في: "أجانا مكاتيب كتير" أو "إجتنا مكاتيب كتير". يبدو أن نمط المطابقة هذا مشابه لنمط المطابقة في الفصحى في جملة كهذه، ويمكننا لذلك أن نعزو وجود تلك السمة إلى تدخل من الفصحى الكلاسيكية، ولكن فرجسون لا يعتقد أن تلك السمة إعادة تقديم لسمة الفصحى الكلاسيكية في اللهجات، لأن نمط المطابقة اللهجاتي "إجونا مكاتيب كتير" لم يختف كما هو متوقع بل على العكس ازداد انتشاراً على حساب النمط الفصيح، ولكن في ظل غياب أي مادة مجموعة للهجات تسمح بإجراء نسب تواردٍ فإن الحكم على صحة تلك الحجة عند فرجسون ليس ممكنا. ولكن المسألة الجديرة بالملاحظة في كلام فرجسون هي أنه ليس بالضروري في كل انتقال بين عامية وفصحى أن يكون التطور ناحية الفصحى وإهمالا للعامية. في بعض الحالات يكون من الممكن جدا أن تسري التطورات باتجاه اللهجة، ولكن التدخل من الفصحى الكلاسيكية يؤدي إلى عملية إعادة توزيع في الوظائف النحوية، ففي حالة مطابقة الجمع في اللهجة السورية ربما يكون هناك اختلاف دلالي، فتستخدم مطابقة الجمع للأسماء الجمع التي يمكن عدها، بينما تستخدم مطابقة المفرد المؤنث مع أسماء الجمع.

هناك وجه نقد آخر لنظرية تدخل الفصحى في اللهجات ، وهو نقد يقوم على إنكار قدرة الفصحى الكلاسيكية على التأثير في تراكيب اللهجات وبنيتها ، يشير ديم (١٩٧٨) إلى أنه في معظم المناطق اللهجية هناك مستويات ، الموجة الأولى من الفتح أتت إلى

قيام اللهجات الحضرية التي تحتوى على الكثير من التجديدات اللغوية . وانتشرت تلك اللهجات إلى المناطق المجاورة للمدن ، ولكن موجة ثانية غير مفاجئة من التعريب غطت على موجة اللهجات الحضرية المبكرة ، وقد نتجت تلك الموجة من الهجرات المستمرة التي قامت بها قبائل البدو العربية من شبة الجزيرة إلي خارجها . ففي العراق على سبيل المثال غطت موجة لغوية بدوية نسميها لهجة " جلت " على اللهجة الحضرية المبكرة التي نسميها لهجة " قلت " ، وكذلك في مصر كانت هناك لهجة حضرية دخلت على مصر السفلى فى الموجة الأولى من الفتح العربى ، ولكن الريف المصرى والصعيد تم تعريبه بواسطة موجة أخرى من الهجرات البدوية من شبه الجزيرة ، وفى شمال أفريقيا لم يتحقق تعريب الريف بشكل كامل إلا فى القرن الحادى عشر مع هجرة بنى هلال . تقول نظرية ديم إن موجة الهجرات البدوية الثانية حققت بعض التجانس فى اللهجات العربية خارج شبه الجزيرة ، بالمقارنة لتطور اللهجات الآرامية التى أنتجت أنماطًا شرقية وغربية شاسعة الفوارق فإن اللهجات العربية متشابهة بشكل مثير من الناحية الطيبولوجية ، وقد نتجت تلك التشابهات فى وجهة نظر ديم من خلال التجميع الذى حدث فى فترة تشكيل تلك اللهجات ، وحسب هذ السيناريو يكون للهجات البدوية دور فى توحيد اللهجات الحضرية أكبر بكثير من دور العربية الفصحى الكلاسكية .

يضيف باحثون آخرون من أمثال هولز (١٩٩٥) إلى الاعتراضات على نظرية تدخل الفصحى اعتراضا ذا طبيعة اجتماعية ، فهو يعتقد أن الوضع الاجتماعى فى البلاد المفتوحة عقب الفتح مباشرة لم يسمح للأنماط اللغوية المبسطة بأن تتطور فتصبح لهجات حديثة كاملة، يؤكد هولز على أنه في الفترة المبكرة للفتح كانت هناك تعديلات لغوية فعلا ، ولكن المعلومات اللغوية المبكرة والسجلات التاريخية لا تسمح لنا بالاعتقاد بأن اللهجات المبسطة حافظت على نفسها لفترة طويلة من الزمن . يقول هولز إن البرديات بينت وجود حالة انتقالية ناحية التقعيد اللغوى لم تثبت فيها بعد الأسس والمعايير اللغوية ، فلا تجد أن البرديات تبين أي تغيير جذرى شامل في اللغة . لذلك يفترض هولز وجود عملية انتقال تدريجية من بداية تعلم العربية باتجاه الوضع اللغوى الراهن والشكل اللهجاتى الحالي ، فبينما تعلمت مجموعة قليلة من السكان الأصليين

الفصحى الكلاسيكية لأنهم محترفون في ذلك المجال فإن عامة الشعب لم تع وجود أي نموذج لغوي فصيح ، باختصار عندما تعلم الناس العربية تعلموها كلغة ثانية ولم يتعلموها كلغة مؤقتة .

هناك طريقة للتوفيق بين وجهتي النظر المتعلقتين بتأثير الفصحى الكلاسيكية، وهي تصور أن الموجة الثانية من الهجرة البدوية هي التي جلبت العناصر الكلاسيكية في اللهجات العربية، لم يكن البدو الذين يتكلمون لهجات بدوية قد تأثروا بعد باللهجات الحضرية واستطاعوا أن يفرضوا لهجاتهم، لا تعتبر عملية بدونة اللهجة عملية غريبة حتى في العصر الحديث حيث تحولت الجماعات المسلمة إلى لهجات أكثر بدوية من اللهجات الحضرية التي تمسك بها المسيحيون واليهود، أما بالنسبة للبدو أنفسهم فقد أفلحوا في الاحتفاظ بلهجتهم بعيداً عن التأثير الحضري نوعا ما، علاوة على ذلك فإن نمط السمو والاحترام قد تغير عبر الزمن، ففي الماضي لم تكن اللهجات الحضرية تتمتع بنفس درجة الاحترام التي تحظى بها الآن، ولذلك لم تكن لتؤثر في اللهجات البدوية، وفي مرحلة لاحقة أصبحت المناطق الحضرية مركز الإمبراطورية ومقر الحكم ولذلك أصبح من الصعب على البدو تجنب تدخل اللهجات الحضرية في لغتهم .

وفي الختام أود أن أقول إننا لا نعرف الكفاية عن عملية قيام العربية الفصيحة الكلاسيكية لنعرف أثرها على اللهجات، ولأننا لا نعرف إلا نتيجة عملية التعريب والتطور اللغوي وهي اللهجات العربية الحديثة فإن مسألة دور الفصحى في تكوين اللهجات العربية مهمة جداً إذا كان لنا أن نستنتج تركيب اللهجات العربية المبكرة من اللهجات الحديثة، وفي نفس الوقت لا تقدم أي نظرية موجودة لتفسير اللهجات العربية الحديثة تفسيراً وتبريراً كاملاً لأسباب وجودها ولتركيبها الحالي بالرغم من أن كل نظرية تفسر جزءاً من هذا التطور، ويجب أن نقول إنه في تلك المرحلة لا يمكن الاعتماد على دراسة تاريخ العربية فقط للحصول على إجابة عن سؤال لماذا قامت اللهجات بهذا الشكل وكيف، بل إننا بحاجة إلى معلومات كثيرة عن الوضع الاجتماعي في الإمبراطورية الإسلامية المبكرة وأماكن توطن العرب وأساليب هذا التوطن، وتحتاج أيضا إلى مساعدة علم اللغة التاريخي العام ليقدم لنا أنماط تطور أكثر كفاءة أو أدلة أكبر على التطور اللغوي .

الفصل السابع

العربية الوسيطة

٧-١ تعريف العربية الوسيطة

ناقشنا في الفصول السابقة كلاً من تطور العربية كلغة كتابة أدبية وظهور اللهجات العامية، ولكن السؤال الذى يبقى علينا الآن أن نتعامل معه هو ما العلاقة التى تجمع بين النمطين اللغويين فى مجالات الكتابة الأدبية وغير الأدبية فى القرون الأولى للفتح الإسلامى، تجد لغة الكثير من المصادر العربية المكتوبة التي وردت لنا من تلك العصور لا توافق قواعد العربية التى رسمها النحاة. ينطبق هذا على كل من اللغة الأدبية الرسمية التي ظهرت في العصور المتأخرة ولغة البرديات؛ فلن تجد نحوياً يستخدم مثلاً تركيبًا مثل "يكتبوا" بدلاً من "يكتبون" في حالة الفعل المرفوع، ولكن هذا الشكل من الفعل يظهر كثيرا في كل من البرديات وبعض النصوص المكتوبة، وبما أن هذا الشكل الفعلي هو الشكل المستخدم في اللهجات العربية الحديثة ، فإن خلاصة علة ظهوره في النصوص المكتوبة أنه انعكاس للهجة الكاتب الدارجة، وسوف نهتم في هذا الفصل بتلك الأنماط المخالفة للعربية الفصحى الكلاسيكية في النصوص المكتوبة.

المصطلح الذى يجمع كل النصوص التى تحتوى على أنماط مغايرة للفصحى الكلاسيكية فى الدراسات الحديثة هو "العربية الوسيطة"، وقد أدى هذا المصطلح فى حد ذاته إلى اضطراب كثير وغموض، ولذلك من الأولى أن نشرح ما لا يعنيه المصطلح. فى تاريخ اللغة الإنجليزية هناك الإنجليزية القديمة والإنجليزية الوسيطة والإنجليزية الحديثة، وهى حقب زمنية فى تاريخ تطور اللغة الإنجليزية، وقد يحلو للبعض أن يتصور

أن العربية الوسيطة هي مرحلة متوسطة بين كل من العربية الفصحى الكلاسيكية والفصحى المعاصرة، أي قل من الفترة بين ٨٠٠ و ١٨٠٠ ميلادياً مثلاً. في كتاب بلاو عن العربية الوسيطة عند المسيحيين (١٩٦٧: المجلد الثاني، ص ٣٦) يقول المؤلف: "إن العربية الوسيطة هي الحلقة المفرغة بين العربية الكلاسيكية القديمة واللهجات الحديثة"، ولكنه عدل استخدامه للمصطلح في منشوراته التالية على هذا الكتاب ليتفادى أي سوء فهم للمصطلح. يمكن أن تظهر أخطاء لغوية في نصوص الفصحى المعاصرة بنفس درجة السهولة التي كانت تظهر بها في النصوص القديمة، ولذلك يصبح من الخطأ أن نفهم من مصطلح العربية الوسيطة أي مدلول زمني تاريخي، فسوف نرى فيما بعد أن الأخطاء الموجودة في نصوص عربية حديثة تشبه تلك الموجودة في النصوص القديمة أشد الشبه.

يعتبر بعض الباحثين العربية الوسيطة نمطاً لغوياً مستقلاً، أي نوعاً خاصاً ما بين العربية الفصحى واللهجات العامية. ولكن تلك الفكرة لا تتماشى مع طبيعة تلك النصوص الحقيقية. فكل فرد يريد أن يكتب باللغة العربية يكتب والفصحى في ذهنه، وتختلف درجة البعد عن المثال الفصيح في النص المكتوب والاقتراب من العامية بقدر تعليم كاتب النص. لذلك تعكس بعض نصوص العربية الوسيطة أخطاء محدودة ومشتتة، بينما تكون بنية بعض النصوص الأخرى مقاربة للعامية. ولكن حتى في أقصى حالات تدخل العامية في النص لا يمكن اعتباره نصاً عامياً لهجاتياً لأن كل النصوص المكتوبة محاولات تقرب من الفصحى في الأساس حتى ولو كانت هناك عناصر عامية في النص. عندما حقق لاندبرج واحداً من أوائل نصوص العربية الوسيطة عام ١٨٨٨ ظن أنه أمام مثل حقيقي لنص مكتوب باللهجة المصرية في قصة باسم التي حققها، في حقيقة الأمر بالرغم من أنه من السهل أن نرى في بعض أجزاء تلك القصة لهجة مصرية حقيقية فإن الكاتب في معظم الأجزاء لا يستطيع أن يفلت من قواعد الفصحى، وربما لم يكن يريد أن يفلت منها أصلاً. ولكنه كان من الغريب أن يرى لاندبرج ساعتها نصا فيه عناصر عامية، ولذلك كان من السهل عليه أن يظن أن النص مكتوب بالعامية المصرية.

في كل جماعة لغوية هناك فارق بين لغة الكتابة واللغة العامية الدارجة، في الهجاء والمعجم وحتى في التراكيب، ولكن في المجتمعات التي يكون فيها فارق مؤسسي بين نمط عال ونمط دوني (الازدواجية اللغوية) يكون الفارق بين لغة الكتابة فيها وبين لغة الكلام فارق كبير جداً، وإذا كانت معدلات التعليم في مثل تلك المجتمعات منخفضة، يصبح التمكن من لغة الكتابة أمراً محدوداً جدا، وفي نفس الوقت يرتبط النموذج المكتوب بشكل تلقائي باستخدام وسيلة الكتابة، فإذا كان لشخص أن يكتب بالعربية فلن يجد أمامه خيارا سوى الكتابة بالنموذج الكتابي المتعارف عليه. ولكن المشكلة طبعا هي أن مستوى لغة الكتابة أعلى بكثير من مستويات معظم الناس. فبمجرد أن يبدأ الإنسان في كتابة العربية يرتكب أخطاء لغوية يكون مصدرها غالبًا لغتهم الدارجة. من أشهر الأمثلة دمج صوتي الظاء والضاد الفصيحين في الضاد العامية، مما ينتج عنه مشاكل في الهجاء من أمثال كتابة "ضبي" بدلا من "ظبي"، من بين الأمثلة أيضًا ما يسببه اختفاء لواحق الصيغ في اللهجات فيحتار الكتاب متى يستخدمون "يكتبون" ومتى يستخدمون "يكتبوا".

من الخطأ أن نفترض أن كل مشكلة ترد في نص من النصوص نابعة من العامية، بما أن الناس يعرفون أن هناك فارقًا بين اللغة المكتوبة ولغة الكلام فإنهم سيبذلون جهداً واعيًا ليكتبوا بشكل سليم. ولكن عندما يفكرون في ذلك أحيانا ما ينتجون أشكالا لا هي بالعامية ولا هي بالفصيحة، ففي حالة لواحق الصيغ التي تكلمنا عنها سالفا يكون الشكل الصحيح في حالة الجزم هو "لم يكتبوا"، ولكن لأن الناس يخافون من تدخل العامية في كتابتهم فإنهم أحيانًا ما يستخدمون شكلاً مثل "لم يكتبون" لكي يبينوا أنهم عارفون بالقواعد الصحيحة، تسمى أمثال تلك الأخطاء بأخطاء "شبه الصحيح"، في داخل أخطاء شبه الصحة هناك تقسيمان تحتيان: هما الصحة الزائدة والصحة الناقصة. يعتبر المثل الذي قدمناه سلفا حالة جيدة من حالات الصحة الزائدة، فعندما حاول الكاتب إصلاح الشكل اللهجاتي وبالغ في الدقة أنتج شكلاً فصيحاً بشكل زائد عن اللزوم. أما في حالة الصحة الناقصة فتصحيح الشكل العامي يكون عادة غير كامل. الشكل الأساسي للفعل الذي يشير إلى المثنى في نصوص العربية الوسيطة هو الجمع، فتجد "الرجلان يدخلوا"، وعندما يحاول الكاتب إصلاح هذا الشكل الخاطئ

ولكن يقصر عن إصلاحه بشكل عام ينتج شيئا مثل "الرجلان يدخلا"، وهذا شكل ليس عاميًا ولكنه في نفس الوقت ليس فصيحًا، لأن الفصحى تستخدم في مثل هذا التركيب "يدخلان". هناك مثل آخر للإصلاحات الناقصة في تغيير ترتيب كلمات الجملة ليبدو فصيحا، فتجد الكاتب يستخدم تركيبًا مثل "يدخلا الرجلان"، فعندما حول الكاتب الجملة من اسمية لفعلية لم يحول الفعل من حالة المثنى لحالة المفرد كما تحتم قواعد الفصحى التي تستخدم شكلاً مثل "يدخلُ الرجلان".

ليس استخدام شبيه الصحة مقصوراً على اللغة المكتوبة وحدها، فلما كان الشكل الكتابي الفصيح هو في نفس الوقت نموذج الكلام الرفيع الراقي فقد يجد المرء كثيراً من أمثلة الصحة الزائدة في لغة الكلام. انظر مثلاً المصريين الذين يعرفون جيدا أن هناك تعادلا بين صوت القاف الفصيح وصوت الهمزة العامي البديل، فعندما يريدون أن يبدوا متعلمين فإنهم يضعون صوت القاف مكان كل همزة، ليس هذا في الكلمات الفصيحة التي تحتوى على القاف فحسب بل أيضًا في الكلمات التي لا تحتوى قط على صوت القاف. ولذلك ليس من النادر أن تسمع كلمات مثل "قرقان" بدلاً من "قرآن".

بجانب نقص المعرفة بالفصحى والذى يتمثل في الأخطاء الصريحة وفي شبه الصحة، ربما يكون هناك مصدر آخر يسبب الحيود عن معايير الفصحى، بسبب البعد الكبير بين لغة الكلام ولغة الكتابة يصبح من الصعب تسجيل حوار حي بين أناس حقيقيين بشكل مكتوب. هذه مشكلة كبيرة في الأدب العربي الحديث وقد ألهبت حوارا وجدلا كبيرين، وربما كانت تلك المشكلة قائمة في العصر الكلاسيكي أيضا، خاصة في حالات القصص التي كان من المفروض أن تتلى على جمهور من المستمعين. نتيجة لذلك كانت هناك دائما نزعة في تلك النصوص لبث الحياة في تلك الحوارات بإضافة كلمات أو تراكيب عامية، في قصة باسم التي تكلمنا عنها سالفًا نجد مثلا في محادثة بين الخليفة هارون الرشيد ووزيره جعفر وخادمه مسرور أمثال التعبيرات التي سنوردها توًا. يبدأ الوزير أولاً بقوله: "يا أمير المؤمنين مسرور عمال يقولُ لي ربما أن الملك جاع اساله الرجوع للسراية" ثم يرد مسرور على ذلك بقوله: "أنا قلتُ لكَ ولا أنت بتقولُ لي قول له"، فيقول الخليفة: "مانيش جيعان خلونا نَتَفرج".

يستخدم كل المشتركين في تلك المحادثة تعبيرات عامية كالمضارع المستمر المسبوق بعلامة الجهة "عمال بيقول"، ويستخدمون كذلك "لي" بدلاً من "إلي"، وكذلك استخدموا تعبير النفي الاسمي "مانيش"؛ ولا شك أن من يقص تلك القصة على المستمعين سيحاول أن يطوع الأصوات للدارجة بشكل أكبر، من الواضح أن القاص كان على علم تام بالأشكال الفصيحة ولكنه اختار أن يستخدم نظائرها العامية ليمعن في تسلية مستمعيه، في بعض الأحيان نشعر بأن المتكلم يستخدم جملة فصيحة كاملة ويختمها بكلمة أو كلمتين عاميتين ليزيد من درجة تسلية المستمعين. أظن المستمعين كانوا يضحكون عندما يدركون أن شخوصًا عظيمة تتكلم بالعامية المصرية؛ وفي النسخة السورية من نفس القصة، نجد التعبيرات المصرية العامية قد تحولت لتعبيرات سورية.

وفي قصة مماثلة أخرى تدور أحداثها حول طبيب وطاه، من تحقيق نولدكه (١٨٩١) نجد أن الحيود عن الفصحى لم يكن مقصودا: "وهذه الجسور مراكب مربطين في بعضهم البعض وتمشي الناس عليهم ليقضون أشغالهم. . . . . . وبينما هو في ذات يوم يتفرج في الأسواق فاجتاز على دكان طباخ".

من الواضح أن كاتب تلك القصة كان يحاول أن يكتب بالعربية الفصحى ولكنه لا يستطيع أن يطبق قواعد تلك اللغة، فتجده يشير إلى كلمة "جسور" بعض الأحيان بضمير الجمع المذكر وأحيانا بضمير المفرد المؤنث، ويستخدم أيضا المضارع المرفوع مكان المضارع المنصوب بعد اللام، وفي الجملة بعد "بينما" يحاول المؤلف أن يرفع من درجة فصاحة جملته بوضع الفاء قبل المركب الرئيسي، ولكن الكاتب هنا ليس مهتمًا بوضع عناصر عامية ليسلي مستمعيه.

ربما كان هناك سبب ثالث لظهور الأخطاء اللغوية في نصوص العربية الوسيطة، وربما كان هذا السبب متعلقًا بالعربية الفصحى كلغة كتابة داخل جماعات معينة في القرون المبكرة، ولما كان نموذج القرآن اللغوي أضعف تأثيرا على اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية منه على المسلمين العرب، فقد شعرت تلك الجماعات بحرية أكبر من تلك التي شعر بها المسلمون في استخدام أنماط دارجة في لغتهم المكتوبة، وفي هذا السياق يجوز التحدث عن عربية وسيطة خاصة باليهود وعربية وسيطة خاصة

بالمسيحيين كلفة جماعة مستقلة داخل مجتمع ما بالضبط كما كانت الحال في لاتينية المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية.

بينما وضع مصطلح العربية الوسيطة لتعريف النصوص التي ظهرت في الفترة ما بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين، فإن معظم الدراسات التي تناولت العربية الوسيطة تناولت النصوص المبكرة منها، ذلك لأن الباحثين استخدموا تلك النصوص المبكرة ليعيدوا بناء مرحلة نشوء اللهجات في تاريخ العربية. ويرجع هذا لأن الباحثين يظنون أن الأخطاء اللغوية والعناصر اللهجاتية الموجودة في تلك النصوص إنما هي عواكس لمراحل تطور تاريخي في العربية، ومع ذلك فإن قيمة نصوص العربية الوسيطة محدودة بالنسبة لعلم اللغة التاريخي بسبب طبيعتها . فيعتمد خلط العناصر اللهجاتية بالعناصر الكتابية في تلك النصوص على قدرة المؤلف الفرد، فحضور أي سمة أو غيابها لا يخبرنا شيئًا عن الموقف الحقيقي في اللهجات ساعة كتابة النص، وبسبب الطبيعة الفردية لسمات تلك النصوص لا يعبر ارتفاع نسبة ظاهرة معينة عن تطور لغوي أصاب اللهجات على مر الزمن ولكنه فقط يشير إلى تغير في القاعدة اللغوية، انظر مثلاً إلى استخدام تركيب الإضافة التحليلي، ستجد أنه يندر استخدامه في النصوص المبكرة ويكثر في النصوص المتأخرة، ولكن تلك الحقيقة في حد ذاتها لا تعكس الإكثار من استخدام نفس التركيب في اللهجات بقدر ما تعكس تغير نمط قواعد الكتابة نوعًا ما.

علاوة على ذلك رأينا سالفًا أن بعض أسباب ظهور سمات حائدة عن قواعد الفصحى في الكتابة هو إشباه الصحة، وهي سمات لغوية وأشكال ليست موجودة في الفصحى أو في العامية، ولكن كل ذلك لا يعني ألا نستخدم نصوص العربية الوسيطة كأدلة لغوية، بل يجب أن نستخدمها ولكن بحرص، فمن الخلط بين الضاد والظاء في العربية الوسيطة مثلاً يمكن أن نخلص إلى أن هذين الصوتين اندمجا في العامية، ولكن العربية الوسيطة تخبرنا بهذه المعلومة دون أن تخبرنا عن الفترة التي ظلت فيها تلك السمة قائمة في اللهجات.

تنطبق تلك الخلاصة أيضاً على النصوص العربية القليلة المشكولة المكتوبة بخطوط غير عربية، أشهر تلك النصوص نص من الكتاب المقدس مكتوب بالخط اليوناني حققه فيوليت، يعتبر هذا النص الذي يرجع تاريخه إلى بداية القرن التاسع نصاً فريداً لأنه يقدم لنا بعض الأفكار حول طريقة نطق أصوات اللين العربية في تلك الفترة، فهو يبين مثلا اختفاء أصوات اللين القصيرة في أواخر الكلمات، وتتضح أيضا الإمالة في هذا النص بشكل كبير في مثلا: "كِن" مكان "كان"، يتضح من النص أن اللغة المكتوب بها كانت تحتوي على سمة التلتلة، انظر مثلا كلمة lechfadou التي تعني "يحفظوا". ولكن مع ذلك فلغة النص نفسها ليست عامية، بل وربما كان أمام المترجم نموذج عربي لأن أداة التعريف في كلمة مثل "التراب" مكتوبة وليست مضخمة بسبب صوت التاء الشمسي، وكذلك نجد صوت اللين الموجود مع همزة الوصل مكتوبا وليس محذوفا كما في لغة الكلام.

كانت هناك أيضاً نصوص عربية مكتوبة بخطوط أخرى كالقبطية والسريانية والفارسية واللاتينية والعبرية والأرمينية والعربية الجنوبية. ولكن تلك النصوص متأخرة ولذلك ليست مفيدة جدا في إعادة تركيب نطق العاميات المبكرة. وسوف نناقش في باقي أقسام هذا الفصل النصوص العربية المكتوبة بالخط العبري والنصوص المكتوبة بالخط القبطي .

٧-٤ العربية الوسيطة عند المسلمين

هناك نوع من النصوص يقف متفردا عن باقي نصوص العربية الوسيطة التي ذكرناها هنا وهي نصوص البرديات الكثيرة. ترجع أقدم نسخ المخطوطات العربية الفصيحة الأدبية وغير الأدبية للقرن الثالث الهجري، ولما كان من الممكن أن تحتوي تلك النصوص على تعديلات أو إصلاحات أجراها النساخ أو الكتبة فإنه من الخطر أن نستنتج منها أي خلاصة بشأن الوضع اللغوي في زمن كتابة تلك النصوص، ولكن البرديات وثائق أصلية، وقدر الباحثون عدد المخطوطات البردية التي حفظت لنا بحوالي ستة عشر ألف وثيقة، وحوالي ٣٢ ألف نص مكتوب على ورق، وعلاوة على ذلك هناك

عدد كبير من النصوص مكتوبة على مواد أخرى غير البردي كالجلد والخشب والزجاج والعملات المعدنية. كما أن هناك كمية كبيرة من النقوش.

يرجع تاريخ أقدم البرديات العربية إلى العام ٢٢ من الهجرة، وهي برديتان عربيتان ونص عربي يوناني ، هناك أرشيف نسانا الذي يرجع تاريخه إلى الفترة ما بين عامي ٥٤ و ٧٠ هجريا، ويرجع تاريخ أرشيف أفروديتو إلى الفترة ما بين ٩٠ و ٩١ هجريا. وهناك تزايد مستمر في عدد البرديات التي يرجع تاريخها لفترة ما بعد القرن الأول الهجري، ولكن أكثر فترة ظهرت فيها برديات كانت القرن الثالث الهجري الذي من بعده بدأ عدد البرديات في التناقص، تنحدر معظم البرديات من مصر، وكتب معظمها كتبة مسلمون في أغراض غير أدبية، أي أغراض تجارية أو إدارية.

ترجع أهمية البرديات إلى أن لغتها تعكس سمات نصوص العربية الوسيطة المتأخرة بشكل أو بآخر، مما يعكس أن سمات العربية الوسيطة كانت منذ البداية حادثة عن تغيرات في العامية حدثت منذ وقت مبكر. ولكننا لا يجب أن نضخم من حجم التأثير العامي لأن نصوص البرديات تلك لا تخلو من تأثير الفصحى. ليس هذا غريباً إذا وضعنا في اعتبارنا غرض كتابة تلك النصوص ؛ فهي نصوص كتبها كتبة ونساخ متخصصون. هم رجال حصلوا على قسط من التعليم. وكتبوا تلك النصوص لأغراض رسمية بلغة لا تخلو من أشكال جامدة نمطية. ولذلك فإذا ما وجدنا مثلا المبني للمجهول أو النفي مستخدمين بكثرة في البرديات فإن ذلك لا يعني أن هاتين السمتين كانتا مستخدمتين بكثرة في اللهجات الدارجة في وقت كتابة تلك النصوص. فتلك السمات أمثال نمطية لعلامات الفصحى في الكتابة العربية في الماضي وفي الحاضر على حد السواء. تؤكد تلك الفكرةَ حقيقةُ وجود الكثير من أخطاء أشباه الصحة اللغوية في البرديات، من أمثال تلك الأخطاء استخدام ألف المفعول به مع بعض الأسماء المرفوعة واستخدام الفعل المرفوع بثبوت النون بعد /لم/ ولا توجد أمثلة على مركب الإضافة التحليلي أو سوابق الجهة وأدواتها، ولكن ذلك ليس غريباً لأن تلك العلامات تنتمي لأنماط اللغة غير الفصيحة.

علاوة على البرديات هناك أنواع أخرى من نصوص العربية الوسيطة في العصر ما قبل الحديث. من أشهر تلك النصوص نصوص ألف ليلة وليلة، وقد نشأت معظم تلك النصوص في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، ولكن المخطوطات التي عثر فيها على تلك القصص يرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر. يبدو أن تلك القصص قد مرت بمرحلة تحسين أدبي وتهذيب، ويتضح ذلك من شكلها الذي هي الآن عليه، فمن الواضح أن العناصر العامية تمثل محاولة واعية لإحياء النص، ولكن معظم الطبعات الحديثة قد نقحت المخطوطات وهذبتها بحسب قواعد العربية الفصحى، ولكن أهم نسخة لألف ليلة وليلة موجودة لدينا هي طبعة محسن مهدي التي صدرت عام ١٩٨٤، وهي طبعة حققها محسن مهدي اعتمادا على المخطوطات بشكل أساسي ومباشر، انظر الاقتباس التالي الذي نسوقه هنا من نسخة أخرى لألف ليلة وليلة كمثال على أسلوب كتابة تلك القصص، وهو أسلوب يعتمد على إدخال بعض سمات العامية في الحوار كاستخدام أداة النفي \ما :\"فقالَ الرشيد ذاك المليح من هو أخبرني به فقالَ يا مولانا ما يتفهم كلام مسرور فقال امضي ازعق به فقال مسرور ما أمضي إليه، فقال الرشيد يا جعفر ادخل بالله وأبصر من هو الذي قد ضرب مسرور وهذه خاتمي امضي بها إليه وأجي به فقال جعفر يا مولانا مسرور يجي أصلح".

ولكن ألف ليلة وليلة تختلف عن القصص الشعبي العربي الحقيقي في أن ذلك الأخير ينبع من تراث شعري وقصصي شفاهي يتلوه قصاصون محترفون في تجمعات الناس وفي الأسواق، ومن المفترض أن تكون تلك القصص الشعبية أصلا محكية بالدارجة. ولكن عندما جمعها الباحثون المهتمون بعد ذلك لم يستطيعوا التخلص من تأثير الفصحى، ولذلك لا نستطيع أن نجزم بأن تلك الحكايات الشعبية في شكلها الحالي نموذج على الكلام الدارج. ما يزال الكثير من تلك الحكايات الشعبية موجودا في مخطوطات لم تطبع بعد، وهي متركزة خاصة في مكتبات موسكو وكمبريدج.

استخدم الشعراء على مر العصور العاميات كوسيلة للتعبير عن مشاعرهم، ولكن ذلك أدى إلى ظهور نوع من الدارجة الأدبية وليس إلى عكس حقيقي لعامية الشاعر وشعبه، وقد حفظ الزمن لنا قصائد من الشعر العامي كتبها الشاعر السوري

عمر المحار في القرن الثالث عشر والشاعر المصري على بن بوبون في القرن الخامس عشر والشاعر الحضرمي السعد بن سويني في القرن الخامس عشر أيضا. وكان هذا النوع من الشعر منتشراً بشكل كبير في المغرب العربي، حيث تدخلت عناصر منه في الشعر الفصيح الكلاسيكي، فقد أصبح من العادي في شعر الموشحات أن يضيف المؤلف مذهبا عاميا إلى قصيدته، وكانت المذاهب العامية عادة ما تكون عربية أو بلهجة رومانسية من اللهجات التي كانت مستخدمة في الأندلس.

في أنواع نصوص العربية الوسيطة التي ذكرناها حتى الآن ، كانت العناصر العامية مرتبطة بوظيفة تلك النصوص القصصية أو الأدبية، ولكن في الرسائل العلمية العربية التي يكون موضوعها فنيًا بحتًا وليس لجمهور المثقفين العاديين به اهتمام كبير تجد أن العناصر العامية عفوية بدرجة ما، ففي مجالات الطب أو الصيدلة أو في مجالات العلوم التقنية المتخصصة جدا كالرياضيات أو الفلك أو الميكانيكا لا يقع المؤلف تحت تأثير قواعد الفصحى الكلاسيكية، ولو أن الكاتب فضل استخدام قواعد العامية بدلا من قواعد الفصحى لما لامه أحد على اختياره. وفي النصوص التي اختار كتابها عمدا أن يستخدموا وسيطًا لغويًا غير رسمي تجد العناصر العامية بكثرة، ولكنك في نفس الوقت لا تجد أخطاء أشباه الصحة إلا فيما ندر.

سوف نسوق فيما يلي مثلا من عربية المثقفين المسلمين الوسيطة، والنص التالي من مذكرات أسامة بن منقذ (توفي عام ٥٨٤ هجريًا): "فلما وصلنا عسقلان سحرا ووضعنا أثقالنا عند المصلى صبحونا الإفرنج عند طلوع الشمس فخرج علينا ناصر الدولة ياقوت والي عسقلان فقال ارفعوا ارفعوا أثقالكم فقلت تخافُ لا يغلبونا الإفرنج عليها قال نعم قلت لا تخافُ هم يرونا في البرية ويعارضونا إلى أن وصلنا إلى عسقلان ما خفناهم، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟ " (كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، طبعة الرياض عام ١٩٨٧).

. نرى في هذا النص نوع اللغة التي نتوقعها من رجل عربي من علية القوم كأسامة بن منقذ، درس النحو العربي ولكنه لم يكن قط متشدداً في علمه، فلم يجد غضاضة في إهمال علامات النصب على الأسماء واستخدام مطابقة كاملة بين الفعل والفاعل

واستخدام لاحقة واو الجماعة في الفعل المضارع فيما تحتم الفصحى استخدام الفعل المضارع المرفوع بثبوت النون، فقد حافظ الكاتب في هذا النص على نكهة عامية دون أن يفقد صلته بالفصحى، واستخدم حريته كاملة في تغيير القواعد دون أن يشعرنا بأنه جاهل بها، والسمة المشتركة بين هذا النوع من العربية الوسيطة والأنماط التي ذكرناها سالفًا هي وجود اختلافات مع قواعد الفصحى. ولكن أخطاء أشباه الصحة منعدمة تمامًا في نثر أسامة بن منقذ ومن هم على شاكلته من الكتاب.

٧-٣ عربية اليهود

كما رأينا سالفًا فإن العربية الوسيطة ليست نمطًا لغويًا خاصًا في العربية ولكنها تسمية لنوع من النصوص يحتوي على عناصر حيود عن قواعد الفصحى. ومع ذلك فعندما يكتب اليهود أو المسيحيون بالعربية فإنه من المشروع أن ننظر إلى عربيتهم المكتوبة تلك على أنها نمط خاص من أنماط العربية. ذلك لأن نمط العربية الذي يستخدمونه في الكتابة يصبح نمطا محدودا بجماعة لغوية معينة. وكثيرا ما يشار إلى النمط اليهودي في العربية الوسيطة باسم عربية اليهود، ففي بدايات الفتوحات الإسلامية كانت لغة اليهود في البلاد المفتوحة هي الآرامية، وكانت العبرية لغتهم الدينية واللغة التي كانوا يكتبون بها شعرهم، ولكن العبرية لم تكن قط لغة كلام في أوساط اليهود في العالم العربي الإسلامي، لا نعرف حتى الآن متى تحولت لغة الكلام عند اليهود من الآرامية إلى العربية، ولكن ذلك لابد أن يكون قد حدث في مرحلة مبكرة بعد الفتح ، يرجع تاريخ أقدم كتابات أدبية يهودية باللغة العربية إلى القرن التاسع الميلادي ، ويرجع تاريخ معظم الوثائق غير الأدبية لتلك الجماعة إلى فترة بعد العام ١٠٠٠ وقد تم اكتشاف معظم تلك الوثائق في القاهرة، وهي ما تسمى بوثائق الجنيزة. ولما لم تكن العربية الفصحى معيارًا حتميًا وضروريًا بالنسبة اليهود الذين كانوا يتكلمون شكلاً دارجا من العربية فقد ظهرت في نصوصهم سمات عامية أكثر مما ظهر في النصوص التي كتبها المسلمون. ولكننا لا نستطيع أن ننظر لتلك السمات على أنها أخطاء لغوية أو دليلاً على قصور المعرفة بالفصحى وقواعدها، فموسى بن ميمون (توفي عام ١٢٠٤ ميلاديًا) على سبيل المثال كان يستخدم عربية فصيحة سليمة جميلة في رسائله التي

وجهها لمسلمين، ولكن عندما كان يكتب لبني دينه كان يستخدم لغة تحتوي على كثير من سمات نصوص العربية الوسيطة الأخرى.

تتميز العربية التي استخدمها الكتاب اليهود بسمتين مميزتين هما: أولا مسألة أن كتابات اليهود كانت بالخط العبرى، والسمة الثانية وجود قدر كبير من الكلمات عبرية الأصل في تلك النصوص، يعتبر تسجيل الفونيمات العربية بحروف عبرية مسألة تغيير حروف، فكل حرف عربي كان يقابله حرف عبري في عملية مقابلة محكمة، ولما كانت الأبجدية العبرية أقل عددا من مثيلتها العربية فقد احتاج اليهود بعض التعديلات ليجروا تلك المقابلة، من أزكى التعديلات التي أجراها الكتبة اليهود هو استخدام رموز ألفونات عبرية للتعبير عن فونيمات عربية. يوجد في العبرية للأصوات الانفجارية ألفونات احتكاكية تظهر في بعض البيئات الصوتية المحدودة، ويعبر عنها في الخط العبرى بنقطة مع الحرف، وفي عملية نقل الكتابة العربية بحروف عبرية استخدم الكتبة رموز تلك الألفونات للتعبير عن أصوات عربية قريبة ولكنها ليست موجودة في الخط العبرى. ولكنك قد تلمح في المخطوطات أن النقاط على تلك الحروف محذوفة، ويضفي ذلك على النص بعض الغموض. وفي حالات الأصوات والحروف العربية التي لم يتثنى لهم تقديمها بهذا الشكل استخدم اليهود الرموز العبرية للأصوات المهموسة وأضافوا إليها نقطة. لذلك تجد الصاد العبرية وفوقها نقطة تعبر عن صوت الضاد العربي. يعكس فصل الكتبة اليهود بين الضاد والظاء في نقل حروف العربية للعبرية حقيقة أننا نتعامل هنا مع حالة نقل كتابة لكتابة، لأن الفونيمين قد اندمجا تماما في العاميات الدارجة. وهي الحقيقة التي يعكسها أيضًا حرص الكتبة اليهود على تسجيل أداة التعريف العربية حتى في البيئات التي تضغم فيها فيما يليها من أصوات.

ولكن هناك بقايا لنظام سابق على نظام نقل الحروف هذا، فتدل الآثار على أن عملية كتابة اللغة العربية بحروف عبرية كانت تتم على أساس لغة الكلام، بالرغم من أن معظم النصوص العربية اليهودية ترجع إلى ما بعد العام ١٠٠٠، فإن لدينا بعض البرديات العربية اليهودية المصرية التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادى، ولم تقع تلك النصوص ضحية تأثير نظام الكتابة العربية الفصيحة. من أهم سمات تلك النصوص أن أصوات الضاد والظاء العربية كانت تكتب باستخدام رمز الداليت العبرى

الذي كان أقرب معادل صوتي للصوت العربي الذي يسمعونه. علاوة على ذلك كانت تلك النصوص تعبر عن أداة التعريف في شكلها المضغم في حالة الإضغام وبشكلها الصريح في حالة مجاورة الأصوات القمرية، يعني ذلك أن الكتبة اليهود في بداية الأمر كانوا يستخدمون نظام نقل للغة العربية يقوم على معايير الكتابة العبرية والآرامية ليسجلوا محتوى لغة الكلام الصوتي، اختفى هذا النظام بعد العام ١٠٠٠ وحل محله نظام آخر قائم على نظام الكتابة العربية أساسا، وقد يكون السبب في ذلك التأثير الكبير الذي كان لترجمة الكتاب المقدس في القرن العاشر الميلادي، وهي الترجمة التي استخدمت هذا النظام الجديد، في بعض النصوص المبكرة حاول الكتبة اليهود تسجيل أصوات اللين العربية القصيرة بحروف أصوات اللين العبرية ففي جزء من ترجمة الكتاب المقدس، هناك تسجيل لعلامات الإعراب على أواخر الكلمات كما يجب بالنسبة لترجمة كتاب مقدس، ولكن بعض أصوات اللين القصيرة الأخرى على أواخر الكلمات قد حذفت من هذا الجزء، في هذا النص هناك تسجيل للإمالة وأداة التعريف العامية \ال \وحرف العطف \و \العامي.

المعتقد أن السبب وراء استخدام الحروف العبرية في كتابة اللغة العربية هو الوضع الخاص للجاليات اليهودية في الإمبراطورية الإسلامية. بالرغم أنه من الواقعي أن نقول إنهم قد تحرروا تحت مظلة تلك الإمبراطورية التي كان يحميهم خليفتها، وبالرغم من أنهم كانوا أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية إلا أن الفواصل الاجتماعية بين المسلمين واليهود كانت كبيرة. ولا شك أنهم ظلوا جماعة ذات ظروف خاصة. وقد كرس استخدام الحروف العبرية شعورهم بالجماعية، وقد نقلوا الكثير من النصوص العربية للحروف العبرية أو ترجموها للغة العبرية.

السمة الأخرى التي ميزت النصوص العربية اليهودية عن باقي الكتابات العربية هي استخدام كلمات عبرية بكثرة. من خلال استخدام تلك الكلمات العبرية أصبحت لغة الأدب والعلوم العربية اليهودية غير مفهومة للمسلمين أو قل أصبحت غير اعتيادية على الأقل، لذلك بالرغم من أن العربية اليهودية كانت تشبه عربية المسلمين الوسيطة أو عربية المسيحيين الوسيطة من حيث البناء، فإن وجود الكلمات العبرية كان يميز هوية النص على أنها نص كتبه مؤلف يهودي، ولم يكن استخدام الكلمات العبرية محدودا

بلغة الكتابة فقط كما تبين لنا لهجات اليهود العربية الحديثة، كلهجة يهود تونس مثلا. ففي عامية اليهود العرب المحدثين هناك الكثير من الكلمات العبرية وخاصة في المجالات العقائدية والدينية.

في بعض النصوص العربية اليهودية هناك فقرات عبرية كاملة في وسط فقرات عربية، يكثر ذلك في تفسيرات التلمود مثلاً، وخاصة عندما يقتبس الكاتب النص التلمودي العبري أو الآرامي الأصلي ثم يشرحه بعد ذلك باللغة العربية، ولكن النصوص العربية الكاملة تمتلئ بالكلمات العبرية المستعارة. عندما كان الكتبة اليهود يستخدمون كلمات عبرية في شكلها العبري أي ليس ككلمات مستعارة ومحرفة لتناسب بنية اللغة العربية تجدها معدلة نحويا. ولكن في معظم الحالات يعدل الكتبة أيضا الكلمة العبرية من الناحية الصرفية والصوتية فتظهر على أنها أصبحت كلمات ضمن معجم عربي قائم. وكان كتبة العربية اليهودية واعين بوجود مترادفات عربية وعبرية مما سمح لهم بتعريب الكلمات العبرية، فقد كانوا ينقلون الكلمات العبرية التي على وزن hitpa9il إلى وزن "تَفَعَّلَ" العربي، فتجد الكلمة العبرية hita9bel "يحزن" قد أصبحت "تَأبَّلَ" في العربية اليهودية. وعلاوة على ذلك كان الكتبة اليهود يضعون السوابق واللواحق الفعلية العربية على الأفعال العبرية.

وبنفس الطريقة قد يضع الكتاب للأسماء العبرية صيغ جمع تكسير عربية بدلا من جموعها العبرية، وقد يستعيض الكاتب بأداة التعريف العربية عن مثيلتها العبرية حتى ولو كان السياق كله عبريًا، وهو ما يبين أن أداة التعريف العربية قد أصبحت جزءا من الكلمة العبرية وبنيتها، كما هي الحال في كلمة beet al-keneset "المعبد". هناك نص من نصوص الجنيزة التي اكتشفت بالقاهرة يكتب كاتبه العناصر اللغوية العربية بالخط العربي والعناصر العبرية بالخط العبري ، ويسهل بطبيعة الحال من خلال ذلك النص أن نعرف العناصر التي اعتبرها الكتاب والكتبة عبرية، فتجد في هذا النص خليط من الأداة العربية والاسم العبري مكتوب بالعبرية.

وتتضح الطبيعة الاعتباطية العشوائية لاستخدام الكلمات العبرية مكان المرادفات العربية من خلال النصوص التي تحتوي على المترادفين بشكل غير مبرر فتجد في تلك النصوص كلمات من أمثال "زوج ثاني" وفي السطر التالي تجد "بعلُها الثاني" دونما

تفسير، يحدث هذا الخلط أيضا مع أسماء الأعلام فتجد في نص من النصوص اسم شخص مكتوب بشكله العبري، وتجد نفس الاسم في نفس النص ولكن في موضع آخر مكتوب بشكله العربي، ولكن يمكننا أن نقول إن معظم الكلمات المقترضة من العبرية في العربية كلمات تنتمي لمجالات الدين والعبادة، ولكن ذلك ليس قاعدة مطلقة.

من الصعب تمييز تنويعات إقليمية داخل تصنيف العربية اليهودية، فقد أصبح استخدام العربية اليهودية في الأغراض الكتابية مقعدا ومنمطا، بل وظهر نوع من العربية اليهودية الفصحى العالية في عموم العالم العربي. ومن ناحية أخرى كانت أنماط هجرة اليهود وتنقلهم من منطقة لأخرى في العالم الإسلامي كثيرا ما تغير الصورة اللغوية ، لذلك تجد أن اليهود المصريين كانوا يكتبون بعربية تشوبها عناصر مغربية أكثر من المسلمين المصريين. وختاما، لم تستطع الكتابات العربية اليهودية مثلها في ذلك مثل كل أنماط العربية الوسيطة الأخرى أن تتخلص من تأثير العربية الفصحى.

٧ - ٤ عربية المسيحيين الوسيطة

كما كانت الحال مع نصوص العربية اليهودية الوسيطة كانت العربية التي كتبها المسيحيون أقل تأثرًا بقواعد الفصحى من النصوص التي كتبها المسلمون، تنبع معظم نصوص العربية الوسيطة المسيحية من منطقة جنوب فلسطين وسيناء، معظم تلك النصوص محفوظة حاليًا في دير سانت كاترين في جنوبي سيناء، من السمات المميزة للعربية الوسيطة المسيحية هي أن معظم النصوص ترجمات إما من اليونانية أو من السريانية، والقليل من تلك النصوص كتب بالعربية في الأصل، تضيف تلك الحقيقة بطبيعة الحال إلى الطبيعة اللغوية الغريبة لتلك النصوص، أحيانًا يصعب التفرقة بين العناصر الناتجة عن تدخل اللهجة الدارجة وتلك العناصر الناتجة عن الترجمة. فقد كانت الترجمات في كثير من الأحيان حرفية وتستخدم تراكيب مستعارة من الأصل اليوناني أو السرياني، وقد كان وقع تلك التراكيب غريبًا في سياق اللغة العربية، ولكن تلك التراكيب أصبحت منتجة ونشطة في سياق تلك النصوص الوسيطة بنفس الطريقة التي أصبحت بها السمات المقترضة من ترجمات الإنجيل فاعلة ونشيطة في اللغات

الأوروبية في مراحل تكوينها المبكرة بالرغم من أنها كانت مجرد نسخ من التراكيب العبرية واليونانية.

ترجع الوثائق العربية المسيحية إلى حقبة تاريخية أقدم من الوثائق العربية اليهودية، بل إن بعضها يرجع أحيانًا إلى القرن الثامن الميلادى، كانت الآرامية في تلك الفترة لغة حية لم تزل، وكان الكثير من الكتاب المسيحيين يتكلمون باللغة الآرامية أو السريانية والعربية معا، ولذلك قد يعكس استخدامهم للعربية بعض التدخل المباشر من لغاتهم الأصلية. بعض تلك النصوص كتب بالخط السرياني، وهي النصوص المعروفة بنصوص الكرشوني، كما أن هناك نص بالخط اليوناني، بل إن هناك القليل من تلك النصوص التي حفظت لنا حتى الآن مكتوب بالخط القبطي.

من بين نصوص العربية الوسيطة المسيحية ترجمات لكتب السير كتراجم القديسين مثلاً، وتمثل نصوص العظات وكتب الآباء أهم تلك النصوص، وكان هناك أيضا عدد كبير من ترجمات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ولكن من المشكوك فيه أن تكون تلك الترجمات راجعة لمرحلة ما قبل الإسلام لأن نصوصها تحتوى على أنماط أخطاء شبه الصحة الموجودة في نصوص العربية الوسيطة التي ظهرت في مرحلة التقعيد اللغوى. بعض تلك النصوص كتب بالعربية أصلا ولم يكن ترجمة عن أصل يوناني أو سرياني، والكثير من تلك النصوص رسائل مسيحية كتبها مسيحيون عرب. من بين تلك الرسائل الرسالة التي كتبها تيودور أبو قرة (توفي حوالى ٨٢٠ ميلاديا)، تتضمن النصوص العربية غير الأدبية التي كتبها المسيحيون كتبا في التاريخ كرسالة يحيى بن سعيد الأنطاكي في القرن العاشر أو الحادى عشر.

في نصوص جنوب فلسطين التي تنتمي للقرن الثامن والتي استخدمها بلاو في كتابة قواعد العربية المسيحية تختفي بعض سمات العربية الوسيطة تمامًا، يشير بلاو مثلاً إلى ندرة أداة الإضافة التحليلية الشديدة في تلك النصوص، وفي الجزء الأقدم من تلك النصوص كان الكتاب يراعون قواعد الفصحى بشكل كبير. ولا تظهر بعض سمات العربية الوسيطة إلا مؤخرا عندما تكون قوة الفصحى وتأثيرها على تلك النصوص قد تبددا. فتجد في أحد النصوص العربية المسيحية المكتوبة بالقبطية والذي يرجع تاريخها

إلى القرن الثالث عشر الميلادى آثار واضحة لنطق العامية الدارجة، ولكن بالرغم من أن هذا النص مكتوب بخط أجنبي إلا أن القواعد النحوية وبعض القواعد الصرفية فصيحة تمامًا، ويدلل وجود بعض أخطاء الصحة اللغوية على نزعة الكاتب تجاه استخدام النموذج الفصيح.

بالرغم من أن هذا النص المكتوب بالقبطية والذى ربما يكون سيرة حياة القديس بخوم لا يعكس حيودًا كبيرًا عن قواعد الفصحى الكلاسيكية فإنه وثيقة رائعة على عربية القرن الثالث عشر وسبب أهمية تلك الوثيقة كتابة أصوات اللين، فالإمالة من أكثر السمات الصوتية وضوحا في هذا النص، حيث تجد دائمًا كل صوت فتحة قصيرة مكتوبا بشكل e ، إلا إذا كان هذا الصوت اللين في جوار صوت مفخم. ولما كانت أداة التعريف الموجودة في النص مكتوبة دائما باستخدام e حتى في جوار الأصوات المفخمة، فإن ذلك يعني أن هذه الأداة ترجمة للأداة العامية وليس لأداة الفصحى الداخل عليها الإمالة، وكان رمز e أيضًا يستخدم مكان أصوات اللين القصيرة u \ i المحذوفة في العاميات الحديثة كما هي الحال في كلمة "الشيوخ" حيث لا توجد ضمة على الشين. من السمات الغريبة في هذا النص استخدام لاحقة en على أواخر الكلمات، وأحيانا تكتب ككلمة مستقلة، وهي لاحقة تستخدم بعد الأسماء النكرة بغض النظر عن موقعها في الجملة للتعبير عن دخول صفة عليها كما هي الحال في rogol-en kadis absara "رجل قديس أبصر"، ربما تكون تلك اللاحقة مستمدة من تنوين الكسر الفصيح، ولكنها تطورت في اللهجة المصرية لتعبر عن إلحاق صفة باسم نكرة. وعلى ذلك تشبه تلك اللاحقة في وظيفتها التنوين في لهجات شبه الجزيرة العربية البدوية الحديثة .

وعندما ننظر لنصوص العربية الوسيطة المسيحية المتأخرة فسنجد ظواهر تبين إهمال قواعد الفصحى الصريح، فإذا أردت أن تجد أمثلة على الإضافة التحليلية فانظر المخطوط الذى يحتوى على سيرة حياة القديس ميناس الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر. سوف تجد فيه مثلاً ما يلي: "بالحقيقة لابد هده الأعضا من الشهداء بتاعنا" (انظر جاريتز ١٩٩٣: ٤٥٣). يوجد من تلك السيرة نسخ كثيرة جدا، ويحتوى معظمها على أخطاء صحة لغوية كثيرة، انظر هذا النص مثلا: "فلما مشيت في البرية وحدها

وهي بالقرب من بيعة القديسة تكلا نحو ميل ولم يكون أحدا من الناس يمشى معها وإذا بجندى من حراس الطريق قد دخل فيه الشيطان فمسكها وقال لها إلى أين ماضية فضنت أنه يحمل الدى أخذته معها فقالت له أنا ماضية يا سيدى إلى بيعة الشهيد العظيم أبو مينا".

في هذا النص أمثلة متعددة على أخطاء الصحة اللغوية في المنصوبات وأشكال خاطئة للفعل واستخدام \أنَ \بدلا من \أن \واستخدام تركيب اسم الفاعل بشكله العامي بدون فاعله. وذلك بالإضافة إلى مشاكل الكتابة كاختفاء الذال والظاء على سبيل المثال.

تبين تلك الأمثلة أن الكتاب المسيحيين أحسوا بضغط النموذج الفصيح وإلا لما اضطروا إلى ارتكاب أخطاء صحة لغوية، كما تبين أن قواعد الفصحى نفسها أصبحت أقل حدة وإلا لما ظهرت أى أمثلة على الإضافة التحليلية في تلك النصوص. بالرغم من أن الشروح المكتوبة على الأيقونات القبطية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تنتمى لسياق دينى فإنك تجد فيها أمثلة على عناصر غائبة في النصوص العربية الوسيطة عند المسلمين مثل استخدام الفعل المضارع المسبوق بالباء.

٧ - ٥ العربية الوسيطة المعاصرة

اعتماداً على تعريف العربية الوسيطة السابق يمكننا أن نعتبر النصوص المعاصرة ذات الأسلوب المختلط نوعاً خاصاً من العربية الوسيطة، للمفارقة تظهر تلك النوعية من النصوص في عصر انتشر فيه التعليم وزادت نسبة الناس الذين يمتلكون ناصية العربية الفصيحة بقدر أو بآخر، فهناك الكثير من أنصاف المتعلمين الذين يستطيعون كتابة نصوصا بسيطة ولكنهم لا يتقنون قواعد الفصحى السليمة، عندما يكتب هؤلاء الناس العربية فإنهم ينزعون لارتكاب نفس الأخطاء اللغوية التى نجدها في العربية الوسيطة القديمة.

من أهم سمات العربية الوسيطة القديمة والحديثة معا سمة التذبذب وعدم الانتظام في السمات النحوية، مما يؤكد على أن تلك النصوص ليست مكتوبة بنوع

مستقل وخاص من العربية، فقد يتكرر خطأ ما في جملة ما بشكل صحيح في جملة لاحقة، فيمكن أن تجد قواعد المطابقة الفصيحة مهملة في جملة ومطبقة بعناية في جملة أخرى، بل وفي حدود جملة واحدة يمكن أن يشار إلى شخصين باستخدام المثنى مرة وباستخدام الجمع مرة أخرى.

في التعريف الأصلي للعربية الوسيطة تحتوي تلك النوعية من النصوص على نصوص أدبية ذات عناصر عامية كما كانت الحال مع مذكرات أسامة بن منقذ، ولكن هناك فروقًا كبيرة مع ذلك بين النصوص الأدبية الكلاسيكية المختلطة وأمثلة الأدب المعاصر. بعد عصر النهضة أصبحت مسألة استخدام العامية في الأعمال الأدبية محل نقاش ساخن لدى المثقفين في العالم العربي، ففي مصر حفز مبدأ التمصير الكثير من الكتاب أن يختبروا وضع الازدواجية اللغوية القائم في مجتمعهم. فقد شعر بعض الكتاب أن استخدام العامية في الحوارات الأدبية أمر محتوم عندما ينقل الكاتب كلام شخص جاهل وبدءوا يستخدمون خليطًا بين العامية والفصحى، وبالرغم من أن المتعلمين أيضا يستخدمون العامية في كلامهم اليومي فقد كان هناك شعور بعدم الارتياح لو استخدموا تلك العامية عندما كانوا يتكلمون على الورق وفي الأعمال الأدبية.

وبعد مرحلة بدايات القرن العشرين حيث حاول الأدباء دمج العامية والفصحى في الأعمال الأدبية أصبحت النزعة القومية العربية عاملاً مؤثرًا في تقبل المجتمع للعناصر العامية حيث أصبح وجودها في النص جدليًا، وحتى الكتاب الذين استخدموا العامية في أعمالهم المبكرة كتوفيق الحكيم أعلنوا تخليهم عن هذا الخط ونزعوا لاستخدام فصحى صرف. ولكن هناك نقطتين جديرتين بالذكر هنا، أولاهما أن الكتاب الذين أصروا على استخدام العامية في كتاباتهم لم يستطيعوا الهرب من تأثير الفصحى كلية. ولذلك يصعب اعتبار لغتهم مثلاً على العامية الصرف. فغالبًا ما يكون استخدام العامية قاصرًا على تضمين النص سمات عامية فقط.

ثاني النقطتين أن كتاب النثر العربي الأدبي غالبًا ما تكون لهم معرفة حميمة بالفصحى ويكون استخدامهم للفصحى استخدامًا واعيا ومقصود، ولذلك يصعب أن تجد في كتابتهم أخطاء الصحة اللغوية بكثرة لأن معرفتهم بالفصحى واسعة وتعليمهم

وافر، ولذلك يمكننا أن نعتبر أن هذا النوع من العربية الوسيطة يقع ضمن نصوص العربية الوسيطة التي ضمنها كتابها عناصر عامية لإضفاء صبغة محلية على نصهم، بل إن بعض الكتاب العرب المحدثين يفخرون بقدرتهم على كتابة مسرحيات كاملة بالعامية الدارجة، بينما هم في الحقيقة قد طوروا نمطًا أدبيًا من تلك العامية ليس غير. في حقيقة الأمر تمثل مصر حالة فريدة في استخدام العامية لأن موقع اللهجة المصرية يختلف عن موقع باقي اللهجات العربية، ولكن حتى في مصر لا تشبه اللهجة المكتوبة اللهجة المتكلمة.

هناك معادل آخر للكتابة الأدبية وهو الإذاعة، حيث تستخدم العاميات لتلوين البرامج بصبغة مرحة، فتجد المذيع في بعض الأحيان يحاول أن يحول نص البرنامج المكتوب أمامه إلى كلام عامي دارج ليجعل المناخ الإذاعي أكثر حميمية، انظر المثل التالي المأخوذ من برنامج "ربات البيوت": "في أكبر مجلة نسائية في أوروبا أريت دراسة عن المرأة، دراسة غريبة ومفيدة، وأيضًا مسيرة لأنها تكلم عن السر الذي يجعل المرأة شخصية لا تنسى، شخصية محدش أبدًا يأدر ينساها".

تحاول المتكلمة في هذا المثل أن تستخدم العامية بل وتشعر أنها فعلاً تستخدمها، ولكنه من الواضح في نفس الوقت أن النص الأصلي المعد للبرنامج نص فصيح، والدليل على ذلك وجود المبني للمجهول في "لا تنسى" واستخدام "لأنها" و"أيضًا" الفصيحتين، يبين هذا المثل سطوة الفصحى على السياق اللغوي في المجالات الرسمية حتى عندما يحاول المتكلمون عامدين استخدام العامية.

يمكن وجود معادل آخر لتلك الظاهرة في الكتيبات الهولندية التي تصدرها الحكومة للأقلية المغربية المقيمة في هولندا، اختارت الحكومة الهولندية لأسباب أيديولوجية أن تستخدم اللهجة المغربية في تلك الكتيبات، ولكن في حقيقة الأمر لا يعدو استخدام العامية هذا إضافة بعض السمات بينما يبقى تركيب النص فصيحًا سليمًا. انظر المثل التالي المأخوذ من كتيب عن الضرائب في المملكة الهولندية: "كما تعرفون إن

الأجنبي كيتلقى كثير الصعوبات والتغيرات في الحيات ديالو وبالخصوص مع الأولاد غالي كيمشوا للمدرسة ولذلك فمن الواجب عليكم باش تعرفوا النظام وكيفية التعليم في الهولندا".

بالرغم من المحاولة الجادة لاستخدام العامية المغربية في هذا الكتيب المكتوب أصلا بالهولندية فإن المترجم لم يفلح في الفكاك من قواعد الفصحى في الصياغة وتركيب الجملة، وفي بقية النص هناك تردد بين العناصر العامية والفصيحة، وهو ما يبين عجز المترجم عن التخلص من العربية الفصحى.

من المؤكد أن النص الذي اقتبسناه سالفًا لا يمكننا أن نسميه عربيًا وسيطًا، ولكن هناك سمات مشتركة مؤكدة بين نصوص العربية الوسيطة المعاصرة وتلك النصوص التي ناقشناها في الأقسام السابقة من هذا الفصل، فالقاسم المشترك بين كل النصوص التي تختلط فيها العامية بالفصحي علي كل المستويات الكتابية هي قوة الفصحى وسطوتها على النص، وإذا كان الكتاب يستخدمون العناصر العامية عمداً أو حتى فشلوا في الحفاظ على قواعد الفصحى فنتج عنصر عامي بدلاً منه فإن كل تلك الكتابات تقع في دائرة الفصحى وسوف نرى ظاهرة شبيهة في إنتاج العامية في الفصل الثاني عشر.

الفصل الثامن

دراسة اللهجات العربية

٨ - ١ دراسة اللهجات العربية

ركزنا النظر في الفصول السابقة على العناصر التى تتشابه فيها العاميات فى مقابل الفصحى. لقد بينا فى هذا السياق أن تلك اللهجات أنماط مختلفة ومستقلة عن العامية وليست مجرد تنويعات على الفصحى. سوف نركز فى هذا الفصل والذى يليه على الفروق بين اللهجات، وخاصة تحديد الفروق الجغرافية والمناطق اللهجاتية التى تنقسم إليها دارجات العربية، سوف نهتم بالعناصر الاجتماعية فى اللهجات العربية فى الفصل الحادى عشر.

تعتبر الدراسة المنظمة لجغرافيا اللهجات اختراعًا لعلم اللغة الغربى الأوروبى فى القرن التاسع عشر، ولكن من الخطأ أن نزعم أن العرب أنفسهم لم يعوا الفروق بين اللهجات فى العالم العربى، رأينا سالفًا أن النحويين العرب كان يتقبلون التنوع والتباين فى لهجات الجاهلية، بل ومنهم من جمع أنماط ذلك التنوع لأنهم فكروا فى تلك الأنماط المتباينة على أنها من ضمن حصيلة الفصحى العربية النقية، ولكن النحويين لم يكونوا مهتمين بتسجيل اللهجات الحضرية التى ظهرت فى عموم الإمبراطورية بعد الفتح. بحسب نظرية النحو العربى القديم كانت تلك اللهجات الحضرية لاحنة ولذلك تجنبوا دراستها بل وحتى ذكرها فى كتاباتهم، ولكن العلماء الذين درسوا فروعًا غير النحو قد أبدوا اهتماما بتنوع اللهجات العربية واختلاف المناطق اللهجاتية فى الإسلام وأسبابه، فتجد الجاحظ (توفى عام ٢٥٥ هجريًا) فى وقت مبكر من تاريخ الإسلام يخبرنا "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك تجد

الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر" (انظر البيان والتبيين، المجلد الأول، ص ٢٨) . ويضيف الجاحظ أن هجرة الفرس إلى الكوفة جلبت عدداً من الكلمات الفارسية إلى المدينة كاستخدامهم لكلمة "وازار" بدلاً من "سوق" و"خيار" بدلاً من "قثاء". وكان موضوع التنوع اللغوي محدودا جدا بكتابات من أمثال كتابات الجاحظ تلك علاوة على كتب المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب، فتجد أمثال هؤلاء المؤلفين يتكلمون أحيانا عن الفوارق في النطق بين المناطق المختلفة وعن الاختلافات المعجمية في المناطق التي يزورونها. يعتبر من أكبر المراجع اهتماماً بوصف طرق حديث أهل الإمبراطورية الإسلامية واختلافات النطق بينها كتاب المقدسي (توفى عام ٣٣٥ هجريا) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. فقد ناقش المقدسي في هذا الكتاب بدقة الخصائص اللغوية الخاصة بكل إقليم زاره وقدم علاوة على ذلك قائمة بالعناصر الصوتية والمعجمية الخاصة بلهجة هذا الإقليم.

وقد ركز بعض الكتاب على التوزيع الاجتماعي للسمات اللغوية ولذلك تجد في مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت الثانية، ص ٥٥٧ – ٨) فصلاً كاملاً كرسه المؤلف للفرق بين اللهجات الحضرية واللهجات البدوية. عنوان هذا الفصل هو "في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مصر". يوضح ابن خلدون في هذا الفصل أن طريقة حديث أهل الحضر تختلف تماما عن طريقة كلام مصر في الجاهلية وطريقة كلام البدو المعاصرين لزمن التأليف، ويمثل لهذا الفرق الكبير بحذف الحضر لعلامات الإعراب وهو ما يسميه النحويون باللحن. ويستمر ابن خلدون ليشرح أن لكل إقليم لهجته الخاصة فشرق العالم الإسلامي يتكلم بشكل مختلف عن غربه، وتتكلم الأندلس لهجة مختلفة تماماً عن اللهجتين السابقتين.

كما رأينا سالفًا أن ابن خلدون يعزو التغيرات التي طرأت على العربية للاتصال الذي حدث بالموالي في البلاد المفتوحة، ويقول هنا إن الاختلاف بين لهجات العالم الإسلامي راجع إلى وجود عناصر عرقية مختلفة بالإضافة للعنصر العربي في كل إقليم. بناء على ذلك تجد أن ابن خلدون يفسر خصوصية لهجة المغرب العربي بوجود عنصر اللغة البربرية فيقول : "فصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمي فيها أغلب". وبنفس

الطريقة يقول إن الاتصال بين العرب ومتكلمي الفارسية واللغات التركية قد أثر على لغة المشرق الإسلامي.

يبين المؤرخ العظيم في نص من النصوص أنه واع تمامًا بخصوصيات اللهجات البدوية فيقول : "ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد ما كانوا من الأقطار شأنهم بالنطق بالقاف فإنهم لا ينطقون من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف" (انظر مقدمة بن خلدون، ص ٥٥٧).

يعتبر هذا وصفًا دقيقًا جدًا لواحد من أهم الفوارق بين اللهجات البدوية واللهجات الحضرية، وهو موضوع نطق القاف. نعرف أنه في وصف سيبويه لصوت القاف يظهر هذا الصوت كفونيم مجهور. ولكن ابن خلدون لم يذكر أن اللهجات الحضرية تنطق هذا الصوت مهموسًا، ولكنه في نفس الوقت يركز على الفرق في مخرج الصوت في كل من اللهجتين. أما في كتب النحو فيصعب أن تجد وصفا كهذا لفارق من الفوارق اللهجاتية.

عندما أصبح الباحثون الأوروبيون مهتمين بالعاميات العربية في القرن التاسع عشر لم تجد تلك الموجة ترحيبًا كبيرًا في العالم العربي من قبل علمائه. فلما كانت اللهجات العربية أنماط لغوية أقل احتراما من الفصحى فقد شك العلماء في الاهتمام ببنية تلك اللهجات في حد ذاتها. المسألة في مصر مختلفة بعض الشيء فقد كان هناك اهتمام بالتنوع المعجمي بين أقاليم مصر من بداية القرن السادس عشر الميلادي، فقد حاول يوسف المغربي (توفي عام ١٠١٩ هجريًا) في كتابه "دفع الإصر عن كلام أهل مصر" أن يسجل طريقة نطق العربية في مصر. وينقد بعض "الأخطاء" التي يرتكبها أهل مصر في الكلام ، ولكنه في مواضع كثيرة يدافع عن لهجة أهل مصر على أنها متصلة بالعربية اتصالاً وثيقًا، وحتى عندما ينقد لهجة مصر، فإن الأمثلة التي يسوقها تعتبر كنزًا كبيرًا يبين لنا الكثير عن لهجة مصر المبكرة، انظر مثلاً: "الناس في مصر يقولون حتى بعض الخواص بغير فكر فلان أد هو عمل كذا أو أد هو جا مثلاً هذه اللفظة لا حيلة في تصحيفها ومرادهم معناها هو أو هذا" (انظر دفع الإصر، ص٣).

وفي القرن التاسع عشر وحتى في مصر أحس الناس أن دور العربية الفصحى كعامل موحد لكل الأمة العربية أصبح مهدداً بفعل الاهتمام الزائد باللهجات التي هي رمز تفرق وتشرذم الأمة، يعتبر هذا الخوف مبررا بعض الشيء لأن السلطات الاستعمارية في بعض الأحيان كانت تفعّل دور اللهجات العامية بقوة. ففي الجزائر على سبيل المثال حرم الفرنسيون تدريس العربية الفصحى، وأحلت اللهجة الجزائرية مكانها. وفي مصر دعمت السلطات البريطانية تجارب المستشرقين لإحلال الخط اللاتيني مكان الخط العربي كوسيلة كتابة للعامية المصرية. ونتيجة لذلك أصبح علم اللهجات مرتبطاً بالسلطات الاستعمارية وسياساتها التقسيمية، وأصبح الناس ينظرون لعالم اللهجات على أنه أداة في يد الاستعمار. علاوة على ذلك أدانت الدوائر المتشددة أي بحث في اللهجات.

وفي العصر الحديث مازال من الصعب أن تثير اهتمام الناس باللهجات كمادة للبحث العلمي الجاد، فمازال متكلمون عرب كثيرون يظنون أن اللهجة نمط لغوي ليس له قواعد يستخدمه الأطفال والنساء، وحتى في بعض الجامعات يصبح من الصعب قبول دراسات لهجية كموضوعات لرسائل الدكتوراه، ولا يعني ذلك أنه لا يوجد علماء لهجات عرب ، فقد طبق الكثير من اللغويين العرب خبراتهم البحثية على لهجاتهم الخاصة، بل إن من أفضل كتب اللهجات العربية ما كتب بيد عربية. ولكن يمكننا أن نقول على وجه العموم إن دراسة اللهجات تعاني لا تزال من المشاكل التي سردناها سالفاً.

وبغض النظر عن المشاكل السياسية في علم اللهجات يواجه الباحثون في هذا المجال مشكلة عامة خاصة بالبحث اللهجاتي، ألا وهي مشكلة حياد الملاحظ. ولا تعتبر تلك المشكلة خاصة باللهجات العربية ولو أن تلك اللهجات تعاني منها بشكل خاص، فدائماً ما يواجه الباحث مشكلة أنه يريد المتكلم أن يتكلم بشكل تلقائي وطبيعي بقدر الإمكان ولكن اهتمام الباحث بتسجيل تلك اللغة هو نفسه ما يجعل المتكلم قلقاً ويحاول أن يحسن من أدائه اللغوي فيتكلم بالصورة التي يراها صحيحة، وفي السياقات التي تكون الازدواجية اللغوية هي سمتها الأساسية يصبح لدى المتكلم رغبة خاصة في الارتفاع بلغته على سلم الصحة اللغوية درجة أعلى إن هو لاحظ أن أحداً يراقب حديثه

أو يسجله، ولذلك تكون مشكلة حياد الملاحظ حادة بشكل كبير في مجتمعات الازدواجية اللغوية عن غيرها من المجتمعات اللغوية. تتضح نتيجة ذلك في وجود الكثير من كتب اللهجات ومجاميع نصوص اللهجات التي تحتوى على عناصر فصيحة غير قليلة وتذكر كتب اللهجات على سبيل المثال أن اللهجات العربية تمتلك طريقتين للتعبير عن الإضافة، إحداهما استخدام تركيب الإضافة التوليدى العادى والأخرى تركيب الإضافة التحليلي. من الناحية السنكرونية هذه ملاحظة دقيقة، لأن الكثير من متكلمي اللهجات يستخدمون تركيب الإضافة الفصيح بسبب رقيه الاجتماعي ومكانة الفصحى عموماً. ولكن من الناحية التاريخية يعتبر تركيب الإضافة التوليدى الفصيح دخيلا على اللهجات الحضرية حيث كان تركيب الإضافة التحليلي سائدا ولو في بعض السياقات على الأقل. وتعتمد درجة التركيب الذى يضعها الباحث على وجود التركيبين متزامنين نوعا ما على ابن اللغة الذى يختار عالم اللهجات أن يتكلم معه ويسجل لغته. فإن كان من يختاره عالم اللهجات شخصا متعلما فى قرية فإنه سوف يحصل على لغة تحتوى على تركيب الإضافة الفصيح أكثر من غيره، علاوة على ذلك تنزع كتب وصف قواعد اللهجات في بعض الأحيان إلى إهمال حقيقة أنه في وجود أكثر من تركيب فإن كلاً منهما له وظيفة خاصة به. ففى معظم اللهجات أصبح لتركيب الإضافة التحليلي وتركيب الإضافة التوليدى معنيين منفصلين أولهما يختص بالأشياء التى يمكن فصلها وتجزيئها بينما يختص الثانى بالتى لا يمكن فصلها.

لا يجب أن تحدث عملية ترقية أشكال اللهجات باستخدام الشكل الفصيح دائماً، ففى حالة وجود تركيبين متنافسين، يختار المتكلم تركيب اللهجة الأرفع والأرقى، وقد يحدث هذا فى بعض الأحيان حتى عندما يكون الشكل الرفيع الراقى مختلفًا عن الشكل الفصيح بينما يكون الشكل الأقل رقيا مطابقا للشكل الفصيح. فى المناطق التى يكون نطق الثاء فيها على شكلين: من بين الأسنان وأسنانى، يتجنب المتكلمون الشكل الذى يخرج من بين الأسنان لأنه الشكل الذى يستخدمه البدو والقرويون بالرغم من أنه الشكل المستخدم في قراءة القرآن. بنفس الطريقة يتجنب بعض الناس فى الدلتا فى مصر استخدام أصوات اللين المركبة فى المحادثات مع أشخاص محترمين ويفضلون استخدام أصوات المد الطويلة المعوضة لها والتى تسم لهجة القاهرة فيستخدمون ee وoo بدلاً من ay و aw .

في بعض الجماعات اللغوية قد يؤدي وجود سمة لغوية غير رفيعة ولكنها مطابقة لسمة فصيحة إلى تجنب الفصحى في عملية الترقية اللغوية. من الأمثلة المدهشة على تلك الظاهرة ما ذكره هولز (١٩٨٧: ٧٤-٦) حيث يكون نطق لهجتي البحرين والكويت للغين العربية الفصيحة على شكل الياء، وقد أدت عملية الترقية اللغوية في الكويت إلى إحلال صوت الغين مكان صوت الياء، وهو ما يبدو أفصح. أما في البحرين فهناك أقلية شيعية تستخدم صوت الغين ونتيجة لذلك لا يستخدم البحرينيون الغين في عملية الترقية اللغوية لأن الغين مرتبطة بالإنتاج اللغوي للشيعة.

٨ - ٢ تصنيف اللهجات

عادة ما يدرس علماء اللهجات التنوع الجغرافي في اللهجات مستعينين بخرائط اللهجات التي تبين توزيع سمات لغوية معينة على مناطق جغرافية معينة عن طريق رسم خطوط وهمية على تلك الخريطة، وهو ما نسميه بالخط الفاصل. الخطوط الفاصلة خطوط وهمية تعتمد قيمتها إلى حد كبير على كثافة النقاط التي تتوفر حولها معلومات لغوية. ولكن كثيراً ما تظهر الخطوط الفاصلة على الخريطة في شكل حزم، وعندما تصبح الحزم قوية بشكل ما يصبح من الممكن أن نميز بين مناطق لهجية تختلف بشكل ملحوظ عن مناطق أخرى. يمكن أن نرى هذه الظاهرة في أحسن صورها في حالة العوائق الجغرافية كالجبال، وهي عوائق تفصل بين المناطق الجغرافية المتجاورة. في حالات أخرى يصبح الانتقال من لهجة لأخرى انتقالا تدريجيا ، ويحتوي على مناطق تحول بين اللهجة والأخرى. ولذلك تعتبر الخريطة اللهجاتية تمثيلا سنكرونيا للهجات المتكلمة في المنطقة التي تغطيها الخريطة، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن نستنتج من المعلومات الموجودة على الخريطة بعض التطورات التاريخية التي طرأت على لغة المنطقة، وفي كثير من الأحيان تخبرنا معلومات الخريطة اللهجاتية الكثير عن زمن ظهور بعض السمات اللهجاتية وتطورها لأن القاعدة اللهجاتية تقول إن أطراف المنطقة اللهجاتية تحتفظ بأقدم أشكال السمات اللغوية التي لم تصلها تجديدات واردة من أي مركز إشعاع ثقافي، يمكن أن يكون وجود مناطق التحول دلالة على الاتصال بين متكلمي لهجات مختلفة.

وتبقى الأطالس أهم أدوات جغرافيا اللهجات وتصنيفها. في الوقت الحاضر هناك أطالس لغوية لبعض المناطق اللهجية العربية دون غيرها، أقدم تلك الأطالس نظمه برجشتاسر عام ١٩١٥ لمنطقة اللهجات السورية اللبنانية. وهناك أيضًا أطلس لمنطقة حوران وأطلس آخر لمنطقة تدمر أعدهما كانتينو عام ١٩٤٠ ، ١٩٤٦ وهما إنجاز علمي عظيم بالمقارنة بالفترة وتقنياتها. وفي فترة لاحقة تمت دراسة توزيع اللهجات المصرية الجغرافي في محافظة الشرقية، وقام بتلك الدراسة أبو الفضل عام ١٩٦١، وقدم كل من بينشتيد وفويدش أطلسًا كاملاً للهجات المصرية باستثناء لهجة القاهرة في أعوام ١٩٨٥ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩٤ وقام بينشتيد أيضا بكتابة أطلس للهجات شمال اليمن عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٢، وهو الآن يتم إعداد أطلس اللهجات السورية. أما بخصوص المناطق الأخرى فهناك خرائط جزئية وكتب عن اللهجات، ولكن خريطة اللهجات العربية على وجه العموم خريطة ناقصة، وخاصة في منطقة الخليج العربي، وحتى فيما يخص اللهجة المصرية فمعرفتنا بالمناطق اللهجية خارج القاهرة لم تكن كبيرة حتى فترة قريبة جداً.

يعبر التسجيل السنكروني للهجات عن طريق خرائط التجديدات اللغوية كعناصر واضحة إما موجودة أو غائبة. ولكن لو دققنا النظر لوجدنا أن بعض الخرائط تبين الدخول التدريجي لتجديد لغوي معين في شكل تراكم ظواهر لغوية. من أهم أمثلة ذلك الخرائط التي ترصد ظاهرة "أكتب /نِكتب" في بعض لهجات الدلتا في مصر، تتميز كل لهجات المغرب العربي بوجود سابقة النون على الفعل المضارع في المتكلم المفرد، ولذلك تجد أن هذه السمة من أكثر الخطوط الفاصلة في اللهجات العربية تمثيلا واقتباسا لأنها تفصل بين اللهجات الشرقية والغربية، ففي اللهجة المغربية هناك "نكتب" للمتكلم المفرد و"نكتبو" للمتكلم الجمع، بينما تمتلك اللهجات الشرقية، كالسورية مثلا، شكل "أكتب" المضارع المتكلم المفرد، وشكل "نكتب" للمضارع المتكلم الجمع. وكذلك توجد سابقة النون في اللهجة المالطية العربية واللهجات العربية في منطقة جنوب الصحراء الكبرى التي استمدت مادتها اللغوية من لهجات شمال إفريقيا. يقع الحد الفاصل بين اللهجات الشرقية والغربية في منطقة الدلتا المصرية. ولهذا التطور تفسيران متضادان: يقترح التفسير الأول وجود تغيير في شكل المفرد "نكتب" الذي نتج عن دمج الضمير

"أنا" مع الفعل "أكتبُ". ويبدأ التفسير الثاني من جمع الفعل، وهو ما يفسره العلماء على أنه تطور مشابه لضمير المخاطب والغائب. وبحسب هذا التفسير يصبح شكل المفرد تطورا ثانويا لاحقا. وتبين خريطة لهجات الدلتا المصرية أن بين المنطقتين اللهجاتيتين هناك منطقة فاصلة تستخدم "أكتب /نكتبُ".

مثل آخر هو ضمير المتكلم المفرد فى اللهجة اليمنية (بينشتيدت ٩ : ١٩٨٥). فى منطقة من المناطق يكون الضمير المستقل والضمير المتصل محايدان من ناحية الجنس، وهما \أنا \أو \أني \. وإلى الغرب يكون ضمير المتكلم المتفصل ذا جنسين، فيكون له شكل مذكر هو \أنا \وشكل مؤنث وهو \أني \. وفى منطقة تهامة يصبح للضمير المنفصل والضمير المتصل معًا شكلان، أحدهما مذكر وهو \أنا \أو \أني \أو \أنا \ و \أني -\وفي منطقة تهامة لم يعد الضمير المتصل \أنا \يعبر عن المتكلم الجمع الذى تحول إلى \احنا \كما هي الحال في لهجة واحة الفرافرة في مصر.

عندما تصل سمة لغوية إلى منطقة ما فسوف لن تؤثر فى كل عنصر لغوى بشكل أوتوماتيكي. وفي حالات كثيرة يؤثر تجديد لغوى خرج من منطقة حضرية إلى الريف أول ما يؤثر فى المفردات الأكثر شيوعًا، وبذلك يوجد فصل فى المفردات، وتجد أن الظروف التاريخية التى تتحكم فى الاتصال بين المنطقتين هى التى تحدد التطور اللاحق على ظهور التجديد فى تلك المنطقة. وعندما يصبح الاتصال بين المنطقتين دائما فإن التجديد ينتشر في كل مفردات المعجم، ولكن عندما يصبح تأثير التجديد منقطعا أو عندما يصبح الولاء للهجة المحلية عائقا دون انتشار التجديد، فإن العناصر التى لم يطلها التأثير تبقى كما هى ولذلك تجد أن المعجم يعطى انطباعا بالخليط من الناحية التاريخية.

فى معظم اللهجات العربية حدثت عملية خلط من نوع ما فى المرحلة الثانية من التعريب، أى عندما خرجت من شبه الجزيرة العربية هجرات قبلية انتشرت فى جميع أصقاع الإمبراطورية العربية الإسلامية، وقد أثرت عملية الاتصال اللاحقة بين أصحاب اللهجة الحضرية وأصحاب اللهجات البدوية فى المعجم بشكل خاص، ففى لهجة أوزبكستان العربية يستخدم الناس صوت القاف العربى الفصيح المهموس، ولكن هناك عدداً محدوداً من الكلمات التى تحتوى على العنصر المهموس لهذا الصوت وهو الجيم،

مثلا في "جدر" و"جدام" و"جلّب". هذه ظاهرة منتشرة في عموم العالم المتكلم بالعربية. ففي اللهجات المغربية الحضرية كلهجة الرباط على سبيل المثال توجد بعض الكلمات التي تحتوي على تلك الجيم البدوية، من بين تلك الكلمات "جمع" و"جمرة" و"جدر" و"جرن". ويمكننا أن نضيف هنا أنه على العكس من ذلك هناك في بعض اللهجات البدوية التي تنتج الجيم بعض أمثلة على الكلمات التي تنطق القاف المهموسة، مثل لهجة سكورا في المغرب. تستخدم تلك اللهجة كلمات مثل "قبر" و"قسم" و"قبيلة".

هناك حالة اتصال بين اللهجات حسنة التوثيق، وهي حالة لهجات الواحات الغربية في مصر الفرافرة والداخلة والخارجة، وبحسب تفسير فويدش (١٩٩٣) لتراكيب تلك اللهجات فإن هناك بعض السمات كسابقة النون في المتكلم المفرد المضارع قد تكون دخلت على تلك اللهجات من اتصال متأخر ببعض لهجات البدو الغزاة من الغرب، وخاصة من لهجة بني سليم التي غزت المنطقة في طريق هجرتها من الغرب في شمال إفريقيا إلى الشرق، وبين الخلط بين اللهجات في تلك الواحات نتيجة أخرى من نتائج الاتصال بين اللهجات وهي التعميم، يمكن أن نشير على سبيل المثال إلى النبر الواقع على أواخر الكلمات في تلك اللهجات، وهو نمط نبر يشبه المستخدم في اللهجات المغربية. ولكن بعكس الحاصل في اللهجات المغربية تحتفظ لهجات واحات صحراء مصر الغربية بالنبر على أواخر الكلمات حتى ولو كان المقطع قبل الأخير طويلاً أو كان المقطع الأخير منتهيا بصوت لين كما هي الحال في "منجَل" و"بيتحني". ويمكن تفسير تلك السمة على أنها تعميم لقاعدة النبر في اللهجات المغربية. فعندما اتصل أهل الواحات بأناس يضعون النبر على أواخر كلمات كثيرة عمموا تلك الظاهرة في محاولة لتقليد اللهجات الأخرى.

يعتبر ظهور أخلاط لهجية koine حالة خاصة من حالات الاتصال بين اللهجات، فقد مرت عواصم كثيرة في منطقة الشرق الأوسط كعمان وبغداد بفترة تعمير حضري سريع. وفي تلك الفترات شهدت تلك العواصم هجرات بالآلاف من الريف، وجلبت تلك الهجرات سمات اللهجات الريفية معها، وقد أدى خلط اللهجات هذا إلى قيام أنماط محترمة من اللهجات العربية تتمتع بالتقدير الاجتماعي، تعتمد تلك اللهجات المحترمة في هويتها على قوة المتكلمين السياسية والاجتماعية، وفي داخل الحدود السياسية

للدول القومية المفردة بدأت لهجات تلك العواصم المحترمة في التأثير على المناطق المجاورة بشكل كبير، ففي العراق على سبيل المثال أصبحت لهجة "جلت" التي يتكلمها المسلمون في بغداد اللهجة المحترمة والرفيعة، فبدأ متكلمو اللهجات المجاورة في الانتقال من لهجاتهم للهجة بغداد الرفيعة حتى ولو كانت سمات لهجاتهم القروية تشترك مع الفصحى فيما لا تشترك فيه لهجة بغداد الرفيعة معها، وتعتبر طريقة حديث الرئيس العراقي صدام حسين مثلاً حسناً، فهو يستخدم لهجة مسلمي بغداد في خطبه وأحاديثه العامة، وهي لهجة تستخدم الجيم بدلاً من القاف، وفي تلك المواقف لا يستخدم لهجة مسقط رأسه تكريت التي تستخدم القاف، ذلك لأن استخدام القاف في العراق مرتبط باللهجات الريفية ولهجات الأقليات، ويعتبر ارتباط سمة فصيحة بلهجات الأقليات مشابها لحالة البحرين التي ذكرناها سالفاً.

وفي مصر انتشرت لهجة القاهرة في منطقة كبيرة في الدلتا، تبين خريطة توزيع استخدام القاف والجيم في وسط الدلتا منطقة طويلة صاعدة من القاهرة إلى دمياط، وتستخدم تلك المنطقة الهمزة القاهرية، بينما تستخدم باقي مناطق الدلتا الجيم والجيم المعطشة، وبعد تخلي الإسكندرية في القرن الرابع عشر عن مكانتها كأهم ميناء تجاري للقاهرة أصبح طريق التجارة الرئيسي يسري من القاهرة على فرع النيل الشرقي إلى دمياط، أما اليوم فطريق القاهرة الإسكندرية هو الشريان الأهم في الدلتا، ولذلك تجد تأثير لهجة القاهرة واضحاً في الإسكندرية، فهي تستخدم الهمزة بدلاً من صوت القاف. ولكن تأثير القاهرة لا يشمل المناطق المحيطة بالإسكندرية. في العموم يبين شكل الخريطة أن تأثير اللهجة القاهرية يتزامن مع وجود اتصالات تجارية كبيرة بمناطق معينة.

وكذلك يتضح تأثير اللهجة القاهرية باتجاه التسوية أيضاً في أنماط كلام المهاجرين الجدد من الريف إلى القاهرة. بين ميلر (١٩٩٦) في مسح حديث نسبياً أن الأجيال الأولى من المهاجرين القرويين للعاصمة تطوع لهجاتها جزئياً للهجة القاهرة، فتجدهم على سبيل المثال يستبدلون تركيب الإضافة الصعيدي بتركيب الإضافة القاهري الذي يستخدم /بتاع/، ولكن تلك الأجيال الأولى تحتفظ بالنطق الصعيدي

الجيم بدلا من القاف، تنحصر أنماط التطويع في تلك السمات القاهرية التي أخذتها المناطق الحضرية خارج القاهرة فعلاً واستخدمتها، أما الجيل الثاني من المهاجرين فهو يطوع لهجته للهجة القاهرية بشكل كامل ويهمل السمات الصعيدية.

ويعتبر التخليط koinaisation عملية سريعة قد تنتشر خارج حدود الدولة السياسية الواحدة، فقد أصبحت اللهجة المصرية بوجه خاص معروفة في كل العالم المتكلم بالعربية، وقد يكون السبب الجزئي في ذلك تصدير الأفلام والمسلسلات المصرية التي تذاع في كل مكان في العالم العربي، وقد يكون السبب أيضا أنه في كثير من البلاد العربية كان هناك مدرسون مصريون أنيط بهم إنشاء نظم تعليمية جديدة، ولذلك يفهم معظم الناس في كل بلد اللهجة المصرية، بل وفي بعض الأحيان يستطيع الناس أن يطوعوا كلامهم للهجة المصرية لو استدعت الضرورة، يعتبر الناس في اليمن كل الأجانب الذين يتكلمون العربية مصريين. وعندما يتكلم اليمنيون العربية مع هؤلاء الناس ينزعون لاستخدام كلمات مصرية وعناصر صرفية مصرية، ولذلك تجد أداة الاستمرار في الفعل /بين/ في اللهجة اليمنية مستخدمة بمعنى العادة أيضا، وذلك تحت تأثير استخدام /با/ المصرية، وكثيراً ما يستخدم اليمنيون أيضًا أداة المستقبل /راح/ أو /حـ/ المصرية بدلا من أداة /شـ/ اليمنية التي تؤدي نفس الغرض، وكذلك أصبحت كلمات مصرية كثيرة دارجة ومستخدمة في لغة الحديث اليومي مثل "كويس" و"كدا".

كل محاولة لتصنيف اللهجات محاولة بطبيعة الحال عشوائية، ويؤدي اختيار أي مجموعة من الخطوط الفاصلة لسمات لهجية معينة كعناصر تصنيف إلى تقسيمات مختلفة. فقد يؤدي التقسيم بحسب السمات الصوتية إلى نتائج تصنيفية تختلف عن النتيجة التي يؤدي إليها الاعتماد على السمات المعجمية مثلا في التقسيم، علاوة على ذلك فمن الصعب أن تجد أن أي خطوط فاصلة تستطيع أن تعزل منطقتين بعضهما عن البعض الآخر بشكل كامل وحاسم، فإن هناك دائما مناطق انتقالية بين المنطقتين اللهجاتيتين الأساسيتين، في تلك المناطق الانتقالية تظهر السمة اللغوية التي نقيم على أساسها الخط الفاصل بشكل جزئي، أو يعبر المعجم عنها في بعضه، ولكن في كثير من الأحيان يتطابق التوزيع الجغرافي للخطوط الفاصلة isoglosses مع التصور الشعبي للفصل بين المجموعات اللهجية كما يراه متكلمو اللهجات أنفسهم.

تقوم طرق أخرى لتصنيف اللهجات على عوامل المراحل التاريخية للاستيطان ، ففى حالة شمال إفريقيا على سبيل المثال يمكن أن نميز بين مرحلتين من مراحل الاستيطان العربى، وهما مرحلتان اشترك فيهما متكلمون للهجات عربية مختلفة، ولكن تلك الطبقات أو المراحل المختلفة ليست منفصلة بعضها عن بعضها الآخر، وبالرغم من أن مراحل الهجرات العربية تلك قد تكون مختلفة فى أصلها إلا أن النتائج التى تحققت على أثرها جميعا ، وهى اللهجات الجديدة، إنما خضعت لعملية تأثير وتأثر متبادل عميقة وقوية. ففى شمال إفريقيا لم تكن لهجات المناطق الحضرية قط بمعزل كامل عن لهجات المناطق الريفية واللهجات البدوية، ولم تكن أنماط الهجرات العربية ثابتة كذلك، فقد دخلت الجماعات البدوية فى منطقة التأثير الحضرى، وتغيرت لهجة تلك الجماعات أو لهجة المناطق الحضرية التى دخلوا فيها تبعا لقوة أى من المجموعتين السياسية أو ارتفا ع مكانة أيهما. ولكن النتيجة العامة والمحصلة هى أنه فى كل إقليم كانت هناك عملية تمازج دائمة.

هناك طريقة أخرى لتصنيف اللهجات تستمد أساسها من عناصر لغوية اجتماعية، ولكن تلك الطريقة بدورها تصطدم بالتطورات التى حدثت فى معظم الأقاليم، فعادة ما يؤدى التأثير والتأثر المتبادل بين اللهجات الرفيعة واللهجات الدونية فى اللغة إلى صبغة التحقيق المحلى للعربية الفصحى بصبغة إقليمية. ولكنه فى نفس الوقت يؤدى إلى توحيد اللهجات من خلال تأثير الفصحى.

خلاصة القول أن تصنيف اللهجات بحسب الدولة قد لا يكون اقتراحًا سيئًا بالرغم من أنه من الناحية اللغوية ليس أحسن الحلول، لقد أصبح هناك عنصر جذب يمارسه مركز ثقل لغوى معين وخاصة بعد أن نالت الدول العربية استقلالها. وعادة ما يكون هذا المركز هو العاصمة، لذلك يمكن أن نقول إن كل دولة تمارس عملية توحيد لغوى بين اللهجات الواقعة فى حدودها. بهذا المعنى يمكننا أن نتكلم عن لهجة الجزائر أو اللهجة السورية أو اللهجة اليمنية على أنها لهجة العاصمة الرفيعة المحترمة، ولكن تلك الفكرة ليست صحيحة بكليتها ففى الكثير من البلاد العربية ماتزال بعض اللهجات الإقليمية مستخدمة وحية، فليس مصير الجيوب اللهجاتية الموجودة فى داخل الحدود السياسية للدول العربية بالضرورة إلى زوال، فمن الممكن أن يسبب الفخار باللهجة

المحلية لاستمرارها وبقائها ومن بين أفضل الأمثلة على ذلك لهجة دير الزور في شمالي سوريا، وهي لهجة عراقية في طبيعتها في وسط منطقة لهجات سورية لبنانية.

في بعض الأقاليم يمكن أن يقوم الولاء للهجة معينة على أسس تمايز مختلفة، ففي شمال إفريقيا تم تسجيل لهجات عربية يهودية معينة في المدن الكبيرة كتونس وفاس. وترجع تلك اللهجات للمراحل المبكرة من التعريب، إلا أنها لم تتبع سبل التطور اللاحقة. وفي بلاد أخرى لم تتأثر لهجات الأقليات الدينية المختلفة كلهجة يهود ومسيحي بغداد ولهجة الشيعة في البحرين بسمات الهجرات البدوية المتأخرة من الناحية اللغوية، بل احتفظت بسماتها الحضرية الأصلية المبكرة، حدث ذلك في نفس الوقت الذي اكتسبت فيه لهجات المسلمين السنة سمات بدوية من تلك الهجرات.

٨ – ٣ اللهجات البدوية والحضرية

يجب أن يضع أي تصنيف للهجات العربية في الاعتبار عاملا مهما من عوامل تعقيد الوضع اللغوي وهو تزامن وجود لهجات بدوية ولهجات حضرية في كل المناطق، لقد رأينا سابقًا أنه في القرون المبكرة من عصر الإمبراطورية العربية كان الناس يظنون أن اللهجات البدوية هي الممثل الحقيقي الوحيد للعربية الفصحى الكلاسيكية، فقد كان الناس يتصورون أن البدو يتكلمون عربية نقية بعلامات الإعراب، ولكن بمرور الوقت اعترف النحويون أنه حتى البدو لم يعودوا قادرين على الهروب من تأثير اللهجات الحضرية ؛ ففي مرحلة مبكرة كمرحلة حياة ابن جني (توفي عام ٣٩٢ هجريًا) لاحظ النحويون بوضوح الآثار السلبية التي يسببها الاتصال المطول باللهجات الحضرية، بالرغم من أن بعض القبائل العربية قد احتفظت بسمعة الكلام بعربية نقية، إلا أنها لم تعد تتكلم العربية الفصحى الكلاسيكية في مرحلة من مراحلها، ولا نعرف ما إن كان هذا التحول قد حدث قبل الإسلام أم بعده– وهذه مسألة خلافية لم تزل، أما في العصر الحاضر وبغض النظر عما إن كانت تلك اللهجات حضرية أو بدوية فإنها جميعًا تنتمي لنمط لهجات العربية المولدة، من أوضح الأمثلة على هذا النمط من اللهجات اختفاء علامات الإعراب، ولكن مع ذلك يمكن أن نبين أن اللهجات البدوية أكثر محافظة في بعض النواحي اللغوية من اللهجات الحضرية.

تتضح صحة هذه الفكرة عن طريق نمط الهجرة العربية، فقد رأينا سابقا أن عملية التعريب قد تمت على مرحلتين، في المرحلة الأولى تكونت اللهجات الحضرية بسماتها المتجددة الكثيرة، وقد جلبت المرحلة الثانية من التعريب اللهجات الريفية والبدوية في كل البلاد العربية، تقول بعض النظريات إن الموجة الثانية من الهجرات العربية مسؤولة عن قدر كبير من التجميع والتوحيد في سمات اللهجات العربية في الإمبراطورية العربية الإسلامية لأن تلك اللهجات – بعكس اللهجات الحضرية – لم تتأثر بتواصل شعوب ذات لغات مختلفة.

من القواعد العامة أن الانعزال يؤدي إلى المحافظة اللغوية، هذا بينما تعكس المناطق التي يحدث فيها اتصال كثير نسبة كبيرة من ظواهر التبسيط والتخفيض. كنتيجة عامة إذن يصعب التمييز بين مناطق لهجية بعينها في داخل تقسيم اللهجات الحضرية، وهو تقسيم مستمر في عرض العالم العربي لا يفصل أجزاءه بعضها عن بعضها الآخر سوى الموانع الطبيعية، ولكن يمكن أن تحدد مناطق مركزية للهجات داخل المناطق الحضرية، وعادة ما تكون تلك المراكز في جوار المراكز السياسية والثقافية التي تخرج منها التجديدات اللغوية وتنتشر في نمط يشبه الموجة، تقوم بين مناطق اللهجات المركزية المتجاورة مناطق انتقالية تتصادم فيها التجديدات اللهجاتية المتنافسة ، أما اللهجات البدوية فيمكن اعتبارها لهجات منفصلة ومستقلة تحافظ على سماتها حتى ولو انتشر متكلموها في مساحات واسعة من الأرض، ولذلك تعكس تلك اللهجات البدوية القبلية في سماتها اللغوية تاريخ هجراتها ؛ فقد هاجرت من منطقة نجد بالمملكة العربية السعودية مثلا قبائل مثل شمر وعنيزة وقبائل أخرى إلى الشرق والشمال وتفرقت في مناطق جغرافية كبيرة ولكن لهجاتها جميعاً ماتزال تعكس علاقات القرابة بينها بشكل يشبه العلاقة بين اللهجات الهندو أوروبية القديمة، وفي خارج شبه الجزيرة العربية، بل أحياناً في داخلها كما هي الحال في الحجاز مثلا، يأخذ الفرق بين اللهجات الحضرية والبدوية أبعاداً اجتماعية، فتجد أن تقابلات البدوي والحضري تتفق عادة مع تقابلات لغوية وأحياناً دينية ومهنية، ولكن في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية وخاصة في شمال نجد تكون الفوارق اللغوية بين القبائل بغض النظر عما إذا كان أبناء تلك القبائل يعيشون حياة حضرية أو بدوا يجوبون الصحراء، فبعض بطون

شمر مثلا من البدو، ولكنهم مع ذلك يعوبون لبنى قبيلتهم الحضر عادة، ويشتركون معهم في السمات اللهجاتية.

منذ بداية العصر الإسلامي، وبالطبع قبل ذلك بكثير، كانت هناك هجرات قبلية مستمرة، وكانت الجيوش العربية التي قامت عليها الفتوحات الإسلامية المبكرة من القبائل البدوية في غالبيتها، وتبعت تلك الفتوحات هجرات بدوية لاحقة من شبه الجزيرة العربية. تبين هجرة بني سليم وبني هلال في القرن الحادي عشر لشمال إفريقيا أن عملية الهجرات ظلت مستمرة حتى فترة متأخرة. وقد تسببت الهجرات البدوية تلك كلها في عمليات تعريب للريف الذي استقرت فيه، وقد استقرت بعض المجموعات البدوية وتبنت لهجات حضرية مع الزمن، ولكن في حالات أخرى انتقلت جماعات حضرية من لهجات حضرية للهجات بدوية كما حدث في مراكش وغرب الدلتا في مصر وبعض لهجات فلسطين ولهجة مسلمي بغداد وسنيي البحرين، ولذلك من الصعب أن نضع قائمة بالسمات التي تميز بين اللهجات الحضرية واللهجات البدوية بالرغم من أنه من الممكن أن نتكلم عن سمات لهجاتية بدوية.

إذا نظرنا للهجات البدو بشكل عام وشامل سوف نجد أنها أكثر تحفظًا من اللهجات الحضرية الموجودة معها في نفس الإقليم بوجه عام، قائمة السمات التالية عبارة عن سمات تميز لهجات البدو. وسوف نلاحظ أن العديد من تلك السمات موجود في بعض اللهجات الحضرية أيضًا، ويرجع ذلك إلى عملية بدونة اللهجات التي ظهرت في إثر الهجرات البدوية التي تكلمنا عنها توًا:

* تحافظ كل اللهجات العربية البدوية تقريبا على الأصوات الفصيحة التي تصدر من بين الأسنان كالثاء والظاء، وقد اندمج صوت الضاد في صوت الظاء الذي يخرج من بين الأسنان منتجا كلمات مثل "ظَرَبَ" و"ظلال".

* تنطق اللهجات البدوية القاف مجهورة فتنتج جيما. وقد يكون هذا هو صوت القاف الأصلي في الفصحى وتحول لصوت مهموس في فترة لاحقة.

* الحفاظ على التذكير والتأنيث في الجمع المخاطب والغائب في الأفعال والضمائر. لذلك تميز لهجات نجد بين "كتبوا" للمذكر و"كتبن" للمؤنث، بينما تعمم لهجات العراق المقاربة "كتبوا" للجنسين.

* ضمير المفرد المذكر الغائب المتصل في اللهجات الحضرية هو صوت -u فيما هو في اللهجات البدوية -ah \ -ih.

* استخدام المثنى في الاسم أكثر في اللهجات البدوية منه في اللهجات الحضرية.

* في معظم اللهجات الحضرية العربية هناك صوت علة بالكسر في سابقة الفعل، وهي ظاهرة التلتلة التي كانت موجودة في لهجات الجاهلية، ولكن بعض اللهجات البدوية في شرق شبه الجزيرة العربية وشمالها تستخدم صوت الفتح بدلا من الكسر في تلك السابقة، وفي لهجة نجد يظهر صوت الفتح في سابقة الفعل في الأفعال التي يكون صوت العلة في جذرها هو الكسرة، بينما تظهر الكسرة كصوت علة في سابقة الفعل مع الأفعال التي يكون صوت العلة في جذرها هو الفتح، انظر "يَكتِب" كمثل على الحالة الأولى و"يِسمَع" كمثل على الحالة الثانية.

* هناك نزعة في اللهجات البدوية لاستخدام الإضافة القديمة بالرغم من أن لهجات بدوية كثيرة قد طورت أداة إضافة تحليلية، ولكن اللهجات البدوية عموما تنزع لتحديد سياقات استخدام أدوات الإضافة التحليلية ووظائفها، في شمال إفريقيا تميز اللهجات البدوية الغربية نفسها عن اللهجات الحضرية الموجودة في نفس المنطقة عن طريق الإحجام عن استخدام أداة الإضافة التحليلية \ ديال -\.

* مطابقة الاسم غير العاقل المجموع في اللهجات البدوية هي مطابقة المفرد المؤنث كما في الفصحى، وليست مطابقة جمع كما هو الحال في اللهجات الحضرية.

تميز هذه السمات اللهجات البدوية كلها تقريبا، علاوة على ذلك هناك سمات خاصة تميز لهجات البدو في شبه الجزيرة العربية، وسوف نتعامل مع تلك السمات في الفصل التالي، ولكن يقوم الفرق بين اللهجات الحضرية واللهجات البدوية عموما على معايير قليلة من أهمها نطق القاف مجهورة والحفاظ على الأصوات التي تخرج من بين الأسنان، أما من الناحية الصرفية فمن أهم تلك المعايير الفرق في الجنس في جمع الأفعال.

تتقابل طبيعة اللهجات البدوية المحافظة مع التبسيط اللغوى والتخفيض اللذين يميزان لهجات تلك المناطق التى تشهد تفاعلا كبيرا بين الشعوب الحضرية والبدوية، وذلك مثلاً فى منطقة جنوب العراق على ساحل الخليج العربى وفى مكة نفسها حيث يوجد عدد كبير من المهاجرين من مناطق خارج شبه الجزيرة العربية، وبمقارنة اللهجات البدوية في الجزيرة باللهجات المرتبطة بها خارج شبه الجزيرة اكتشف إنجهام (١٩٨٢) أن الكثير من السمات المحافظة في لهجات شبه الجزيرة تنزع ناحية الاختفاء أكثر وأكثر كلما ابتعدت اللهجة عن نطاق الحياة البدوية، أصدق مثل على ذلك لهجات العراق والخليج المتفرعة من لهجات وسط شبه الجزيرة العربية.

ولما كانت كل المناطق اللهجية فى العالم العربى قد مرت بمرحلتى عملية التعريب فإنه من المفروض أن نميز فى كل منطقة لغوية بين اللهجات الحضرية واللهجات البدوية، فاللهجات البدوية موجودة فى شرق العالم العربى وغربه على حد السواء، والمنطقة التي يتكلم الناس فيها لهجات بدوية في سوريا والعراق وشمال شبه الجزيرة العربية عبارة عن خط متواصل يصعب فيه تمييز لهجات منفصلة بعينها. لقد كسرت موجتان من الهجرات الكبيرة سطوة العازل الجغرافى فى تلك المنطقة، الموجة الأولى من نجد فى قلب الجزيرة العربية باتجاه الشمال، والموجة الثانية من جنوب العراق إلى الخليج. هناك قدر كبير من التلازم بين المناطق الحضرية والقبائل البدوية الملحقة بها حتى ولو كان أصل تلك القبائل من مناطق مختلفة، وفي جنوب العراق تحكم البدو في الشعوب الحضرية واستولوا على السلطة عندما ضربوا خيامهم فى فصل الصيف عوضًا عن العودة لإقليم نجد، هناك إشارات في التراث الشفاهى لتلك التجمعات القبلية المكونة من قبائل مختلفة إلى مناطق سكنى مختلفة مبكرة، وفى سوريا هناك عملية هجرة مستمرة من شبه الجزيرة باتجاه البادية السورية، ولقد رأينا سابقًا أن اللغات السامية، بحسب بعض النظريات، قد تطورت بعملية مشابهة من التبادل بين الصحراء والحياة الحضرية.

من الصعب تحديد مناطق لهجية معينة ومحددة للبدو بسبب هجراتهم الدائمة، بل إنه من المستحيل القيام بتلك المهمة (إنجهام ١٩٨٢)، وفى بعض الأحيان يقدم لنا خط فاصل علامة مكانية واضحة، ولكن الخطوط الفاصلة المهمة الأخرى قد تقدم علامات

مكانية مختلفة، ويصبح من الممكن فقط في تلك الحالات التي يتوفر فيها حد سياسي أو جغرافي واضح وقوي أن نتكلم عن مناطق لهجية متميزة، أما المتكلمون أنفسهم فإنهم يمتلكون عادة نوعًا من الحدس بشأن الفواصل والفوارق بين اللهجات، ولكن المشكلة هي أن تلك الأحكام الحدسية تقوم على الخصوصيات. وعندما لا يكون هناك مانع طبيعي أو غير طبيعي تندمج المناطق اللهجية بالتدريج مكونة بذلك منطقة انتقالية لكل سمة لغوية بينها. وليس الأصل العرقي مهما بالنسبة للجماعات الحضرية، ولذلك فإن قبول تلك الجماعات لأي تجديد لغوي أو رفضها له يقوم أساسًا على قوة الجذب النسبية التي تتمتع بها المراكز الثقافية أو السياسية الداخلة في الموضوع، أما بالنسبة لجماعات البشر البدوية فإن الأصل العرقي والعلاقات القبلية عنصران مهمان جدًا في تصنيف اللهجات، ولذلك من المستحيل أن يتم تعريف اللهجات بشكل جغرافي فقط، الاستثناء من تلك القاعدة هو منطقة جبل شمر بشمال المملكة العربية السعودية، وهي منطقة احتفظت بعدد سكان ثابت بفضل قربها من أماكن المراعي، وفي تلك المنطقة هناك بطون حضرية وبطون بدوية من قبيلة شمر.

اللهجات البدوية الشرقية هي اللهجات التي يتكلمها بدو شبه الجزيرة العربية ودول الخليج وبادية الشام والعراق وجنوب الأردن والنقب وسيناء. أما اللهجات البدوية الغربية فهي تلك اللهجات التي يتكلمها بدو شمال إفريقيا. وتنقسم تلك اللهجات عادة إلى مجموعتين : المجموعة الأولى هي مجموعة لهجات المنطقة التي سكنها بنو سليم في تونس وليبيا وغرب مصر. والمجموعة الثانية هي اللهجات التي تنتمي لأراضي بني هلال في غربي الجزائر والمغرب.

٨ - ٤ تقديم اللهجات

التقسيم العادي للهجات العربية يميز بين المجموعات التالية:

١ - لهجات شبه الجزيرة العربية

٢ - لهجات العراق

٣ - لهجات المنطقة السورية اللبنانية

٤ - اللهجات المصرية

٥ - لهجات المغرب

ليست الأسس التي يقوم هذا التقسيم عليها واضحة في كل حالة، فمن الواضح أن العوامل الجغرافية قد سببت التصنيف في حالات معينة كما هي الحال في لهجات شبه الجزيرة، رأينا سابقاً أن تعريب كل تلك المناطق قد حدث على مرحلتين منفصلتين: المرحلة الأولى تسببت في ظهور اللهجات الحضرية المجددة بينما تسببت العملية الثانية في قيام اللهجات الريفية والبدوية المحلية التي احتفظت ببعض سمات العربية القديمة، ولكن الفترة الزمنية التي تفصل بين العمليتين تختلف من منطقة لأخرى، رأينا في الفصل السابع أن اللهجات البدوية والحضرية في سوريا والعراق قد تزامنت في العصر الجاهلي، تنتمي معظم اللهجات البدوية في تلك المنطقة إلى متكلمين مايزالون مرتبطين بقبائل عربية في قلب الجزيرة العربية. وعلى العكس من ذلك وفي مصر وشمال إفريقيا كانت هناك فترة طويلة تفصل بين المرحلتين، بلغت حوالي أربعة قرون في شمال إفريقيا، وقد يبرر طول تلك الحقبة درجة المحافظة الأقل التي تميز لهجات شمال إفريقيا البدوية، ذلك لأن القبائل البدوية التي تتبع منها تلك اللهجات أصلاً قد خضعت قبل هجرتها لشمال إفريقيا لتأثير اللهجات الحضرية لفترات طويلة، علاوة على ذلك قد يبرر البعد الزمني بين مرحلتي التعريب وجود منطقة لهجية في مصر وشمال إفريقيا تجمع بين اللهجات البدوية والحضرية على حد السواء بالرغم من أن كلا النوعين من اللهجات قد نشأ عن أصل مختلف، فكل لهجات شمال إفريقيا مثلا تعكس السمة المميزة الأساسية لتلك اللهجات وهي وجود سابقة النون على ضمير المتكلم المفرد في الفعل المضارع. لقد حلت تلك اللهجات بالمنطقة عندما كانت هناك بالفعل مراكز ثقافية وسياسية محترمة ورفيعة، وبالرغم من أن العرب البدو مثلوا القوة العسكرية الجديدة في الإقليم، إلا أنهم لم يستطيعوا الانفلات من تأثير اللهجات الحضرية النابعة من تلك المراكز.

سوف نلتزم في الفصل التالي إذن بالتصنيف القديم الذي يقوم على لهجات خمسة، وسوف نقدم كل منطقة لهجية بشكل سريع ومبسط، وسوف نهتم في هذا الوصف باللهجات التي تعبر عن المنطقة والسمات المميزة لكل لهجة في تلك المنطقة، وسوف نهتم في الفصل الثاني عشر بلهجات الجزر اللغوية العربية، أي اللهجات العربية التي تتكلمها جيوب لغوية في مناطق خارج العالم العربي تسيطر فيها لغات

أخرى. من بين أمثلة تلك الجزر اللغوية هناك العربية المالطية والعربية القبرصية المارونية وعربية أوزبكستان وأفغانستان واللهجات العربية الموجودة في وسط الأناضول والأنماط العربية الموجودة في كينيا وأوغندا. تستمد اللهجات العربية المتكلمة في الجيوب اللغوية مادتها الأصلية من مجموعات لهجية موجودة في قلب العالم المتحدث بالعربية. فالعربية الموجودة في قبرص لهجة سورية لبنانية في الأصل وكذلك تعتبر العربية المالطية لهجة من لهجات شمال إفريقيا. ولكن انعزال تلك اللهجات عن العالم العربي وعدم اتصالها بالفصحى الكلاسيكية أسباب قد ساهمت في الاحتفاظ بسمات لغوية فقدتها اللهجات الأخرى، وكذلك أدى الاتصال بين تلك اللهجات واللغات المسيطرة على المناطق التي تعيش فيها إلى عمليات اقتراض وتجديدات ليست موجودة في اللهجات العربية الأصلية، على ذلك سوف نتعامل مع لهجات الجيوب اللغوية العربية بمعزل عن اللهجات الأساسية في قلب العالم العربي.

تمثل النصوص التي سنجليها كمثل على الفروق اللهجاتية الكبيرة مشكلة حقيقية في تسجيل اللهجات العربية في شكل كتابي- وهي مشكلة الكتابة الصوتية. الكتابة الصوتية العادية بالنسبة للعربية الفصحى كتابة فونيمات، ولا يتم تسجيل الفروق الألفونية بالخط العربي . بعض النصوص العربية المسجلة نصوص فونيمية في كتابتها، ولكن البعض الآخر من تلك النصوص يرمي إلى تسجيل صوتي دقيق فينزع إلى تسجيل الفروق الصوتية الألفونية أيضًا. ففي اللهجة السورية مثلاً اندمج الفونيم العربي ا مع u في صوت واحد يرمز له برمز واحد غير معرف لأي فروق في التحقيق قد تنجم عن اختلاف البيئة الصوتية.

ولكن تسجيلات نصوص اللهجات السورية الأكثر قدمًا قد حاولت أن تراعي الفروق الصوتية بين الكلمات فسجلت الألفونات المختلفة للفونيم الواحد في الكلمات. ولم تقتصر تلك النزعة على اللهجة السورية فحسب ولكنها امتدت إلى تسجيل سنجر (١٩٥٨) لنصوص لهجة تطوان وتسجيل كوهين (١٩٦٤) لنصوص لهجة يهود تونس، وهناك عدد كبير من الرموز الكتابية في كلا العملين لتسجيل البيئات الصوتية المختلفة لأصوات اللين في الكلمات، ولكل من نظام تسجيل الفونيمات فقط ونظام تسجيل الألفونات فقط فوائده، فالأول يبين بنية اللهجة وكلماتها بينما يساعد الثاني على تسجيل كيفية نطق الأصوات والفونيمات في بيئاتها الصوتية المختلفة.

الفصل التاسع

اللهجات العربية

٩ - ١ لهجات شبه الجزيرة العربية

ماتزال منطقة شبه الجزيرة العربية، مهد القبائل العربية، أقل مناطق العالم العربي اللهجية وضوحاً لنا، ربما كانت الجزيرة العربية في العصر الجاهلي مقسمة إلى لهجات شرقية ولهجات غربية، ولكن الهجرات التي حدثت بعد تلك المرحلة غيرت التوزيع الجغرافي للهجات تغييرا كبيرا، فكل اللهجات البدوية في تلك المنطقة في العصر الحالي تنتمي لنمط العربية المولدة، بالرغم من أنها على وجه العموم أكثر محافظة من اللهجات العربية في خارج شبه الجزيرة العربية، علاوة على ذلك ففي المناطق الحضرية في الحجاز والخليج العربي يتكلم الناس في المدن لهجات حضرية، وقد تكون تلك اللهجات قد ظهرت نتيجة لهجرات متأخرة إلى تلك المناطق.

بينت محاولات التقسيم الحديثة التي قام بها إنجهام (١٩٨٢) ويلفا (١٩٩١) وجود أربع مجاميع لهجية، هي كما يلي:

١- لهجات شمال شرق الجزيرة العربية. وهي لهجات منطقة نجد وخاصة القبائل الكبيرة من أمثال عنيزة وشمر، تنقسم تلك المجموعة بدورها لثلاث مجموعات تحتية : أولاً مجموعة اللهجات العنزية التي تشمل لهجات الكويت والبحرين السنية وإمارات الخليج العربي، ثانياً مجموعة لهجات شمر، وهي تضم بعض لهجات البدو في العراق. وثالثاً اللهجات البدوية السورية العراقية، وهي مجموعة تضم لهجات شمال فلسطين البدوية ولهجات الأردن.

٢- لهجات جنوب غرب الجزيرة العربية، وهي مجموعة تضم لهجات اليمن وحضرموت وعدن، كما تضم لهجة البحارنة الشيعة في البحرين.

٣- اللهجات الحجازية (العربية الغربية)، وهي مجموعة تضم اللهجات البدوية الحجازية ولهجات منطقة تهامة – وهي لهجات ليست معروفة بدقة بعد، وليست العلاقة بين تلك اللهجات ولهجات المناطق الحضرية في مكة والمدينة واضحة تماما حتى الآن.

٤- لهجات شمال غرب الجزيرة العربية، وهي مجموعة تضم لهجات النقب وشبه جزيرة سيناء، كما تضم لهجات جنوب الأردن وشرق ساحل خليج العقبة، وتضم تلك المجموعة أيضًا لهجات بعض المناطق في شمال غرب المملكة العربية السعودية، وكلها لهجات صنفها بلفا معًا كمجموعة اللهجات الشمالية الغربية.

رأينا في الفصل السابق أن اللهجات البدوية خارج شبه الجزيرة العربية تحمل سمات لغوية معينة تميزها بوضوح عن اللهجات الحضرية التي تشاركها في نفس المنطقة الجغرافية كنطق القاف المجهورة الأصوات التي تخرج من بين الأسنان، ولكن اللهجات البدوية داخل شبه الجزيرة العربية أكثر محافظة من مثيلاتها في الخارج في أنها لا تشترك معها في اتباع التجديدات اللغوية القائمة على التخفيض والتسوية، أكثر اللهجات البدوية محافظة هي مجموعة لهجات نجد، ولكن اللهجات البدوية في منطقة جنوب العراق ودول الخليج العربي المرتبطة بلهجات منطقة نجد تعكس تجديدات لغوية أكثر من المجموعة الأم. علاوة على ذلك لا يمكن الاعتماد حين النظر في لهجات شبه الجزيرة العربية على ثنائية البدوي الحضري بنفس الطريقة التي نعتمد بها عليها في المجموعات اللهجية خارج شبه الجزيرة العربية، ذلك لأن معظم القبائل البدوية لها بطون حضرية تتصل بها صلات اقتصادية واجتماعية مكثفة، على ذلك فكل لهجات شبه الجزيرة العربية حتى الحضرية منها تعكس سمات لهجاتية بدوية كثيرة.

يمكن ذكر السمات الثلاثة التالية كأمثلة على السمات المحافظة في لهجات شبه الجزيرة العربية البدوية، أولاً : احتفظت لهجات بدوية كثيرة بعلامة تنكير تأخذ شكل تنوين الفتح والكسر، وهي غالبًا علامة اختيارية. وتستخدم تلك العلامة أحيانًا كأداة شعرية فقط، ولكن يجب أن نذكر أن تلك الأداة فقدت وظيفتها الإعرابية التي كانت

منوطة بها في العربية الفصحى، وفي لهجات نجد تستخدم تلك الأداة على الأسماء قبل الصفات أو مركبات الصلة أو الجر والمجرور كما هو في "بيتٍ كبير" و"كلمةٍ جالوهالي" و"جزءٍ منه"، هذا علاوة على التعبيرات التي تأخذ تنوين الفتح في الفصحى كما هي الحال مع "مثلاً". ثانيا : احتفظت بعض اللهجات بصيغة أفعَلَ، في أمثلة كـ"أخبَرَ" (بروشـازكا ١٩٨٨: ٤٢ ، ٤٧). ثالثًا : في بعض اللهجات البدوية مـايزال المبنى للمجهول في صيغة فُعِلَ مستخدما بشكل منتج. وتتركز تلك السمة في لهجات شمال شرق الجزيرة العربية وخاصة في منطقة حائل (بروشازكا ١٩٨٨: ٢٨ و١١٦). وليست تلك السمة مقصورة على لهجات شبه الجزيرة العربية البدوية فحسب لأن بعض الأدلة على تلك السمة موجودة في لهجات شمال إفريقيا البدوية.

بغض النظر عن تلك النزعات المحافظة في اللهجات البدوية في شبه الجزيرة هناك تجديدات لغوية وخاصة في منطقة اللهجات الشمالية الشرقية، ففي تلك اللهجات سمة تسمى بسمة "جَهَوا"، وهي سمة إعادة توزيع المقاطع في الكلمة بجوار الأصوات الحلقية. فتجد لهجة نجد مثلاً تستخدم الفعل المضارع "يَكتِب" و"يَحفِر"، حيث خرج هذا الفعل الأخير من "يَحفِر". وقد انتشرت تلك السمة في اللهجات البدوية خارج شبه الجزيرة العربية، ووصلت مثلا للهجات البدوية في جنوب أسيوط في مصر مع الهجرات العربية المتأخرة.

تتميز مجموعة اللهجات الشمالية الشرقية بعملية احتكاكية الجيم والكاف، وتعتبر تلك العملية مشروطة بالبيئة الصوتية المحيطة بما أنها تحدث في جوار الأصوات اللينة الأمامية فقط. ولذلك تجد أن اللهجات البدوية في العراق والشام تمتلك أصوات الكاف والجيم منطوقة من مكان خلفي من الحنك بينما تنطق اللهجات البدوية في شبه الجزيرة العربية هذين الصوتين من موقع أمامي أكثر، انظر مثلا طريقة نطق لهجة رولة البدوية لكلمات "ثجيل" و"جليل" التي هي في الفصحى "ثقيل" و"قليل" على التوالي.

ليست اللهجات العربية الغربية في منطقة الحجاز معروفة بشكل كبير، وهي منطقة تتضمن المناطق الحضرية التي كانت موجودة من قبل الإسلام، وهاجرت قبائل كثيرة من تلك المنطقة بعد الإسلام باتجاه الغرب، ولذلك من المحتمل أن تكون لهجات بادية

سوريا وصحراء النقب وشمال إفريقيا بعد ذلك قد نبعت من لهجات هذا الإقليم. تتميز لهجات تلك المجموعة عن لهجات شرق الجزيرة العربية بغياب احتكاكية الكاف والقاف. وبالرغم من أن لهجة مكة متصلة باللهجات البدوية في ذلك الإقليم إلا أنها تمتلك بعض سمات اللهجات الحضرية، فقد فقدت الأصوات التي تخرج من بين الأسنان والفصل بين المذكر والمؤنث في جموع الضمائر والأفعال، وكذلك تمتلك لهجة مكة أداة إضافة تحليلية \حق\، كما أنها تمتلك أدوات جهة على الأفعال مثل \بـ \أو\ عمال \للمستمر و\ رايح \المستقبل، وهي جميعا أدوات ليست مستخدمة في اللهجات البدوية، ولكن نطق القاف في مكة مجهور كما في اللهجات البدوية، وتجد أن لهجة مكة في بعض سماتها قريبة من اللهجات المتكلمة في صعيد مصر والسودان.

أما بالنسبة للخريطة اللهجاتية في اليمن فهي معقدة نسبيًا لأن الفواصل الجغرافية قد أوجدت تنوعًا لهجاتيًا كبيرًا في تلك المنطقة، حدد بينشتيد (١٩٨٥: ٢٠-٢) المناطق اللهجية التالية في اليمن: لهجات تهامة، ولهجات سابقة الكاف، اللهجات اليمنية الجنوبية الشرقية، ولهجات الهضبة الوسطى في صنعاء مثلا، ولهجات الهضبة الجنوبية، ولهجات الهضبة الشمالية، وأخيرا لهجات شمال شرق اليمن، ولكن حتى هذا التقسيم الكبير ليس كافيا لتحديد المعالم اللهجاتية لتلك المنطقة، فهناك الكثير من المناطق المشتركة والبينية وكذلك سوف يتحتم إعادة تقسيم مناطق معينة عندما تتوفر مادة لهجاتية أكبر خاصة بها.

تتميز منطقة لاحقة الكاف اللهجاتية الموجودة في سلسلة الجبال الغربية باستخدام الكاف في الفعل الماضي بدلاً من التاء، فتجد الفعل الفصيح "كتبتُ" موجودا في شكل "كتبكُ". هناك اعتقاد بأن تلك المنطقة وقعت تحت تأثير مباشر وكبير من اللهجات العربية الجنوبية، فقد ترجع فترة استقرار العرب في تلك المنطقة لما قبل الإسلام بفترة عندما أغارت القبائل العربية على ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية واستقرت في أراضيها، وعندما سيطر الإسلام على تلك المنطقة أصبحت اللهجة المستخدمة هناك تسمى بالحميرية، وتجد في وصف الهمداني للهجة حمير في كتابه عن الجزيرة العربية أنه يضع لاحقة الكاف تلك في مكان الصدارة ويمثل لها بأمثلة كثيرة مثل "كنكُ" بدلاً من "كنتُ".

أما لهجات الشيعة في البحرين، وهي لهجات حضرية، فهي مرتبطة بلهجات جنوب شرق الجزيرة العربية وعمان واليمن، وليس الوضع اللغوى فى البحرين مختلفا عن الوضع اللغوى فى بغداد، ففى المنطقتين تتكلم الجماعات غير المسلمة لهجات حضرية، فى حين تعكس لهجات السنة فى المنطقتين سمات حضرية، ومع ذلك فالصورة ليست بهذا الوضوح إذ هناك فروق كبيرة بين لهجة البحارنة القروية ولهجات المناطق الحضرية. ففي القرى على سبيل المثال ينطق الناس صوت القاف بشكل مهموس ويخرج من آخر الحنك، بينما ينطق بحارنة المنامة هذا الصوت بشكل مجهور كما يفعل السنيون. وقد يكون هذا التشابه ناتجًا من عملية اقتراض من اللهجة الرفيعة المحترمة، أو قد تكون تلك السمة قديمة.

تشترك لهجات البحارنة جميعًا فى نطق الأصوات التى تخرج من بين الأسنان، فيقولون مثلاً "فلافة" للتعبير عن "ثلاثة". وتشترك تلك اللهجات أيضا فى غياب ظاهرة "جَهَوة"، فيقولون "أخضر" حيث يقول السنيون "خْضَر". ومن السمات المميزة للهجات البحارنة، وهى أيضًا سمة تجمعها بلهجة عمان وعربية أوزبكستان، هى استخدام المورفيم المتوسط - /إن- /مع أسماء الأفعال التى تنتهى بضمير وصل، فتجد مثلا "شار-إن-ه" التى هى فى الفصحى "شاريه".

٩ - ٢ اللهجات السورية اللبنانية

بدأت عملية تعريب منطقة سوريا ولبنان أثناء حملات الفتح المبكرة جداً، ومما لا شك فيه أن تلك العملية تيسرت بفضل وجود قبائل عربية مقيمة في بادية الشام وحتى فى بعض المناطق الحضرية أيضًا، استقر العرب الفاتحون فى المدن اليونانية الموجودة فى المنطقة كدمشق وحلب، وهناك ظهرت أول أنماط العربية المولدة، وكانت تلك الأنماط لهجات حضرية نمطية تتمتع بقدر كبير من التجديدات اللغوية، وليس هناك فترة زمنية طويلة بين موجة التعريب الأولى والثانية كما حدث فى مناطق أخرى كثيرة، فقد استمر نمط الهجرات البدوية الذى كان قائمًا قبل الإسلام عبر البادية السورية وأصبح عاملا من عوامل التثبيت اللغوى فى المنطقة.

هناك شبه إجماع عام على تصنيف اللهجات الواقعة بين البحر المتوسط وبادية الشام وذلك بسبب وفرة المادة العلمية، عادة ما يضع العلماء كل اللهجات الحضرية في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين في تلك المجموعة، بينما تصنف لهجات البادية السورية مع لهجات شبه الجزيرة العربية، وفي شمال شرق سوريا يتكلم الناس لهجات من نمط "قلتُ" العراقية كما هي الحال في لهجة دير الزور، وعبر الحدود مع تركيا في منطقة الإسكندرونة التي تعرف الآن بمحافظة هاتاي التركية، يتكلم الناس لهجة هي امتداد لمجموعة اللهجات السورية.

تشترك معظم لهجات المنطقة السورية اللبنانية في السمات الحضرية العادية كنطق القاف المهموس في شكل الهمزة، واستخدام الأصوات الانفجارية بدلاً من الأصوات التي تخرج من بين الأسنان، وغياب الفصل في الجنس بين المخاطب والغائب في الضمائر والأفعال، واحتفظت كل لهجات المنطقة بالأصوات اللينة الثلاثة الواو والياء والألف، ولكن لا يعني كون تلك اللهجات حضرية كلية أنها لا تحتوي على سمات من اللهجات البدوية، فمعظم اللهجات الأردنية على سبيل المثال تحتوي على صوت الجيم عوضا عن القاف، مما يعكس تأثيراً للاتصال بالقبائل البدوية، ومع ذلك تحل لهجات العواصم الرفيعة في عموم المنطقة محل لهجات الريف بسرعة، وتعتبر تلك العملية عملية مستمرة ستسهم في توحيد لهجات الأقاليم الكبرى.

يميز التقسيم التقليدي بين ثلاث مجموعات:

* اللهجات اللبنانية، أو لهجات وسط سوريا، وهي مجموعة تتكون من لهجات لبنان كلهجة بيروت ولهجات وسط سوريا كلهجة دمشق، وتحتوي هذه المجموعة أيضا على لهجات الدروز ولهجات قبرص المارونية العربية.

* لهجات شمال سوريا، وهي لهجة حلب.

* اللهجات الفلسطينية الأردنية، وتحتوي على لهجات مدن فلسطين ولهجات قرى وسط فلسطين ولهجات جنوب فلسطين الأردنية التي تحتوي على لهجة حورا .

تتميز المجموعة الأولى عن المجموعتين الأخريين في بعض الأحيان بكلمة "بيكتُب \ بِكتُب"، ففي المجموعتين الأخريين يكون هذان الشكلان كما يلي: "بِكتُب \ بكتُب".

هناك فرق آخر بين لهجات شمال سوريا ولهجات لبنان ووسط سوريا، ويختص هذا الفرق بعمل الإمالة. ففي لهجات شمال سوريا أصبحت الإمالة عملية تاريخية أدت إلى تغير الفتحة الطويلة إلى صوت لين أمامي أعلى نسبيا في جوار صوت اللين الأمامي العالي i، لذلك تجد لهجة حلب تنطق كلمة لِسان" كما يلي: "لسين". وغالباً ما يحدث هذا التغير أيضا في جوار الأصوات المفخمة والأصوات الحلقية أيضا. ويجب أن نفصل بين عملية التطور التاريخي والقواعد السنكرونية التى تحكم نطق صوت الفتحة الطويلة في الفصحى المعاصرة التي تتفخم فى جوار الصوامت المفخمة، وتميل للارتفاع في جوار ما يغاير ذلك. ولذلك فإنك تجد أزواجا يمكن المقارنة بينها فيما يخص هذا الصوت، وفي تلك الأزواج يكون الصوت إما ناتجا عن عملية التغير التاريخية فى كلمة ما أو يكون نتيجة للتصرف الطبيعي للإمالة فى البيئة الصوتية فى كلمات أخرى.

أما في اللهجة اللبنانية، على العكس من ذلك، فإن صوت الفتحة الطويلة إما ينطق بإمالة وإما ينطق مفخما بحسب السياق الصوتي. فهناك مثلاً "مات" بصوت ممال، في حين تنطق كلمة "صار" بصوت لين مفخم. ولكن توزيع هذين التنويعين ليس واضحاً في كل الحالات، ذلك لأن كلا التنويعين قد يظهر في سياق واحد كما هي الحال في كلمتي "جاب" و"جا"، واحتفظت معظم اللهجات اللبنانية بأصوات اللين المركبة \aw\ أو \ay\ في المقاطع المفتوحة على الأقل، وفي المقاطع المغلقة يتحولان إلى \oo\ أو \ee\. وفي بعض الأحيان لا يمكن فصلهما عن تنويعات صوت الفتحة الطويلة كما هي الحال في لهجة طرابلس.

ومع ذلك فإن الفروق بين المجموعات الثلاثة ليست واضحة تماماً، فلا يمكن تحديد الخط الفاصل بين المجموعة اللبنانية والسورية الوسطى ومجموعة اللهجات السورية الشمالية، وهناك خط فاصل بين لهجات فلسطين ولهجات جنوب لبنان عن باقي لهجات المنطقة، وهو قائم على سلوك أصوات اللين القصيرة، تمتلك لهجات فلسطين ومعظم

اللهجات اللبنانية ثلاثة أصوات لين قصيرة، هي i و u و a بينما تحتفظ باقي اللهجات بالتقابلية بين i و u فقط. وتوجد تلك التقابلية في نهايات المقاطع غير المنبورة، ولكن في باقي البيئات الصوتية يندمج هذان الصوتان في فونيم واحد، ومما يدعم إلغاء هذه التقابلية بين i و u أنهما يحذفان في المقاطع المفتوحة غير المنبورة ، ولذلك تجد في لهجة دمشق كلمة مثل "كُتُب" حيث يكون النبر على المقطع قبل الأخير، ولكنك تجد كلمة مثل "طلوع" حيث يحذف صوت اللين القصير لأن النبر على المقطع الأخير.

وفي داخل مجموعة اللهجات اللبنانية كان هناك فصل بين اللهجات التي تحذف صوت الفتحة القصيرة غير المنبورة في المقاطع المفتوحة وبين اللهجات التي تحتفظ بها. وقد اعتبر كانتينو أن الفصل بين اللهجات التي تفرق في التعامل بين الفتحة من ناحية والضمة والكسرة من ناحية أخرى وبين اللهجات التي لا تفرق بينها جميعًا واحدًا من الخطوط الفاصلة الرئيسية التي تحدد لهجات المنطقة. ويمر هذا الخط الفاصل في بيروت ويعتبر سمة مميزة داخل مجموعة اللهجات المغربية. ولكن الأبحاث التالية قد وضحت أن تفاصيل الحد الفاصل الذي يقيمه هذا الخط أكثر تعقيدا مما يبدو وأن هناك تنوعًا كبيرًا في سلوك الفتحة القصيرة لا يغطيه هذا الخط الفاصل وحده، فهو ليس خطًا فاصلاً بل يحتاج إلى تعديل وتعقيد.

وفي داخل مجموعة اللهجات الفلسطينية الأردنية تتميز لهجات جنوب فلسطين والأردن عن باقي لهجات المجموعة بكلمة "بَجول"، فإن الجيم المجهورة تميز هذه اللهجات كسمة بدوية قديمة أو سمة تنتمي لمرحلة البدونة المتأخرة.

من الناحية السنكرونية تتقابل معاملة متواليات الصوامت في اللهجات السورية مع اللهجات المصرية وباقي اللهجات، ذلك لأن اللهجات السورية تضع صوت لين إضافي قصير قبل الصامت الثاني في المتوالية التي تحتوي على ثلاثة صوامت كما هي الحال في "يِحِملُ" التي هي في الفصحى "يَحمِلُ"، ولا يحمل هذا الصوت الإضافي النبر أبدًا في المقطع الذي يوجده في الكلمة.

وفي كل لهجات المنطقة تعمل سابقة الباء كعلامة فعلية، ففي لهجة دمشق تعمل كأداة للتعبير عن النية في المستقبل، وتستخدم كذلك للتعبير عن الحقائق العامة

والافتراضات والأفعال الحالية، وإذا وضعت سابقة الباء مع المضارع المتكلم المفرد يصبح شكل الفعل: "باكتب"، ولكن إذا دخلت السابقة نفسها على المتكلمين الجمع فإن شكل الفعل يصبح: "منكتب". لقد رأينا سابقًا أن اللهجات السورية الشمالية تضع فتحة قصيرة مكان الكسرة القصيرة في سابقة الفعل المضارع مع ضمير المتكلم المفرد. أما أداة جهة الاستمرار في تلك المنطقة اللهجاتية فهي /عم/، وهي أحيانا ما تندمج مع سابقة الباء في المضارع. أما بالنسبة للمستقبل فإن تلك اللهجات تستخدم سابقة /لاح/ أو /راح/ قبل الفعل للتعبير عنه.

٩ - ٣ اللهجات العراقية

بالرغم من أن الكثير من تفاصيل تعريب تلك المنطقة مجهولة بالنسبة لنا لم تزل، فإننا نعرف أنها عملية تمت على مرحلتين، في العقود المبكرة من الفتح العربي انتشرت مجموعة من اللهجات العربية الحضرية حول مدن المعسكرات التي أنشأها الفاتحون كالبصرة والكوفة، ولكن في مرحلة لاحقة انتشرت طائفة من لهجات القبائل البدوية العربية التي جلبتها هجرة ثانية ونزلت فوق اللهجات الحضرية المبكرة. منذ نشر بلانك دراسته (١٩٦٤) عن لهجة بغداد أصبح من العادى اعتبار كل لهجات العراق بكليتها على أنها تنتمي لمنطقة لهجية واحدة. اكتشف بلانك أن بغداد تحتوى على ثلاث لهجات لمجتمعات دينية منفصلة ، هي لهجة مسلمي بغداد ولهجة مسيحيي بغداد ولهجة يهود بغداد. وخلص بلانك إلى أن لهجة مسلمي بغداد تنتمي لطبقة من طبقات خريطة اللهجات العراقية وأن لهجات المسيحيين واليهود تنتمي لطبقة أخرى. وقد اكتشف علماء اللهجات أن هذين النمطين موجودان في عموم العراق بنمط توزيع معقد (انظر بلانك ١٩٦٤: ٦، وجسترو ١٩٧٣: ١).

يقول بلانك إن اللهجات المسيحية امتداد للهجات الحضرية القديمة التي كانت موجودة في المدن العراقية في العصر العباسي أما لهجة مسلمي بغداد فهي قد تكون ناتجة عن عملية بدونة متأخرة لم تصب لهجات المسيحيين واليهود في المدينة، وقد أدت تلك العملية إلى الفروق اللهجاتية الموجودة في الوقت الحالي والتي تقسمها تقسيما دينيا. ويجب أن نضيف هنا أن لهجة يهود بغداد العربية لم تعد موجودة في المدينة حاليًا بسبب هجرة معظم اليهود في أوائل الخمسينيات إلى فلسطين.

وقد صنف جسترو (١٩٧٨) اللهجات الحضرية تصنيفًا أكثر تفصيلاً، وقسمها لثلاثة أقسام هي لهجات دجلة ولهجات الفرات ولهجات الأناضول، وسوف نتعامل مع لهجات الأناضول في فصل لاحق، ولكننا سوف نركز على المجموعتين الأوليين في هذا الفصل. ولكن المجموعات الثلاثة تعكس السمات الحضرية كنطق القاف بشكل مهموس كهمزة واختفاء الأصوات التي تصدر من بين اللسان وتحويلها لأصوات تصدر من الأسنان واختفاء الفصل في الجنس في المخاطب والغائب المثنى والجمع في الضمائر والأفعال، وكذلك تتميز كل اللهجات الحضرية بلاحقة الفعل الماضي /تو/ في المتكلم المفرد، كما هي الحال في الفعل "أكلتو". تتجلى العلاقة بين اللهجات الحضرية واللهجات البدوية في أن كل لهجات العراق تستخدم لاحقة /ين/ أو /ون/ في الفعل المضارع، كما هي الحال في الفعل "يعملون"، وكذلك تشترك اللهجات الحضرية مع اللهجات البدوية في نفس أداة الإضافة التحليلية /مال/ وفي أداة المستقبل /راح/.

وفي اللهجات البدوية هناك ثلاثة أصوات لين قصيرة هي الفتحة والضمة والكسرة، ولكن من عجب أنها لا تستمد سماتها الصوتية من أصوات لين الفصحى، فقد احتفظت هذه اللهجات بالفتحة في المقاطع المغلقة ولكنها تتحول في المقاطع المفتوحة لكسرة أو لضمة بحسب البيئة الصوتية، فتجد الصوت يتحول لكسرة في "سمِك" وإلى ضمة في "بُصَل"، وكذلك احتفظت تلك اللهجات بالكسرة والضمة في بيئات صوتية معينة فقط، وفي بيئات أخرى يعبر أحد الصوتين عن الآخر، كما هي الحال في "حامُض" و"جِلت". واحتفظت تلك اللهجات بالأصوات التي تخرج من بين الأسنان.

من السمات التي تميز اللهجات العراقية جميعا وجود سمة الاحتكاكية المشروطة للقاف والكاف والجيم بجوار أصوات اللين الأمامية، وربما تكون تلك من سمات اللهجات البدوية. ولكن لهجة مسلمي بغداد لا تضع سمة الاحتكاكية إلا على الكاف، في chaan "كان" مثلا. وقد أدت هذه السمة الصوتية إلى وجود فصل بين الجنسين في ضمير المتصل المخاطب، فتجد beetak "بيتك" للمذكر في مقابل beetick "بيتِك" للمؤنث.

في حين تحتفظ اللهجات الحضرية بمتوالية صامتين في آخر الكلمة تجد أن اللهجات البدوية تضع صوت لين قصير إضافي، وإما أن يكون هذا الصوت ضمة أو كسرة بحسب البيئة الصوتية، وفي المتواليات المكونة من ثلاثة صوامت في وسط الكلمة تضيف اللهجات البدوية صوت لين قصير إضافي عقب الصامت الأول.

أما فيما يخص النظام الفعلي فقد تطور وزن الماضي \فَعَلَ\ طبقا لقاعدة أصوات اللين التي قدمناها سابقًا، وأصبح إما \فِعَل\ أو \فُعَل\ بحسب البيئة الصوتية. وفيما يتعلق بنهايات تصريف الفعل فقد تمت تسوية الاختلافات بين نهايات تصريف الفعل الصحيح والفعل المعتل لحد كبير، وقد أدت تلك العملية في بعض الأحيان إلى استخدام نهايات الفعل المعتل في تصريف الصحيح كما هي الحال في الكثير من اللهجات البدوية. ومن أمثلة تلك الأفعال "ضربو" و"كتبو". تجد في هذين المثالين أن لاحقة -aw على آخر الفعل مشتقة من نهاية الفعل المعتل bakaw "بكوا" مثلاً. بل إن بعض اللهجات الحضرية تتمادى في عملية التسوية تلك لتلغي كل الفروق بين الفعل الصحيح والفعل المعتل، وفي لهجة مسلمي بغداد هناك سابقة لجهة الاستمرار وهي -da، كما أن هناك سابقة المستقبل وهي \راح\ كما هي الحال في اللهجات العراقية عمومًا. ولكن اسم الفاعل يستخدم للتعبير عن جهة التام كما هي الحال في عربية أوزبكستان.

تهمنا هنا جداً اللهجات العربية التي يتكلمها سكان مقاطعة خوزستان الإيرانية التي يسميها العرب عربستان، بالرغم من أن التطورات السياسية في العقود القليلة السابقة قد حولت هذا الإقليم إلى جيب لغوي مغلق، إلا أن العلاقات بين العرب المقيمين هناك والقبائل العربية التي ينتمون إليها في العراق لم تنقطع كلية أبداً، فاللهجات البدوية الموجودة في خوزستان تعتبر امتدادا للهجات منطقة شبه الجزيرة العربية، ولكن اللهجات الحضرية في هذا الإقليم تعكس تشابها كبيرا مع اللهجات البدوية العراقية – وخاصة اللهجات الموجودة في محيط البصرة. تستخدم لهجات خوزستان كما هو متوقعًا كلمات فارسية مقترضة كثيرة في المجالات الرسمية خاصة، كما هي الحال في كلمة "إدارة" التي تستخدم في الفارسية بمعنى "مكتب". ولكن ذلك لا يعني أن تلك

اللهجات لا تقترض من الفارسية كلمات شائعة مستخدمة في غير حقل دلالي واحد.
وفي الناحية الصرفية يجدر بنا أن نشير إلى وجود أداة استفهام "من" في آخر الجملة وهي تسأل عن شخص وعن شيء في آن واحد. فتجد سكان خوزستان يقولون مثلا: "شفت مَن؟" ويقولون أيضا "تريد تشترى مَن؟". وفي بعض الأشكال الفعلية – وخاصة قبل ضمائر الوصل– تستخدم لهجات خوزستان لاحقة -an كما هي الحال في "آخُذَنها" التي تعني "سوف أخذها".

٩ – ٤ اللهجات المصرية

بدأت المراحل المبكرة لتعريب مصر عقب الفتح العربي مباشرة، بعد انتهاء الفتح وتأسيس مدينة الفسطاط سرعان ما هجر شعب مصر السفلى القبطية وتكلموا اللغة الجديدة. أما في الريف وفي مصر العليا فلم يتغير الموقف اللغوي لفترة طويلة، وكان تعريب تلك المنطقة تدريجيا وأبطأ من تعريب مصر السفلي، وقد تم تعريب مصر العليا في فترة ثلاثة قرون بواسطة قبائل عربية أخذت في الهجرة من شبه الجزيرة العربية للغرب.

وانتشرت اللغة العربية من مصر إلى الجنوب بمحاذاة النيل فدخلت السودان وتشاد، وفي منتصف القرن الثالث الهجرى هاجرت قبائل ربيعة وجهينة من صعيد مصر باتجاه الجنوب فغزت أراضي قبائل النوبة والبجة، ولذلك تجد البدو الذين يتكلمون العربية في السودان حاليا يدعون أن أصلهم يرجع لقبيلة جهينة، بينما يسمى السودانيون الحضريون أنفسهم بالجعليين نسبة إلى فرع من فروع العباسيين يسمى بجعل. ولكنهم في أغلب الظن من النوبيين الذين تعربوا في مرحلة مبكرة، أي بعد الفتح العربي لمصر مباشرة وقبل الهجرات البدوية.

وأغلب الظن أيضًا أن بعض الأنماط العربية التي يتكلمها الناس في غرب ووسط أفريقيا قد نشأت نتيجة لتوسع القبائل العربية من السودان غربًا، وقد أطلق العرب على حزام السافانا الواقع بين الصحراء الكبرى وغابات وسط أفريقيا تسمية بلاد السودان، وقد دخلت العربية والإسلام إلى منطقة غرب إفريقيا عبر هذا الحزام من السودان إلى

نيجيريا عبر جمهورية وسط أفريقيا وتشاد والكاميرون ، وقد نشأت بعض لهجات تشاد العربية وعربية نيجيريا أثناء هذه العملية التوسعية، عربية نيجيريا موجودة في المنطقة الشمالية الشرقية في محافظة برنو، ويتكلمها حوالي ٢٠٠ ألف من السكان الذين يسميهم جيرانهم بالشوا، ولكنهم يسمون أنفسهم عرباً، ومن الممكن أن تكون تلك الجماعات قد وصلت لتلك المنطقة من الشرق في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، كل اللهجات الموجودة على حزام السافانا لهجات بدوية تنتمي لثقافة البجارة (أي ثقافة رعاة البقر البدو الذين بدأوا الهجرة من الشرق إلى الغرب)، بالرغم من أننا مازال نجهل الكثير عن اللهجات العربية في وسط أفريقيا إلا أن هناك سمات كثيرة تربط بين عربية نيجيريا وعربية تشاد وعربية السودان (انظر في ذلك أوينز ١٩٩٣).

أما بالنسبة لمصر نفسها فالمجموعات اللهجية التالية هي التقليدية والمتعارف عليها:

* مجموعة لهجات الدلتا، وهي تنقسم بدورها إلى لهجات شرق الدلتا في منطقة الشرقية ولهجات غرب الدلتا، في الكثير من الأحيان تمثل لهجات غرب الدلتا الوصلة بين لهجات مصر ولهجات المغرب العربي، من بين تلك السمات استخدام شكل الفعل المضارع "نكتبو" للمتكلم الجمع.

* لهجة القاهرة

* لهجات مصر الوسطى من الجيزة إلى أسيوط .

* مجموعة لهجات الصعيد. وتنقسم تلك المجموعة بدورها لأربعة أقسام: مجموعة لهجات ما بين أسيوط ونجع حمادي، ومجموعة لهجات ما بين نجع حمادي وقنا، ومجموعة لهجات ما بين قنا والأقصر، وأخيراً مجموعة لهجات ما بين الأقصر وإسنا.

لم تتمتع أي لهجة مصرية بالدراسة المستوفية سوى لهجة القاهرة حتى فترة قريبة، ولكن بالرغم من توفر معلومات كثيرة عن لهجة العاصمة إلا أن أصل تلك اللهجة ومراحلها المبكرة مجهولة لحد كبير لم تزل. وإذا ما قارنا بين لهجة القاهرة الآن

وسماتها المذكورة فى لهجات مصر التى كتبت فى القرن التاسع عشر والنصوص التى سجلت لنا من تلك الفترة فسنلاحظ فروقًا كبيرة؛ ففى لهجة القاهرة فى القرن التاسع عشر سمات ليست موجودة فى لهجة القاهرة المعاصرة كاستخدام سابقة \ان-\قبل الفعل المبنى للمجهول مثل "انضرب" بدلا من السابقة \ات-\المستخدمة حاليًا واستخدام الإمالة فى الوقف واستخدام شكل الفعل "ما شافُهش" بدلاً من "ما شافوهوش" المعاصر. ستلاحظ كذلك فى المقارنة اختلافات معجمية كبيرة نذكر منها مثلا استخدام كلمة "مرة" للتعبير عن السيدة، وهو لفظ كان مستخدماً دون دلالته الحديثة التى تدل على سوء السمعة. هذه السمات التى ذكرناها أمثلة على لهجة القاهرة فى القرن التاسع عشر ماتزال موجودة فى بعض اللهجات الريفية المصرية التى لا تنتمى لنفس المجموعة اللهجاتية.

يجب أن ننظر إلى لهجة القاهرة المعاصرة كلهجة خليط (فويدش ١٩٩٤) كانت بدايتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عندما بدأ زحف الهجرات الريفية على العاصمة، من بين نتائج تلك الهجرة أن مجموعة من سمات لهجة القاهرة قبل الهجرات أصبحت محتقرة ومرفوضة لأنها مماثلة لسمات لهجات الريف الوضيعة التى جلبها المهاجرون معهم. واستمرت عملية تحقير السمات تلك فاعلة فى القرن العشرين، فتجد فى أفلام العشرينيات والثلاثينيات أن أبناء الصفوة يستخدمون سمات يعتقد الناس اليوم أنها سمات لغوية وضيعة، من بين تلك السمات استخدام لاحقة الميم على الفعل الماضى مع ضمير الغائب الجمع مثل "كتبم"، ويمكن أن نجد تلك السمة فى الأحياء الفقيرة فى القاهرة حتى الآن، ولم تؤد عملية الخلط بين اللهجات فى القرن التاسع عشر فقط إلى اختفاء الأشكال الريفية وتحقيرها بل أدت أيضا إلى ظهور أشكال جديدة تماما كنتيجة لعملية التعميم والتحضير كما هى الحال فى اختفاء الإمالة فى الوقف.

وعندما تزايد تأثير وسائل الإعلام انتشرت لهجة القاهرة فى عموم البلاد، ولا يجب أن نتصور أن ارتفاع شأن لهجة العاصمة هذا أمر حادث وحديث، فقد رأينا فى الفصل السابق أن تأثير لهجة القاهرة على خريطة لهجات الدلتا كان محسوساً على طريق التجارة القديم بين القاهرة وميناء دمياط على فرع النيل الشرقى.

يطلق المصريون أنفسهم على كل اللهجات الجنوبية اسم اللهجات الصعيدية ويقابلون بينها وبين لهجة القاهرة الرفيعة، ويكمن أحد الفروق الجوهرية بين المجموعتين في نطق القاف والجيم، ففي لهجة القاهرة تتحول القاف الفصيحة إلى همزة، وتنطق الجيم كصوت انفجاري مجهور، أما صوت القاف الفصيح في لهجات الصعيد فيتحول إلى جيم انفجارية مجهورة بينما تنطق الجيم كصوت احتكاكي مجهور أو تنطق في بعض الأحيان دالاً، ومن بين الفروق بين لهجة القاهرة ولهجات الدلتا من ناحية ولهجات الصعيد من ناحية أخرى فروق وضع النبر على الكلمات. فتجد في لهجة القاهرة والدلتا النبر على المقطع الأخير إذا كان هذا المقطع يحتوى على صوت لين طويل أو ينتهي بصامتين. وعندما يتبع هذا المقطع أكثرُ من صوت لين واحد فإن الصوت الذي يتبع المقطع الثقيل مباشرة هو الذي يتلقى النبر كما هي الحال في كلمة "مَدرَسَة". وعندما لا تحتوي الكلمة على مقطع كالذي وصفته تواً فإن أول صوت لين في الكلمة هو الذي يتلقى النبر كما هي الحال في كلمة "بَرَكَة". يختلف هذا النظام مع نظام نبر اللهجات الواقعة جنوب القاهرة، فتجد صوت اللين الطويل قبل المقطع المنبور مقصراً، يتم تقصير صوت الفتحة الطويلة في "طالب" إذا ما وضعت في شكل المؤنث فتصبح بشكل يشبه "طَلبَة". وكذلك يحذف صوت الضمة والكسرة لو وقعا قبل المقطع المنبور أو بعده، إلا إذا كانت تلك الأصوات في أواخر الكلمات.

تشكل لهجات المناطق الغربية في مصر منطقة التلامس مع لهجات المغرب ليس فقط في منطقة الدلتا بل وفي الواحات الغربية أيضاً، وفي حقيقة الأمر ليست لهجات الفرافرة والبحرية والداخلة والخارجة معروفة بشكل كبير، ولكن بما أنها تعكس بعض سمات العربية الغربية فقد تكهن بعض العلماء بأنها تنتمي لمجموعة اللهجات المغربية بشكل أو بآخر، فتشبه لهجة الفرافرة مثلاً اللهجات المغربية في نطق صوت التاء بسمة احتكاكية، وفي لهجة الفرافرة والبحرية معاً يكون شكل الفعل المضارع المتكلم "نكتب /نكتبو"، وهو الشكل الذي يميز اللهجات المغربية. علاوة على ذلك هناك تشابهات معجمية بين لهجات المغرب ولهجات الفرافرة والبحرية كما هي الحال في الفعل الأجوف "يدير"، ومع ذلك فإن لهجات الواحات الغربية كلها أقرب للهجات وادي النيل – وخاصة لهجات مصر الوسطى- عنها للهجات المغرب، لقد رأينا سابقاً أن بنية هذه اللهجات

الحالية قد نتجت عن الاتصال بين لهجات مختلفة، فقد جاء سكان الواحات أصلاً من وادى النيل. بل إن بعض سمات تلك اللهجات تعتبر سمات قديمة كانت موجودة فى لهجات مصر الوسطى ولكنها سقطت منها بمرور الوقت وبفعل التجديدات اللغوية. ولكن تلك التجديدات اللغوية لم تنتشر لأطراف حدود المجموعة اللهجية فظلت تحتفظ بالسمات القديمة. أما بالنسبة للسمات المغربية فى تلك اللهجات، فيمكن أن تكون قد دخلتها عن طريق غزوات البدو الغربيين المتأخرة، وخاصة هجرات بنى سليم أثناء هجراتهم المضادة ناحية الشرق، وبسبب تلك العملية دخلت اللهجة البربرية واحة سيوه التى تعتبر المكان الوحيد فى مصر الذى يتكلم سكانه البربرية.

هناك مجموعة متنوعة من اللهجات البدوية فى الشرقية وسيناء، وقد أثبتت الدراسات الحديثة (دى يونج ١٩٩٦) أن بعض لهجات شمال سيناء تنتمى لمجموعة لهجات الشرقية بينما تكون لهجات شرق سيناء استمرارا لمجموعة لهجات صحراء النقب البدوية، ولكن المجموعتين كليهما مرتبطتان بلهجات شمال شبه الجزيرة العربية، فمعظم تلك اللهجات قد حلت فى تلك المنطقة فى القرون الأولى بعد الإسلام. بل إن بعض اللهجات العربية قد تكون دخلت مصر قبل الفتح العربى.

بالرغم من الفروق الكبيرة فإن هناك بعض السمات المشتركة التى تميز اللهجات العربية فى مصر عن باقى المجموعات اللهجية، فكل لهجات مصر تحتفظ بأصوات اللين القصيرة الثلاثة الفتحة والضمة والكسرة، وإن كانت الكسرة والضمة تحذفان فى المقاطع المفتوحة غير المنبورة، وفى اللهجات المصرية هناك خمسة أصوات لين طويلة هى: ee oo aa uu ii، ويتم تقصير تلك الأصوات فى المقاطع غير المنبورة، بل وإن لهجة القاهرة تقصر تلك الأصوات فى المقاطع المغلقة المنبورة لو تلاها صامتان كما الحال فى كلمة "عارفة". ولكن المجموعات اللهجية المختلفة تتعامل مع متواليات الصوامت كل بشكل مختلف، فنجد لهجة القاهرة تتعامل مع متوالية الصوامت التى تتكون من ثلاثة صوامت فى وسط الكلمة بإضافة صوت لين إضافى قبل الصامت الثالث كما هى الحال فى عبارة "الصبرِ طيب". وفى الماضى كان صوت اللين الإضافى يتلقى النبر بحسب قواعد النبر فى اللهجة المصرية.

من مميزات اللهجات المصرية واللهجات السودانية المرتبطة بها أيضا مكان أسماء الإشارة وأدوات الاستفهام في الجملة. فأسماء الإشارة للقريب في اللهجات المصرية تنويعات على أسماء الإشارة القاهرية /ده/ أو /دي/ أو /دول/، وهي تكون بعد الاسم المشار إليه كما هي الحال في "الراجل ده" مثلا، أما مكان أدوات الاستفهام في الجملة فهو مكان مثير، فبينما تضع معظم اللهجات العربية أدوات الاستفهام في بداية الجملة، تجد أن اللهجة المصرية تحافظ على أداة الاستفهام في نفس موقع الكلمة المستفهم عنها، كما هي الحال في "شفت مين". وقد حاول علماء كثيرون تبرير تلك السمة بوجود تأثير من اللغة القبطية.

في كل اللهجات المصرية يحمل الفعل المضارع غير المعلم معاني صيغية، ولكن إذا ما دخلت عليه سابقة الجهـــة /بـ/ فإنـه يعبـر عن جهـة الاستمرار أو العــادة، وإذا ما دخلت عليه سابقة /حـ/ فإنه يعبر عن زمن المستقبل النحوي، ويعتبر اسم الفاعل جزءا محوريا من النظام الفعلي في تلك اللهجات، وفي بعض الحالات الفرعية لأفعال الحواس أو الحركة يعبر اسم الفاعل عن جهة الاستمرار كما هي الحال في "شايفه" في مقابل "بأشوفه كل يوم" التي تعبر عن العادة، وفي حالة باقي الأفعال يعبر اسم الفاعل عن نتيجة تمت من فعل ما كما هي الحال في "أنا لسا واكل".

٩- ٥ لهجات المغرب

لا يوجد في أي منطقة أخرى في العالم العربي غير المغرب هذا الفاصل الزمني الكبير بين مرحلتي التعريب، ففي أثناء الفتوح العربية المبكرة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي احتلت جماعات صغيرة من الفاتحين العرب المناطق الحضرية في شمال أفريقيا، واستقر هؤلاء الفاتحون في المدن الكائنة بالفعل في معظم الأحيان. وفي أحيان أخرى استقر العرب في مدن معسكرات حديثة البناء. ومن تلك المراكز الحضرية انتشرت اللهجات العربية الحضرية المبكرة ، ترجع بعض اللهجات العربية اليهودية في شمال إفريقيا كلهجة يهود مدينة تونس ومدينة الجزائر إلى تلك الفترة المبكرة، وفي تلك الحقبة ظلت أغلبية الريف المغربي بربرية في لغتها. وحدثت المرحلة الثانية من التعريب بعد ذلك بقرون عدة في غزوات بني هلال في القرنين العاشر

والحادى عشر الميلاديين، ووصلت العربية فى تلك المرحلة إلى الريف والمناطق البدوية فى عموم شمال أفريقيا بالرغم من أنها لم تستطع أن تزيح اللهجات البربرية تماماً.

تشتمل مجموعة لهجات المغرب على لهجة موريتانيا الحسانية ولهجة المغرب والجزائر وتونس وليبيا، وتشير كتب اللهجات إلى اللهجات التى خرجت من كل مرحلة من مراحل التعريب بلهجات ما قبل الهلالية واللهجات الهلالية، وكل لهجات ما قبل الهلالية لهجات حضرية يتكلمها سكان المدن وسكان المناطق المحيطة بها والتى تعربت فى مرحلة مبكرة كلهجة السهل التونسي والمناطق الواقعة شمال المدن المبكرة كقصنطينة وتلمسان وفاس. هناك مجموعتان تقليديتان تحت مجموعة اللهجات المغربية ما قبل الهلالية:

* لهجات ما قبل الهلالية الشرقية، وهى موجودة فى ليبيا وتونس وشرقى الجزائر، من سمات تلك اللهجات الاحتفاظ بأصوات اللين القصيرة الثلاثة.

* مجموعة لهجات ما قبل الهلالية الغربية، وهى لهجات موجودة فى غربى الجزائر والمغرب، تتميز تلك اللهجات بوجود صوتى لين قصيرين فقط علاوة على وجود أداة تنكير مشتقة من الرقم العربى "واحد"، تجدهم يقولون فى اللهجة المغربية "واحد المرا"، وتستخدم تلك الأداة بصحبة أداة التعريف فى تركيب مواز لاسم الإشارة المتبوع باسم معرف.

تمثل لهجات البدو فى شمال إفريقيا اللهجات الهلالية، وهى بدورها مقسمة للهجات سليم فى الشرق فى ليبيا وجنوبى تونس واللهجات الهلالية الشرقية فى وسط تونس وشرقى الجزائر واللهجات الهلالية الوسطى فى وسط وجنوب الجزائر وخاصة فى مناطق الصحراء الحدودية ولهجات معقل فى غرب الجزائر والمغرب. استقر فرع من معقل فى موريتانيا وهو فرع بنى حسان، ولذلك تسمى اللهجة الموريتانية بالحسانية. ليست اللهجات البدوية مستخدمة فى المناطق الريفية فقط بل ماتزال مستخدمة فى بعض المدن التى تبدوت فى مرحلة متأخرة كمدينة طرابلس.

تعتبر ليبيا منطقة لهجات بدوية لحد كبير، وحتى لهجات المناطق الحضرية كلهجة طرابلس قد أصابها تأثير اللهجات البدوية الملحوظ، ولكن تونس منطقة انتقالية ترتبط

اللهجات البدوية فيها بلهجات ليبيا. أما الجزائر فهي منطقة مختلطة، ففي منطقة قسنطينة هناك لهجات حضرية ولهجات بدوية، وهي متصلة بتونس من ناحية وبالجيروس من ناحية أخرى، والجيروس منطقة بدوية في لهجاتها، ولكنها تحتوي على منطقة لهجاتية حضرية مهمة وهي تلمسان، ويتكلم سكان السهول في المغرب اللهجات البدوية، ويشاركهم في ذلك سكان المدن الحديثة نسبيا كالدار البيضاء، وفيما يخص اللهجات الحضرية فأهم مراكزها الرباط وفاس. وكما رأينا سابقًا فإن اللهجة المستخدمة في موريتانيا لهجة بدوية. وكانت اللهجة المستخدمة في الأندلس الإسلامية أيام الحكم العربية لهجة تنتمي لمجموعة اللهجات المغربية، وكذلك كانت الحال مع لهجة الجيب اللغوي العربي في مالطا.

وقد أثر التجاور الطويل بين العربية والبربرية في شمال أفريقيا حتى الآن على تلك اللهجات تأثيراً ملحوظاً، وقد أثارت مسألة تأثير البربرية على لهجات المغرب مناقشات علمية كثيرة، ولكن الثابت هو وجود قدر كبير من الكلمات البربرية المقترضة في تلك اللهجات، وقد بلغ الاقتراض المعجمي استخدام أوزان اسمية بربرية معينة من أشهرها وزن "تفْعلْت". ويستخدم هذا الوزن للتعبير عن المهن، فتجدهم يقولون مثلا "تخبزت". وقد أخذت اللهجة الحسانية بوجه خاص عدداً كبيراً من الكلمات البربرية، وقد أخذت بعض الكلمات بجموعها البربرية الأصلية كما هي الحال في "أرَجاز" التي تعني "رجُل" وجمعها البربري "أرواجز". وأخذت الحسانية مع الكلمات المقترضة من البربرية سوابق التذكير والتأنيث الخاصة بها.

بالرغم من التنوع اللغوي الكبير في شمال إفريقيا إلا أننا يمكن أن ننظر إليها على أنها منطقة لهجاتية واحدة بسبب السمات المشتركة بين لهجاتها والتي تفصل بينها جميعا وبين باقي لهجات العالم العربي، فهناك سمة صرفية في الفعل ساعدت على تصنيف لهجات المغرب العربي معًا، وهي سمة سابقة النون على الفعل المضارع المتكلم كما هي الحال في "نكتب/نكتبو" في اللهجة المغربية، والخط الفاصل بين اللهجات التي تستخدم سابقة النون في الفعل واللهجات التي لا تستخدمها موجود في منطقة ما في غرب مصر.

كل لهجات المغرب فيما عدا اللهجات الحضرية الشرقية تمتلك نظام أصوات لين بسيط للغاية : صوتي لين قصيرين وثلاثة أصوات لين طويلة هي الواو والياء والمد، وفي أحد اللهجات تنحسر أصوات اللين القصيرة في صوت واحد.

أحد السمات الجذابة في أصوات اللهجات المغربية هي نقل النبر في الكلمات التي على وزن "فَعَلَ" التي تعمل كوظيفة الماضي من ضمن ما تعمل، فإذا ما افترضنا أن النبر الأساسي في الكلمة كان على المقطع قبل الأخير فيمكن أن نعيد بناء تاريخ نظام المقاطع كما يلي: كان النبر الأساسي على المقطع الأول ثم انتقل إلى المقطع الثاني ثم سقط المقطع الأول بسبب انتقال النبر عن صوت اللين القصير فيه فسقط من الكلمة كلية. اللهجة المغربية الوحيدة التي لم تمر بمراحل انتقال النبر تلك هي اللهجة المالطية.

وفيما يخص بنية المقاطع، تأثرت الكثير من اللهجات المغربية بعملية إعادة بناء المقطع المكون من صامت فلين فصامتين، فأصبح هذا المقطع مكونًا من صامتين يليهما متحرك فصامت أخير، بما أن هناك منع في كثير من اللهجات لوجود صوت لين قصير في المقاطع المفتوحة، فعندما يكون هناك مقطع مكون من التركيبة التي ذكرناها توا ومتبوع بنهاية مكونة من صوت لين، يقفز صوت اللين القصير في المقطع من مكانه للوراء خطوة واحدة، وكذلك تعمل قاعدة منع أصوات اللين القصيرة في المقاطع المفتوحة في أشكال جمع المخاطب في الفعل المضارع حيث يصبح الفعل مثل "تكتِبو". ولكن نتيجة تلك القاعدة الصوتية تختلف في لهجات مغربية أخرى، فبعض اللهجات تحذف صوت اللين القصير كلية كما هي الحال في لهجة مسلمي مدينة تونس، أو قد تسفر القاعدة عن تضعيف الصامت الأول في الجذر كما هي الحال في لهجة مسلمي مدينة الجزائر، وقد اختارت لهجات أخرى حلولاً أخرى لتلك القاعدة الصوتية، انظر فيها فيشر وجسترو (١٩٨٠: ٢٥٤-٦).

وحقق نظام اشتقاق الأوزان الفعلية في اللهجات المغربية نمطية ونظامًا أكثر من اللهجات العربية الشرقية، فتجد على سبيل المثال أن أكثر الأوزان الفعلية في اللهجة المغربية هو وزن "فَعَّلَ" و"فاعل" و"افتعل"، ويمكن أن نصطنع من كل الأوزان فعلا مبنيا للمجهول بما في ذلك الجذر، ويكون ذلك باستخدام سابقة التاء المضعفة قبل الفعل كما هي الحال في "تشاف" في اللهجة المغربية، أما المبني للمجهول باستخدام سابقة النون

بدلا من سابقة التاء فهي سمة من سمات اللهجات الشمالية ولهجات يهود المغرب، ولكن في بعض اللهجات هناك تنوع كبير في استخدام سوابق المبني للمجهول، فتجد لهجة سكورة تستخدم سابقة التاء أو سابقة النون أو سابقة تاء نون، مما ينتج تنوعا كبيرا في الأشكال الفعلية، ومن أكثر الأمثلة شيوعا "تكتب" و"تنكتب" اللذان يعنيان نفس الشيء.

مايزال أصل أشكال سوابق المبني للمجهول محل نقاش كبير وجدل بين العلماء، فبما أن تلك السوابق تلحق بجذر الفعل فلابد أنها أشكال لهجاتية جديدة صنعتها اللهجات المغربية على غرار الوزن الفصيح "تَفَعْلَ" في حالة الأشكال التي تبدأ بسابقة التاء ووزن "انفَعَلَ" في حالة سوابق النون، ولكن هناك رأي آخر يقول إن تلك الأشكال تمثل أشكالاً سامية قديمة بما أن الإثيوبية والآرامية فيها أشكال فعلية مسبوقة بالتاء. ويقترح أجوادي (١٩٩٥: ٦٦) أن يكون شكل التاء هذا ناتجًا من تأثير اللهجات البربرية التي تحتوي على سابقة التاء للمبني للمجهول هي الأخرى.

وتحتل اللهجة الحسانية في موريتانيا موقعًا خاصًا بين اللهجات العربية، فهي تحتوي على كل السمات الخاصة باللهجات البدوية، ولكننا في نفس الوقت نجد فيها أنماطا خاصة وفريدة جدا من التجديدات اللغوية. ففي المجال الصوتي نجد أن تلك اللهجة تحتوي على صوت v مجهور يحل محل صوت الفاء العربية، فتجد متكلمي الحسانية يقولون مثلا viil "فيل". أما صوت الفاء العربي المهموس فهو موجود في تلك اللهجة ولكنه مقصور على بيئات صوتية معينة، وهي أن يقع قبل صوت مهموس كـ"فسَدَ" وفي حالة التضعيف وفي أواخر الكلمات. ولكلا الصوتين ألوفون مفخم يظهر في بعض البيئات الصوتية المشروطة، مثلهما في ذلك مثل معظم باقي الفونيمات العربية، وكما كانت الحال في كل اللهجات العربية الأخرى فقد اندمج صوتا الضاد والظاء، ولما كانت اللهجة الحسانية لهجة بدوية فقد كانت نتيجة هذا الدمج صوت يخرج من بين الأسنان، ولكن في بعض الكلمات المعينة يظهر انعكاس لصوت الضاد بشكل جلي كما هي الحال في كلمة "قاضي" وكلمة "رمضان"، ولكن يمكن أن نعتبر هاتين الكلمتين من فعل الاقتراض اللغوي من الفصحى، ولكن هناك بعض الكلمات التي يظهر فيها هذا الانعكاس تبين أصالته، فكلمة vaDl "فضل" تبدو لي مثلا كلمة لهجاتية أصيلة،

وفي تلك الحالة يمكن أن نعتبر أن اللهجة الحسانية هي اللهجة الغربية الوحيدة التي ما تزال تحتوي على بقايا التقسيم القديم بين الضاد والظاء. هناك سمة مثيرة أخرى في اللهجة الحسانية وهي وجود ثلاثة فونيمات حنكية في عدد محدود من كلمات اللهجة وهي صوت نون حنكي وصوت تاء حنكي وصوت دال حنكي، معظم الكلمات التي تظهر فيها تلك الفونيمات كلمات ترجع لأصل بربري، لا يمكن أن نشك في مكانتها الفونيمية ولكن دورها في اللهجة دور محدود للغاية.

[illegible] الموجودة في باقي اللهجات المغربية فهناك وزن يبدأ بسابقة السين كما هي الحال في "سكَتَبَ" التي تعني "استكتب" في الفصحى، وقد يكون تفسير هذه الظاهرة هو أن هذا الوزن ناتج من الوزن العربي "استفعل"، وانتشرت سابقة السين تلك على كل الأوزان. من السمات الغريبة في تلك اللهجة وجود شكل تصغير للفعل يستخدم مع الأسماء الموضوعة في شكل التصغير ذاته.

الفصل العاشر

نشوء الفصحى المعاصرة

١٠ – ١ مقدمة

في عام ١٧٩٨ أدخلت حملة نابوليون بونابرت القصيرة على مصر هذا الإقليم العثماني في حالة اتصال مباشر مع غرب أوروبا، وقد مثل هذا الحدث بداية عصر جديد توغلت فيه الثقافة الأوروبية الفرنسية أولا ثم الإنجليزية في العالم العربي، كانت الحكومة في مصر هي التي تدعم استقبال الأفكار الجديدة، فقد شجع محمد على الذي حكم مصر من عام ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨ ترجمة الكتب والمقالات من الفرنسية، وقد تركزت الترجمة على الكتب التقنية، ولكن كتبا في السياسة والثقافة قد ترجمت أيضاً، بهذه الطريقة أصبحت أفكار التنوير الفرنسي ومفاهيمه جزءا من الحياة العقلية المصرية، فقد أدى دخول الأفكار السياسية الجديدة إلى قيام الحركة القومية العربية التي تركزت حول اللغة العربية كلغة قومية في أواخر القرن التاسع عشر، وفي نفس الوقت أدت المواجهة مع الأفكار الغربية لقيام جدل كبير حول صلاحية هذه الأفكار في ظل التقاليد العربية الإسلامية، ومن الناحية اللغوية أدت تلك المواجهة لقيام جدل حول صلاحية العربية للتعبير عن تلك الأفكار، وسوف نتعامل في هذا الفصل مع موضوعات أربعة هي : وضع اللغة العربية في القرن التاسع عشر، وتطويع معجم العربية للأفكار الجديدة، وإصلاح النحو، وأخيرا التغيرات التي طرأت على بنية اللغة.

١٠ - ٢ إحياء العربية

عندما دخل الفرنسيون مصر كتب الجبرتي (توفي عام ١٨٣٥) شهادة معاصر دراسة تكلم فيها عن الوضع السياسي في أوروبا والعلاقات الدولية فيما بين البلاد الأوروبية. لأول مرة يتحتم شرح أفكار ومؤسسات سياسية غريبة على المنظور الإسلامي بأسلوب مفهوم للقارئ المسلم. وكان المترجمون في القرن التاسع عشر نشطين في الوساطة بين حضارتين بنقل أفكار ثقافة بلغة ثقافة أخرى (أيالون ١٩٨٧). فقد كان – على سبيل المثال – من الصعب أن تجد في اللغة العربية معادلا لفكرة "الحكومة الدستورية" الأوروبية، في بعض الترجمات ظهرت تلك الفكرة على أنها "ملكية مقيدة" نقلا عن المصطلح الفرنسي monarchie limitee ، كذلك كانت فكرة القوانين الوضعية صعبة الفهم أيضا في سياق العالم العربي الثقافي، فلم يكن الشرق الأوسط يعرف سوى القوانين السماوية "الشريعة"، وتردد المترجمون لفترة طويلة في استخدام الفعل "شرع" مع القوانين الغربية الوضعية. ولكن "التشريع" قد أصبح جزءا من تسمية البرلمان في اللغة العربية بحلول نهاية القرن التاسع عشر، وأصبح الدستور هو الكلمة المستخدمة لمفهوم constitution وهي كلمة في أصلها تعني "مجموعة من القواعد"، وبعد ذلك أصبح من السهل استخدام تعبير "الحكومة الدستورية".

وكذلك كان من الصعب التعبير عن فكرة المواطنة في مجتمع يتكون من حاكم ومحكومين / استخدم المترجمون العرب في بداية الأمر كلمة "رعية" للتعبير عن كل من هم تحت الحاكم، ولذلك استخدم العرب مصطلح "حقوق الرعية" للتعبير عن الحقوق المدنية للمواطن، وبسبب الدلالات الكثيرة التي يحملها هذا المصطلح حاولوا أن يستخدموا مصطلح "الشعب" بدلا منه في عبارات مثل "حكم الشعب بالشعب" و"صوت الشعب" ولكن عندما أصبح مفهوم الوطن واضحًا ومفهومًا في القرن العشرين أصبح مصطلح "المواطن" مستخدما بشكل كبير (أيالون ١٩٨٧: ٣٤-٣٥).

وكذلك كانت سمات التمثيل الحكومي في الكثير من البلاد الأوروبية تمثل مشكلة كبيرة للمترجم الذي يحاول أن يشرح نظام المجتمع الأوروبي، واحد من أول المصطلحات التي استخدمت للتعبير عن هذه الفكرة هو "الوكيل" واستخدم في تراكيب من أمثال "وكلاء الرعية" و"مجلس الوكلاء". وفي نهاية القرن التاسع عشر حل مصطلح

"النواب" محل "الوكلاء". وفي بعض الأحيان كان اختيار المصطلح مقصوداً من قبل الحاكم الذي كان يريد أن يستغل غموض المصطلح، عندما دخل مصطلح "الشورى" للتعبير عن المؤسسة النيابية كان لهذا المصطلح مدلولات اعتبارية فقط غير ملزمة، ولذلك كان من السهل على الحاكم أن يقلل من صلاحيات هذه المؤسسة. وكان لمصطلح "الديوان" البديل نفس العيب، أي عيب الدوران في فلك قوة الحاكم، وفي نهاية الأمر أصبح من المفيد أكثر أن يستخدم الناس مصطلح "المجلس" الأكثر غموضا، أو لجأ الناس أحيانا لاستخدام الكلمة المقترضة برلمان للتعبير عن القيمة المعنوية الجديدة لتلك المؤسسة. يبين هذا المثل الأخير عملية اختيار المصطلحات في كليتها، إذ من بين فوضى الكلمات يختار الناس في النهاية الكلمة الأكثر اتساقا مع الحال (رابحان ١٩٨٦).

هناك مشكلة إضافية في مسألة دخول المصطلح السياسي إلى اللغة العربية في القرن التاسع عشر وهي أننا في كثير من الحالات لا نعرف معلومات كثيرة عن الطريق الذي دخلت المصطلحات منه، فقد لعبت الاختراعات المصطلحية التي قدمها الكتاب من بداية القرن التاسع عشر كالجبرتي دوراً مهماً في هذا السياق بالرغم من أنها لم تكن الطريقة الوحيدة لإدخال التجديدات المعجمية، فقد كان المترجمون في بعض الأحيان يرجعون للمصادر العربية قبل العثمانية كما هي الحال في المصطلحات التي استخدمها بن خلدون في مقدمته، وذلك ليأخذوا منها كلمات مثل "الاستبداد" و"الشورى" و"الفتنة"، وقد استبدلت بهذه المصطلحات في مراحل متأخرة كلمات أخرى أقل في دلالاتها الإسلامية، وذلك مثلا عندما استبدلت كلمة "ثورة" بكلمة "فتنة".

وقد دخلت بعض الكلمات التي وردت على العربية عن طريق المرور بمرحلة عثمانية، عندما شكل الشباب العثمانيون أفكارهم الجديدة عن الحكم والبنية السياسية لبلادهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اقترضوا كلمات من اللغة العربية لم يكن لها مدلول سياسي أو لم تكن مستخدمة أو شائعة، وفي مرحلة متأخرة أُعيد تقديم تلك الكلمات للغة العربية بمعانيها الجديدة المكتسبة، من بين تلك المصطلحات مصطلح "حكومة" و"جمهورية"، هناك كلمات اقترضتها اللغة التركية العثمانية ولكنها لم تكن شائعة في العالم العربي، من بين تلك الكلمات كلمة "مبعوث" التي استخدمتها اللغة

التركية في تعبير "هيئة المبعوثين" في عام ١٨٧٦، من بين تلك الكلمات أيضا كلمة "ملة" التي استخدمتها الإدارة العثمانية في القرن التاسع عشر للتعبير عن الأمم الأخرى، ولكن اللغة العربية لم تستخدمها بهذا المعنى قط وأحلت "أمة" محلها.

وهناك فئة أخرى من المصطلحات اخترعت في العالم العربي بشكل مستقل وحادث للتعبير عن أفكار سياسية غربية. في بداية الأمر اقترض العرب المصطلح مع الفكرة كما هي الحال بالنسبة لمصطلح "كميونيزم" و"سوسيالزم"، ولكن سرعان ما حلت معادلات عربية محل المصطلح الأجنبي، الكثير من الكلمات العربية الجديدة التي قدمت في هذا السياق اشتقاقات من جذور كائنة فعلا أو كلمات مصنوعة بالقياس كما هي الحال في كلمة "اشتراكية" التي اشتقت من الجذر "ش-ر-ك" والتي فضلها الناس على "اجتماعية"، من بين الأمثلة الأخرى على تلك العملية كلمة "شيوعية" التي دخلت في القرن العشرين. في أغلب الأحيان يمكن الاستدلال على الأصل الأوروبي للمصطلح من خلال الكلمة العربية. ولكن المعادلات العربية للمصطلحات الغربية جاءت وجاء معها مدلولاتها الخاصة، فتجد أن مصطلح "اشتراكي" مثلا يقترح فكرة المشاركة وهو ما يركز على نقطة واحدة في فكرة الاشتراكية وهي الاشتراك في التحكم في أدوات الإنتاج.

من الطبيعي أن يؤثر هذا الدور الجديد الذي لعبته العربية كوسيط لنقل الفكر السياسي على مكانتها الاجتماعية، خلال قرون الحكم العثماني كانت اللغة التركية لغة الحكم والسلطة في العالم العربي، وبالرغم من أن العربية الفصحى ظلت دائما لغة الدين، وربما لغة الثقافة أيضًا، إلا أنها فقدت مكانتها كلغة الإدارة في تلك الحقبة الطويلة. ولا يعني كون التركية اللغة الرسمية للإمبراطورية أنها كانت لغة مفهومة في كل مكان، ففي العالم العربي لم تكن نسبة من يعرفون التركية تتخطى الواحد بالمائة. ويعني ذلك أنه كان على السلطات في الأقاليم أن تعثر على مترجمين ليسهلوا التواصل مع الشعوب المحلية، أما الوثائق التي كتبت في الأقاليم فمعظمها مكتوبة بالعربية أو بالعربية والتركية معًا.

عندما بدأت الحركة القومية تظهر في أواخر القرن التاسع عشر في العالم العربي، كانت مرتبطة باللغة العربية بشكل كبير- كانت تلك النزعة عامة بغض النظر عما إذا كانت الحركة القومية تطمح للعروبة كلها كما كانت الحال في سوريا، أو القومية المحدودة كما كانت الحال في مصر، لم يجلب هذا الربط بين الهوية العربية واللغة العربية أى تساؤل أو شك بخصوص نمط الإمبراطورية التركية، بل ربما لم تتعد تلك الحركة القومية في مراحلها المبكرة المطالبة بدور أكبر للغة العربية في الإمبراطورية، فقد كانت هناك شكاوى كثيرة في الأقاليم من عدم الفهم بين الشعب والحكام. وكثيرا ما طالبت السلطات المحلية الحكومة المركزية بإرسال من هم على دراية باللغات المحلية، وفي مصر ارتفع استخدام العربية في الشؤون الإدارية باضطراد خلال كل القرن التاسع عشر، وبحلول نهاية القرن كانت معظم المكاتبات الرسمية تكتب بالعربية. ومع ذلك فإن كل المناقشات التي دارت في المجالس النيابية العثمانية حول موقع العربية في الخلافة قوبلت بالاعتراض من قبل هؤلاء الذين كانوا يشعرون أن مكانة التركية كلغة الخلافة الرسمية مهددة. وفي عام ١٩٠٩ تم منع استخدام أي لغة غير التركية في الشؤون القانونية منعاً صريحاً، وفي عام ١٩١٠ تم رفض طلب قدم للمجلس النيابي العثماني لقبول طلبات باللغة العربية.

وطالب المجمع العربي الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ بوجود نسبة من الاستقلال تتمتع بها الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية، وكذلك طالب بوضع العربية في مكانة اللغة الرسمية في مجالس الخلافة النيابية والأقاليم على حد السواء، أما من جهة الحكومة المركزية فقد أدى فقدان المناطق العثمانية في البلقان إلى إحياء الاهتمام بمكانة الأقاليم العربية في الخلافة، ولذلك سمحت الحكومة في عام ١٩١٣ بأن تكتب الطلبات بالعربية في الأقاليم ذات الأغلبية اللغوية العربية وكذلك تم نشر القرارات الرسمية مصحوبة بترجمة عربية، ومن الناحية الرسمية تم قبول العربية كلغة التعليم والشؤون القضائية والقانونية، ولكن تلك السياسة لم تطبق إلا في المناطق المركزية كلبنان وسوريا. لا يجب أن نفسر تلك العلامات على أنها إشارات لبوادر تحد للحكومة المركزية، بل يجب أن ننظر إليها في معظم الأحيان على الأقل على أنها وسيلة من وسائل دعم مكانة الحكومة المركزية وتوثيق الصلات بينها وبين الأقاليم.

كانت ردود أفعال الأقاليم العربية تجاه الأفكار الأوروبية الواردة مختلفة، ففي مصر كان التركيز بعد الحملة الفرنسية على خصوصية المجتمع المصري وتاريخه وثقافاته . بل إن بعض الكتاب بدأوا يكتبون عن الأمة المصرية بأسلوب يتخطى قومية الأمة الإسلامية، وكانت المفاهيم الجوهرية في هذا التطور هي التحديث والإصلاح، بالرغم من عدم وجود برنامج محدد لتلك المفاهيم. ولكن تلك المفاهيم لم تكن لتتخطى حدود الخلافة العثمانية بحال. في بداية الأمر لم يكن رد فعل هؤلاء الكتاب تجاه الثقافة الغربية سلبيا، ولكن بمرور سنوات القرن التاسع عشر وبتزايد السيطرة السياسية الأوروبية على العرب (تونس ١٨٨١ ومصر ١٨٨٢) وتزايد علاقات أوروبا بالأقليات المسيحية تغير هذا التوجه، فقد عارض مفكرون كجمال الدين الأفغاني (١٨٣٩–١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) الاستعمار البريطاني وشددوا على إصلاح الفكر الإسلامي والتعليم، فقد رأى هؤلاء المفكرون أن عملية الإصلاح لا يجب أن تقوم على اقتراض الأفكار من الغرب بكليتها، بل رأوا إحياء القيم الإسلامية القديمة، فقد كان الإسلام دين العقل القادر على التعامل مع العصر الحديث، ولم يكن هناك خوف على الإسلام من الأفكار الغربية المفيدة بسبب فضائله الكبيرة، وكثيرا ما يستخدم مصطلح "النهضة" للتعبير عن روح تلك الفترة التي ظن بعض المفكرين أن الإسلام سينتعش فيها بعد قرون مظلمة من التقليد الأعمى. وفي ظل هذا الفكر أصبح الاتصال بالحضارة والفكر الغربيين مسألة مساعدة لإحياء الفكر العربي الإسلامي.

أما في بلاد الشام فقد ظهر رد فعل للقومية مختلف تمامًا عن رد الفعل المصري، فلم يقطع المسيحيون العرب في بلاد الشام علاقاتهم بالمسيحيين الغربيين قط بشكل كامل، ومن القرن السابع عشر بدأت حركة تبادل كبيرة بين الموارنة العرب والمؤسسات العلمية التي كانت غالبًا مؤسسات دينية في فرنسا وإيطاليا . فلم تواجههم مشكلة التوفيق بين الإسلام والأفكار الغربية، وكان من الممكن لتلك الجماعات المسيحية أن تتبنى الأفكار الأوروبية دون أن يشكل ذلك أي خطر على هويتها؛ ذلك لأن فكرة الخلافة الإسلامية لم تكن فكرة لطيفة للمسيحيين الشرقيين ولذلك كان من الطبيعي بالنسبة لهم أن يؤكدوا على الفصل بين اللغة العربية والإسلام، وبينما كانت الدوائر القومية في مصر تؤكد على دور القومية المصرية وتعمقه فقد كانت القومية السورية مدينة بالكثير للقوميين المسيحيين. ويبرز هذا نكهة القومية الشامية العروبية الشديدة، هذا وقد لعب

المسيحيون اللبنانيون دوراً مهمًا في إحياء الدراسات العربية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ذلك بناء على تصوراتهم للدور الوحدوي للغة وليس الدين ، ومن بين أعلام تلك الحركة ناصيف اليازجي (١٨٠٠– ١٨٧١).

وعقب بداية الحرب العالمية الأولى بدأت صياغة الصراعات السياسية بين الأقاليم والحكومة المركزية في غالبية الأمر على أنها صراعات بين العربي والتركي، ولذلك كان هدف الثورة العربية عام ١٩١٦ هو إقامة مملكة عربية تحمي العرب الذين يتكلمون العربية، ولكن بالرغم من أن المفكرين العرب كانوا مختلفين فيما بينهم بشأن الشكل الذي يجب أن تكون عليه أمتهم المستقبلية إلا أنهم جميعًا اتفقوا على أنها ستكون دولة عربية في لغتها. وبالرغم من المجهودات الكبيرة التي قامت لخلق دولة علمانية في العالم العربي كما فعل أتاتورك في تركيا، فقد ظل الإسلام عامل الإعاقة الوحيد، فقد ظن الكثير من المفكرين أن الإسلام واللغة العربية متلازمان كل التلازم، وعلى ذلك تجد شكيب أرسلان (١٨٩٦–١٩٤٦) مثلاً يقول إن الأمة تعرف بدينها، وبما أن العرب هم قلب الأمة الإسلامية فإن العربية هي اللغة الحقة للإسلام. وعلى ذلك فإنه يلزم كل مسلم أن يتعلم العربية. وكان ساطع الحصري (١٨٨٠– ١٩٦٨) معارضاً لوجهة النظر تلك إذ قال إن اللغة دون غيرها من العوامل هي التي تحدد الأمة وتعرفها . ولذلك فيجب على الأمة العربية أن تعم كل من يتكلم العربية، وقد عارض الحصري في وجهة نظره هذه كلا من القوميين الإسلاميين الذين أرادوا أن يوحدوا جميع المسلمين وأصحاب أفكار الدول القومية كالمصريين الذين كانت أولويتهم الأساسية هي الحصول على كيان دولة كامل لمكان جغرافي معين.

١٠ – ٣ إصلاح المعجم العربي

شهد القرن التاسع عشر ظهور صحافة عربية مكتوبة بالعربية، وبدأت تلك الحركة في سوريا أولاً ثم دخلت مصر بعد ذلك، أول جريدة عربية كانت الوقائع المصرية الحكومية التي ظهرت عام ١٨٢٨ التي أصدرها محمد علي. وقد أدى انغماس المسيحيين العرب في نشر الصحف الخاصة إلى التأكيد على طابعها العربي، وقد أعطت مجهودات الإصلاحيين اللغويين في سوريا كفارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٧)

وبطرس البستانى (١٨١٩-١٨٨٣) دفعة كبيرة إلى عملية تحديث المعجم العربى، فقد نشر بطرس البستانى على سبيل المثال أكبر معجم عربى حديث على نطاق واسع وهو "المحيط" الذى اقترض من المعاجم العربية القديمة ولكنه فى نفس الوقت كان يرمى إلى إدخال كل كلمة عربية جديدة تعبر عن فكرة مستحدثة فى المحيط الثقافى العربى.

ولكن ذلك لا يعنى أن اللغويين العرب كانوا مجمعين على الطريقة المثلى للتعامل مع الأفكار الغربية التى تنهمر كالمطر على اللغة العربية، فكما اختلف المفكرون السياسيون فى أفكارهم عن الإسلام والحضارة الإسلامية وعلاقتها بالثقافة الغربية المسيحية، انقسم المصلحون اللغويون بين من يظن أن معجم العربية كما هو صالح للتعبير عن أى فكرة جديدة وبين من تزعموا الدعوة إلى الاقتراض اللغوى غير المشروط من أوروبا ومراجعة كاملة للمعجم العربى، وكان التوجه الحذر الذى اتخذه المعتدلون مشابها لأفكار بعض المفكرين السياسيين فى تلك الفترة، فقد قالوا إن اللغة العربية فى حد ذاتها لغة كاملة ولكن الناس أنفسهم أفسدوها، وعرضوا أن الشىء الذى هم بحاجة إليه هو العودة إلى العربية الكلاسيكية النقية.

لعبت المجامع اللغوية العربية دورا كبيرا فى عملية تحديث اللغة فى بداية القرن العشرين فقد أنشئ المجمع اللغوى المصرى والسورى على نمط المجامع اللغوية الكبرى فى أوروبا وتقليدا للأكاديمية الفرنسية، وكان الهدف منهما تطبيق الأفكار الموجودة عن موقع اللغة العربية فى العالم الحديث وفى النهضة، وقد عبَّر الملك فيصل أثناء فترة حكمه القصيرة فى سوريا عن قلقه من كفاءة نظام التعليم وعن رغبته فى الحفاظ على التراث الثقافى من خلال المكتبات والمتاحف ومجموعات المخطوطات، وترأس كرد على ديوان المعارف الذى أقيم لهذا الغرض، وكرد على هو الشخص الذى أنشأ المكتبة الظاهرية فى دمشق. وفى عام ١٩١٩ أقيمت مؤسسة لرعاية شؤون اللغة العربية وهى المجمع العلمى العربى، وهو أقدم مجمع لغوى فى العالم العربى. ولكن هذا الاسم قد تغير فى العصر الحالى وأصبح مجمع اللغة العربية بدمشق.

وكان هدف المجمع اللغوى من البداية هدفًا مزدوجًا: الهدف الأول هو الحفاظ على وحدة اللغة العربية وكيانها والحفاظ عليها من التأثيرات الأجنبية والتأثيرات اللهجاتية. وكان الهدف الثانى هو تطويع اللغة العربية لحاجات العصر الحديث ، ويظهر الهدفان

نفسيهما فى اللائحة التأسيسية لمجمع اللغة العربية فى مصر والذى أنشئ تحت اسم مجمع اللغة العربية الملكي، وهو المجمع اللغوى الذى أنشأه الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٢ وفى عام ١٩٥٥ تغير اسم المجمع إلى مجمع اللغة العربية. ومن الناحية العملية كانت وظيفة المجمع اللغوى العربى بالقاهرة الوحيدة منذ عام ١٩٦٠ هى صياغة مصطلحات عربية جديدة وإصلاح النحو العربى والخط العربى، يسمح المجمع بدخول مصطلحات عربية جديدة من خلال عمليات استشارية طويلة ومعقدة، إذ توجد بالمجمع لجان فرعية تختص كل منها بفرع من فروع العلوم، ويكون منوطا بكل لجنة منها صياغة المصطلحات الخاصة بهذا الفرع بعينه، وبعد أن يوافق المجمع بكليته على المصطلحات المقترحة من قبل اللجان فى جمعيته العمومية يقوم بنشر قائمة بها فى مجلته، وعادة ما يؤدى إدخال مصطلح جديد إلى مناقشات مطولة وحامية فى أروقة المجمع، وأحيانًا ما يستغرق الأمر أعوامًا قبل أن يجد مصطلح ما طريقه إلى معاجم المجمع وقوائمه.

أما بالنسبة للمجمع العلمى العراقى الذى أنشئ عام ١٩٧٤ ومجمع اللغة العربية الأردنى الذى أنشئ عام ١٩٧٦ فهما مجمعان حديثان نسبيًا وليست لهما أهمية كبيرة فى تحديث اللغة العربية، ومن الواضح أن المجمع العراقى يركز على تحقيق الكتب العربية القديمة ونشرها فى مساهمة منه لإحياء التراث العربى، أما بالنسبة للمجمع الأردنى فيبدو أنه كرس نفسه لعملية تعريب التعليم فى الأردن. وكانت هناك محاولات متكررة لإنشاء مجمع لغوى عربى شامل لكل بلاد العالم العربى، ولكن المجامع العربية المنفردة تغار على حريتها واستقلالها لدرجة يصعب معها التعاون على مستوى عربى أعلى، ولذلك أصبح المجمع العام فكرة مثالية لم تتحقق بعد.

أكثر المشاكل التى واجهت عملية الإصلاح اللغوى إلحاحًا هى مشكلة توسيع المعجم ، فبالإضافة إلى الصدام الذى وقعت فيه الأقاليم العربية فى القرن التاسع عشر مع الأفكار السياسية الغربية أصبح لزاما على العرب أن يواجهوا عددًا كبيرًا من الأفكار التقنية الغربية وكان لزامًا عليهم أن يخترعوا لها أسماء عربية. تتماثل عملية توسيع المعجم فى هذه الفترة فيما يخص الحقول الدلالية التقنية والسياسية مع عملية توسيع معجمى أخرى مرت بها اللغة العربية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين حيث

كان لزامًا عليها أن تحتوى أنساقًا معجمية جديدة وكبيرة، وكان ذلك عندما تطلبت ترجمة كتب المنطق والطب والفلسفة اليونانية اختراع كلمات جديدة كثيرة.

الفارق الجوهرى بين الفترة الكلاسيكية فى الترجمة فى القرنين الثامن والتاسع والفترة الحديثة هو فارق في درجة الوحدة الداخلية، ففي البداية كان المترجمون فى الفترة الكلاسيكية أحرارًا في صياغة مصطلحاتهم، ولكن عندما أسس المأمون دار الحكمة أصبحت هناك وحدة أكبر في المصطلحات المستخدمة فى العلوم اليونانية كالطب والمنطق والفلسفة، ولكن إذا نظرنا إلى القرن العشرين، ربما أكثر من القرن التاسع عشر، سنجد أن عملية توسيع القاموس العربى كانت تحدث فى أكثر من مكان فى نفس الوقت. نستطيع أن نقول إن المنطقتين المركزيتين فى تلك العملية فى القرن التاسع عشر وهما مصر وسوريا كانتا على اتصال، علاوة على ذلك فإن بعض الرجال الذين كانوا يعملون على تحديث اللغة العربية فى مصر قد جاءوا أصلاً من سوريا، ولكن الحال تغيرت فى القرن العشرين فقد أخذت كل دولة مسلكها الخاص فى عملية تحديث المعجم، بل إن المجامع اللغوية العربية لم تفلح فى توحيد المصطلحات الوطنية المختلفة. هذا وقد شكل الاختلاف في المصطلح فى بعض المجالات العلمية تهديداً حقيقيا للتعاون بين العلماء والباحثين فى مختلف البلاد العربية، يعتبر الطب والفيزياء من بين تلك العلوم، ولكن العالم العربي قد بدأ يحاول أن يجمع قوائم بمصطلحات عربية في بعض العلوم التقنية الأخرى.

يمكن الاعتماد على الطرق التالية فى صياغة كلمات جديدة:

* اقتراض الكلمة الأجنبية
* تضمين الكلمة الأجنبية صوتيًا أو صرفيًا
* توسيع معاني جذر قائم بالقياس
* ترجمة الكلمة الأجنبية
* التوسيع الدلالي لكلمة قائمة

لا تمثل تلك الطرق مراحل متتالية فى صياغة كلمة جديدة، بل هى طرق مختلفة للتعامل مع مفاهيم جديدة تدخل أى حضارة من الحضارات، ومع ذلك فإن هناك نزعة لاتباع تلك الطرق بتوال ، الواحدة تلو الأخرى، تبدأ العملية باقتراض الكلمات الأجنبية بالكلية، ثم يبدأ بعد ذلك تطويعها لبنية اللغة المقترضة، ويعتمد اختيار كلمة جديدة على عوامل كثيرة كطبيعة الفكرة المقترضة والظروف السياسية والثقافية، ويتم تقديم كلمة جديدة فى الغالب فى شكل مقاربة شديدة للكلمة الأجنبية الأصلية، وعادة ما تتم كتابة تلك الكلمات بالحروف اللاتينية فى وسط النص أو يتم صياغتها بحروف عربية وتكتب بين أقواس، وعلى ذلك تجد الآن فى الكتابات العلمية العربية الموجهة للجمهور العادى الكلمة الأجنبية المقترضة فى حروف عربية، وتليها نفس الكلمة بالحروف اللاتينية، وتحدث نفس العملية لحد ما مع أسماء الأعلام.

بالرغم من أن الفترة الكلاسيكية والفترة الراهنة كليهما قد شهدتا وجود مجموعة من الذين يريدون تنقية اللغة العربية من أى كلمة أجنبية، إلا أن أغلب الناس على استعداد لتقبل تلك الكلمات المقترضة بشرط أن يتم تطويعها لبنيات اللغة العربية الصرفية والصوتية، أى لا يجب أن تحتوى الكلمات الجديدة على أصوات أجنبية أو متواليات صوامت غير مسموح بها في نسيج العربية الصوتي. وكانت عملية التعريب تلك ناجحة جدا في العصور القديمة، فقد ظلت الكلمات الأجنبية غير المطوعة للعربية محدودة فى عددها للغاية، أما فى العصر الحديث فقد تبنت المجامع اللغوية العربية سياسة تحديد، إذ لم تسمح بالاقتراض اللغوى إلا فى المجالات العلمية. فقد حلت كلمات عربية محل الكلمات الأجنبية المقترضة فى القرن التاسع عشر للتعبير عن مفاهيم سياسية كما هى الحال فى كلمة "كوميونيزم" التى كانت مستخدمة للتعبير عن "الشيوعية". أما بالنسبة للكلمات الأجنبية التى تتعلق بسياقات علمية صرفة كـ"كلوروفورم" و"هيدروكاربون" مثلاً فقد احتفظت بشكلها الأجنبى.

ودارت المسألة الجدلية الخلافية الحقيقية حول ما إذا كان من المفروض أن تكون الكلمات الأجنبية المقترضة جذورا منتجة لنشتق منها كلمات جديدة، وفى الفصحى الكلاسيكية بمجرد أن تدخل كلمة أجنبية ويتم تطويعها لبنية اللغة فهى كلمة عربية لها نفس سلوك الكلمات العربية الأخرى، أما فى العصر الحديث فقد حاولت المجامع

اللغوية العربية أن تحدد الاشتقاق من الكلمات المقترضة إلا في المجالات العلمية، بالرغم من أن بعض الناس رفضوا عملية الاقتراض تلك على أنها اختراق للغة العربية وفضلوا أن يفصلوا الكلمات المقترضة عن الكلمات العربية رغبة في تحديدها والحد منها، فقد رأى بعضهم الآخر أن عملية تعريب الكلمات المقترضة هو الحل الوحيد للحفاظ على وحدة اللغة العربية، فبمجرد أن يتم تقديم كلمة مقترضة جديدة إلى العربية يسعى العلماء إلى الاشتقاق منها كما هي الحال في "تمغنُط" و"بسترة". ولكن عملية استخدام الكلمات المقترضة كجذور حية للاشتقاق لم تتوقف عند الكلمات العلمية فقط، فلم تتورع اللهجات عن إعادة تحليل الكلمات الأجنبية وتضمينها في معجمها، وكذلك فعل الكتاب إذ لم يترددوا في تضمين مشتقات كلمات أجنبية مقترضة مقبولة في اللغة، لهذه الظاهرة أمثلة كثيرة، في الأفعال هناك "تلفن" و"تلفز"، وفي الأسماء هناك صيغ جموع التكسير "أفلام" و"بنوك". وبالرغم من مقاومة المجامع اللغوية العربية لبعض تلك الاشتقاقات إلا أنها قبلت واستخدمت استخداماً عاماً.

وحتى الذين قبلوا دخول الكلمات المقترضة الأجنبية في اللغة العربية أقروا بأن أفضل الحلول من الناحية النظرية على الأقل هو إحلال كلمة عربية محل كل كلمة مقترضة، تعتبر بنية اللغة عاملاً مهماً في هذا السياق، ففي اللغات الجرمانية تتطلب إمكانية بناء كلمات مركبة أن يخترع المتكلم توليفات جديدة من كلمات موجودة فعلا في اللغة ليعبر بها عن أفكار أو أشياء أجنبية. أما في حالة اللغة العربية فإمكانية استخدام كلمات مركبة إمكانية محدودة للغاية، ولكن العربية في نفس الوقت تمتلك طريقة أخرى لنحت كلمات جديدة، وهي طريقة القياس، والقياس هو تطبيق صيغ صرفية معروفة على مجموعات صوامت أجنبية أو عربية، تستخدم الجذور اللغوية العربية في عملية قياس داخلي لنحت كلمات جديدة عربية في أصلها، أما في حالة الاقتراض فقد سمح المجمع اللغوي المصري، في إطار جهوده لتقنين عملية النحت، باستخدام عدد من الصيغ الصرفية بشكل منتج لنحت كلمات جديدة.

وفي حالات كثيرة يحدد معنى المصطلح الأجنبي المقترض حروف الجذر المختارة، عندما يحدث ذلك فنحن بصدد ما نسميه ترجمة مختارة، ولذلك نجد أن مجموعات الكلمات التي تستخدم كتعبير جامد عادة ما تكون مصنوعة على نمط مثال أجنبي، فنجد مثلا أن التوليفة العربية "قمر صناعي" قد تكون مبنية على مثل فرنسي أو روسي،

وفي الحالات التي لا يكون للمصطلح العربي معادل أجنبي مباشر فإنك يمكن أن تخمن الأصل الفرنسي أو الإنجليزي، كما هي الحال في مصطلحات كرة القدم مثلاً، وتعتبر الترجمات المقترضة مسؤولة عن وجود عدد كبير من التعبيرات الاصطلاحية خاصة في وسائل الإعلام، وبمرور الوقت تصبح تلك التعبيرات الاصطلاحية جزءا من تعبيرات اللغة العربية الأصيلة بحيث لا تعتبر غريبة أو مقترضة. من أكثر الأمثلة على التعبيرات المقترضة وضوحا تعبير "لعب دورا"، وكذلك يعتبر التنوع في استخدام حروف الجر من نتائج الوقوع تحت تأثير التعبيرات الأجنبية كما هي الحال في "التقى مع" مثلاً، وكذلك قد يحدث اختراع معادلات نحوية في اللغة العربية لترجمة تراكيب نحوية أجنبية كما هي الحال في "ما إذا" للتعبير عن الكلمة الإنجليزية whether .

يعتبر التوسيع الدلالي لكلمة قائمة بإعطائها معنى معاصرا من أكثر وسائل توسيع المعجم في اللغة العربية احتراماً- وإن لم تكن أنجحها. فنادراً جداً ما تنجح محاولات إحياء المفردات البدوية القديمة بحثا عن كلمات جديدة لأن تلك الكلمات قد سقطت من الاستخدام وأصبحت غير مألوفة للمتكلم العادي، من بين أمثلة تلك العملية التي نجحت في الاستخدام العام هي كلمة "قطار" التي كانت تعني قديماً "القافلة"، ولكن الكلمة المرتبطة بها وهي "هادية" التي كانت قديماً تعني "الجمل الأول في القافلة" لم تفلح في الدخول إلى اللغة العربية في استخدامها الشائع للتعبير عن عربة الجر الأمامية، واستخدم العرب كلمة "قاطرة" بدلاً منها، وكثيراً ما يكون نجاح الكلمة العائدة من القدم قائما على مجهودات كاتب واحد، انظر مثلا كلمتي "جريدة" التي كانت تعني في القدم "شريحة من سعف النخل تستخدم للكتابة" و"مجلة" التي كانت تعني قديماً "كتابا كبيراً مجمعاً"، فستجد أن الشدياق واليازجي على التوالي هما اللذان قدما هاتين الكلمتين إلى الاستخدام العربي العام، ومع ذلك فإن الكثير من الكلمات التي أحيتها المجامع اللغوية وقدمتها للاستخدام العام لم تنجح لأن الناس كانت تعتبر تلك الكلمات مصطنعة بشكل كبير، من بين أمثلة تلك الكلمات "غماز" التي اقترحتها المجامع اللغوية لتحل محل "الترام"، ولكن كلمة الترام ظلت مستخدمة وشائعة، بينما أهملت الكلمة التي اقترحتها المجامع. هناك مثل آخر على تلك الظاهرة وهو كلمة "إرزيز" التي كانت قديماً تعني "صوت الرعد"، فقد اقترحت المعاجم العربية تلك الكلمة لتحل محل

"التليفون"، ولكن "التليفون" ظلت كلمة مستخدمة وشائعة بالرغم من أن كلمة "هاتف" التي كانت قديما تعني "المنادي غير المرئي" تكتسب الآن شيوعًا وانتشارًا كبيرين.

بالرغم من كفاءة الصيغ الاسمية والفعلية العربية في إنتاج كلمات جديدة فقد ظل صناع المعاجم يبحثون عن وسائل جديدة لتوسيع المعجم، ففي معظم اللغات الأوروبية يقدم استخدام السوابق واللواحق اليونانية واللاتينية وسيلة جيدة لتوسيع المعجم العلمي، وهي خاصية غائبة عن النظام الاشتقاقي العربي، ظهرت من مرحلة مبكرة توليفات تستخدم أدوات النفي "لا" و"غير" لصياغة معادلات عربية للمصطلحات اليونانية التي تبدأ بسابقة a وقد أصبحت تلك الوسيلة في العصر الحديث نموذجًا لإدخال السوابق على المعجم العربي، وكانت تلك العملية مقصورة في بداية الأمر على الكلمات المنفية مثل "لانهائي" و"لاأدرية". ومن بين الأمثلة التي تستخدم سابقة غير "غير شرعي". وفي مرحلة متأخرة بدأ استخدام حروف جر أخرى في نفس الوظيفة كما هي الحال في كلمة شبه" في "شبه جزيرة" و"شبه رسمي" وفي حالة كلمة "قبل" في "قبل التاريخ"، تتصرف تلك الكلمات من الناحية الصرفية ككلمات مركبة، فنستطيع أن نشتق من كلمة "لانهائي" الاسم "لانهائية" بحيث تسبق أداة التعريف المركب كله.

وفي الفصحى الكلاسيكية كانت هناك إمكانية محدودة لنحت الكلمات من توليف أكثر من كلمة، وكان ذلك عادة يحدث لاشتقاق أفعال من مركبات اسمية مثل "بسمل" من "بسم الله" و"حمدلة" من "الحمد لله"، وفي العصر الحديث استخدمت تلك الطريقة بنجاح وشعبية شديدين لصياغة كلمات جديدة في المعجم العلمي لدرجة أن المجمع اللغوي بالقاهرة وجد نفسه مضطرًا للسماح بذلك في عام ١٩٥٢، ولكن تشريع المجمع كان يقصر تلك الطريقة على المعجم العلمي فقط، وكان يجب على المصطلحات الناتجة أن تكون واضحة، ومن الكلمات التي قابلت تلك الشروط "فحمائيات" التي نحتت من "فحم" و"ماء" للتعبير عن carbohydrates. وكذلك سمح المجمع بكلمات من أمثال "كهروكيميائي" و"كهرومغناطيسي"، وسمح أيضًا بكلمات تبدأ بسابقة "شبه".

ولكن توجه المجمع اللغوي المصري تجاه الأسماء المركبة على وجه العموم كان توجهًا محافظًا، وكان يرفض معظم الاقتراحات على أنها منافية لروح اللغة العربية، فقد رفض المجمع كلمات من أمثال "أربرجل" و"قتجرة" على هذا الأساس، وقد رفض

المجمع كلمات أخرى بسبب أنها ليست واضحة تماماً، ولكن الأسماء المركبة من صفات أصبحت شائعة نسبيًا كما هي الحال في "شرق أوسطي" و"رأسمالي" و"فوق البنفسجي" و"تحت الأحمر".

من العادي أن تستخدم كل طرق صياغة الكلمات الجديدة في نفس الوقت في داخل حقل دلالي واحد بالرغم من وجود نزعة للسير في مراحل معينة، من الممكن أن نمثل على تزامن وجود طرق مختلفة لصياغة الكلمات والمصطلحات بكلمات من الحقبة الحديثة. فستجد مثلاً أن كل الكلمات الأجنبية في مصطلحات كرة القدم قد تم تغييرها بكلمات عربية. فستجد مثالا على التوسيع الدلالي في كلمة "ضربة" التي تحل محل الكلمة الإنجليزية kick ، وستجد مثالاً على التماثل الجزئي في تعبير "مراقب الخطوط" التي حلت محل linesman، وستجد مثالاً على التماثل المركب في "ضربة حرة" التي حلت محل free kick وكذلك ستجد مثالاً واضحًا على التوسعة الدلالية في كلمة "تسلل" التي حلت محل offside .

تبين تلك الأمثلة أيضًا أنه من الصعب تصنيف أي مصطلح على أنه ناتج عن عملية ما بعينها، فكلمة "مرمى" قد تكون مثالاً على التوسع الدلالي لكلمة موجودة أصلاً بمعنى "الهدف" وقد تكون ناتجة عن عملية اختراع أصيل.

أما في مجال مصطلحات الحاسب الآلي فهناك نزاع ما بين الرغبة في مجاراة العصر والظهور بمظهر الثقافة الرفيعة من ناحية والنقاء اللغوي التي تحل كلمة عربية مخترعة مكان المصطلح الإنجليزي الأصلي من ناحية أخرى، من الواضح الآن أن كلمة "الكمبيوتر" هي الكلمة الشائعة والأكثر استخداماً ولكن كلمة "الحاسوب" تكتسب أرضاً جديدة كل يوم ويبدو لي أنها ستفوز في نهاية الأمر، وقد أصبحت بعض مصطلحات الكمبيوتر العربية شائعة ومستخدمة فعلاً كما هي الحال في كلمة "شاشة" و"بنك المعلومات".

وفي نهاية الأمر يقدم لنا مثل مصطلحات علم اللغة الحديث في العربية دليلاً عملياً على الفرق بين نزعة النقاء اللغوي عند المجامع اللغوية وتوجه اللغويين المحدثين، فلا يوجد إجماع على معنى كلمة linguistics في حد ذاتها. ففي المشرق العربي يبدو

أن مصطلح "علم اللغة" مصطلح مقبول ولكن لغويي المغرب يرفضون هذه الكلمة العربية ذات الدلولات القديمة ويستخدمون "ألسنية" أو "اللسانيات" بدلاً منه. وكذلك فإن المعادل العربي الرسمي لفكرتين مهمتين في علم اللغة وهما morpheme و phoneme ما هما إلا تعبيران شارحان هما "عنصر دال" و"وحدة صوتية" على التوالي، ولكن معظم اللغويين يستخدمون الكلمة الإنجليزية بالحرف العربي بكل بساطة فيكتبون "مورفيم" و"فونيم". ولكن أحد اللغويين (المسدى ١٩٨٤) اخترع كلمتين مختلفتين تماماً وهما "صيغام" و"صوتام" على التوالي.

١٠ – ٤ الفصحى في العالم المعاصر

يعتبر كل من نحت الكلمات الجديدة والاختلافات اللغوية الإقليمية عاملين أسهما في تعديل العربية الفصحى الكلاسيكية وتغييرها لدرجة أنها لم تعد مماثلة للفصحى المعاصرة. من الناحية الأيديولوجية مايزال الناس يعتبرون الفصحى المعاصرة مطابقة لفصحى التراث الكلاسيكية التي نزل بها القرآن، ولكن بالممارسة والسماع تستطيع أن تكتشف أن هناك فروقا بين النمطين، وليست كل الفروق معجمية بطبيعة الحال، يرجع ذلك إلى أن الكثير من خصوصيات الفصحى الكلاسيكية قد تقادمت، وعلى ذلك فإنه من النادر على سبيل المثال أن تجد في نص حديث تراكيب مصدرية معقدة كالتي تجدها منتشرة في الفصحى الكلاسيكية، وعلاوة على ذلك فقد تقادمت بعض التصنيفات الصرفية. ومن ناحية أخرى طورت الفصحى المعاصرة أساليب نحوية جديدة، وخاصة في لغة الإعلام التي تأثرت باللغات الأوروبية كثيراً، ومن أهم السمات المميزة لتلك اللغة استخدام الكثير من التراكيب الفعلية المسبوقة بالفعل "قام بـ" كبديل للفعل المبني للمعلوم، فتجد لغة الإعلام تستخدم "قام بزيارة" بدلاً من "زار"، وتستخدم تلك اللغة الفعل "تم" في الفعل المبني للمجهول، فتجد مثلا "تم توقيع الاتفاقية" بدلاً من الفعل المبني للمجهول المتعارف عليه في الفصحى الكلاسيكية. ومن بين السمات المميزة لعربية وسائل الإعلام الاستخدام المحدود لفاء السببية واستخدام تعبيرات مثل "كل من" و"وذلك" بكثرة.

أما فيما يتعلق بالنثر الفني فإن الفروق بين الفصحى الكلاسيكية والفصحى المعاصرة ليست بنفس الحدة التي وصفناها، لأن الكتاب يتزعون لترقية أسلوبهم للنمط الكلاسيكي في كل من النحو واختيار المعجم، ومع ذلك فإنه في بعض الحالات يكاد استخدام العاميات يخلق فارقًا كبيرًا بين الفصحى المعاصرة والفصحى الكلاسيكية، وتعتبر تلك الحالة واضحة جداً في الأدب المصري، علاوة على ذلك فإن اختيار الأساليب النوتية والعاميات يمثل اختلافا آخر بين عربية البلاد العربية بعضها مع البعض الآخر، ولكن التنوع المعجمي هو المسؤول أكثر من غيره عن الاختلاف بين العرب في تحقيق الفصحى المعاصرة، بالرغم من أن الناس تعتبر اللغة العربية الفصحى أقوى رموز الوحدة العربية وبالرغم من الدور التوحيدي الذي تلعبه المعاجم العربية إلا أن المرء سرعان ما يميز بين نص مغربي وآخر مصري أو خليجي، وقد يكمن جزء من السبب في هذا التنوع هو اختلاف الطرق المحلية في صياغة المفردات الجديدة. وقد يكمن جزء من السبب أيضًا في التاريخ الاستعماري لتلك الأقاليم العربية المختلف. ففي شمال أفريقيا مثلاً هناك نزعة إلى النظر إلى المثل الفرنسي وصياغة النصوص على شاكلته، وتمتد تلك النزعة للمسائل النحوية والأسلوبية في النص حيث يقتبس الكتاب المثل الفرنسي بكليته، فتجدهم في المغرب العربي مثلا يستخدمون كلمة مثل "الوزير الأول" للتعبير عن المصطلح العربي العادي "رئيس الوزراء"، وهو تعبير محاك للتعبير الفرنسي، بل هو ترجمة له، وتنطبق نفس الفكرة على كلمة "حقوق" التي هي ترجمة للكلمة الفرنسية droits من التعبيرات الأسلوبية التي اقتبسها كتاب المغرب العربي عن الفرنسية مثلاً استخدام "وضع في الاستخدام" التي هي من التعبير الفرنسي mattre en usage وفي بعض الأحيان الأخرى لم يكن مصدر التراكيب المغربية فرنسيا بشكل مباشر بالرغم من أن تلك التراكيب تختلف عن تراكيب المشرق العربي، ومن بين أوضح أمثلة تلك التراكيب استخدام الفعل "وقع" في تعبيرات مثل "وقع نشر البيان". وفي حالة هذا المثل تجد أن الكتاب في المشرق العربي يستخدمون إما "جرى" أو "تم" بدلا من "وقع". وفي البلاد العربية التي لم تشهد استعماراً فرنسياً في الماضي، تحل الإنجليزية محل الفرنسية كنموذج. ففي مصر على سبيل المثال كانت فرنسا واللغة الفرنسية هما نموذج كل محاولات التحديث في القرن التاسع عشر ولكن بريطانيا احتلت هذا الدور بعد الحرب العالمية الأولى.

علاوة على ذلك كله أدت إعادة تقديم اللغة العربية في السياق اللغوى كلغة رسمية إلى سؤال آخر عن ماهية دور العربية فى التعليم، وكان هناك مصدر دائم للقلق بسبب مستوى تعليم اللغة المتدهور، وقامت دعوة جديدة من نهاية القرن التاسع عشر تدعو إلى تبسيط النحو العربي، وفى هذا السياق ادعى بعض الباحثين أن اللغة العربية فى حالتها تلك مناسبة بشكل كامل لحاجات العصر الحديث أتم المناسبة إن هى نقيت من الفساد الذى لحق بها. وكان هذا الفريق من المفكرين يتصور أن السبب الوحيد الذى يمنع المجتمع من أن يستخدم اللغة العربية فى كل وظائفه فشل نظام التعليم القائم في الوصول إلى شرائح كبيرة من السكان، بالطبع كانت هناك مشكلة إدارية فى عملية التعليم تلك سببها نقص عدد المدارس والمدرسين، ولكن معظم الخبراء إتفقوا على أن هذا السبب وحده ليس كافيا ليبرر فشل تعليم العربية الفصحى للطلاب الذين التحقوا فعلا بالمدارس. فحتى فى عصرنا الحالى يصعب أن تجد خريج جامعة يستطيع أن يكتب جملة عربية فصيحة دون خطأ لغوى، ناهيك عن الكلام بالفصحى. وقد سبب هذا الفشل وجود كراهية عامة للنحو حتى فى أوساط الذين يدعون لاستخدام الفصحى.

أهم فكرتين فى الجدل الذى دار فى موضوع الفصحى والتعليم هما "تبسيط النحو" و"تبسيط اللغة"، ولكن الفصل بين الفكرتين ليس محددا أو منفصلا بشكل واضح ، وقد تم فى الخمسينيات إعادة اكتشاف نص نحوى أشعل جذوة الاهتمام بمسألة تدريس النحو من جديد، كان ابن مضاء (توفى عام ٥٩٢ هجريًا) نحويًا عربيًا من قرطبة كتب يفند طرق النحاة، ووضع أفكاره فى كتاب سماه "فى الرد على النحاة". واقترح ابن مضاء فى كتابه هذا محو مفهومين أساسيين من النحو العربى وهما مفهوم العمل ومفهوم القياس. كان الباحث المصرى شوقى ضيف من بين من شغلوا أنفسهم بدراسة هذا النص، وخلص إلى أن هذا الكتاب هو حل مشكلة تدريس النحو العربى، وأضاف أن إلغاء العمل والقياس من النحو العربى سيجعله أكثر سهولة فى التعليم. ولكن المناقشات النظرية بين النحويين المحدثين (والتى تسرب قسم منها لكتب تعليم النحو) فشلت فى تعميق فهم الناس للغة العربية بالرغم من أنها قد تكون أسهمت فى المناقشات التى دارت بين المتخصصين، وفى واقع الأمر يصعب أن نعتبر فكرته فى إلغاء الجملة الفعلية والجملة الاسمية واستخدام المفاهيم الغربية محلها تجديدا فى

النحو، وكذلك قامت اقتراحات أخرى ولكنها بدورها كانت اقتراحات على مستوى المصطلح فقط. فقد كانت تلك الاقتراحات تتعلق بإضافة مصطلح جديد وهو "التكملة" وتغيير فكرة "المضاف والمضاف إليه" بفكرة "المجرور بالإضافة"، ولكن نجاح تلك المحاولات كان محدوداً جداً.

وقد اهتم باحثون آخرون بعملية تبسيط اللغة نفسها، ولكن تلك المحاولات في غالب الأحيان لم تنتج سوى أحلام بالتغيير ورجاء يوجه للمختصين دون تقديم اقتراحات مفصلة عن العناصر النحوية أو الصرفية التي يود أصحاب تلك الاقتراحات إلغاءها، فقد اقترح بعض الباحثين إلغاء علامات الإعراب دون المساس بنظام التصريف الإعرابي نفسه طالما مازال المتكلم مضطراً لاختيار ما بين صيغة جمع مذكر سالم مرفوعة بالواو وأخرى مجرورة أو منصوبة بالياء، واقترح باحثون آخرون تبسيط القواعد النحوية الخاصة بالأعداد، واقترحوا إلغاءها واستبدال قواعد الأعداد الموجودة في اللهجات بها، وقامت اقتراحات أكثر ثورية وتطرفاً مثل اقتراحات أنيس فريحة وجرجس الخوري التي تقتضي إلغاء ضمير المؤنث الجمع واستخدام جمع المذكر بدلاً من جمع المؤنث في الأسماء والأفعال. وبما أن أيا من هذه الاقتراحات لم يتم إدراجه في إطار تعليمي تربوي منظم فقد ظلت مجرد اقتراحات بلا تنفيذ عملي. ولكنك عموماً لا تجد الآن الكثير ممن يؤيدون فكرة "اللغة الميسرة تلك".

وظلت المناقشات والمداولات التي قامت بخصوص تبسيط اللغة عقيمة حتى عندما دخلت في نطاق المجال الاجتماعي اللغوي، ففي مصر على وجه الخصوص أصبح هناك اعتقاد شائع بأنه بين الفصحى والعامية هناك مستوى متوسط جرت العادة على تسميته "اللغة المتوسطة" أو "لغة المثقفين"، واعتقد الكثير من الباحثين أن هذا المستوى اللغوي كفيل بأن يملأ الهوة بين الفصحى المصطنعة والمستوى المتدني من الخط اللغوي- العامية. وأفضل ما يمكن أن نقوله عن مثل هذا التوجه الاجتماعي اللغوي أنه يضع الفصحى المبسطة التي يتكلمها الكثير من المثقفين المصريين في إطار من المشروعية. فالمثقف المصري، أكثر من أي متكلم آخر في أي بلد عربي، يهمل معظم علامات الإعراب ويستخدم الكثير من التعبيرات العامية بحرية تامة.

النزعة الكائنة في الكتابة العربية على وجه العموم تميل إلى التوجه ناحية تقنين أكثر حدة لمستوى اللغة وليس التوجه إلى المرونة في تطبيق القواعد. ولكننا يجب أن نفصل هنا بين ممارسة الكتابة في مصر وبلاد الشام من ناحية والمغرب العربي من ناحية أخرى، أما فيما يخص المغرب العربي فأكثر المشاكل إلحاحا بعد مرحلة الاستقلال هي كيفية إحلال العربية محل اللغة الفرنسية التي كانت مهيمنة، ليس فقط في التعليم بل في كل مستويات الحياة الاجتماعية، ولذلك لم تكن مسألة تبسيط الفصحى مهمة أو ذات بال في ظل هذه الحال، فلما كان على العربية والفرنسية أن يتنافسا على مكانة اللغة الرفيعة فإنه من الخطأ، في عين الكثير من المصلحين اللغويين، أن يتم تحقير الفصحى الكلاسيكية باستخدام العامية أو إلغاء بعض قواعد الفصحى. ولذلك تتركز مناقشات موضوع التعريب في شمال أفريقيا على إدخال العربية لمجالات كانت الفرنسية هي اللغة المسيطرة فيها، ولكن التعريب في باقي بلاد العالم العربي الأخرى يعني تقديم معادلات عربية تحل محل المصطلحات الأجنبية وخاصة في العلوم.

في العصر الحاضر قامت مجموعة من المشاريع التعليمية التي ترمي إلى بناء قائمة بالمفردات الأساسية التي يجب أن تستخدم في المدارس الابتدائية وتأليف كتب نحو تعليمية تحتوي على أكثر القواعد شيوعاً في الفصحى، ولكن ليس من الواضح أن قوائم المفردات الأساسية التي ظهرت في تونس ولبنان قد أثرت كثيراً على كتب التعليم في أي بلد عربي، ولكن هناك مشروعا تعليميا واحدا قام من البداية على مفهوم تعليمي لغوي واضح وهو مشروع "افتح يا سمسم" الذي هو تقليد لبرنامج الأطفال الأمريكي المعروف باسم Sesame Street في المذكرة التي أعدها صناع هذا البرنامج ميزوا ثلاثة تصنيفات من الظواهر اللغوية في الفصحى هي: السمات الفصيحة الأساسية التي يجب أن توضع بالرغم من اختفائها من العاميات كعلامات الإعراب، وسمات يجب استخدامها مثل الأفعال المبنية للمجهول، والسمات التي يجب تجاهلها تماماً كحرف الجر الكاف وسوى. من الواضح أن حلقات البرنامج قد اتبعت تلك القواعد بحذافيرها، علاوة على ذلك فإن الممثلين بمن فيهم الأطفال الذين يتحملون عبئاً كبيراً في فكرة البرنامج لا يكادون يرتكبون أي أخطاء في أدائهم للفصحى، وعلاوة على ذلك تجد أن تداخل عناصر العامية في فصحى البرنامج محدودة جدا، ومع ذلك تجد أن البرنامج

يحافظ على قدر لا بأس به من الحيوية التى يحققها الممثلون من خلال تلاعبهم بنغمات الصوت وليس بإدخال سمات معجمية أو قواعد عامية على الحوار الفصيح.

يثبت برنامج "افتح يا سمسم" أنه فعلاً من الممكن أن تجد نمطا مبسطا من الفصحى المعاصرة، نعترف أن البرنامج كان محل نقد شديد فى بعض البلاد العربية، وخاصة فى مصر، بدعوى أنه يحتوى على قدر كبير جداً من السمات العامية، ولكنك لو أمعنت النظر فى البرنامج فستكتشف أن هذا النقد منحاز وغير دقيق، ذلك لأن اختيار أى كلمة فى محيط عربى شامل واسع لن يرضى جميع الأطراف والمشارب وخاصة فى برنامج يتم عرضه فى عموم العالم العربى، ولكن المستقبل وحده كفيل بأن يقرر ما إذا كانت فكرة تقديم نمط مبسط من الفصحى سيكتب لها الاستمرار أم لا.

الفصل الحادي عشر

الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوى

١١ - ١ طبيعة الازدواجية اللغوية

يبدو أن عملية الاختيار بين نمط الفصحى والعامية فى اللغة العربية المكتوبة اختيار بسيط وواضح، فالفصحى هى النمط الذى يستخدمه العرب فى الكتابة عادة، وحتى فى مثل هذا السياق قد تظهر مشكلة في اختيار النمط، فالكثير من الناس لا يملكون ناصية الفصحى بشكل كامل، ويعتبر النموذج الفصيح هو هدف كتابة مثل هؤلاء الناس بالرغم من معرفتهم الضعيفة بهذا النموذج، ولذلك تجدهم يرتكبون أخطاءً لغوية كثيرة حال استخدام هذا النموذج في الكتابة. وتنتج تلك المشكلة ما نسميه بنصوص العربية الوسيطة التى تكلمنا عنها سابقًا. هناك مشكلة أخرى قد تظهر عندما يحاول أحد الكتاب لسبب أيديولوجي أو أدبي أن يكتب نصه بطريقة مقاربة للعامية. وحتى هؤلاء الكتاب يخلطون عناصر من الفصحى في نصوصهم التى يحاولون أن يكتبوها بالعامية.

يعتبر الموقف فى اللهجات العربية أكثر تعقيداً، يعتبر المثل الافتراضى لفرنسا الحديثة أفضل معادل لحالة العالم المتكلم بالعربية وفى تلك الفرنسا الافتراضية تصدر كل الصحف السيارة باللغة اللاتينية ويتكلم نواب البرلمان تحت القبة باللاتينية ويتكلم الكهنة فى الكنائس باللاتينية فقط، ولكن الناس عندما يتكلمون فى المقاهى يستخدمون الفرنسية التى نعرفها، وهى نفس اللغة التى يتكلمها الناس فى البيت ومع أصدقائهم، وفى المدارس تكون اللاتينية هى لغة التعليم داخل الفصل بينما يستخدم المدرسون

والطلاب الفرنسيين فيما بينهم في الفسح وبعد اليوم الدراسي. نعرف بطبيعة الحال أن هذا الوضع ليس الوضع القائم في فرنسا، ولكن الأحوال كانت من الممكن أن تختلف عن حالتها الكائنة فعلاً لو لم تتغير اللغة الرسمية من اللاتينية إلى الفرنسية الدارجة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

أما في العالم العربي فالحال القائمة فعلا تشبه تلك الحال الافتراضية التي وصفناها توًا، تستطيع لأول وهلة أن تميز بين نمطين من أنماط العربية، هما الفصحى والعامية (التي يسميها الناس في شمال إفريقيا "الدارجة"). تختص الأولى بالوظائف الكتابية بينما تختص الثانية بالوظائف الشفاهية الكلامية. تمثل العامية في هذا الوضع اللغة الأم لكل المتكلمين، بينما يتعلم الناس الفصحى عندما يدخلون المدرسة. في عام ١٩٣٠ أطلق وليام ماركيز اسم "الازدواجية اللغوية" diglossia على هذه الحال، وهو مصطلح اقترضه من التسمية التي أطلقت على الحالة اللغوية في اليونان، وقد أثبت أن هذا المصطلح دقيق في وصفه خاصة عندما نشر فيرجسون (١٩٥٩) مقاله العمدة "الازدواجية اللغوية"، وقارن فيرجسون في هذا المقال بين الحالة اللغوية في العالم العربي وفي اليونان وفي هيتي والقسم الألماني من سويسرا، وخلص إلى أنه في المناطق اللهجية الأربعة هناك توزيع وظيفي لنمطي الفصحى والعامية، وهما نمطان ينتميان للغة واحدة، وأطلق فيرجسون على النمط الفصيح اسم النمط العالي وأطلق على العامية اسم النمط الدوني.

يعكس مصطلحا الدونية والعالية موقع كل من النمطين في الجماعة اللغوية، فالنمط الدوني ليس عمومًا محل احترام كبير في هذه الجماعة، وعادة ما تشير التسمية التي يطلقها الناس على هذا النمط إلى هذا الموقع. علاوة على التسمية، قد ينعت الناس هذا النمط الدوني بنعوت تحقيرية مثل "السوقية" و"المحرفة"، وعلى الجانب الآخر فإن النمط العالي نمط محترم ورفيع، فهي لغة التراث الثقافي والديني، بل وفي بعض الأحيان تجد أن أبناء اللغة ينكرون وجود النمط الدوني ويدعون أنهم يتكلمون النمط العالي، ولكن العامية في حقيقة الأمر هي اللغة الأم لكل الناس بينما لا يستخدم الناس الفصحى إلا في مواقف معينة.

وعدل الباحثون الإطار النظري الذي صاغه فرجسون للوضع اللغوى في العالم العربي في ثلاث نقاط أساسية : أولاً، قصرت فكرة فرجسون الازدواجية اللغوية على الحالات التي يكون للأنماط الدونية فيها علاقة جينية بالأنماط العالية، ولكن الدراسات التالية ألغت هذا القصر، فأصبحت فكرة الازدواجية اللغوية تشمل التوزيع الوظيفي لأنماط لغوية، ليس من المهم أن تكون لهجات من لغة واحدة أو لغات مختلفة، فليس التوزيع الوظيفي الكائن في العالم العربي إلا نمط خاص من الازدواجية اللغوية التي هي تعبير عن التنوع الاجتماعي اللغوى القائم في كل الجماعات اللغوية.

ثانيًا، لا يعني وجود توزيع وظيفي بين الأنماط اللغوية أن كل المتكلمين يمتلكون نفس الكفاءة في استخدام النمطين كليهما، ففي حالات قصوى تجد أن معظم المتكلمين يمتلكون ناصية نمط واحد فقط، وهو النمط العامي الدوني، بينما تستخدم أقلية من الصفوة نمطًا أسلوبيًا خاصة من لغة الثقافة، وغالبا ما يكون هذا النمط نمطًا وافدًا، يوجد مثل على تلك الحالة في العالم العربي وهو مثل الجزائر قبل الاستقلال، فقد كانت أغلبية الشعب الجزائري لا تعرف إلا العربية، وكان البعض من أبناء الشعب يتكلمون فرنسية ركيكة، ولكن جماعة صغيرة من المثقفين تربت على النمط الفرنسي ولم تكن تعرف سواه، تلك الجماعة فقدت قدرتها على الكلام بالعربية كلية. واقترح بعض العلماء- من بينهم فشمان (١٩٦٧ و ١٩٧٢ وجمبرز ١٩٦٢)- أن يفصلوا بين التوجه الاجتماعي اللغوى والتوجه النفسي اللغوى، ويستخدم هؤلاء العلماء مصطلح الازدواجية اللغوية في الجانب الاجتماعي اللغوى المؤثر في التوزيع الوظيفي للأنماط اللغوية فقط. أما فيما يخص الجانب النفسي اللغوى لتمكن المتكلم من نمطين لغويين في آن واحد فقد استخدمت تلك المجموعة من العلماء مصطلح "التعدد اللغوى"، وفي المجتمعات التي تحتوي على ازدواجية لغوية وتعدد لغوى معا هناك توزيع وظيفي محدد جدا للحقول التعبيرية على أكثر من نمط لغوى يعرفها أبناء الجماعة اللغوية المعنية.

يختص التعديل الثالث للإطار النظرى الذي اقترحه فرجسون بالتمييز بين نمطين لغويين منفصلين ؛ في تصنيف فرجسون هناك علاقة تخارجية بين كل من النمطين اللغويين المشتركين في علاقة الازدواجية اللغوية، وعلى المتكلم أن يختار نمطا من

النمطين دون الآخر في عملية تحويل شفرة لغوية، وفي حقيقة الأمر لا ينزع المتكلم لاستخدام نمط دون الآخر، بل ينتقل بين أنماط لغوية على خط من تلك الأنماط لا يمثل فيه النمط العالي والنمط الدوني إلي طرفي النقيض فقط، في مثل تلك الحالات لا تعتبر عملية تغيير الشفرة اللغوية عملية اختيار نمط بعينه، ولكن المتكلم يضع ملفوظه على خط من التنويعات اللغوية، وفي تلك العملية تلعب العوامل غير اللغوية دوراً كبيراً في اختيار موقع الملفوظ على خط التنويعات هذا، من البديهي أن نتصور أن اتساع خط التنويعات هذا يختلف من شخص لآخر بحسب كفاءتهم اللغوية، والتي تعتمد بدورها على تعليمهم وتربيتهم لحد كبير.

وقد تسبب استخدام مصطلح "الازدواجية اللغوية" بالمعنى الذي قدمه فرجسون وبالمعنى المعدل الذي قدمه العلماء بعده في الكثير من الاضطراب في استخدام المصطلح الموجود في الكتابات العلمية عن هذه الظاهرة، فـ"الازدواجية اللغوية" بحسب مصطلح فرجسون يستخدم لوصف العلاقة بين الفصحى والعامية فقط، بينما أطلق تسمية "التعدد اللغوي" على حالة التوزيع الوظيفي بين العربية والفرنسية في شمال أفريقيا، ولكننا سوف نستخدم مصطلح الازدواجية اللغوية في الفقرات التالية بمعناه المعدل الذي يصف موقفا لغويا تتقاسم فيه أنماط لغوية مختلفة مجالات التعبير اللغوي فيما بينها. وسوف نستخدم مصطلح التعدد اللغوي لوصف كفاءة المتكلم الفرد في أكثر من نمط لغوي واحد، وفي المجتمعات التي تحتوي على الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي يستطيع المتكلمون جميعاً أن ينوعوا سلوكهم اللغوي على خط من التنويعات والأنماط بحسب ما تمليه الشروط غير اللغوية التي تعتمد على سياق الخطاب وخلفية المتكلم الاجتماعية والاقتصادية.

بذل العلماء مجهودات كثيرة لإعادة تقسيم خط التنويعات الواصل ما بين الفصحى والعامية والوقوف على الأنماط الوسيطة، فتجد العلماء العرب كثيراً ما يشيرون إلى نمط وسط بين الطرفين سموه "اللغة الوسطى" أو "لغة المثقفين"، من المفروض أن تكون تلك اللغة الوسطى شكلاً من العربية الفصحى لا يستخدم علامات الإعراب ويتبع أنماط نطق العامية ويقترض من معجم العامية بحرية، ومع ذلك فمن

المفروض أن تحتفظ تلك اللغة ببنية الفصحى بشكل عام، ومن أفضل التقسيمات التى ظهرت كان تقسيم بدوى (١٩٧٣) الذى أجراه فى معرض دراسته الموقف الاجتماعى اللغوى المصرى، لم يقبل بدوى بالتقسيم الثنائى الحاد الذى طرحه فرجسون زاعماً أنه نمط غير متماش مع الموقف اللغوى المصرى وربما باقى العالم العربى أيضاً، وطرح بدوى خمسة مستويات لغوية منفصلة، أى أن لكل منها سماته المميزة التى تفصله عن باقى المستويات على الخط.

جدول المستويات اللغوية عند بدوى:

١	فصحى التراث	تستخدم فى قراءة القرآن فقط
٢	فصحى العصر	تستخدم فى الكتابة والحديث فى المواقف الرسمية
٣	عامية المثقفين	تستخدم كلغة حديث المتعلمين الرسمية
٤	عامية المتنورين	تستخدم كلغة حديث المتعلمين المتباسطة
٥	عامية غيرالمتنورين	تستخدم كلغة حديث الأميين

ليست هناك دراسات تجريبية كثيرة عن توزيع مستويات الخطاب فى مصر أو أى بلد عربى آخر، ولكن الدراسات الموجودة فعلاً تثبت أن نموذج فرجسون القائم على التقابلية غير واقعى، فتجد الجبالى (١٩٨٥) مثلا يوضح وجود انسياب بين العلامات الاجتماعية اللغوية بين المستويات كما يفترض بدوى فى دراسته، ومن بين أمثلة الجبالى على العلامات المنسابة نطق القاف والثاء واستخدام سوابق الجهة على الفعل المضارع وترتيب الكلمات وعلامات الإعراب، ومع ذلك فإن طرفى الخط النهائيين (اللذان يتقابلان مع المستوى الأول والخامس فى تصنيف بدوى) هما النمطان الوحيدان اللذان يمكن اعتبارهما نمطين منفصلين ومستقلين بسماتهما الخاصة التى تفصل كلا منهما عن الآخر وعن باقى المستويات، أما المنطقة الوسطى من الخط فلا يمكن تقسيمها لمستويات مستقلة، ولذلك وجد الجبالى فى نتائج الاختبارات التى أجراها أن النمط غير الرسمى لكل مستوى له نفس توزيع النمط الرسمى فى المستوى الأقل منه مباشرة.

بينما توجد بعض الدراسات التي تهتم باستخدام بعض التنويعات في بعض سياقات الكلام، فإنه لا يوجد على الإطلاق أي مادة إحصائية حول العلاقة بين بعض التنويعات اللغوية والعوامل الاقتصادية الاجتماعية، ولكن أهم الأعمال التي تهتم بالعلاقة بين العوامل الدينية والتنوع اللهجي هي دراسة بلانك (١٩٦٤) للهجات الجماعات الدينية المختلفة في بغداد، وهناك دراسة أحدث من تلك قام بها هولز (١٩٨٧) عندما حلل بإسهاب الأنماط اللهجية الدينية المختلفة في البحرين، ففي تلك المنطقة هناك لهجة بدوية أساسية ومحترمة يتكلمها البحرينيون من أهل السنة بينما يتكلم البحارنة الشيعة لهجة حضرية مختلفة، يؤكد هولز في تلك الدراسة على أن التنويعات اللغوية تكتسب معاني اجتماعية مختلفة في هذا المجتمع. وكذلك افترض هولز أن أي وصف اجتماعي لغوي كامل لتلك المنطقة يجب أن يشتمل على كافة أساليب التعبير اللغوي التي يمتلكها المتكلمون، من أهم النتائج التي خلص إليها هولز في تحليله أن هناك تلازما بين الشكل اللغوي والمعنى الاجتماعي. يتضح هذا أكثر ما يتضح في الحالات التي تتشابه فيها الأشكال اللغوية للبحارنة مع الفصحى أو تختلف معها. في حالة كلمة "سمكة" الفصيحة مثلا تجد أن لهجة البحارنة ولهجة السنة في البحرين تمتلكان نفس الشكل وهو smicha، ولذلك عندما يحاول أي من الطرفين أن يرقى كلامه فإنه سيلجأ للشكل الفصيح ويستخدمه، أما في حالة الكلمة العربية الفصيحة "مَغرب" فإن لهجة البحارنة تنطقها maghrib بينما تنطقها لهجة أهل السنة البدوية mgharb، وفي حالة الترقي اللغوي تجد أن المتعلمين من البحارنة يستخدمون الشكل السني للكلمة، بينما ينزع المتعلمون من أهل السنة إلى استخدام الشكل الفصيح من الكلمة (هولز ١٩٨٧: ١٧٠).

هناك موضوع مرتبط بمسألة لهجات الجماعات الدينية الخاصة، وهو موضوع لغة النساء ولغة الرجال، وقد أصبح هذا الموضوع من عمد الدراسات الاجتماعية اللغوية في الغرب ولكنه مهمل لم يزل في علم اللغة العربية الاجتماعي، وهناك قاعدة عامة في علم اللغة الاجتماعي الغربي وهي أن النساء على وجه العموم ينزعن لاستخدام النمط المحترم الرفيع أو النمط الفصيح أكثر من الرجال، وأن النساء أكثر تحفظًا من الرجال

في التغيير اللغوي، ولكن هناك اعتراضا على تلك القاعدة فيما يتعلق بالنساء في المجتمعات غير الغربية حيث ينزع الرجال لاستخدام الأنماط الفصيحة أكثر من النساء، ففيما يتعلق بالأردن مثلاً يقول سليمان (١٩٨٥) إن الطالبات ينزعن للانتقال من اللهجات الريفية إلى اللهجات الحضرية أكثر من الطلاب الذكور، ومع ذلك فإن الطلاب أكثر من الطالبات نزوعًا إلى استخدام العربية الفصحى التي تمثل نمط الخطاب العام الذي لا تشترك فيه النساء بنفس قدر اشتراك الرجال فيه، ولكن التباين بين أنماط الحديث الغربية وأنماط الحديث غير الغربية سرعان ما يختفي عندما ندرك حقيقة أننا لا يجب أن نربط النمط الرفيع المحترم بالعربية الفصحى بشكل أوتوماتيكي، ففي حالة الطلاب الأردنيين التي تكلمنا عنها سابقًا نجد أن اللهجة الحضرية هي النمط الرفيع المحترم عند معظم الناس، بينما يعتبر الناس العربية الفصحى جزءا من العالم الرجالي.

وقد قدمت دراسة ولترز (١٩٩١) إسهاما عظيما لمجال دراسة التنويعات اللغوية داخل اللهجة الواحدة، وكانت تلك الدراسة عبارة عن مسح موسع للهجة كربا التونسية. من بين التنويعات التي درسها ولترز كانت صوت الفتحة الطويلة في آخر الكلمة والتي تنطق في تلك اللهجة مُمالة، في لهجة كربا هناك ثلاثة طرق لنطق هذا التنويع: الطريقة الأولى هي نطقه ممالا كما هو، والطريقتان الأخريان هما نطق مرتفع لصوت اللين هذا، الطريقتان المرتفعتان في أعين المتكلمين طريقتان محليتان وغير رفيعتين، يوضح ولترز أن الشباب من الذكور أكثر استخداماً للنمط الرفيع لنطق هذا التنويع ثم الشباب من الإناث ثم الكهول من الذكور ثم أخيرا الكهول من الإناث، تعتبر تلك النتائج مهمة لأكثر من سبب واحد، فمن ناحية تبين أن استخدام النمط الرفيع مرتبط بتوليفة من عوامل الجنس والعمر والتعليم، وليس مرتبطًا بعامل الجنس وحده، فالإناث اللاتي استخدمن التنويع بشكله الرفيع تلقين تعليمهن في مدينة تونس العاصمة، ومن ناحية أخرى تبين الدراسة أن الشباب من الجنسين يستخدمون الشكل المحلي من التنويع مع بعض الأشخاص عندما يعودون إلى القرية، وهو ما يوضح أن هذا التنويع قد أصبح علامة على هوية معينة.

١١ – ٢ الاختيار اللغوى والتوجه اللغوى فى الازدواجية

بما أننا لا نملك معلومات كافية لكي نقيم علاقة ربط بين العوامل الاقتصادية الاجتماعية واستخدام تنويعات النمط الرفيع أو النمط الدوني فمن السابق لأوانه أن نحاول تقديم تعريف مستقل ودقيق للهجات الاجتماعية في العالم العربي، ولكننا نعرف معلومات أكثر عن العوامل غير اللغوية التي تحدد الاختيار اللغوي والتي تكون مرتبطة بموقف الكلام نفسه، أكثر العوامل أهمية في موقف الكلام هي المخاطب والموضوع والبيئة. ويمكن أن نرتب تلك العوامل على خط من الأكثر خصوصية للأكثر عمومية، ففي نهاية الخط قد نجد متحدثا رسميا (مثلا وزير) يتحدث في موضوع عام في سياق رسمي (مقابلة إذاعية مثلا)، في مثل تلك الحالة قد يجد الوزير نفسه مضطرا لأن يستخدم نمطاً لغوياً يقترب من العربية الفصحى بقدر الإمكان، ولكن على الناحية الأخرى من الخط فإن أصدقاء يتكلمون على مقهى في الشارع فى شؤونهم الخاصة سيستخدمون عامية لا تتدخل فيها الفصحى إلا نادراً.

يتضح تأثير تلك العوامل عندما يتغير عامل منها في موقف كلام معين، فعندما يسأل المذيع الوزير في الراديو مثلاً عن حياته الخاصة سيتغير نمط اللغة التي يستخدمها هذا الوزير من النمط الرفيع إلى نمط يتجه ناحية اللهجة، وبنفس الطريقة عندما يتحول الأصدقاء على المقهى من الحديث عن شؤونهم الخاصة للحديث فى السياسة فإن لهجتهم العامية ستعكس عناصر من النمط الرفيع، بما أن الاختيار اللغوي يحدث في شكل خط فإن التغييرات لن تأخذ شكل تغيير الشفرة اللغوية من نمط لنمط آخر مختلف، ولكن التغير اللغوى سينعكس في الحديث في شكل نسبة أعلى من سمات نمط عن نمط آخر.

من بين سمات مواقف الازدواجية اللغوية التأثير الذي يمارسه المتكلمون بعضهم على بعض (وليس لدينا أى معلومات عن هذا الموضوع، ولكننا نستطيع أن نبني انطباعا ما من تسجيل ديم (١٩٧٤) للحوارات الإذاعية حول كيفية تطويع الناس للأنماط اللغوية التي يستخدمونها لتناسب مستويات من يكلمهم) ففي أحد المحاورات يتكلم المذيع مع الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة . نجد المذيع فى بداية

المحاورة يستخدم تعبيرات مثل "يعني نفهم من كده إنّه أبل انعقاد المؤتمر السنوي بتبأى في لجان بتبحث قرارات". نلاحظ في هذا الملفوظ استخدام الهمزة مكان القاف كما يحدث في العامية، واستخدام تعبيرات عامية مثل "من كده"، ولكن عندما يتكلم الأمين العام بالفصحى ويحافظ عليها نجد أن نفس المذيع يتحول في التو لاستخدام عبارات مثل "لو أردنا أن نأخذ نموذجًا لذلك" (ديم ١٩٧٤: ٧٦)، ونلاحظ أن هذا الملفوظ فصيح في أصواته وفي تركيبه الصرفي بشكل كبير.

هناك مثل لبناني عكسي حيث يتكلم مذيع مع أحد النقاد الأدبيين: أصر المذيع على استخدام اللهجة اللبنانية العامية بينما كان الناقد يستخدم تعبيرات مثل "بصورة عامة الموسم كان إيجابي: إيجابي أولاً من حيس الكمي وساتيًا من حيس النوعي"، ولكنه في نهاية الأمر لا يستطيع أن يقاوم عامية المذيع أكثر ، يبدأ بعد دقائق معدودة في الكلام بطريقة: "فيه تأريبًا شي ميت معرض بالسنة" (ديم ١٩٧٤: ٧٧).

يبين المثلان أن مستوى الحديث الذي يستخدمه أي من المتحاوران في الخطاب يؤثر على مستوى حديث المتخاطب الآخر. فهناك نزعة عند المتكلمين لأن يطوعوا مستوى حديثهم لمستوى المخاطبين، ولكن تلك النزعة ليست أوتوماتيكية بأية حال من الأحوال ففي محادثات معينة قد ينزع الناس إلى استخدام مستوى في الخطاب مختلف عن المستوى الذي يستخدمه المتخاطب الآخر لفترة زمنية طويلة دون إحساس بضرورة التطويع، يعني ذلك أن عوامل الخطاب لا تعمل عملها بشكل آلي لاإرادي، فالمتخاطبان يختاران النمط الذي يستخدمه أي منهما في موقف كلامي معين لحد ما بالربط بين مدى رسمية الموقف واختيار التنويعات اللغوية، ولكنه من الصحيح تمامًا أيضًا أن نقول إن الاختيار اللغوي الذي يجريه المتكلم يعكس تقييمه لموقف الكلام، فعندما يختار المتكلم التنويعات اللغوية التي يستخدمها فإنه يبين للمخاطب تقييمه لدوره في الخطاب ورأيه في الموضوع وغير ذلك.

تتحكم التصورات الموجودة لدى المتكلمين عن الأنماط اللغوية المستخدمة في المجتمع في تلك العلاقات المعقدة بين العوامل غير اللغوية والاختيار اللغوي، فالنمط الدوني للغة عادة ما يرتبط بالفقر والأمية ومستوى منخفض من التعليم لأن النمط

الرفيع مصدره المدرسة، أما النمط الرفيع فعادة ما يرتبط بمستوى مرتفع من التعليم والنجاح الاجتماعي والطبقة الاقتصادية الاجتماعية المرتفعة، ذلك بالرغم من أن الطبقات المرتفعة اقتصادياً واجتماعياً تستخدم العامية كنمط الحديث اليومي غير الرسمي. وإذا نظرنا للمسألة بشكل مختلف فسنرى أن العامية كلغة الأسرة مرتبطة بالأنشطة التي يقوم بها المتكلم داخل جماعته ومرتبطة كذلك بالحميمية والصداقة. ولكن النمط الرفيع يرتبط بالبعد الاجتماعي والعلاقات الرسمية، وقد يكون استخدام العربية الفصحى لذلك نوع من الاحترام ولكنه في نفس الوقت قد يكون أداة لخلق بعد بين المتكلمين، وكذلك قد يكون استخدام العامية من آيات الوقاحة ولكنه في نفس الوقت قد يكون أداة لتذويب الفوارق وخلق نوع من الحميمية.

الفرق بين معظم الجماعات اللغوية الغربية والعالم العربي هو الهوة الكبيرة الموجودة بين العاميات العربية والفصحى، وهو ما يضطر المتكلم العربي لاتخاذ قرارات كثيرة بشأن استخدامه التنويعات اللغوية أكثر مما يفعل المتكلم في الجماعات اللغوية الغربية. ولما لم تكن العاميات والفصحى أنماط لغوية منفصلة بل نقاط بداية ونهاية لخط لغوي مستمر يمثل كل من الشكلين طرفاً نظرياً له فإن الاختيار اللغوي يشتمل على خليط من التنويعات اللغوية التي تنتمي لطرف من الطرفين، ففي الكثير من الأحيان يكفي اختيار بعض العلامات لإظهار توجه المتكلم، فتجد أن المذيعين في برامج الإذاعة مثلاً يبدأون من نص مكتوب بالعربية الفصحى، ولكنهم سرعان ما يجدون أنفسهم واقعين تحت تأثير الجماعة التي يتوجهون إليها بالحديث، لا تتغير بنية النص الفصيحة في البرامج الموجهة لربات البيوت أو للمزارعين ولكن المذيعين يدخلون علامات عامية في قراءتهم على فترات محسوبة، من تلك العلامات استخدام الهمزة بدلا من القاف واستخدام تركيب الإضافة التحليلي بأداة \بتاع \واستخدام اسم الإشارة \إللي/. تبين تلك العلامات اللغوية نية المتكلم للمستمع، وهي نية رفع الحواجز وخلق جو من الألفة بين الطرفين، بنفس الطريقة يعتبر استخدام علامات لغوية فصيحة كفاء السببية والمبني للمجهول ونوع ما من علامات الإعراب أداة يستعملها المتكلم عندما يريد أن يشعر المستمع بأهمية الموقف أو الموضوع.

يحدث اختيار العلامة اللغوية جزئيًا في القسم الشعوري الواعي من العقل الإنساني، بل ويمكن تطويعه لغرض تجاري على سبيل المثال، ففي لغة وسائل الإعلام وخاصة لغة الإعلانات في الإعلام المصري يتعادل المستوى اللغوي المستخدم مع طبيعة المنتج المراد تسويقه والجماعة التي يتوجه لها الإعلان، بعض السلع الهامة كالقروض وبوليصات التأمين تباع لرجال في غالبية الأحيان بنمط لغوي رفيع، ولكن منتجي الأغذية والمنظفات مثلا يتوجهون لسوق من ربات البيوت ولذلك يعلنون عن بضائعهم بالعامية. فعلى الجهات المعلنة دائمًا أن تحافظ على التوازن الصعب بين حميمية العامية والمستوى الرفيع للفصحى.

من أهم الأمثلة على الاستخدام الواعي للتنوع اللغوي بين العامية والفصحى على المستوى السياسي موجود في الخطب السياسية للرئيس الراحل عبد الناصر، فقد تعود أن يبدأ خطبه بالفصحى وبكلمات بطيئة في تقاطرها بسبب الموقف الرسمي، وتتحول جمله بعد تلك البداية إلى العامية أكثر وأكثر، حتى يصل في نهاية الأمر إلى عامية صرف ويعود في نهاية خطابه إلى الفصحى حيث يلقي بها جملا معدودات، يعكس هذا الخليط المشكلة التي تواجه السياسيين في العالم العربي فمن ناحية تعطيهم العامية فرصة إدماج كل المشاهدين والمستمعين الذين لا يكادون يفهمون أبسط مستويات الفصحى في خطابهم السياسي، ولكنهم لا يستطيعون على الناحية الأخرى أن يتكلموا بالعامية بشكل كامل لأن ذلك قد يعتبر إهانة للشعب.

تصل بنا تلك النقطة إلى الاعتبارات السياسية المتعلقة باختيار النمط اللغوي، وبما أن معظم العرب يعتبرون الفصحى أهم عناصر الوحدة العربية فإنها تصبح من الناحية السياسية رمزًا لتلك الوحدة. معظم الأحزاب السياسية في العالم العربي تعترف بتلك الوحدة على الأقل علنيًا، ولذلك فإن السياسيين العرب مضطرون لاستخدام الفصحى اضطرارًا بالرغم من أن أعضاء أحزابهم وأبناء دوائرهم السياسية قد لا يفهمونها. لقد رأينا سابقًا أن اللغة العربية لعبت دورا كبيرا منذ أواخر القرن التاسع عشر في الحركة القومية في الأقاليم العثمانية العربية. وأعلنت كل دولة عربية رسميا بعد الاستقلال التزامها الرسمي بالقومية العربية واللغة العربية، ولذلك يعتبر

استخدام العامية من هذا المنظور تعبيرا عن الإقليمية التى هى مدمرة لفكرة الوحدة العربية، علاوة على ذلك فإن الدارجة أصبحت عنصراً أساسيًا من عناصر الفكرة الوطنية في بعض البلاد العربية.

ليس من الغريب أن مصر تتميز عن باقى الدول العربية باستخدام العامية بشكل واضح، فمصر تميزت دائمًا بقدر كبير من الوطنية التى ترمي لترسيخ الهوية المصرية، وبطبيعة الحال تعتبر العامية المصرية مكونًا هامًا من مكونات تلك الهوية، فالخطب السياسية فى مجلس الشعب المصرى تؤدى بنمط يشبه العامية، وهو ما لم نسمع به فى أى بلد عربى آخر، ومن أهم الأمثلة على ذلك آخر خطاب ألقاه الرئيس الراحل أنور السادات في مجلس الشعب عام ١٩٨١، ظهر هذا الخطاب على صفحات الجرائد السيارة صبيحة اليوم التالى على اغتياله بالعامية مصحوبًا بملحوظة من الناشر تقول إنه لم يكن هناك وقت كاف لترجمة الخطاب للفصحى، وانظر كذلك خطب عبد الناصر التى تكلمنا عنها سابقًا ، ولكنه من المثير للاهتمام أن أيا من أنماط كلام عبد الناصر العامية لم ترد فى أى خطبة من خطبه التى ألقاها خارج مصر، والسبب فى ذلك واضح جدا فأى علامة على الهوية المصرية من شأنها أن تهدد العلاقات المتوترة أصلاً مع سوريا فى الجمهورية العربية المتحدة.

يتضح القبول الحسن للعامية فى مصر فى كل السياقات الاجتماعية. ففى مقابلات التليفزيون وحتى فى خطب مجلس الشعب تستخدم عناصر العامية بحرية شديدة، وعلاوة على ذلك هناك اهتمام عام كبير بالعامية بنفس الطريقة التى يهتم بها الناس بالألمانية فى سويسرا، فتجد أنه من العادى أن تظهر سمات العامية فى الكتابات الأدبية، وخاصة فى الحوارات، وفى الأعمال المسرحية يكون الحوار دائمًا بالعامية حتى ولو كان نص الحوار قد كتب أصلا بالفصحى، وامتدح الناس كثيراً قاموس العامية المصرية الذى نشره بدوى وهيندز عام ١٩٨٦، وكذلك تقدم مدارس مراكز تعليم اللغات المنتشرة فى مصر فصولاً خاصة بتعليم العامية المصرية للطلاب الأجانب، لقد قام فى مصر جدل حول المسألة اللغوية، ولكن هذا الجدل لم ينتج فى مصر مشاكل سياسية تذكر بالرغم من أن محاولات استخدام العامية فى بلاد عربية أخرى كانت محل شك كبير.

وكذلك يتضح التوجه المصرى ناحية استخدام العامية فى المؤتمرات العربية الدولية حيث يستخدم أعضاء الوفود المصرية عناصر من لهجتهم العامية دون تردد أو إحجام، بينما يبذل أعضاء الوفود العربية الأخرى قصارى جهدهم للابتعاد عن أى سمة عامية، وعادة ما تتحول المقابلات الخاصة مع السياسيين والزعماء الدينيين المصريين بعد بداية فصيحة إلى عامية مصرية كاملة، ولا يعنى كل ذلك أن الآثار السلبية للاستعمار فى مصر ليست موجودة أو ملحوظة، ففى مصر، كما هى الحال فى بلاد عربية كثيرة، أحبط المسؤولون عن الجامعات الدراسات العلمية اللغوية للهجة المصرية لأنهم ينظرون إلى التركيز على اللهجات على أنه معول هدم للوحدة العربية.

لقد رأينا سابقًا أن العلاقة بين اللهجات الإقليمية المختلفة ولهجة العاصمة عامل آخر يجب وضعه فى الحسبان حال دراسة الوضع اللغوى، فتجد أن نزعة متكلمى اللهجات الإقليمية للتسوية مع لهجة العاصمة نزعة قديمة جدًا كما رأينا سابقًا فى حالة خريطة لهجات الدلتا فى مصر. ورأينا سابقًا أن لهجة القاهرة بشكلها الحالى ربما تكون قد تكونت فى أواخر القرن التاسع عشر عندما أدى توافد المهاجرين من الريف إلى احتقار السمات اللغوية الريفية التى ماتزال موجودة ليومنا هذا، على ذلك فإن المهاجرين الجدد للقاهرة يحاولون التقرب من لهجتها بقدر الإمكان.

تعمل قوة جذب اللهجة القاهرية خارج حدود القطر المصرى وليست مقصورة على داخله فقط، فيمكن تبرير استخدام المصريين لعناصر من عاميتهم فى التجمعات العربية بأن لهجتهم معروفة فى عموم العالم العربى بفضل الأفلام والمسلسلات الكثيرة التى تصدرها مصر للعالم العربى. وقد أدى هذا الانتشار إلى أن يفهم الكثير من الناس عناصر تلك اللهجة ولو جزئيًا، ولكنه لم يؤد للحالة العكسية أى لأن يفهم المصريون باقى لهجات العرب، السبب الثانى فى انتشار لهجة القاهرة وجود أعداد كثيرة من المدرسين المصريين فى العالم العربى، فقد وفد الكثير من المدرسين المصريين على بلاد المغرب العربى بعد استقلالها لسد النقص الموجود فى المدرسين الذين يستطيعون التدريس باللغة العربية، علاوة على ذلك فإن الكثير من العمال المصريين يعملون فى دول الخليج والمملكة العربية السعودية بشكل مؤقت، فقد وفدت أعداد غفيرة

من المعلمين المصريين إلى اليمن في الحقبة الناصرية وبعدها. وكان لتلك الحركة أثرها اللغوي البالغ لدرجة أن الناس يعتبرون كل الأجانب الذين يتكلمون العربية في اليمن من المدرسين المصريين، وتجد أيضاً أن عناصر من العامية المصرية تدخل بسرعة في العربية اليمنية وتصبح عناصر رفيعة.

١١ – ٣ المسألة اللغوية في شمال أفريقيا

يعمل الوضع الازدواجي الذي تكلمنا عنه سابقاً في بلاد شمال أفريقيا كما يعمل في المشرق العربي، ولكن الوضع هناك أكثر تعقيداً بسبب وجود لغة رفيعة أخرى، وهي لغة المستعمر الفرنسي السابق، كان الباحثون يصفون الوضع اللغوي في تلك المنطقة في الكتابات القديمة في هذا الشأن على أنه حالة من حالات التعدد اللغوي، ذلك بالطبع بحسب نسق فرجسون القديم، أما الشكل الجديد لنسق الازدواجية اللغوية فإنه يصف العلاقة الاجتماعية اللغوية بين العربية والفرنسية بحالة ازدواجية لغوية، أما التعدد اللغوي فهو حالة تشير إلى درجة إتقان الأفراد لكل من اللغتين، لقد اتبعت الحكومة الاستعمارية الفرنسية سياسة دمج للشعوب التي تحكمها، وهو عكس السياسات التي اتخذتها بريطانيا في مستعمراتها، وكانت وجهة النظر الرسمية أن فرنسا لم تستعمر تلك البلاد لتستغلها بل لتجلب إليهم الحضارة الفرنسية، وقد تعامل الموظفون الفرنسيون مع تلك السياسة الاستعمارية على أنها مهمة فرنسا الحضارية، ولا يعني ذلك أن كل المستعمرين الفرنسيين كانوا يفكرون بنفس الطريقة فقد كان منهم من يعارض التعليم في المستعمرات معارضة شديدة.

تعرضت شعوب المستعمرات الفرنسية العربية في شمال أفريقيا طوال فترة الحكم الاستعماري (في المغرب من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦، وفي الجزائر من ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢، وفي تونس من ١٨٨١ إلى ١٩٥٦) إلى اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية بشكل مستمر، بالرغم من أن هدف التعامل مع الشعوب المستعمرة كمواطنين فرنسيين لهم نفس الحقوق كان الهدف الرسمي المعلن إلا أنه لم يتحقق بشكل عملي أبدا، بل ظل مجرد إطارا لصياغة العلاقة بين العرب والفرنسيين في الإمبراطورية، من الناحية العملية لم تتمكن إلا أقلية من الصفوة العربية في المستعمرات من تعلم الفرنسية. وقد تفرنست

تلك المجموعة من الناس لدرجة أنهم تبنوا اللغة الفرنسية وثقافتها وأدبها كلغتهم وثقافتهم وأدبهم الخاص، ولكن عندما اكتشفت تلك الطبقة أنه بالرغم من التعليم الفرنسي والفرنسة الحضارية فإنهم لن يتمكنوا من دخول المجتمع الفرنسي كمواطنين فرنسيين حقيقيين فقد كونت تلك الطبقة الصغيرة من العرب الفرنسيين بداية حركة المعارضة القومية لمواجهة سيطرة الفرنسية، أما فيما يخص عامة الشعب فقد كان قدر معقول من معرفة الفرنسية ضرورياً لتسهيل التعامل مع الموظفين الإداريين الفرنسيين، ولكن غالبية الشعب لم تتمكن من الحصول على أى قدر من التعليم المنظم المنهجى فى الفرنسية.

وفى الفترة الاستعمارية كانت هناك بعض المحاولات غير الجادة من قبل الحكومات لتقديم نوع من التعليم متعدد اللغات للأطفال العرب، ولكن المدارس القليلة التى قدمت هذا النوع من التعليم وضعت اللغة العربية كمادة غير أساسية فى المقرر الدراسى، واستمر هذا الوضع كما كان بشكل أو بآخر بعد الاستقلال لفترة ما. فقد ظلت الفرنسية فى المدارس متعددة اللغات هى لغة تدريس المواد "المهمة" كالرياضة والفيزياء والاقتصاد، فيما استخدمت العربية فى فصول الأدب والتاريخ والدين، بالرغم من أن العربية أعلنت بعد الاستقلال لغة رسمية للبلاد إلا أن الفرنسية ظلت لغة التعليم والإدارة الأساسية، ولذلك قامت فى بلاد المغرب العربى الثلاثة حملات تعريب كبيرة فى مرحلة مبكرة بغرض تغيير هذا الوضع اللغوى السائد فى التعليم والإدارة، بينما كانت خلفيات تلك الحملات متشابهة فإن الطرق التى سارت فيها الحملات كانت مختلفة فى البلاد الثلاثة بعضها عن البعض الآخر، يمكن تبرير تلك الاختلافات بعوامل كثيرة منها طول فترة الوجود الفرنسى فى الإقليم وأعداد المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا يعيشون فى الإقليم ووجود أقلية بربرية وحجمها.

ترك الفرنسيون وراءهم فى تونس طبقة صفوة كبيرة من متعددى اللغة، ولم تلعب البربرية دوراً هاماً فى هذا الإقليم لأنها لم تكن إلا لغة كلام خمسة بالمائة فقط من السكان القاطنين جنوب تونس، فأصبح التعريب السياسة الرسمية للبلاد بعد الاستقلال، ولكنها كانت سياسة بطيئة نسبياً، بالرغم من أن الحبيب بورقيبة أول رئيس

لتونس كان متحمساً لإدخال العربية حماسة حقيقية إلا أنه لم يكن يفضل النقلة المتسرعة. ففي خطاباته الشعبية كان يستخدم لغة وسيطة بين العامية التونسية والفصحى وأعلن في غير مرة أن العربية الفصحى القديمة ليست لغة الشعب التونسي، وأصبح هذا الإعلان عنصراً مهماً من عناصر الجدل اللغوي في القطر التونسي، فقد كانت الفكرة هي أنه لا يجوز في التعريب أن يتم إدخال العربية الفصحى في كل مجالات الحياة بشكل شامل بل يجب السماح بوجود قدر كبير من التعدد اللغوي- بل إن بعض الناس اقترحوا الاهتمام باللهجة التونسية في معرض هذا التعريب كوسيلة تعبير عامة.

بالرغم من أن أهمية التعريب كانت واضحة جداً في الخطاب الرسمي فقد كان بعض المثقفين يخافون من أن يدخل التعريب في جيوبه الأصولية الإسلامية إلى المجتمع التونسي العلماني، ومن الناحية الإدارية لم يكن التعريب منظماً بالرغم من أن بعض الوزارات قد تعربت بشكل كبير كما حدث في حالة وزارة العدل والشئون الداخلية التي تعربت عام ١٩٧٠ ، ومع ذلك فإن بعض الناس مايزالون يعبرون عن تفضيلهم لحالة تعدد اللغات لكي يحتفظوا بما يرون أنه إنجاز للمجتمع التونسي، وإلى جانب ذلك كان الكثير من الناس يتفقون مع الحبيب بورقيبة في تصوره أن لغة تونس هي اللهجة التونسية.

حدثت ثورة هائلة في المدارس التونسية عام ١٩٥٨ الغرض منها تعريب نظام التعليم التونسي عن طريق إقامة نظامان متزامنان، ويكون بمقتضاهما للآباء الحرية في أن يرسلوا أولادهم لمدارس عربية فقط أو لمدارس فرنسية عربية. وكانت مشاكل هذا النظام معروفة وهي نقص المواد التعليمية ونقص المدرسين القادرين على التدريس بالعربية وعدم اهتمام الآباء الذين كانوا راغبين في إعطاء أبنائهم أحسن الفرص في الترقي الاجتماعي، وقد كان كل ذلك يعني أن يرسل الأب ابنه لمدرسة متعددة اللغات، وبعد ذلك بعشر سنوات تخلت الحكومة رسميا عن المشروع وانتهت المدارس العربية فقط، ومع ذلك فقد تحقق قدر ما من التعريب، وظلت السنوات الثلاثة الأولى في التعليم الابتدائي عربية بالكامل، وكذلك بعض العلوم في المرحلة الثانوية كالفلسفة والتاريخ والجغرافيا.

ولكن الموقف تغير في السنوات الأخيرة في تونس لصلحة اللغة العربية. فتجد أنه في المجال الجامعي هناك ضغط على المدرسين ليستخدموا العربية الفصحى في تدريسهم، وحتى المدرسين الذين كانوا يتصورون أنهم لا يقدرون أن يدرسوا مواد تخصصهم بالعربية تخلوا لحد كبير عن الاستخدام المطلق للفرنسية في الفصول وقاعات الدرس، علاوة على ذلك كان ظهور الأصولية الإسلامية في التسعينيات من القرن العشرين عاملاً إضافيًا في ارتفاع أسهم العربية، فالأصوليون على وجه العموم معارضون لأي نظام تعليم بالفرنسية ويفضلون استخدام العربية وإعطاءها مكانتها الطبيعية التي تستحقها. فبينما لم تكن عملية التعريب قبل تلك الفترة مسألة مبدئية في تونس أصبحت الآن مسألة اللغة العربية مرتبطة بالمسائل الدينية بشكل كبير.

تتحكم عوامل كثيرة في الوضع اللغوي المغربي: ففي المقام الأول تقطن أكبر مجموعة أقلية من البربر في بلاد المغرب العربي، لدرجة أن بعض التقديرات الإحصائية لأعداد البربر في المملكة تصل لحوالي خمسين بالمائة من عدد السكان، ثانيا، لعبت اللغة الفرنسية في هذا الإقليم دوراً عمليًا كبيراً في العلاقات التجارية الكبيرة بين المغرب وأوروبا، ثالثا، كانت المسألة اللغوية في المغرب دائما مرتبطة بالموقف السياسي بسبب صلتها بالعرش، فبعد عودة الملك محمد الخامس للملكة المغربية المستقلة عام ١٩٥٦ أصبحت الملكية والإسلام واللغة العربية أضلاع مثلث لا تنفصل.

كان عدد المدارس في المغرب في العهد الاستعماري قليلا جدا، وكانت الأغلبية الساحقة من تلاميذ المدارس الفرنسية من الفرنسيين وقلة كانت من أبناء المغاربة، ففي عام ١٩٤٥ على سبيل المثال كان عدد التلاميذ الفرنسيين حوالي ٤٥ ألف تلميذ بينما كان عدد التلاميذ المغاربة حوالي ١١٥٠٠(قارن تلك الأرقام بأعداد الطلاب في المدارس الابتدائية والثانوية عام ١٩٧٥ أي بعد الاستقلال مباشرة) . كان عدد طلاب المدارس الابتدائية حوالي ٣٥٠ ألف، وكان عدد تلاميذ المرحلة الثانوية حوالي ٣١ ألفا، وكان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية عام ١٩٦٥ حوالي مليون طالب، بينما كان عدد طلاب المدارس الثانوية حوالي ١٣٠ ألف طالب (جرانجليوم ١٩٨٢)، وكان بديل المدارس الوحيد أمام الطلاب المغاربة في العهد الاستعماري التعليم التقليدي الذي يبدأ بالكتاب وينتهي بجامعة القرويين في فاس.

قامت محاولات عديدة لتعريب المدارس بعد الاستقلال، ولكن خطة التعريب الشامل للمدارس الابتدائية ثم المدارس الثانوية بعدها أجلت بسبب المشكلة العملية التي تمثلت في استخدام اللغة العربية في العلوم، أما الآن فكل المدارس الحكومية معربة حتى السنة الرابعة، والسنوات الثلاثة التالية في التعليم سنوات متعددة اللغات ولكن الغلبة للغة الفرنسية بالضعف، أما في المدارس الثانوية فأحياناً يكون نصيب العربية مساوياً لنصيب الفرنسية وأحياناً أخرى يكون نصيب الفرنسية ضعف نصيب العربية، أما التعليم الجامعي فيستخدم اللغتين العربية والفرنسية ويكون التقسيم بحسب المادة، بالإضافة إلى المدارس الحكومية هناك عدد كبير جداً من المدارس الخاصة الأجنبية أو الدينية التي لا يحكمها قيد في اختيار لغة التعليم.

ولكن حملات تعريب الإدارة في المغرب لم تكن قوية بشكل كاف أو مخلصة، ومن الناحية السياسية كان التعريب أمراً مهماً لفرض اللغة العربية كلغة البلاد الوحيدة، وذلك لمناهضة تأثير البربرية. ولكن من الناحية العملية ظلت بعض الدوائر الحكومية حتى تاريخ هذا الكتاب تستخدم الفرنسية كلغة عمل. تقول الكثير من التقارير إن الموظفين في Bureaux d'arabisation "مكتب التعريب" يستخدمون الفرنسية فيما بينهم عند مناقشة مشاكل البلاد اللغوية، ومن الجدير بالذكر أن مكتب التعريب هذا هو المكتب المنوط به حماية عملية التعريب وتوجيهها، وليس من العجيب إذن أن تكون أشكال المدن الكبرى، وخاصة الأحياء الأوروبية منها، فرنسية لحد كبير فما تزال المكتبات تبيع الكتب والمجلات الفرنسية ومازال اللافتات بالفرنسية وما تزال الإعلانات أيضا بالفرنسية. وتطلب كذلك قهوتك بالفرنسية في المقاهي التي بنيت على الطراز الفرنسي.

عرفت الجزائر(ثالث بلاد المغرب العربي) أطول فترة تواجد فرنسي وشهدت أكبر عدد من المستعمرين الفرنسيين في المغرب العربي، لقد كانت البلاد محافظة فرنسية فعلية منذ عام ١٨٣٠، وانتزع الجزائريون استقلالهم بعد حرب عنيفة انتهت عام ١٩٦٢، وكان وضع اللغة العربية في الجزائر الفرنسية وضعاً حرجاً ومتذبذباً، فقد كان هناك ضغط بيِّن لتجريم استخدام العربية الفصحى في التعليم، وانتهى الأمر

بصدور قانون يقضي بأن العربية لغة أجنبية عام ١٩٣٦، أما أنواع التعليم التي قدمت بلغات غير الفرنسية فقد كانت التعليم بالبربرية والتعليم باللهجة الجزائرية. وفي ١٩٦١ عندما جعل دي جول العربية إجبارية في المدارس كان ذلك قراراً متأخراً جداً عن موعده ولم يغير من الوضع اللغوي شيئا لقد أعلنت الجزائر الحرة العربية لغتها الرسمية والإسلام دينها الرسمي كما فعلت باقي بلاد المغرب العربي، ولكن ذلك لم يغير حقيقة أن بعض الجزائريين لم يكونوا يفقهون العربية الفصحي وأن بعضا منهم لم يكن يعرف حتى العامية الجزائرية، ففي عام ١٩٦٣ مثلاً كان هناك اقتراح أن تترجم وقائع جلسات البرلمان الجزائري إلى اللغة العربية، ويعني ذلك أن المناقشات التي كانت تدور تحت قبة البرلمان كانت تدور بالفرنسية لأن معظم النواب لم يكونوا يستطيعون استخدام أي نمط من العربية، قابل البرلمان الاقتراح بموافقة عامة ولكن رئيس الوزراء ساعتها علق أنه من المستحيل أن تجد الحكومة مترجمين مدربين كافين للقيام بهذا العمل الضخم. وعلى ذلك فقد ظلت المناقشات بالفرنسية لفترة.

لقد أدرك الناس منذ البداية في الجزائر أن التعريب يجب أن يبدأ من التعليم، ولكن بدايات برنامج التعريب كانت متواضعة على وجه العموم، إذ كان مجموع ساعات تعلم العربية في المدرسة الابتدائية لا يتجاوز السبعة، واستدعت الحكومة ألفا من المدرسين المصريين على الفور بسبب غياب المدرسين الوطنيين الكلي، وتبع هذا العدد حوالي ألف آخرين من سوريا، وبعد الانقلاب العسكري الذي حدث عام ١٩٦٥ وجلب بومدين للحكم أصبح التعريب جزءا من سياسة مركزية وتم تعريب معظم المرحلة الابتدائية في حوالي عشر سنوات، وتم تحقيق تقدم كبير في تعريب المرحلة الثانوية، وحتى على المستوى الجامعي ازداد الضغط على المدرسين لاستخدام العربية في التدريس.

خلقت السلطات الاستعمارية الفرنسية قبيل استقلال الجزائر مجموعة من الموظفين الجزائريين ليتولوا إدارة البلاد عندما يتعين على فرنسا ترك البلاد، ودافع هؤلاء المائة ألف موظف عن مكانتهم الرفيعة تلك بكل قوة وعارضوا أي تغيير للوضع اللغوي في الديوان الحكومي. وفي عام ١٩٦٨ أصدرت الحكومة قرارا يقضي بأن يأخذ

كل موظف حكومي اختبارا ليثبت كفاءته في اللغة العربية، وذلك في فترة لا تتعدى ثلاث سنوات، ولكن تلك الخطوة لم تنل حظا كبيرا من النجاح، فتكررت مرة أخرى عام ١٩٨٠، ولكن الحكومة أصرت هذه المرة على تنفيذ قرارها، وكان الهدف من تلك الخطوة هو تعريب الإدارة بشكل كامل بحلول عام ١٩٨٥، وتم للحكومة ذلك فعلا فنجحت عملية تعريب الإدارة في الجزائر بشكل لم تنجح به في أي بلد مغربي آخر.

وكان إدخال اللغة العربية إلي وسائل الإعلام والمجالات العامة مرتبطا إلى حد كبير بسطوة الحركة الإسلامية. في المغرب استولت الملكية على المشاعر الدينية وضمتها إليها فأصبحتا صنوان، وفي تونس فقد اختارت الدولة طريق العلمانية، أما في الجزائر فلم تكن الحكومة الاشتراكية تدعم الإسلام وتقويه، وتحول إلى حركة شعبية اشتركت بقوة في الصراع من أجل إحلال العربية محل الفرنسية. في عام ١٩٧٦ وفي غضون ليلة واحدة اختفت من شوارع الجزائر العاصمة كل لافتات الشوارع والإعلانات وأسماء الشوارع المكتوبة بالفرنسية، وتبعت باقي مدن البلاد العاصمة في تلك الحركة. ربما لم تكن تلك الإجراءات دائما من فعل الدولة، وربما كان للحركة الشعبية دورها التلقائي فيها، ولقد نجح التعريب في الجزائر نجاحا كبيرا لدرجة أن المسألة اللغوية لم تظهر على السطح خلال الحرب الأهلية التي ثارت في التسعينيات.

لقد تحدثنا حتى الآن عن الوضع اللغوي في المغرب العربي فقط، ولكن سوريا ولبنان في المشرق العربي كانتا تحت الحكم الفرنسي أيضًا، وفي سوريا فقد محت البلاد كل أثر للوجود الفرنسي، وأما لبنان فهي بلد خاص بسبب وجود عدد كبير من المسيحيين العرب الموارنة، لقد كان الموارنة في لبنان على اتصال بالكنيسة الغربية في أوروبا منذ فترة مبكرة جداً، فقد درسوا في الفاتيكان ثم في باريس ووثقوا صلة المسيحية الشرقية بالغرب، بعد القلاقل التي ثارت عام ١٨٦٠ بين الموارنة والدروز تدخلت القوى الغربية ووقعت اتفاقية مع الخلافة العثمانية بخصوص لبنان، فقد اتفق الطرفان على أن تكون لبنان محمية مستقلة وليست ولاية تابعة لإقليم سوريا، بتلك الاتفاقية أصبح الموارنة أغلبية في تلك المنطقة، ونشط المبشرون الأوروبيون نشاطا

كبيراً فأسسوا في عام ١٨٦٦ الكلية البروتستانتية التي أصبحت بعد ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت، وكذلك تأسست جامعة القديس يوسف الكاثوليكية عام ١٨٧٥، وقد أدى تدخل القوى الأوروبية في لبنان وخاصة فرنسا إلى استخدام المتعلمين اللغة الفرنسية لغة ثقافة قبل نهاية القرن التاسع عشر.

وفي الغليان الذي أصاب البلاد في فترة الانتداب الفرنسي على لبنان بين عامي ١٩١٨ و ١٩٤٣ حاول الموارنة بكل جد أن يقيموا دولة لبنان الكبرى المنفصلة عن الأمة العربية. وعندما خضعت فرنسا لطلب الاستقلال أخيراً استمر الموارنة في السيطرة على البلاد بالرغم من أنهم لم يعودوا الأغلبية الساحقة بسبب ضم مناطق جغرافية ذات أغلبية مسلمة كالبقاع وجنوب لبنان، وأحس الموارنة أن فرصتهم الوحيدة تكمن في بناء نمط لبناني خاص من الوطنية يركز على التعددية الثقافية واللغوية في القطر اللبناني.

ففي المطبوعات التي سبقت الحرب الأهلية اللبنانية كان الموارنة اللبنانيون ينظرون إلى تجاور الفرنسية والعربية في لبنان بعين راضية نشر أبو سالم في عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ مثلا مسحا للاستخدام اللغوي ودراسة بين فيه حماسته الشديدة لأن تظل لبنان وحدة متعددة الثقافات كما كانت، ركزت تلك المنشورات على دور لبنان التاريخي في الوساطة بين أوروبا وبلاد البحر المتوسط، وكذلك كانت تلك المنشورات تدافع عن مميزات التعليم متعدد اللغات، وفي نفس الوقت بينت الإحصاءات التي ساقها أبو سالم في كتابه وجود فرق كبير بين المسلمين والمسيحيين فيما يخص إتقان الفرنسية، ولكن الأحوال تغيرت كثيراً بعد الحرب الأهلية لدرجة أننا يمكن أن نقول إن الجغرافية اللغوية في لبنان لم تعد كما كانت أبداً، في حقيقة الأمر لا نعرف الكثير عن الوضع اللغوي الراهن في لبنان ولكنه من المؤكد أن الفرنسية قد فقدت مكانتها الرفيعة السابقة، ففي بيروت نفسها هناك تباين كبير بين بيروت الشرقية حيث تسيطر الفرنسية كلغة تواصل مع المجتمع الدولي وبيروت الغربية حيث حلت الإنجليزية محل الفرنسية في هذه الوظيفة.

١١ - ٤ الاختيار اللغوي والتوجه اللغوي في شمال أفريقيا

اكتسبت اللغة الفرنسية أثناء فترة الحكم الفرنسي قيمة رمزية كبيرة لدرجة أصبحت معها الفرنسية رمز النجاح في الحياة العملية بالرغم من أنها لغة الاستعمار

القديم وبالرغم من أن العربية قد أصبحت لغة البلاد الرسمية، وبالرغم من وجود سياسة التعريب الرسمية التي تحاول إحلال العربية محل الفرنسية فقد كان من الصعب على الناس أن يتعودوا على فكرة أن العربية يمكن أن تستخدم في كل المجالات الرسمية مثلها مثل الفرنسية تماماً، وظلت الفرنسية تلعب دوراً كبيراً في حقل الثقافة لدرجة أنك تسمع المثقفين المغاربة والتونسيين في بعض الأحيان ينتقلون من لغة لأخرى في وسط المحادثة.

لقد تغير الوضع اللغوي فيما يخص إتقان الناس للغة الفرنسية، ففي العهد الاستعماري لم يتلق التعليم المنظم في المدارس الفرنسية سوى فئة قليلة جدا من أبناء الشعب، ونتج عن ذلك أن أصبحت تلك الصفوة القليلة متعددة اللغات بالفرنسية واللهجة المحلية، وفي بعض الأحيان وحسب الظروف الاجتماعية في البيت ومستوى التعليم كانت الفرنسية هي اللغة الغالبة، بل إن بعض الحالات القصوى أنتجت مواطنين لا يعرفون إلا الفرنسية فقط خاصة في الجزائر، لم يكن معظم أبناء الصفوة يعرفون العربية الفصحى بأي شكل من أشكالها بغض النظر عما إذا كانوا يستخدمون اللهجة المحلية في بيوتهم أو انتقلوا للفرنسية تماماً، ولكن هذا الموقف اللغوي تزعزع بعد الاستقلال، بل وانتهى تماما بعد إدخال العربية الفصحى إلى التعليم، وقد تجد بعض كبار السن في بلاد المغرب العربي يرفضون تعلم الفصحى، ولكنهم تحت ضغط لا يقاوم لتعلمها واستخدامها في حياتهم العملية.

وإذا نحينا الصفوة التي كانت محظوظة بالمدارس الفرنسية جانباً فقد تعلم كل شخص كان على صلة بالفرنسيين نمطاً من الفرنسية العامية المبسطة التي تكفيه في التعامل مع السلطات الفرنسية والمستعمرين الفرنسيين، وقد طور هؤلاء الناس نوعاً من التعدد اللغوي كانت الفرنسية فيه تحتية بالمقارنة باللهجة العربية المحلية التي كانت لهجة الشعب الأم، وفي تلك الحالات كان مقدار الكفاءة في اللغة الفرنسية يعتمد على تعرض الناس للغة وطبيعة علاقة هؤلاء الناس بالسلطات الفرنسية والمستعمرين، واستمر هذا النوع من التعدد اللغوي قائماً بعد الاستقلال ولكن قدر الكفاءة بعد الاستقلال أصبح يعتمد على قدر التعليم، ولكن بعكس الفترة الاستعمارية يجب على كل فرد يجهل المدرسة أن يتعلم العربية الفصحى مع الفرنسية.

لا توجد أي إحصاءات تدل على قدر معرفة الفصحى والفرنسية في المغرب العربي، ولكننا سنقدم في الجدول التالي تقديرات من عام ١٩٦٨ مبنية على نسبة التخرج من مختلف المدارس:

الحالة اللغوية	تونس	المغرب	الجزائر
العربية فقط	٣٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠
متعددو اللغات	٥٠٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
الفرنسية فقط	١٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠
المجموع العام	٩٠٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠٠	٣١٠٠٠٠٠
	٢٠ بالمائة	١٠ بالمائة	١٢ بالمائة

بالرغم من أنه من المؤكد أن تلك الأرقام قد تغيرت في السنوات الأخيرة تغيراً كبيرا إلا أنها تعكس حقيقة ستدوم فترة طويلة في شمال أفريقيا، فهناك لغتان رفيعتان تتنافسان على نفس المكانة والوظيفة وهما العربية الفصحى والفرنسية، لقد أثر الماضي الاستعماري على التوجه اللغوي لدى المتكلمين تأثيراً كبيراً. درس بن تهيلة (١٩٨٣) هذا التوجه اللغوي بتقنية صممت لاستنباط توجهات المتكلمين لاستخدام الأنماط اللغوية المتاحة المختلفة، وبينت التجربة أن المغاربة يقعون فعلا تحت تأثير اللغة التي يسمعونها، فهم يفضلون الفرنسية على العربية بشرط أن تكون الفرنسية المستخدمة سليمة وحسنة. فالمغربي ينظر لمتكلم الفرنسية على أنه متحضر ومثقف ومتعلم ومهم، ولكن نفس الأشخاص عندما يتكلمون العربية فإن المغربي يفضلهم في مسائل متعلقة بالصداقة والحميمية والحياة الاجتماعية، ومن الغريب أن معظم المشتركين في الدراسة وضعوا الشفرة المختلطة في مكانة حقيرة جداً، وعندما سأل الباحث المشتركين في الدراسة عن وجهة نظرهم في التعدد اللغوي أجابوا بأنه من المميزات الكبيرة للفرد وللمجتمع وخاصة في التعليم، ومن المثير أيضًا أن معظم المشتركين في الدراسة فضلوا التعريب بشرط أن يكون النمط المستخدم نمطًا فصيحًا، وجاء هذا التفضيل في ظل تفضيل آخر للتعدد اللغوي، وكذلك أقر معظم المشتركين في الدراسة أن العربية لغة

مناسبة لتدريس العلوم ولكنهم في نفس الوقت فضلوا استخدام الفرنسية لتدريس تلك العلوم. تعكس تلك النتائج الصراع الكبير بين توجهات الناس الفعلية ووجهة نظرهم الرسمية في المسائل اللغوية في مرحلة ما بعد الاستعمار.

هناك معلومات متاحة عن الاختيار اللغوى الفعلي في المجتمع المغربي ولكن معظم الدراسات التي تهتم بهذا المجال في شمال أفريقيا تجمع العربية الفصحى واللهجة المحلية في تصنيف واحد في مقابل الفرنسية، بينت دراسة بن تهيلة (١٩٨٢) للاختيار اللغوى في المغرب أن المشتركين في الدراسة وهم من متعددى اللغات يتكلمون العربية وحدها مع كبار السن والفقراء وفي المحيط العائلي، بينما يستخدمون الفرنسية وحدها مع الأطباء والرؤساء في العمل، وعندما قيم بن تهيلة الأنماط اللغوية وتوزيعها على الوظائف اكتشف أن اللهجة المغربية تستخدم أقل ما تستخدم في مجالات التعليم وأكثر ما تستخدم في المجالات المنزلية، واكتشف أيضا أن الفرنسية تستخدم أكثر ما تستخدم في التعليم وأقل ما تستخدم بين الأصدقاء، يفضل الناس أن يستخدموا نمطا مختلطا من العربية والفرنسية في معرض الكلام مع الأصدقاء.

تعتبر إجابات المشتركين في الدراسة لأسئلة حول تفضيلاتهم اللغوية لوسائل الإعلام والمجالات الكتابية عنصراً مثيراً في تلك الدراسة، وتبين التعليقات التي صاحبت إجابات المشتركين في الدراسة الانطباعات التي يحملها الناس لكل من النمطين، يفضل الناس الفرنسية بسبب محتوى الرسالة الفرنسية، ويفضلون العربية بدافع من إحساسهم بالواجب تجاه الوطن.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين العربية الفصحى واللهجة المحلية فإن هناك نزعة لظهور أخطاء السلامة الزائدة في الفصحى، ومما لا شك فيه أن لهذه النزعة صلة بإحساس المتكلم بالرغبة في منافسة رفعة شأن اللغة الفرنسية. وتعمل تلك الرغبة على إجبار المتكلم على أن يحاول أن يستخدم أفضل ما عنده من الفصحى في الكلام، فتجد من يتكلم العربية في وسائل الإعلام يحاول أن يصحح لغته العربية فيستخدم علامات الإعراب حتى في الوقف، بالرغم من أن الإعلاميين في المشرق العربي لا يستخدمون علامات الإعراب تلك قط. ولذلك تجد تغيير النمط من الفصحى للعامية والعكس يعكس

انتقالاً حاداً من نمط لنمط آخر ويكون الاختلاف بينهما واضحاً. فتجد مثلاً وضع عناصر فصيحة مع سمات أساسية في اللهجات العربية كاستخدام سوابق المضارع الفعلية تمثل سمة من سمات لغة وسائل الإعلام في المغرب العربي.

لا تذكر معظم دراسات الاختيار اللغوى في المغرب العربي اللغة البربرية أبداً بالرغم من أن هناك أقلية كبيرة جداً من متعددى اللغة بالعربية والبربرية، ومن الممكن أن تكون الفترة الاستعمارية الفرنسية هي التي تسببت في الوضع الهامشي للهجات البربرية. ففي عام ١٩٣٠ أصدرت السلطات الفرنسية قراراً بمنع تدريس العربية في المناطق التي تتكلم البربرية، ودعمت الحكومة التدريس باللغتين الفرنسية والبربرية وحاولت المباعدة بين متكلمي العربية ومتكلمي البربرية عن طريق بعض الإجراءات الإدارية والسياسية، بالرغم من عدم وجود أي دليل على تعاون البربر مع الحكومة الفرنسية في هذا الشأن فإن المجتمع في هذه المنطقة يربط بين المسألة البربرية والفترة الاستعمارية الفرنسية وخاصة في الجزائر والمغرب، فقد منعت الحكومة في البلدين بعد الاستقلال أي دعم علني للثقافة البربرية ولغتها، وفي الجزائر حرمت الحكومة كل المطبوعات المنشورة باللغة البربرية عام ١٩٧٦، ومن المؤكد أيضاً أن عملية التعريب كانت موجهة للبربر الذين تحتم عليهم إرسال أولادهم لمدارس عربية، وقد نتج عن تلك السياسات أن معظم البربر في شمال أفريقيا باستثناء بربر الريف الداخلي متعددى اللغات بالعربية والبربرية.

ولكن تغيراً كبيراً حدث في المغرب عام ١٩٩٤ عندما أصدر الملك نفسه تصريحاً يقول فيه إن اللغة البربرية وثقافتها عنصر مهم من عناصر المجتمع المغربي، ولذلك أمر بإدخال البربرية في التعليم في المدارس الابتدائية، ولكنه من السابق لأوانه أن نجزم ما إذا كانت تلك التطورات ستؤدي إلى تغيير حقيقي في موقع اللغة البربرية، وفي الجزائر حاولت الحكومة في السنوات الأخيرة أن تدمج المسألة البربرية في سياساتها الخاصة فأنشأت في الجنوب مركزا للدراسات البربرية، ومع ذلك فلابد أن نقول إن الحكومة ما تزال تشك في تلك التطلعات البربرية لموقع أفضل ولا تثق بها، ولم يحاول الأصوليون أن يربطوا أنفسهم بتطلعات البربر أبداً، بل إن الأصولية تنظر للبربر على أنهم مسلمون فيهم نزعة خلاف وحيود عن جادة الدين السليم.

تركت فترة المجاورة الطويلة للعربية والفرنسية آثارها على التراكيب اللغوية، وقد رأينا سابقًا أن نمط العربية الفصحى المستخدم في شمال أفريقيا يحمل في طياته سمات التراكيب المسبوكة الفرنسية المنقولة، وفي اللهجات المغربية المختلفة هناك عدد كبير من الكلمات المقترضة والتي دخلت تلك اللهجات، يقول هيث (١٩٨٩) إن أية عملية لدمج الكلمات المقترضة في لغة ما يجب أن تسبقها عملية طويلة من تغيير شفرة الخطاب، وإذا ما نظرنا لحالات أخرى من تغيير شفرة الخطاب فسنجد أن كل الكلمات المقترضة في اللهجات المغربية يجب أن تكون راجعة لفترة كانت فيها معرفة الفرنسية في البلاد معرفة سطحية، وفي فترة لاحقة عندما أصبح هناك متعددو لغات حقيقيون في البلاد أصبح الاقتراض اللغوي في البلاد يشمل كلمات عشوائية لا يمكن التنبؤ بسياقاتها ومجالاتها.

وقد ركز هيث على أنماط تضمين الكلمات الفرنسية في العربية المغربية، قديما كانت المغربية تضمن الكلمات الإسبانية على أساس المصادر، ولكن الحال يختلف مع الفرنسية التي يضمنها المغاربة بشكل فعل معمم ينتهي بصوت لين ويقول هيث إن الأفعال الفرنسية التي تنتهي بـ er قد شكلت أساساً جيداً للنقل للمغربية، فتجد اللهجة المغربية قد جعلت من تلك الأفعال أفعالا معتلة الآخر وصرفتها بهذا الشكل كما هي الحال في الفعل "يدكلري" الذي تضعه المغربية في الماضي كما يلي: "دكلري"، وتشبه اللهجة المغربية في ذلك اللهجة المالطية التي اعتمدت هي الأخرى على تصنيف الفعل المعتل لتضمين الكلمات المقترضة، ومن بين الأفعال المقترضة من الفرنسية فعل "يبلس" الذي يعني بالفصحى "يجرح"، ومن تلك الأفعال المقترضة يستطيع المتكلم المغربي أن يشتق اسم فاعل وفعلا مبنيا للمجهول، وفيما يتعلق باقتراض الأسماء فإن جنسها في اللهجة المغربية يحدده وجود صوت لين قصير في الكلمة من عدمه، فكلمة مثل "دوش" منكرة لغياب صوت اللين على آخرها، ولكن كلمة مثل "أنطرن" فهي مؤنثة لوجود صوت لين ، ومعظم جموع الأسماء المقترضة من الفرنسية جموع مؤنث سالم، فتجد كلمة "جارات" أي "محطات" مجموعة من كلمة "جار" بإضافة الألف والتاء، ولكن ذلك لا يعني غياب صيغ جموع التكسير لتلك الكلمات، بل إنها صيغ متواترة بكثرة في الحقيقة.

هناك حالة خاصة جداً من حالات تغيير شفرة الخطاب وخلطها فيما يسمى بالفرانكو أراب في المغرب العربي ولبنان، وهي حالة واردة في السياقات متعددة الثقافات في الأسر وبين جماعات الطلاب، وقد يصل الخلط بين العربية والفرنسية في تلك الأنماط إلى كل المستويات التحليلية في اللغة، ولا يسمى معظم مستخدمي الفرانكو أراب هذا النمط لغة مستقلة بل أن الناس لا يحبذون أن يستخدمها الطلاب مثلا أبدا، ومع ذلك فإن الخلط المنظم للفرنسية بالعربية مرموق ومحبب في بعض الأوساط الاجتماعية وخاصة دوائر الشباب في سياقات حميمة نوعًا ما، ويعتمد وجود هذا النمط على الوضع القائم في البلاد فعندما يتغير الحال الاجتماعي والسياسي كما حدث في لبنان عقب الحرب الأهلية فإن استخدام الفرانكو أراب سيتوقف، ولا يمكن اعتبار هذا النمط شفرة خاصة ومستقلة لأن المتكلمين ليسوا ملتزمين باستخدامه في البيت ولا يعتقدون هم أنفسهم أنه لغة خاصة بهم، ولكن على العموم يعتبر خلط الشفرات اللغوية مسألة غير محببة، فالكثير من الناس ينظرون إلى خلط الشفرات هذا على أنه سمة عجز في الكفاءة اللغوية ومدمر في تربية الأطفال .

تعتبر دراسة الفرانكو أراب وآلية خلط الشفرة اللغوية فيه هامة جداً لفهم طبيعة التعدد اللغوي، فبالرغم من أن الفرانكو أراب يبدو عشوائيًا إلا أنه من الممكن جدا أن يكون في بنيته وتركيبه يتبع قواعد نحوية معينة، ويعني ذلك أن المتكلمين يتجنبون بعض التوليفات ويستخدمون بعضها الآخر، يقول عباسي (١٩٧٧: ١٦٢) مثلا إن الفرانكو أراب يسمح بتراكيب مثل "الأول ديال le mois" الذي يعني "بداية الشهر" بحيث تجتمع أسماء الإشارة العربية وأدوات الإضافة التحليلية وحروف الجر مع الأسماء أو الصفات الفرنسية. ولكنه من غير المقبول بنفس الدرجة أن تضع الأسماء الفرنسية أو حروف الجر أو أدوات الإضافة قبل اسم عربي أو صفة، هناك معوقات نحوية أخرى موجودة في الأبحاث اللغوية التي أجريت على الشباب المغاربة في هولندا وخلطهم بين كلمات العامية المغربية واللغة الهولندية.

الفصل الثاني عشر

اللغة العربية لغة أقلية

١٢ - ١ مقدمة

أصبح بعض متكلمي العربية معزولين عن المنطقة المركزية في حقب مختلفة من التاريخ، ولما كانت تلك الجماعات العربية تعيش في وسط مجتمعات أجنبية فكان لزامًا عليها أن تستخدم لغة المجتمع الذي تعيش فيه لتقوم بمهامها الاجتماعية، ولكن تلك الأقليات احتفظت بالعربية لغة للتواصل في المنزل، عادة ما يكون اللغة المنزل في تلك الجزر اللغوية شأن ضئيل وحقير، فينزع المتكلمون إلى استخدام اللغة الرسمية في تعاملاتهم اليومية. وعادة ما تكون لغة المنزل تلك عرضة لكل أنواع الضغط اللغوى بسبب خلط شفرة الاتصال المتكرر وكثرة عدد الكلمات المقترضة من اللغة الرسمية، لذلك تعتبر الجزر اللغوية أو الجيوب اللغوية عنصرًا مهمًا جدًا في دراسة الاتصال اللغوى.

تساعد دراسة الجيوب اللغوية العربية كذلك في تعميق فهمنا لتاريخ اللغة العربية، فقد كان أثر العربية الفصحى في تلك الجيوب اللغوية أقل من نفس التأثير على لهجات العالم العربي نفسه بكثير، ولذلك يمكننا أن نعتبر أن بنية تلك اللهجات تمثل شكلاً قديما من أشكال العربية المتكلمة في المناطق التي وردت منها لهجات الجيوب اللغوية، لأن تلك اللهجات لم تتعرض في تاريخها لضغط يذكر من الفصحى التي اعتبرها المتكلمون العرب في العالم العربي الأم هدفا يسعى المتكلم لتحقيقه، ومع ذلك فليس هناك اتصال مباشر بين تلك اللهجات في المرحلة التي انعزلت فيها عن العالم العربي وبين تركيب تلك اللهجات في عصرنا الحالي، وكذلك لم يكن أي جيب لغوى منعزلاً عن

العالم العربي الأم انعزالا تاما باستثناء المالطية، بل إن المتكلمين في الجيوب اللغوية كانوا يحتفظون بعلاقات قوية بالشكل اللغوي الرفيع المستخدم في المراكز الحضرية العربية الإسلامية حتى ولو كان الغرض الوحيد من ذلك الاتصال هو الحفاظ على الدين الإسلامي.

سوف نناقش في هذا الفصل باختصار الوضع اللغوي في الجيوب اللغوية التي تستخدم فيها العربية كلغة كلام، وسوف نناقش كذلك الوضع اللغوي بالنسبة للمهاجرين العرب في غرب أوروبا وأمريكا.

١٢- ٢ عربية مالطا

عندما فتح الأغالبة التونسيون مالطا عام ٢٥٦ هجرياً كان سكان الجزيرة من المسيحيين الذين يتكلمون نوعاً من اللهجات الرومانسية، تحول كل الشعب في مالطا إلى اللغة العربية في فترة الحكم العربي، وإذا صدقنا ما قاله الحميري – الجغرافي العربي (برنكات ١٩٩١)- فإن الجزيرة ظلت خاوية من سكانها لمدة ١٨٠ عاماً أعيد إعمارها بعدها بسكان يتكلمون العربية. وعلى أية حال لم تترك لهجة السكان الأصليين أي أثر في اللغة المالطية .

وغزى النرميون جزيرة مالطا عام ٤٤٥ هجرياً ولكن أحد المصادر المعاصرة تقول إن ثلثي سكان الجزيرة في القرن الثالث عشر كانوا من المسلمين، ولكن هؤلاء المسلمين إما نفوا من الجزيرة أو تحولوا عن الإسلام في القرون التالية، واختفت العربية الفصحى من الجزيرة باختفاء الإسلام. ولكن اللهجة العربية المحلية ظلت مستخدمة، وبالرغم من أن اللغتين اللاتينية والإيطالية قد حلتا في الجزيرة مكان العربية في الدين والثقافة على التوالي إلا أن المجتمع اصطلح على استخدام اللهجة المالطية للتواصل بين الكهنة ورعاياهم، ولم يستخدموا الإيطالية التي كانت لغة الكنيسة الرسمية.

يرجع تاريخ أقدم نص مالطي ورد إلينا إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وهو نص الكنتيلاني، ولكن كان على المالطية أن تنتظر حتى عام ١٧٩٦ ليعترف

بها العالم على أنها لغة مستقلة قائمة بنفسها وليست لهجة من لغة أخرى، وكان ذلك بعد نشر ميكيل فاسالي لكتاب في نحو المالطية أسماه kytb yl klym malti "كتاب اللغة المالطية". وحلت الإنجليزية محل الإيطالية في موقع اللغة الرسمية عام ١٨١٤ بعد أن أصبحت الجزيرة تحت حكم التاج البريطاني، ولكن اللغة المالطية دخلت إلى مناهج التعليم في تلك الفترة، وتم الاعتراف بها لغة قومية ثانية عام ١٩٣٣، وبعد الاستقلال أصبحت المالطية اللغة الرسمية لجمهورية مالطا، وتكتب بالخط اللاتيني.

بالرغم من المجهودات الكبيرة التي قامت بها الحكومة المالطية في السبعينيات والثمانينيات لتوضيح شخصية المالطية العربية وتقديم اللغة العربية في المدارس كمادة إجبارية لا يحب معظم المالطيين أن يتذكروا أصول لغتهم العربية. فهم لا يحبون أن يربط الناس بينهم وبين العالم العربي بل يفضلون أن يطلقوا على لغتهم لغة سامية وكفى. لم يعد أحد يهتم بالنظريات القديمة عن نشأة اللغة المالطية ولذلك فأقسام العربية والمالطية في جامعة فاليتا منفصلة تماماً.

اندمجت بعض الصوامت في اللغة ولكنها ظلت منفصلة في الكتابة، من بينها صوت القاف الذي أصبح همزة. وكذلك اختفت العين والغين كلية في معظم الأماكن ولكنهما ظلا موجودين في الكتابة يدل عليهما الرمز الكتابي gh واندمج كذلك صوت الخاء في صوت الحاء، واختفى صوت الهاء أيضاً من معظم البيئات الصوتية، وفقدت الأصوات المفخمة سمة التفخيم فيها، ولكن بالرغم من أن معظم المالطيين يعتقدون أن لغتهم لغة مستقلة عن العربية إلا أن كل محاولات إصلاح الكتابة محاولات تضع التاريخ نصب أعينها، ويعني ذلك أنها تحاول إعادة الكتابة لمرحلة قريبة من الكتابة العربية وخاصة في المناطق التي دمرت فيها التطورات الصوتية الشكل الكتابي التقليدي.

السمة المدهشة في تلك اللغة وجود قدر كبير جداً من الكلمات المقترضة من الإيطالية والصقلية التي أصبحت مدمجة في تركيب بنية اللغة المالطية، بالرغم من أن هناك أمثلة من لهجات عربية كثيرة تبين أنها اقترضت كلمات ودمجتها في بنيتها إلا أن المالطية لهجة استثنائية في كمية الكلمات المقترضة من الإيطالية ومن الإنجليزية مؤخراً

وفي التأثير الذى سببته الكلمات المقترضة على صرف اللغة. لقد تكلمنا سابقًا عن طريقة إدماج الكلمات الأجنبية فى اللهجات العربية، وهى نفسها الطريقة التى أدخلت بها المالطية القديمة الكلمات إليها ودمجتها. تعمل اللهجات العربية على وضع الصوامت الأجنبية فى صيغ صرفية عربية عادية. استعارت المالطية من الإيطالية كلمة serpe "ثعبان" وجعلتها serp وجمعتها بصيغة جمع التكسير srilp .

بين مفسود (١٩٩٥) أن تدفق الكلمات المقترضة على المالطية كان تدفقًا كبيراً لدرجة أنه أدى إلى تغيير فى البنية الصرفية اللغة، فلم تعد المالطية لغة تقوم فى اشتقاقها على الجذر بل على جزء الكلمة، فلم تعد الطريقة العربية القديمة لتضمين الكلمات مستخدمة وأصبحت المالطية تحتاج إلى طريقة جديدة. فمعظم الأفعال الإيطالية يتم إدماجها عن طريق استخدام فعل الأمر أو المضارع للغائب، وتنتهى تلك الأفعال فى المالطية بصوت الفتحة القصير. ومما سهل تلك العملية أن أكبر تصنيف للأفعال المالطية هو تصنيف الفعل المعتل الذى ينتهى بنفس الصوت، ولذلك لا تستطيع أن تفرق بين الأفعال ذات الأصل الإيطالى والأفعال العربية، وتعمل نفس طريقة الاقتراض تلك مع الأفعال الأطول والأكثر تعقيداً، تدخل سوابق المضارع المالطية على الأفعال المقترضة من الإيطالية، فتأخذ تلك الأفعال إما كسرة أو فتحة.

وحدث تطور مماثل فى نظام الأسماء فى المالطية، ولما كانت الأسماء العربية عادة مكونة من جذور ثلاثية ومعظم أسماء الجمع تصاغ بصيغ جموع التكسير، وفى اللهجة المالطية يتم إدماج الكلمات المقترضة من الإيطالية عن طريق إعادة صياغة بنياتها الأصلية واضعة فى الاعتبار آخر مقطعين فقط، ولذلك تستقبل تلك الكلمات جموع تكسير تفعل فعلها على المقاطع الأخيرة، وبتلك الطريقة انتفى الفرق بين الصرف الإيطالى الذى يعتمد على اللواحق والصرف المالطى الذى يعتمد على صيغ جموع التكسير، وبذلك أصبح الطريق معبداً لدخول كلمات مقترضة جديدة، وظهرت فى الحقب الأخيرة نزعة لتجنب استخدام صيغ جموع التكسير مع الكلمات المقترضة من الإنجليزية، ولكن لاقتباسها وصيغ جمعها.

١٢ - ٣ عربية موارنة قبرص

عربية موارنة قبرص لغة البيت لمجموعة صغيرة من القرويين الذين يعيشون في قرية كورماكيتي في شمال غرب قبرص، يرجع تاريخ وجود الموارنة العرب في قبرص إلى الفترة ما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، انتشر معظم أفراد تلك المجموعة في عموم الجزيرة بعد الغزو التركي في عام ١٩٧٤، وخلت القرية إلا من ٥٠٠ شخص، ولذلك يعتبر هؤلاء الخمس مائة الفئة المارونية الوحيدة في قبرص التي يمكن اعتبارها متعددة اللغات بالعربية واليونانية، تعتبر عربية موارنة قبرص مهمة جداً في معرض الدراسة التاريخية للهجات المنطقة السورية اللبنانية والمنطقة العراقية بالرغم من قلة عدد المتكلمين وتفردها في بعض السمات، تشترك عربية قبرص في معظم سماتها مع اللهجات الحضرية السورية، ومن بين أشهر أمثلة التشابه وجود سابقة المضارع pi التي ترجع في تاريخها للباء السورية على المضارع، وكذلك يذكر بورج (١٩٨٥) أن هناك سمات مشتركة كثيرة بين عربية قبرص واللهجات الحضرية العراقية، من بين تلك السمات وجود أداة ta المستقبلية التي تستخدم أيضاً لهذا الغرض في عربية الأناضول، ومن بين السمات المشتركة مع اللهجات العراقية أيضاً أداة الماضي kan يقول بورج إن تلك السمات المشتركة مع المجموعتين اللهجيتين ترجع إلى فترة كانت المنطقتان ملتحمتان فيها لغويا.

هناك ثلاث سمات تضفي على عربية قبرص طبيعتها الخاصة، وهي: تطوير الأصوات الانفجارية العربية، وتخفيض الصيغ الصرفية، ووجود كلمات يونانية مقترضة كثيرة. أولاً اختفى الفصل بين الجهر والهمس في الأصوات الانفجارية في تلك اللهجة، وربما يكون ذلك راجعاً إلى تأثير أصوات اليونانية، وأصبح نطق تلك الفونيمات معتمدا على البيئة الصوتية بالكامل ؛ فتنطق مجهورة بين أصوات اللين وتنطق مهموسة في أواخر الكلمات، وتصبح الأصوات الانفجارية احتكاكية قبل أي صوت انفجاري آخر، وإذا كانت هناك متوالية من ثلاثة أصوات انفجارية فإن الثاني يختفي، وفقدت عربية قبرص كذلك الأصوات المفخمة، ولكنها احتفظت باثنين من الأصوات التي تخرج من بين الأسنان وهما صوتا الثاء والظاء، ولكن صوت الذال قد تحول إلى دال أو تاء.

ثانيًا، تم تقليل عدد صيغ جمع الاسم بشكل كبير، هناك فقط خمسة صيغ تتطابق مع صيغ جموع التكسير في اللهجات العربية العادية، وحلت at كلاحقة للجمع محل معظم صيغ الجموع، فمثلا تجد جمع كلمة "بطن" "بطنات"، وكذلك جمع كلمة "مخ" "مخات". أما بالنسبة لأداة الإضافة التحليلية فهي tel للمذكر و shayt للمؤنث وshat للجمع.

ثالثًا، تغطى الكلمات المقترضة اليونانية المجالات الرسمية، ولكنها أيضا تتعدى ذلك لتغزو مجالات الحياة اليومية الكلمة الدالة على الطائرة والسكر والحرب وغيرها، وكما هى الحال فى المواقف اللغوية المشابهة يصعب تحديد ما إذا كان الموقف موقف تغيير شفرة الخطاب أو كلمات مقترضة بشكل فعلي، لا تنطبق تلك الصعوبة بالطبع على سمات مقترضة من أمثال لاحقة التصغير اليونانية التى توضع على أواخر الكلمات العربية.

١٢ - ٤ عربية الأناضول

لم تختف آثار اللهجات العربية من الأناضول بعد أن فتحها السلاجقة، فعندما أصبحت اللغة التركية لغة الإمبراطورية السلجوقية وبعد ذلك العثمانية ظلت العربية الفصحى لغة الدين والثقافة، ولكن مكانة اللهجات العربية تغيرت بالكلية، فقد تحول متكلمو اللهجات العربية بمرور الوقت للتركية أو الكردية، ولكن بعض المجتمعات فى وسط الأناضول احتفظت بلهجاتها العربية كلغة كلام منزلى، وأصبح معظم هؤلاء الناس يتكلمون بذلك لغتين أو ثلاثة.

تحتل اللهجات العربية في الأناضول تصنيفًا من ثلاث تحت تصنيف مجموعة اللهجات العراقية الذى قام به جسترو عام ١٩٧٨، عدد متكلمى تلك اللهجات لا يزيد على ١٤٠ ألف شخص يتكلمون بجوار العربية الكردية والتركية، تنقسم اللهجات العربية لخمس مجموعات : مجموعة دياربكير التى يتكلمها مجموعة من المسيحيين واليهود، وشارفت تلك اللهجة الآن على الفناء، ومجموعة مردين، ومجموعة سيرت، ومجموعة كوزلوك، ومجموعة ساسون، وهناك مدينتان كبيرتان تتكلمان العربية هما ماردين وسيرت، ولكن الحال فى سيرت تتغير إذ تحل التركية محلها بالتدريج.

ابتعدت اللهجات الأناضولية عن العربية الفصحى أكثر مما ابتعدت باقي اللهجات الحضرية الأخرى، هناك بعض السمات الخاصة التي تميز اللهجات الأناضولية العربية، من بين تلك السمات لاحقة النون على آخر ضمير المخاطب والغائب في كلمة "بيتكن" التي هي في الفصحى "بيتكم". ومن بين السمات المميزة للهجات الأناضولية أيضا أداة النفي مو التي تستخدم مع الفعل المضارع، ولكن تلك السمات صغيرة وتفصيلية بالمقارنة بالسمات الكبيرة المميزة لتلك اللهجة.

هناك تباينات كثيرة بين اللهجات الأناضولية في النواحي الصوتية والصرفية، فقد تطورت الأصوات التي تصدر من بين الأسنان بشكل مختلف في كل لهجة عن الأخرى، فهناك أصوات الثاء والذال والظاء في لهجة مردين، وتعادلها أصوات التاء والدال والضاد في لهجة دياربكير، وتعادلها أصوات السين والزاي والظاء في كوزلوك وساسون، يبين هذا التباين أن تلك اللهجات قد سلكت طرقا مختلفة في التطور اللغوي.

أما في النواحي الصرفية فهناك اختلافات كثيرة بين اللهجات الأناضولية، فتجد مثلاً أن أداة الإضافة التحليلية مختلفة في كل لهجة عن الأخرى. فتجد أن بعض اللهجات تستخدم \ديلا \وهي دمج بين عنصرين نحويين منفصلين أصلاً، بينما تستخدم لهجات أخرى توليفة من \لي \واللام. تعتبر اللهجات الأناضولية غنية جداً بالأدوات التي تدخل على الفعل، فهي تمتلك أداة لجهة المضارع الحقيقي \كو \والتي تأتي على شكل سابقة على الفعل، وتمتلك أيضاً سابقة للمستقبل وهي \تا \أو أحياناً \ دا .\وكذلك تمتلك اللهجات الأناضولية أداة للماضي المستمر وهي \كِن \، وأداة للمضارع وهي \كو \أو \كول/.

من التجديدات اللغوية العظيمة في تلك المجموعة اللهجية تطوير فعل كينونة رابط مشتق من الضمير يوضع عادة بعد خبر الجملة، فتجد في لهجة قرطمين مثلا جملاً من أمثال thamm aggabb dayyaq-we "فتحة البئر ضيقة". هناك تطور آخر يكمن في استخدام أداة إشارة رابطة مكونة أساسا من أداة الإشارة ka تجد تلك الأداة في الجملة التالية التي انتخبناها من نفس اللهجة: abnu kuu qaddam ammu "ابنه قبل أمه" (انظر جسترو ١٩٧٨: ١٣١– ١٤٢)، بالرغم من أن اللهجات الحضرية التي يتكلمها

مسيحيو بغداد تمتلك فعل ربط كلهجات الأناضول إلا أن تنوع الأدوات وزيادة وظائفها سمة تختص بها لهجات الأناضول عن غيرها من اللهجات العربية.

يتميز معجم لهجات الأناضول العربية بكثرة الكلمات المقترضة من التركية والكردية. معظم الكلمات التركية في تلك اللهجات لها علاقة بالإدارة والجيش كما هي الحال في كلمة damanca "مسدس" التي هي في التركية tabanca، بعض الكلمات التركية في تلك اللهجات من أصل عربي ودخلت على التركية ثم منها للهجات الأناضول العربية كما هي الحال في كلمة haqqsaz "ظلم" التي هي في التركية haksiz ، وهي مركبة من الجذر العربي "حق" واللاحقة التركية siz وتختص الكلمات الكردية بالمجالات الزراعية والمنزلية، بل إنها بدأت تدخل في مجالات الكلمات الدارجة كما هي الحال في doost "صديق".

وقد ضمنت اللهجات الأناضولية الكلمات المقترضة القديمة صوتيًا وصرفيًا في بنيتها بوضعها في صيغ جمع التكسير مثلاً، في حالة تلك الكلمات نحن نعرف بشكل يقيني أننا نتعامل مع كلمات مقترضة، ولكن المتكلمين أحيانا كثيرة يستخدمون كلمات أجنبية بدون تعديلها صوتيًا لتناسب أصوات اللهجة بل إن المتكلم قد يفعل ذلك وفي لهجته مرادف كامل وحسن، ويعتبر استخدام الكلمة الأجنبية في مثل تلك الحالة نتيجة مباشرة للوضع متعدد اللغات الموجود في مناطق تلك اللهجات، يدفع ذلك الوضع المتكلم إلى أن يغير شفرة الخطاب من لهجته الخاصة للغة الرفيعة، يفسر ذلك الوضع وجود الكثير من الكلمات المقترضة والتي تستخدم لمرة واحدة من أمثال تلك الكلمات المقترضة التي تظهر مرة واحدة في المادة اللغوية التي جمعها الباحثون اللغويون الميدانيون من أمثال فوكا وفالدنر (١٩٨٢)، على ذلك فإن تعداد الكلمات الذي أجراه الباحثان السابقان يشير إلى أن حوالي ٢٤ بالمائة من مفردات عربية الأناضول كلمات مقترضة، تختلف اللهجات من حيث اللغة التي تقترض منها بشكل أكبر، ففي لهجة دراجوزو يمثل حوالي ٣٢ بالمائة من المعجم كلمات مقترضة أجنبية. خمسة بالمائة من تلك النسبة مقترضة من اللغة التركية، بينما يمثل ١١ بالمائة كلمات مقترضة من الكردية، وأصول باقي النسبة غير معروفة. أما بالنسبة للهجة ماردين فهناك ١٥ بالمائة

من كلمات المعجم مقترضة، من بينها ١٢ بالمائة كلمات تركية، وخمسة بالمائة من أصل كردى، ولا نعرف أصل باقى النسبة. لا تنتمى معظم الكلمات الأجنبية المقترضة إلى المفردات الأكثر شيوعًا لأن حوالى ٥ بالمائة فقط من الكلمات اليومية الدارجة من أصل عربى.

من الظواهر المثيرة استخدام تعبيرات فعلية اسمية التى تشترك كلها فى الفعل العربى "سوى"، المثير فى المسألة أن هذا الاستخدام يشبه استخدام الكلمات العربية المقترضة فى لغات أخرى وليس كاستخدام الكلمات الأجنبية فى اللهجات العربية الأناضولية. هناك الكثير من تلك التعبيرات فى عربية الأناضول والتى تحتوى على كلمات تركية وكردية، وليس ذلك فحسب بل تجد تراكيب من أمثال تلك تحتوى على كلمات عربية مقترضة أيضًا. فتجد مثلاً تراكيب من أمثال "سوى تلافون" و"سوى إشارة" و"سوى محفظة" أى "يحمى". من الممكن جداً أن تكون تلك التعبيرات نقش مسبوك للتعبيرات التركية التى تبدأ بكلمة etmek

١٢ – ٥ عربية أوزبكستان وأفغانستان

ظهرت معلومات فى الستينيات حول لهجة عربية يتكلمها مجموعة من الناس فى جمهورية أوزبكستان السوفيتية وقت ذلك، ولما كان متعذرًا على علماء العربية الغربيين أن يدخلوا تلك المنطقة وقت ذاك فقد كان العمل الميدانى متركزًا فى أيدى العلماء السوفييت من أمثال فينيكوف وتسيرتلى، وعرفنا من أبحاث هذين العالمين أن العربية موجودة فى منطقة قشقا داريا التى كانت تحوى ألف متكلم للعربية فى عام ١٩٨٣ ومنطقة بخارا التى كانت تحوى ٤٠٠ متكلم فى نفس العام، معظم هؤلاء المبحوثين يتكلمون لغتين أو ثلاثة، وينتقلون بين الطاجيكية والأوزبيكية اللتان تعتبران لغتى المجتمع المحيط بجزيرة العرب اللغوية، أصبح من الواضح لدينا الآن أن تلك اللهجة قريبة من اللهجات العراقية والأناضولية الحضرية، ولكنها تطورت فى اتجاهها الخاص، فقد عرفنا من البحث الميدانى الذى أجراه ديريلى عام ١٩٩٦ أن سكان قريتى جوجارى وأرابخانة يستخدمون العربية فى حياتهم اليومية.

ليست الأصول العرقية للعرب الأوزبيك معروفة بشكل واضح حتى الآن. تقول بعض الروايات إن وجود العرب في تلك المنطقة وتحولها إلى الإسلام يرجع لأيام قتيبة بن مسلم والي خرسان الذي فتح بخارى وسمرقند عام ٨٧ هجرياً، وتربط بعض المصادر الأخرى بين وجود العرب في تلك المنطقة وغزوات تيمور لانك في القرن الرابع عشر، في حين ترجعها مصادر أخرى للهجرات البدوية الأفغانية التي وردت للمنطقة في القرن السادس عشر، ولكن من المحتمل جدا أن تكون هناك مراحل مختلفة من التعريب حطت على تلك المنطقة، مما يبرر المعجم المختلط لتلك اللهجة.

لا نعرف الكثير أيضاً عن اللغة العربية التي يتكلمها الناس في أفغانستان. فقد ظهر أول منشور بلغة غربية عن بقايا اللغة العربية في أفغانستان عام ١٩٧٣، في تلك الأيام كان هناك حوالي ٤ آلاف متكلم للعربية في محافظة بلخ في شمال أفغانستان، معظم متكلمي تلك اللهجة من متعددي اللغة في العربية والفارسية. تنتمي تلك الجماعة اللغوية لمجتمع منغلق على نفسه وتجدهم لا يتزوجون من خارج جماعتهم أبدا. وتشعر تلك الجماعة بفخر شديد بأصلها العربي، تقول المصادر المحلية إن العرب في تلك المنطقة ينتمون لقبيلة قريش، وقد جلبهم تيمور لنك لتلك المنطقة في القرن الرابع عشر، تشبه لهجة أفغانستان العربية اللهجة العربية المستخدمة في أوزبكستان، فهما يعكسان نفس الظواهر الصوتية كاختفاء الأصوات المفخمة والصفيرية ونطق الأصوات التي تخرج من بين الأسنان. تختلف لهجة أفغانستان عن لهجة أوزبكستان في أن الأولى تحتفظ بصوتي الحاء والعين.

ولما كانت لهجة أوزبكستان تنتمي للهجات الحضرية العراقية فهي تعكس الكثير من سماتها، ومع ذلك فإن هناك بعض السمات البدوية في تلك اللهجة لأن تلك اللهجة مازال تحتفظ بصوت القاف المجهور في بعض كلماتها جنبًا إلى جنب مع النطق المهموس، فتجد مثلاً كلمة "جدر" مع "قلب" في آن واحد، ومع ذلك في بعض الأحيان ترجع التنويعات إلى مناطق لهجية مختلفة، هذه هي الحال نفسها بالنسبة للأصوات التي تخرج من بين الأسنان، فقد كان الانعكاس القديم في تلك اللهجات هو الثاء والذال والظاء، وقد تحولت تلك الأصوات تحت تأثير الطاجيكية إلى السين والزاي

وصوت زاى مفخم، ومن الواضح أيضًا أن الأصوات المفخمة قد فقدت سمتها الحنكية. ولكن في بعض الأحيان تحل الأصوات الأسنانية محل الأصوات التى تصدر من بين الأسنان وخاصة في أسماء الإشارة /ذوك/ أو /ذيكى/ مثلاً.

اختفت أداة التعريف العربية الفصحى من لهجة أوزبكستان وحلت محلها أداة جديدة هي /فات/ كما هي الحال في لهجات العراق، صيغ جموع التكسير في الأسماء مقصورة على مجموعة محدودة من الأسماء فقط، أما معظم أسماء العاقل فهي تنتهي بالياء والنون في الجمع كما هي الحال مع "وزيرين" و"آخين". وتنتهي الأسماء المؤنثة العاقلة وغير العاقلة بالألف والتاء في الجمع كما هي الحال في "أمات" و"راسات". أما المركبات الاسمية المكونة من اسم وصفة فيربط الصفة بالاسم لاحقة /ين/ على آخر الاسم، كما هي الحال في المركب التالي: shayaat-in gaali gaali " بضائع غالية"، وقد تظهر نفس اللاحقة في تركيب الإضافة كما هي الحال في nuSSin leel "منتصف الليل". لا نعرف بالضبط أصل تلك اللاحقة إلا أن هناك نظرية تقول إنه راجع إلى كلمة "أي" العربية.

أما في النظام الفعلى فقد أصبح اسم الفاعل معبرًا عن الأحداث التامة، وفقد وظيفته الاسمية تمامًا، وقد حدثت عملية إعادة تحليل كبيرة لأشكال اسم الفاعل مع ضمائر الوصل، فخرج من تركيب اسم الفاعل على ضمير المفعول تركيب جديد لاسم الفاعل مع ضمير متصل يدل على الفاعل، وأصبح الاسم الفاعل في تلك الحالة الجديدة يعبر عن فعل تام، فمثلاً zaarib تعني "ضرب"، و zaarib-in-ni تعني "ضربني" و zaaribint تعني "ضربت". وإذا كان هناك غرض تعدية للفعل فيلحق ضمير الوصل الذى يدل على المفعول به بعد ضمير الوصل الذى يدل على الفاعل فتجد مثلاً تركيبًا مثل zaaribinih الذى يعني "ضربته".

تعتبر لهجة أوزبكستان العربية فريدة بين اللهجات العربية في احتفاظها بترتيب الكلمات: فاعل ، مفعول ، فعل ، وهو ترتيب يخالف الجملة العربية، من الممكن أن يكون أصل هذا الترتيب كامن في تنوع أسلوبى على الجملة الاسمية تقدم فيه مفعول الفعل على فعله. أصبح هذا التنوع الأسلوبى هو الترتيب الأصل الثابت بسبب وجود تلك

اللهجة العربية في بيئة تحيط بها اللغة الأوزبيكية التي هي لغة تركمانية تحتفظ بالفعل في آخر الجملة، وهذا التشابه مع لغة البيئة المحيطة هو الذي دعم ثبات هذا الترتيب الغريب على اللهجات العربية، وعندما يكون المفعول به معرفًا يكون على آخر الفعل ضمير عائد، وتنتج عن تلك التطورات جملة عربية أوزبكية مثل : xadaaha zaglr bagara findu "أخذ الشاب الحجر في يده".

ولو كان تفسيرنا لهذا الترتيب الشاذ صحيحاً فإن تلك المسألة تعد مثلا جيدا على تغير لغوي حدث من تنوع أسلوبي في الخطاب وكرسه وجود لغة مجاورة رفيعة في حالتنا هذه هي الأوزبيكية.

١٢ - ٦ الكريولات العربية في أفريقيا: حالة الكينوبي

هناك حالة خاصة من الجزر اللغوية المنعزلة وهي حالة اللهجة العربية الوحيدة الموثقة لدينا والتي تطورت من عملية تهجين لغوي وكرولة، التهجين اللغوي عملية يصبح من خلالها نمط مبسط من اللغة وسيلة تواصل بين أناس ينتمون لخلفيات لغوية مختلفة، فيحدث أن تلك المجموعة من الناس تكتسب لغة تواصل ثانية في فترة قصيرة من الزمن وبدونما تعليم رسمي منظم، وقد تظل تلك اللغة الهجين مستخدمة لفترة طويلة من الزمن كلغة مساعدة، ولكن عندما يتزاوج أبناء الجماعات اللغوية المختلفة فإنهم يتواصلون فيما بينهم بتلك اللغة المساعدة في البيت وينقلونها لأبنائهم الذين يكتسبونها كلغة أم، ومن خلال عمليات لغوية معقدة من التوسيع اللغوي والتقعيد تصبح تلك اللغة كريولا، فتصبح لغة طبيعية جديدة قائمة بذاتها، معظم حالات التهجين اللغوي المعروفة تحتوي في مكوناتها على لغة هندو أوروبية كالإنجليزية أو الأسبانية أو البرتغالية أو الهولندية أو الفرنسية. ومعظم تلك الهجن تحولت إلى كريولات بفضل العبيد الذين جلبوا إلى العالم الجديد.

عندما حاول الجيش المصري والحملة المشتركة بين مصر والسودان بعد ذلك أن تحتل السودان في القرن التاسع عشر جندوا في صعيد مصر وفي السودان رجالاً من القبائل المحلية، فأصبحت لغة التخاطب الوحيدة المتاحة في معسكرات الجيش في إدفو

هى اللهجة المصرية والسودانية المهجنة التى استخدمها الجنود مع المجندين النوبيين، ولما لم يكن تعريب الجيش المصرى قد تم بالكلية قبل عام ١٨٦٠ فمن الممكن أن تكون تلك العربية المهجنة راجعة لنمط كان موجوداً فى المنطقة من قرون مضت واستخدمه التجار في أغراضهم فى تجارة الرقيق خاصة، ومن المعروف أن التجار استخدموا تلك اللهجة المهجنة فى استيراد العبيد من السودان، وعندما قامت الثورة المهدية فى السودان عام ١٨٨٢ انعزل قائد الجيش المصرى أمين باشا فى الجنوب واضطر لأن يلتحق بالجيش البريطانى فى كينيا وأوغندا، من الواضح أن الكثير من الجنود النوبيين فى ذلك الجيش المصرى قد التحقوا بأمين باشا واستقروا فى تلك المستعمرات البريطانية. وقد تزوج بعض منهم من بنات القبائل المحلية، وكانت لغة التواصل بينهم هى العربية المهجنة التى تعلموها فى معسكرات الجيش المصرى فى السودان، وبدأ أبناء تلك الزيجات يكرولون تلك اللغة المهجنة ونتج عن ذلك الكريول المستخدمة حالياً فى كينيا وأوغندا حالياً، ومن المعروف أن عدد متكلمى تلك الكريول أقل من خمسين ألف متكلم، ويعرفها الناس فى تلك المنطقة من شرق أفريقيا باسم "نوبى" أو كينوبى". وتعتبر سابقة \كى \سابقة تضعها لغات البانتو عادة قبل أسماء اللغات.

من العناصر الملفتة فى تاريخ تطور تلك اللهجة تطورها فى جنوب السودان، فبعد انتهاء الثورة المهدية ظلت العربية المهجنة هى لغة التواصل المشتركة فى منطقة جنوب السودان التى كان الجيش المصرى يتمركز فيها قبل النزوح لكينيا، وتعرف تلك اللهجة الآن بعربية جوبا – وجوبا عاصمة جنوب السودان التى ينتشر فيها استخدام تلك اللهجة. فى السنوات الأخيرة بدأت تتزايد الزيجات المختلطة وبدأ الأولاد يتعلمون عربية جوبا كلغة أم، وتتشبه تلك اللهجة الكينوبى الموجودة فى أوغندا وكينيا فى الكثير من السمات اللغوية، وقد قلنا سابقاً إن التأثير المتزايد الذى تمارسه العربية الفصحى وتمارسه لهجة الخرطوم الرفيعة قد يؤدى فى نهاية الأمر إلى إعادة بناء عربية جوبا لتصبح لهجة عربية عادية.

تعكس الكينوبى الكثير من سمات الكريولات المعروفة فى العالم كالكريول الجاميكى الإنجليزى والكريول الفرنسى فى هيتى، فقد تعرض نظام أصواتها للتقليص

الكبير بالمقارنة باللغة التي تستمد منها مفرداتها، وهي في أغلب الظن اللهجة العربية المستخدمة في صعيد مصر، فقد اختفى صوت الحاء وصوت العين وكذلك اندمجت الأصوات المفخمة في نظائرها غير المفخمة، وتحولت الخاء والغين إلي صوت الكاف، أما فيما يتعلق بانعكاسات صوت القاف والجيم العربية الفصحى فهي موجودة في تلك اللهجة طبقًا لأصلها الصعيدي، فهناك صوت الجيم مكان القاف الفصيحة وصوت الجيم المعطشة مكان الجيم القاهرية، وفي الكثير من الأوقات تسقط تلك اللهجة السواكن القائمة على أواخر الكلمات، فتجد مثلا كلمة ragi بمعني "رجل" وكلمة sandu بمعني "صندوق". وقد أخذت الكينوبي من العربية كلمات بأداة التعريف مثل ghdum التي تعني "الملابس" وكلمة lafiil التي تعني "الفيل".

تمتلك الكينوبي شكلاً فعلياً واحداً مثلها في ذلك مثل باقي الكريولات في العالم، وقد يكون هذا الشكل الفعلي مستمدا من صيغة الأمر العربية. فتجد مثلا كلمات من أمثال alabu "يلعب" و abinu "يبني"، يستخدم هذا الشكل مع المتكلم والمخاطب والغائب، وكذلك يمكن توسعة وظائف هذا الفعل بإضافة الكثير من أدوات الجهة إليه. انظر المثل التالي:

rua "راح"

dana rua "أنا ذهبت"

dana bi-rua "سوف أذهب"

dana gi-rua "أنا أذهب الآن"

ويمكن على ذلك الجمع بين تلك السوابق في كلمة واحدة للتعبير عن زمن مركب كالمضارع المستمر أو المستقبل المستمر وما إلى ذلك.

تنتهي الكثير من الأفعال في الكينوبي بلاحقة -u، وقد تكون تلك اللاحقة بقية من أصل ضمير الوصل المفرد الغائب على أصل الفعل، أو ربما تكون بقية من لاحقة الجمع العربية العادية.

لا تفرق الأسماء بين المفرد والجمع، بالرغم من أن هناك أداة يمكن أن تكون أداة جمع وهي عبارة عن لاحقة -a علي أواخر الكلمات مثل laager "الحجر" التي تجمع كما

يلي laagera وأحيانًا يمكن التعبير عن مجموعة من البشر باستخدام سابقة nas قبل الكلمة، وهي سابقة مشتقة من الكلمة العربية "ناس"، وتجد تلك السابقة مثلا في -nas baba "الآباء". أحيانًا تنتهي الصفات بلاحقة in وهي في تلك الحالة تعبر عن الجمع، وأداة الإضافة التحليلية في تلك اللهجة هي ta ، وهي مشتقة من الأداة المصرية \بتاع \، تستخدم مع الأسماء والضمائر على حد السواء.

المعجم الكينوبي مبني على أساس عربي، ولكنه يحتوي في نفس الوقت على عدد كبير من الكلمات السواحيلية المقترضة والكلمات الإنجليزية التي دخلت على تلك اللهجة في السنوات الأخيرة. أحيانا توجد في اللغة مترادفات عربية وسواحيلية وهو ما يعكس تأثر متكلمي تلك اللهجة ببيئة البانتو المحيطة بها، فتجد مثلا أن هناك كلمة aseti المشتقة من أصل عربي هو "أسد"، وفي نفس الوقت لتلك الكلمة مرادف من أصل سواحيلي وهي simba التي هي كلمة تعني "أسد" في لغات البانتو. وهناك أيضاً فعل سواحيلي مشهور وشائع وهو weza الذي يعني "يقدر" وهو فعل شائع بالرغم من أن تلك اللهجة تمتلك مرادفًا عربيًا أصيلاً هو agder.

١٢ - ٧ العربية في المهجر

لن يكون أي مسح لدور اللغة العربية في العالم كاملا لو لم نشر ولو بإيجاز للأعداد الكبيرة من متكلمي العربية التي هاجرت إلى أجزاء أخرى من العالم، فقد هاجرت جماعات عربية كبيرة من أوطانها منذ فترة مبكرة جدا إلى مناطق أخرى في العالم وتعايشت في وسط بيئات لا تتكلم العربية، أما في حالات الهجرات العربية القديمة بعد الفتح الإسلامي فقد استطاع العرب أن يجلبوا الشعوب المحلية لاستخدام اللغة العربية وأصبحت تلك البلاد جزءًا من العالم المتكلم بالعربية. ولكن في أحيان أخرى أصبحت العربية مجرد لغة أقلية في البلاد التي هاجر العرب إليها. لقد تحدثنا بإيجاز عن بعض تلك الحالات في معرض الكلام عن الجيوب اللغوية العربية في الأناضول وقبرص وأوزبكستان، ولكن تلك الهجرات العربية تكررت في العصر الحديث عندما هاجرت أعداد كبيرة من العرب إلى بعض البلاد الغربية كما هي الحال في هجرة اللبنانيين للولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وهجرة المغاربة والجزائريين إلى بلاد غرب أوروبا كبريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا ومن الواضح أن الهجرة بهذا الشكل لها

آثارها النفسية والاجتماعية على المهاجرين، ولكننا سوف نقصر اهتمامنا هنا على الآثار اللغوية للهجرة على عربية المهاجرين، ويمكن تقسيم هذا الأثر لتصنيفين: من ناحية وجد المهاجرون أنفسهم مضطرين لتعلم اللغة المستخدمة في بلد المهجر، وهو ما هدد احتفاظهم بلغتهم المنزلية الأصلية، ومن ناحية أخرى فحتى لو استمروا في استخدام لغتهم الأم واحتفظوا بها فإن عادات كلامهم سوف تتأثر باللغة السائدة لا محالة.

وقد مرت الهجرات العربية اللبنانية والهجرات العربية المغربية بمراحل تطور مختلفة في المهجر، وقد يكون السبب في ذلك اختلاف البيئة التي حلت بها كل من المجموعتين وأيضًا بسبب التركيب الداخلي لجماعات المهاجرين، كان المهاجرون اللبنانيون على وجه العموم ينتمون لطبقات اجتماعية متعلمة، فعندما سافرت إلى المهجر حصلت على وظائف يحصل عليها أفراد الطبقة المتوسطة أو اشتغلت بالتجارة، بينما كان معظم المهاجرين المغاربة عمالا يدويين أو عمالاً في مصانع، علاوة على ذلك فكل من الهجرتين تنتمي لمرحلة مختلفة عن الأخرى، فهجرة اللبنانيين قد حدثت في معظمها في الفترة ما بين أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بينما تمثل هجرة المغاربة لغرب أوروبا ظاهرة ستيناتية وسبعيناتية.

أما في حالة المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية فهي حالة مستقرة إذ يعمل معظمهم في المجالات التجارية ويتقنون البرتغالية أو الأسبانية. ولما كانت تلك الجماعات العربية جماعات تجار فقد كان عليها أن تندمج في المجتمع بقدر كبير ولزم عليها أن تتعايش مع الأرجنتينيين والبرازيليين الذين يعيشون وسطهم،احتفظت معظم الأقلية العربية بلهجة عربية مستخدمة في الكلام اليومي، بل إن بعض النشاط الأدبي العربي قام في تلك المنطقة من العالم بلغة عربية فصيحة. وقد تبرز العلاقات المتشابكة مع المجتمع المحيط وجود عدد كبير من الكلمات المقترضة الإسبانية والبرتغالية في لهجتهم العربية، وتتركز الكلمات المقترضة في مجالات العمل، ولكن هناك بعض الكلمات المقترضة في مجالات الأسرة والبيت.

وبما أن معظم المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية ممن يعرفون الكتابة والقراءة وينتمون لطبقات المتعلمين فهم يختلفون جذرياً عن المهاجرين العرب في غرب أوروبا والذين ينحدرون من أصول ريفية ويعملون كعمال غير مهرة في أعمال يدوية، وقد ركزت الأبحاث المبكرة التي أجريت على أوضاع المهاجرين العرب اللغوية في غرب أوروبا على اكتسابهم اللغة الثانية فقد ركز العلماء على المشاكل التي تواجه المهاجرين في تعلمهم للغة الثانية رغبة منهم في تطوير طرق تعليم هؤلاء المهاجرين، ولا يعتبر هذا النوع من البحث مفيدا في استقصاء تاريخ اللغة العربية.

أما في الدراسات الأحدث فإن التركيز على اللهجات الأصلية التي وفد بها المهاجرون إلى المهجر وقد جرى البحث في ميدانين رئيسيين هما : مجال فقدان اللغة ومجال تغيير شفرة الخطاب أو خلط شفرة الخطاب، وقد يهتم مجال فقدان اللغة بقلة كفاءة المتكلمين في لغتهم الأصلية، فكثيراً ما يشتكي المهاجرون من ضعف أبنائهم في لغتهم الأم ويقولون إن الأبناء يتكلمون لغة المهجر أفضل من لغة الأب والأم، ويتزع أبناء الجيل الثاني لخلط شفرة الخطاب كثيراً في كلامهم اليومي العادي لدرجة أنه يصبح من الصعب أن يتناقشوا بالعربية الخالصة، والسؤال في الحقيقة هو هل اكتسب هؤلاء الأطفال فعلاً السمات اللغوية التي تدعى أنهم فقدوها؟ يبدو من الواضح أنهم لم يكتسبوا سمات لغة الأب والأم بالكامل بسبب قلة التعرض لتلك اللغة، ولذلك يمكننا أن نقول إن هذا الجيل في مرحلة تحول لغوي، ذلك لأن لغتهم الأم فقدت المجالات التقليدية التي كانت تستخدم فيها، ففي حالة معظم المهاجرين العرب إلى هولندا أصبحت اللهجة المغربية مقصورة على الاستخدام المنزلي، ودخلت الهولندية على العربية في هذا المجال في حالة الجيل الثالث من أبناء المهاجرين، على مستوى التلاقي يستطيع أبناء المغاربة التعامل مع آبائهم بتلك اللهجة العربية، ولكن هناك قصوراً كبيرا في مستوى النطق والإنتاج اللغوي الفاعل، فتجد أن هذه الأجيال تفشل في إنتاج الأشكال اللغوية العربية السليمة، هناك دراسة حديثة تتعلق بفقدان اللغة عند المراهقين المغاربة في هولندا تقول إن النظام الصوتي العربي لتلك الأجيال قد تأثر بشكل كبير جدا لدرجة أنهم أحلوا أصواتا مكان أصوات أخرى فيستخدمون مثلا "ساف" مكان "شاف"، محلين بذلك صوت السين مكان صوت الشين. وتقول الدراسة أيضاً إن هؤلاء المتكلمين يفشلون في

صياغة جموع الكلمات العامية ككلمة "قطة" مثلاً ويعممون جمع المذكر السالم على تلك الكلمات فيقولون "قطين"، بل إن بعض المتكلمين يستخدمون صيغ الجموع الهولندية بشكل مستقر ومستمر فيقولون quttsوعندما يضطر هؤلاء إلى استخدام العربية المغربية دون خلط لنمط الخطاب فإنهم يصمتون لفترات طويلة بحثًا عن كلمات، ويميز لغتهم في تلك الحالة وجود معجم مبسط وتركيب جملة بدائي.

مما يعوق من عملية التحول اللغوي تلك وجود سياسات طورتها حكومات غرب أوروبا للتعامل مع الأقليات اللغوية الموجودة على أراضيها، تعطي تلك السياسات الأقليات اللغوية حق التعلم بلغتهم الأصلية وقد تحققت تلك السياسة في السويد وهولندا من خلال بناء منهج تعليمي عربي كامل في المرحلتين الابتدائية والثانوية. ومشكلة المهاجرين المغاربة هي أن معظمهم من أصول بربرية ولذلك يصعب تحديد اللغة التي يجب أن يتلقوا تعليمهم بها، علاوة على ذلك فإن هناك مشكلة أخرى وهي مشكلة النوع المستخدم في عملية التعليم: هل يجب على التعليم أن يكون بالعربية الفصحى أو باللهجة العامية، ولكن تلك المشكلة لم تجد حلا بعد.

أصبح تغيير شفرة الخطاب مسألة عادية في كلام أبناء المهاجرين العرب في غالبية الأحوال، ويمكننا أن نقول إن هذا النمط من استخدام العربية ولغة أخرى قد أصبح نمطًا مؤسسيًا ثابتًا وكاملاً في أحيان كثيرة كما هي الحال في عربية فرنسا مثلاً، ولكن هذا وضع طبيعي فعندما تشترك لغتان مختلفتان في المستوى في جماعة لغوية واحدة فإن هذه الأنماط لا بد أن تظهر. يصبح تغيير شفرة الخطاب في تلك الحالات متفشيًا لدرجة أنه لا يحدث بين جمل بل يحدث داخل حدود الجملة الواحدة. وقد يحدث تغيير الشفرة بين الفعل والمفعول داخل الجملة الواحدة كما هي الحال في "جيب لي een glas water" التي تعني "أحضر لي كوب ماء"، وقد يحدث الخلط بين الفعل والفاعل، وقد يحدث الخلط قبل حرف الجر كما هي الحال في "وتخرج معاهم naar de stad" التي تعني "ستخرج معهم إلى المدينة". بل إن خلط الشفرة قد يحدث داخل مركب الاسم نفسه فتجد مثلا "بالزاف moeilijkheden" التي تعني "صعوبات كثيرة" (نورتير ١٩٨٩: ١٤٢- ٤٠).

وفي الأنماط الحديثة لتغيير نمط الخطاب كالذي طرحه مير سكوتون (١٩٩٣) هناك فارق بين اللغة الوظيفية التي تقدم العناصر الوظيفية في اللغة واللغة المعنوية التي تقدم المفردات المعجمية، وكذلك تلعب العناصر التركيبية دوراً كبيراً في الحلول التي يجدها المتكلم لمشاكل التضارب بين قواعد اللغتين اللتين يحدث بينهما في تحويل شفرة الخطاب. وعلى ذلك فإن تغيير نمط الخطاب بين الفرنسية والعربية المغربية مثلاً يختلف عن تغيير نمط الخطاب بين الهولندية والعربية المغربية، عندما تكون اللغة الفرنسية هي اللغة المعنوية وتكون العربية هي اللغة الوظيفية فإن المتكلم يحتفظ بأداة التعريف الفرنسية أو يستخدم أداة عربية بدلاً منها كما يتضح من أمثلة نورتير (١٩٩٤)، ومنها نأخذ مثلاً "داك la chemise" التي تعني "هذا القميص". تستخدم تلك الجملة أداة التعريف المؤنثة الفرنسية لأن قواعد العربية المغربية تقتضي استخدام أداة التعريف بعد اسم الإشارة /داك/، وعندما تكون العربية هي اللغة المعنوية وتوضع كلماتها في لغة وظيفية فإن الكلمات العربية تحتفظ بأداة التعريف كما هي الحال في الكلمات العربية المقترضة في اللغات الأوروبية، ولكن عندما يستخدم المتكلم العربية المغربية واللغة الهولندية في تغيير نمط الخطاب فإن أداة التعريف تختفي تماما من الملفوظات، فتسمع مثلا تعبيرا مثل "داك opleiding الذي يعني "هذا التعليم"، ويشير الاختلاف في استخدام الأداة الفرنسية والأداة الهولندية في الأمثلة السابقة إلى اختلاف وظيفة الأداة الأصلية في كل من اللغتين، وربما تظهر الأداة في تغيير شفرة الخطاب الفرنسي العربي المغربي بسبب طبيعتها الإشارية في اللغة الفرنسية، وتختفي من تغيير نمط الخطاب الهولندي العربي المغربي بسبب غياب تلك الوظيفة.

ولا يمكن أن يطوع المتكلمون كل الأفعال الأجنبية لقواعد العربية المغربية بسبب تعقيد نظام الأفعال في تلك اللهجة ، ولقد رأينا سابقًا أن المالطية قد طوعت الأفعال الإيطالية المقترضة في بنية اللغة بشكل كامل، وحدث نفس الشيء تماما فيما يتعلق بالكلمات الفرنسية المقترضة في اللهجتين العربيتين الجزائرية والمغربية. ولكن الكلمات الهولندية لم تجد نفس المعاملة فلم يفضل المتكلمون تضمينها بشكل صرفي في بنية اللهجة العربية، بل فضلوا استخدام مركبات فعلية كالتي تستخدمها لغات كثيرة أخرى لتضمين الكلمات المقترضة، تفضل لغات كثيرة أن تستخدم فعلاً غير ذي معنى حقيقي

متبوعًا باسم أجنبي لتجنب تضمين الفعل الأجنبي وإقحامة الصرفي عليه، ففي تغيير شفرة الخطاب بين العربية المغربية والهولندية يستخدم المغاربة الفعل العربي "يدير" متبوعًا بمصدر أو باسم كما هي الحال في "حسك تديرهم kans geven التي تعني "يجب أن تعطيهم فرصة" (باومانز ١٩٩٦)، وتسهل تلك الطريقة عملية تغيير شفرة الخطاب بشكل كبير فتصبح أكثر شيوعًا.

ليس مصير اللغة العربية في المهجر معروفا، ليست تلك المسألة مسألة لغوية بحتة بل إن هناك عوامل سياسية وثقافية وأيديولوجية وربما عوامل دينية تتحكم في هذا المصير أيضًا، في أمريكا اللاتينية ظهر مجتمع عربي فخور بأصله العربي ويدعم الثقافة العربية والأدب العربي، نتوقع في مثل هذا السياق وجود عدد كبير من الكلمات المقترضة في لغة المنزل ولكن في نفس الوقت نتوقع وجود مجهودات واعية للحفاظ على انفصال لغة المنزل عن لغة الحياة العامة ومنع فقدان لغة المنزل.

أما في معظم الدول الأوروبية فمن الواضح أن عملية التحول اللغوي حتمية، وبالرغم من أن بعض الأفراد سيظلون يحاولون الحفاظ على لغة بلادهم القديمة فإن معظم أطفال المهاجرين سيتحولون إلى اللغة الرئيسية في البلاد حتى ولو أن هناك سياسات واعية ورسمية للحفاظ على لغات البلاد الأصلية، ومن الممكن جدا أن تنتهي مظاهر استخدام تغيير لغة الخطاب بعد جيل أو جيلين على الأكثر لتسود لغة البلاد الرئيسية.

أما في حالة الجيوب اللغوية العربية كأوزبكستان وأفغانستان والأناضول وقبرص فليس هناك سياسة للحفاظ على اللغة العربية، وليس لها أي وجود رفيع ولذلك سوف تموت في القريب العاجل، تعتبر الكينوبي في أوغندا مثلاً على عكس ذلك فهي تحافظ على كيانها بل وتتوسع لتصبح لهجة عربية طبيعية، ويساعد متكلمي الكينوي في ذلك مكانتهم الاجتماعية الرفيعة، الحالة مختلفة تمامًا بالنسبة للمالطية لأنها أصبحت رمزًا على كيان سياسي قومي وسياسي مستقل، وبالرغم من أن اللغة الإيطالية والإنجليزية قد بدأتا تدخلان على بعض وظائف المالطية فإن النزعة القومية تبدو كافية للحفاظ على تلك اللغة مستقلة ومستخدمة كلغة قومية.

الفصل الثالث عشر

اللغة العربية لغة عالمية

١٣ - ١ مقدمة

يستخدم حوالي ١٥٠ مليون إنسان تقريبًا نمطًا من أنماط اللغة العربية كلغة أم في العالم اليوم، ولكن تأثير العربية لا يتوقف عند حدود العالم العربي، فقد كان العرب على مر التاريخ على اتصال بشعوب أخرى تتكلم لغات أخرى وقد أدى هذا الاحتكاك إلى تأثير تركته العربية ليس فقط على مفردات تلك اللغات بل أيضًا على بنيتها الصرفية النحوية. في أي سياق من سياقات الاحتكاك اللغوي بين لغتين يتحدد مسار التأثير اللغوي بعاملين أساسيين هما: مقدار رفعة كل من اللغتين وقوتها بالنسبة للأخرى، وتاريخ تعايش اللغتين جنبًا إلى جنب، لذلك أينما توجد العربية كلغة أقلية في مجتمع يتكلم لغة أخرى رفيعة يكون التأثير والواقع هو باتجاه اللغة العربية، ويصدق ذلك الحكم على الجزر اللغوية وعلى العربية في المهجر، ولكن اللغة العربية بدورها أثرت على لغات أخرى في محيطها لأنها لغة عالمية. هناك وجهان لدور العربية كلغة عالمية: الوجه الأول هو وجه العربية كلغة تجارية وخاصة في أفريقيا، والوجه الثاني هو وجه العربية كلغة دين، وتمارس العربية هذا الدور في أجزاء كبيرة من أفريقيا وتركيا وإيران وماليزيا وإندونيسيا باكستان.

ظهر الإسلام في تلك الأقاليم دينًا جديداً ليحل محل الديانات القديمة ولكن لغة العرب لم تفعل الشيء نفسه، بل ظلت اللغات المحلية كما هي، فقد كانت الفارسية مثلاً لهجة حدودية أيام الإمبراطورية الساسانية التي كانت لغتها الرسمية هي اللغة

البهلوية، ولما كانت البهلوية لغة جانبية بالنسبة للغة العربية فى القرون الأولى بعد الفتح العربى فقد استمرت موجودة فى الاستخدام حتى القرن التاسع الميلادى فقط حين حلت الفارسية محلها فى موقع اللغة القومية لإيران تحت حكم السامانيين، وفى ظل هذا التطور أصبحت الفارسية اللغة التى نقل بها الدين الجديد إلى الشرق، وظل دور العربية فى آسيا مقصوراً على كونها لغة القرآن الكريم، والكثير من الكلمات العربية المقترضة فى لغات العالم الإسلامى كالأردو والإندونيسية حيث جاءت تلك المناطق عبر الوسيط الفارسى.

يعتبر تأثير العربية فى عموم العالم الإسلامى تأثيراً كبيراً بفضل تركيز الإسلام على اللغة، ذلك لأن القرآن يستحيل تقليده، ولذلك تتعذر ترجمته، فكان على كل من يدخل الإسلام أن يتعلم لغته، وحتى فى الحالات التى لم يتعلم المسلمون فيها أن يتكلموا العربية بشكل سليم كان نص القرآن العربى أكثر شيء تقديساً، علاوة على ذلك فإن تعليم الدين الإسلامى فى البلاد الإسلامية يستتبع عادة قدراً من تعليم العربية. ويتعلم الأطفال فى بعض البلاد أن ينطقوا حروف القرآن ويكتبوها بشكل سليم دونما فهم لمعانيه، وفى بلاد أخرى هناك شبكة كبيرة من الكتاتيب تتولى مهمة تعليم اللغة العربية. يعتبر تأثير اللغة العربية ملموساً جداً من الناحية اللغوية فى مجال المعجم حيث تكثر الكلمات العربية المقترضة، ويمكن تمييز مستويين من مستويات الكلمات العربية المقترضة فى تلك اللغات الإسلامية : يمثل المستوى الأول مرحلة الاقتراض الأصلية إبان فترة التوسع الإسلامى، وتلك الكلمات قد تم تضمينها بشكل كامل فى بنية اللغات المعنية، أما المستوى الثانى فهو يمثل مرحلة اقتراض كلمات حديثة، والكلمات فى تلك المرحلة كلمات ثقافية قدمها العلماء والمثقفون من الصفوة المحلية، وترمى تلك الصفوة إلى الحفاظ على النطق العربى الأصلى للكلمات المقترضة.

بعد فتح أجزاء كبيرة من الأندلس عام ٧١١ ميلادياً احتك العرب بالشعوب التى تتكلم لهجات رومانسية فى تلك المنطقة بشكل مباشر، وهو الاحتكاك الذى دام حتى سقوط كل الأندلس عام ١٤٩٢ ميلادياً. يقول بعض العلماء إنه خلال تلك الفترة الطويلة من الاحتكاك اللغوى لم تحل العربية محل اللغات المحلية للشعوب غير المسلمة، ويشكو

شاهد عيان من القرن التاسع الميلادي وهو بولس ألفاروس القرطبي من أن الشباب المسيحي مهتم بالشعر العربي أكثر من اهتمامه بلغته الرومانسية، ويقول بعض العلماء أيضا إن العربية لم تفلح في الحلول محل اللغات المحلية كلغة كلام، بل إن اللاتينية قد كانت موجودة في تلك الفترة كلغة ثقافة. كانت هناك بالتأكيد آثار للغة الرومانية في شبه الجزيرة الأيبيرية طوال فترة الحكم العربي، ولكن بعد سقوط طليطلة عام ١٠٨٥ فقط علت أهميتها في المناطق التي ظلت تحت الحكم العربي، ومن المفروض أن الوضع في فترة السيطرة العربية الإسلامية كان مشجعًا على التعدد اللغوي بقدر كبير، فتجد أن شعراء الموشحات كابن قزمان (توفي عام ١٠٥٧) يستخدمون اللهجة الرومانسية في خرجات موشحاتهم بنفس الطريقة التي استخدم بها شعراء الموشحات في المشرق اللهجات المحلية في ختام قصائدهم.

كانت لهجة مملكة غرناطة الصغيرة التي استمرت حتى عام ١٤٩٢ تحتوي على عدد كبير من الكلمات الرومانسية المقترضة كما نعرف من شهادة بدرو دو ألكالا والقوائم التي أوردها.

كان العرب في الأندلس يسمون اللهجات الرومانسية "لغة العجم" وكانوا يسمون الأسبان الذين تبنوا العربية لغة لهم وانضموا للمجتمع العربي المسلم "المستعربين"، ومن هنا جاءت تسميتهم في الإسبانية mozarabe ، وعندما حاول هؤلاء الناس كتابة أدبهم الرومانسي بلغتهم كتبوه بالخط العربي، ولذلك تسمى النصوص الرومانسية بالخط العربي التي ظلت محفوظة لنا aljamiado من كلمة "العجمي"، هناك مجموعة أخرى من النصوص الرومانسية التي كتبت بخط عربي وهي نصوص الموريسكوس التي كتبها العرب المسلمون الذي ظلوا في إسبانيا بعد الغزوات القشتالية واضطروا قصرا إلى التحول عن الإسلام عام ١٥٢٥ وحتى نفيهم من شبه الجزيرة بعد ذلك، لا يعني استخدام هؤلاء الناس للخط العربي أنهم يعرفون العربية، بل إن بعضهم كان لا يعرف سوى الرومانسية فقط.

بالقطع أثرت سنوات الحكم العربي الطوال على اللغة الرومانسية في إسبانيا تأثيراً ملحوظًا، وقدّر الباحثون عدد الكلمات العربية المقترضة في الإسبانية بحوالي

٤ آلاف كلمة، تغطي تلك الكلمات المعجم الإسباني كله تقريبا ولكنها تتركز في مجالات الحرب كما هي الحال في كلمة alcazar التي تعني "القلعة" ومجال الزراعة كما في كلمة albaricoque التي تعني "برقوق" وفي مجال التجارة كما في كلمة almacen التي تعني "المخزن" بالعربية وفي مجال البناء كما في كلمة albani التي تعني "البناء". معظم تلك الكلمات المقترضة من الأسماء التي اقترضتها اللهجات المحلية بمعية أداة التعريف، ولكن ذلك لا يمنع وجود بعض الصفات المقترضة من العربية مثل كلمة gan-dul التي تعني بالعربية "غندور، وهناك أيضاً عدد محدود من الأفعال التي تم اقتراضها من العربية مثل halagar المشتق من الفعل العربي "حلق". الكلمة الإسبانية folano مشتقة من "فلان" العربية، وكذلك كلمة المشيئة الإسبانية ojala مشتقة من التعبير العربي "إن شاء الله". هناك مثل على اقتباس الإسبانية لورفيم عربي هو مورفيم! الذي يظهر على شكل لاحقة، وقد أصبح هذا المورفيم فاعلا ومنتجا في اللغة الإسبانية بدرجة معقولة. وترد تلك اللاحقة مع الكلمات المقترضة من العربية كما في كلمة bala-di المشتقة من الكلمة العربية "بلدي" والتي تعني بالإسبانية "تافه". وقد دخلت تلك اللاحقة أيضا على بعض الكلمات الإسبانية مثل alfonsi التي تعني الشيء المملوك لألفونس، ومع ذلك فليس هناك دليل على وجود تأثير عربي على نحو اللغة الإسبانية، أما من الناحية الدلالية فيمكن التعرف على التأثير العربي في الإسبانية من وجود تعبيرات كثيرة تحتوي على اسم الله.

انتقلت كلمات عربية كثيرة من أسبانيا إلى بلاد أخرى كثيرة في غرب أوروبا، وقد عرفنا في الفصل الأول أن اللغة العربية كانت لغة العلوم في العصور الوسطى، ولم تكن تلك المكانة في الأندلس فقط بل تجاوزته إلى جامعات غرب أوروبا. بعد سقوط طليطلة تمت ترجمة نصوص عربية كثيرة في الميكانيكا والفلك والكيمياء والطب إلى اللغة اللاتينية، وفي خضم هذا العمل انتقلت مصطلحات عربية كثيرة لتلك اللغة، فقد اقتبست اللغات الأوروبية في الرياضيات مثلاً كلمة algorithm من اسم العالم العربي "الخوارزمي" الذي أحيا كتابه الشهير "الجبر والمقابلة" مصطلح algebra في كل اللغات الأوروبية، وفي الفلك اقتبست اللغات الأوروبية أسماء نجوم كثيرة من اللغة العربية علاوة على كلمات مثل almanac المشتقة من الكلمة العربية "المناخ"، وفي مجال الطب

تعتبر مصطلحات لاتينية كثيرة ترجمة حرفية لمصطلحات عربية مأخوذة بدورها من المصطلحات اليونانية. على ذلك فكلمة cornea ترجمة من الكلمة العربية "قرنية" وليست ترجمة مباشرة من المصطلحات اليونانية.

ومع كل ذلك لم تكن إسبانيا هي المصدر الوحيد للكلمات العربية الداخلة على اللغات الأوروبية، فقد كانت هناك مصادر أخرى لتدفق تلك الكلمات على العالم الغربي، من أهمها إيطاليا، وقد كانت إيطاليا وسيطًا من خلال صقلية العربية أو من خلال تجار البندقية وجنوا. يبين التركيب الصوتي لبعض الكلمات الطريق الذي سلكته سواء كان إسبانيا أو إيطاليا، أما الكلمات العربية التي تطلينت فقد اقتبست دون أداة التعريف، وأما الكلمات العربية المضمنة في الإسبانية فهي مصحوبة بأداة التعريف العربية. قارن مثلاً بين الكلمة الإيطالية contone والكلمة الإسبانية algodon اللتان تعنيان "القطن"، فتجد في الإسبانية الكلمة بأداة التعريف. في مثل القطن وفي كلمة الخرشوف والسكر اقتبست اللغات الأوروبية الكلمات من العربية عن طريق الإيطالية.

١٣ – ٢ اللغة العربية في أفريقيا

تنتشر اللغة العربية في أفريقيا كلغة أم ليس فقط في مصر والمغرب بل في المنطقة الواقعة تحت الصحراء الكبرى وفي شرق أفريقيا، وإذا نحينا الكينوبي في أوغندا وكينيا جانبًا فسنجد أن العربية لغة أم لعدد كبير جداً من السكان في السودان وتشاد، ولأعداد معقولة من الأقليات في نيجيريا والنيجر، وفي المناطق التي لم تحل فيها العربية محل اللغات المحلية تركت العربية تراثًا كبيراً من خلال شبكات التجارة الكبيرة التي أسسها العرب في كل قرية، جلب التوسع الإسلامي ثقافات كثيرة من ثقافات النصف الشمالي من الكرة الأرضية تحت تأثير الحضارة الإسلامية، وقد أدى ذلك إلى وجود مئات من الكلمات المقترضة في مجالات الدين والثقافة والعلوم.

قام التوسع الإسلامي العربي في أفريقيا على طريقين أساسيين لاستكشاف القارة واستغلال مواردها: يمشي الطريق الأول من مصر جنوبيًا إلى السودان ومن هناك يمشي إلى الغرب بمحاذاة حزام السافانا الأفريقي بين الصحراء الكبرى في

الشمال والغابات الأفريقية في الجنوب في المنطقة التي أطلق عليها العرب تسمية "بلاد السودان"، أما الطريق الآخر فقد اتبع مدقات الصحراء إلى الجنوب، وقد أدى توسع العرب بمحاذاة حزام السافانا إلى اتصالهم بشعوب تتكلم لغات الهاوسا، والهاوسا لغة انتشرت من معاقلها الأساسية في نيجيريا والنيجر إلى وسط أفريقيا كلغة مشتركة بين تلك الشعوب والقبائل، وهي لغة ضمن مجموعة اللغات الأفرو آسيوية، وتعكس طبيعة الكلمات العربية في لغة الهاوسا تاريخ العلاقات بين العرب وهذه الشعوب، أقدم مجموعة من تلك الكلمات العربية المقترضة تم دمجها في بنية اللغة بشكل كامل، وقد طوعت الأصوات العربية في تلك الكلمات لأصوات اللغة المحلية بشكل كبير. فحلت الفاء مكان الباء العربية في كلمة littaafi التي تعني "كتاب" واختفت معظم الأصوات الحلقية كما هي الحال بالنسبة لصوت الخاء في الكلمة التالية laabaari التي تعني "الأخبار" بالعربية. توضح تلك الأمثلة التي سقناها أيضًا أن الهاوسا عندما اقترضت من اللغة العربية أخذت الكلمة بأداة التعريف العربية وأضافت لها صيغة جمع محلية من الهاوسا. أما الكلمات العربية الحديثة المقترضة في الهاوسا فهي كلمات في مجال الدين الإسلامي والعلوم الشرعية، ويحاول الناس في تلك الكلمات مراعاة التركيب الصوتي العربي الأصلي للكلمة كما هي الحال في كلمة nahwu التي تعني "نحو"، ولو كانت تلك الكلمات تحتوي على أداة التعريف العربية فإن الناس تراعي نطقها الفصيح وليس نطقها العامي كما هي الحال في كلمة alaada التي تعني "العادة". هناك نزعة عند المتعلمين من المسلمين في تلك المناطق الأفريقية أن ينطقوا الكلمات المقتبسة القديمة بطريقة مستعربة بقدر الإمكان.

معظم الكلمات العربية المقتبسة في الهاوسا أسماء، ولكن أيضا هناك مجموعة من أدوات الربط العربية في تلك اللغة، فهناك مثلا كلمة in التي تعني "إن" الشرطية العربية وكلمة idan التي تعني "إذن"، وبالرغم من الاختلاف الكبير بين النظامين الصرفيين في اللغتين فإن بعض الأفعال العربية اقترضت في الهاوسا وضمتها اللغة ضما كاملا، من بين تلك الأفعال allaaka المشتق من الفعل العربي "هلك" و sallama المشتق من الفعل العربي "سلم"، وهناك طريقة أخرى في الهاوسا لتضمين الكلمات العربية وهي

باستخدام مركبات فعلية اسمية تعتمد على الفعل فى الهاوسا yi "يعمل"، فى تلك المركبات يستخدم الفعل فى الهاوسا متبوعا باسم عربى كما هى الحال فى yi Karaatu الذى يعنى "يقرأ".

أقام العرب من شبه الجزيرة العربية وعمان علاقات تجارية على الساحل الشرقى لقارة أفريقيا مع السكان الذين يتكلمون السواحيلية، ترجع تسمية سواحيلي إلى الكلمة العربية "سواحل" وهى كلمة أطلقها التجار العرب على الشعوب التى تتكلم لغات البانتو والتي تأتى من قلب القارة للسكن على الساحل الشرقى حوالى العام ألف للميلاد وتجمعوا في المنطقة بين الصومال وموزمبيق، وقد أسس العرب على طول الساحل الأفريقي عدداً من المستعمرات والمدن التى كانت تستضيف الصفقات التجارية التى كانت تعقد بين العرب والبانتو، وقد شجعت أسرة زنزبار العمانية التي سيطرت على المنطقة منذ القرن السابع عشر الشعوب المتكلمة بالسواحيلية على البحث عن العاج والعبيد في داخل القارة. وقد أدى ذلك إلى انتشار السواحيلية فى القارة غرباً حتى زائير.

وقد أدت الاتصالات الوثيقة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة السواحيلية لظهور تراث أدبي سواحيلى تعود وثائقه الأولى للقرن الثانى عشر الميلادى، وقد كانت تلك النصوص مكتوبة بالخط العربي وكانت بداية أدب ديني ودنيوى كبير فى مرحلة لاحقة خاصة فى زنزيبار ، وحل التأثير الإنجليزى محل التأثير العربى جزئيا فى المرحلة الاستعمارية. لقد كان هناك نوع من التوتر بين السكان الأصليين السواحليين من المسلمين الذين يسكنون منطقة الساحل ويفضلون أن يقترضوا من العربية كلماتهم المتعلقة بالدين والثقافة وبين سكان الداخل الذين لم يكونوا مسلمين والذين كانت السواحيلية بالنسبة لهم مجرد لغة دارجة فقط، رفض سكان المناطق الداخلية تلك السيطرة العمانية كما قاوموا تأثير العربية فتحولوا للإنجليزية، وبعد اتفاقية هيلودلاند عام ١٩٨٠ وعندما أصبحت سلطنة زنزيبار محمية بريطانية حلت الإنجليزية والسواحيلية محل العربية فى الكثير من المجالات فى عموم سواحل شرق أفريقيا، أما فى زنزيبار نفسها فقد ظلت العربية هى اللغة الرسمية حتى إعلان الجمهورية عام ١٩٦٤ بل ظلت بعد ذلك تلعب دوراً كبيراً فى التعليم، وبالرغم من أن نصف سكان

باقي شرق أفريقيا - كينيا وتنزانيا وأوغندا - من المسلمين ظلت معرفة العربية محدودة بالتعليم القرآني في مدارس النشء، ويندر أن تجد من يعرف العربية معرفة نشطة فاعلة.

وتوقف انسياب الكلمات العربية للغة تلك المنطقة بزوال الطبقات الأرستقراطية القديمة ولكن السنوات الأخيرة شهدت نزعة كبيرة في كينيا وتنزانيا لإحلال الكلمات التي هي من أصل عربي محل الكلمات الإنجليزية لأن السواحيلية قد أصبحت لغة رسمية في تنزانيا، وفي معظم الأحيان كانت تلك الكلمات ذات الأصل العربي موجودة كبدائل للكلمات الإنجليزية المقترضة بل ويتصور الناس أنها سواحيلية الأصل، ويصدق ذلك على كلمات من أمثال mahakama التي حلت محل korti التي تعني "محكمة" وكلمة hakimu التي حلت محل jaj التي تعني "قاضي"، وفي مجالات العلوم أصبحت الكلمات عربية الأصل في مجالات علمية معينة أشهر من الكلمات إنجليزية الأصل كالكلمتين الدالتين على علم النفس وعلم الاجتماع، أهملت السواحيلية استخدام الخط العربي في الكتابة، ولا يستخدمه الآن إلا كبار السن في مخاطباتهم الشخصية وبشكل غير منتظم، الدولة الوحيدة التي احتفظت بالعربية كلغة قومية هي جمهورية جزر القمر الصغيرة، وتعترف تلك الدولة بالعربية واللغة المحلية التي تكتب بالخط العربي كلغتين رسميتين.

تقول المعاجم إن حوالي خمسين بالمائة من مفردات السواحيلي من أصول عربية وفي سواحيلية الصحافة ينخفض هذا الرقم لحوالي ثلاثين بالمائة، ويقل أكثر في اللهجة العامية، وانتشر التأثير العربي على المعجم السواحيلي إلى مجالات كثيرة يعتبر المجال الديني أهمها، ولكن امتد التأثير العربي أيضًا للمجالات السياسية والقانونية والاقتصاد والتجارة والتعليم والعلوم، وسوف نسوق هنا مثلاً واحداً لنبين اعتماد السواحلية على اللغة العربية في اقتراض كلماتها المعنوية. فإذا أرادت السواحيلية أن تعبر عن فكرة التقدير أو الحساب أو التفكير فإنها تستخدم الكلمات العربية. فالتفكير يعبر عنه بكلمة fikiri والقياس يعبر عنه بكلمة kisi ويعبر عن التقدير بكلمة kidi .

تعتبر درجة دمج الكلمات العربية في السواحيلية درجة عالية نسبياً، لذلك تشتق السواحيلية من الكلمات العربية كما في المثل التالي وهو كلمة "علم" و"معلم" العربية:

elimu العلم التعليم

mwalimu أستاذ

mtaalamu دارس أو باحث

kutaalamu متخصص

يبين هذا المثل أن الاشتقاق من الكلمات العربية يحدث في كل صيغ الاسم، ويوضح أيضًا أن اسمًا عربيًا واحداً قد يكون مصدرا لاشتقاق أسماء أخرى وأفعال وصفات، ويبين اشتقاق كلمة mwalimu أن الكلمات العربية مندمجة في صيغ الجموع السواحيلية، وفي هذا المثل تتعامل السواحيلية مع سابقة اسم الفاعل /مُ/ في كلمة "معلم" العربية على أنها سابقة النوع الأول من الأسماء السواحيلية، وتكون الواو في وسط الكلمة هي علامة الجمع في هذا النوع، وكانت العربية أيضا مصدر الكثير من أدوات الربط وحروف الجر في السواحيلية كما هو الحال في kama "كما"، kabla "قبل"، baada "بعد"، واستعارت السواحيلية بعض الأرقام من اللغة العربية كما فعلت كل اللغات الأفريقية التي احتكت بالتجار العرب، فأخذت السواحيلية situ "ستة" saba"سبعة" tisa "تسعة"، وأخذت السواحيلية من العربية أيضا أسماء الأعداد عشرين وأربعين وما إلي ذلك، ولكن السواحيلية أخذت من البانتو رقم الثمانية والعشرة.

وحتى في الحالات التي لم يكن الاحتكاك بالعربية فيها قوياً حدثت عملية اقتراض لغوي واسعة النطاق كما كانت الحال في مجموعة لغات الفول الموجودة في المنطقة ما بين غينيا وتشاد. في تلك المجموعة من اللغات هناك حوالي ٥٥٠ كلمة من أصل عربي وكلها تتعلق بالإسلام والتجارة، وقد تم دمجها في نسيج اللغة بشكل كبير، فتجد مثلاً كلمة "بصل" في تلك اللغات albasal مستعارة بأداة التعريف، وحلل الناس المقطع الأخير من تلك الكلمة al على أنه علامة تصنيف الاسم في الفول، وهي العلامة التي تنتهي بها مجموعة من الأسماء مثل Lisal التي تعني "فرع"، وجمع هذا النوع من الأسماء يكون مثل licce ، ولذلك جمعت الكلمة العربية بهذه الطريقة ليكون al bacce . وقد أعطيت بعض الكلمات العربية المقترضة الأخرى بلواحق تصنيف الأسماء في الفول

كما هي الحال في كلمة hart التي أخذت لاحقة اسم فأصبحت harfeere ، وقد أدت تلك العمليـــة في بعض الأحيان إلى غموض أصل الكلمة تماما كما هي الحال في كلمة jii hin التي تعني "خنزير"، وقد أدى الاحتكاك بالإسلام في تلك المنطقة كما أدى في مناطق أخرى من أفريقيا إلى ظهور طبقة صفوة ثقافية من العلماء الذين أصبحوا ضالعين في العربية الفصحى، بل وكتبوا رسائل وتعليقات على النصوص الدينية العربية، وتتجلى تلك الصلة باللغة العربية في نزعة هذا الفريق من العلماء إلى تعريب نطق الكلمات عربية الأصل فينطقون "ذكر" بدلاً من jikru .

هناك حالة خاصة من تأثير اللغة العربية هي حالة لغة الملجاشي الأسترونيزية لغة جزيرة مدغشقر الرسمية، يرجع تاريخ الاحتكاكات التجارية بالتجار العرب لقرون خلت ولكنه من الواضح أن المجالات التي اقترضت تلك اللغة فيها من العربية مجالات محدودة للغاية، وخاصة مجال التنجيم الذي يسمونه iliik وهي كلمة مأخوذة من كلمة "الإكليل" العربية – وهي رأس برج العقرب، ولكن من المفروض أنه قد كان في تلك اللغة تراث مكتوب متصل باللغة العربية بطريقة ما، ذلك لأن بعض العشائر في جنوب مدغشقر تستخدم لغة سرية مكونة من مفردات عربية، وتستخدم تلك اللغة كلمات عربية مثل maratsi "مرآة" مكان الكلمات الملجاشي العادية، وعلاوة على ذلك فإن تلك العشائر تكتب النصوص الملجاشية بخط عربي معدل.

١٣ – ٣ اللغة العربية في إيران

في القرون الأولى بعد الفتح العربي وسقوط الدولة الساسانية أصبحت اللغة العربية هي السائدة واللغة الرفيعة في الأقاليم الفارسية، ولكن الوضع تغير بتغير الأحوال السياسية وأصبحت الفارسية هي اللغة القومية في الأقاليم الشرقية من إيران وآسيا الوسطى، ولكن العربية الفصحى احتفظت بمكانتها كلغة القرآن، أما الآن فهناك محافظة واحدة في إيران تستخدم العربية فيها كلغة أقلية وهي محافظة خوزستان، ومن الغريب أن الحكومة الإيرانيـة لا ترى تعارضًا بين معاملتها للأقلية العربية التي لا تسمح لها بالحفاظ على لغتها العرقية وبين تقديسها للعربية كلغة القرآن الكريم.

كانت الاتصالات بين العرب والفرس مكثفة منذ البداية، فكمية الكلمات المقترضة من الفارسية في اللغة العربية كبيرة، وكانت الفارسية أكثر اللغات التي اتصلت بها العربية تأثرا بها وبينيتها، فكمية الكلمات العربية في الفارسية ضخمة جداً ولا تقتصر فقط على المجالات الأدبية إنما تتعداها إلى اللغة اليومية، وقد ظهرت في بعض الأحيان نزعات لاستبعاد الكلمات العربية، وكانت تلك النزعة مدفوعة بعامل سياسي في غالب الأحيان، ولكن العنصر العربي في اللغة الفارسية عميق ومتشعب لدرجة يصعب معها إلغاؤه.

تكتب الفارسية بالخط العربي، ولكن مع إضافة أربعة حروف خاصة، ولما كانت بعض الفونيمات العربية قد اندمجت في عملية الاقتراض فقد أصبح الخط العربي غير واضح تماما، فقد أصبح صوت الثاء والسين والشين ينطق سيناً في الفارسية، وكذلك اندمج صوتا العين والهمزة ليصبحا همزة، واندمج صوتا التاء والطاء ليصبحا تاء واندمجت الحاء في الهاء، ومع ذلك فكل الكلمات المقترضة من العربية مكتوبة بحسب هجائها العربي، وهو ما يضع عبئاً جديداً على الأطفال في تعلمهم الكتابة.

معظم الكلمات المقترضة من العربية كلمات معنوية وخاصة في مجالات الدين والعلوم والآداب، يمكن رؤية التأثير العربي في تلك الكلمات المقترضة من خلال بنيتها الصرفية، فهي تحتفظ بجمعها العربي الأصلي، انظر الأمثلة التالية:

معلم معلمين

مسافر مسافرين

درجة درجات

وقد وضعت صيغة جمع المؤنث العربي بالألف والتاء على الكلمات التي لم ترد من أصل عربي كما هي الحال في كلمة deh التي تجمع dehat "قرى"، وكذلك أخذت الفارسية صيغ جموع التكسير مع أسمائها المفردة كما هي الحال في:

حال أحوال

غذاء أغذية

أما في الفارسية الحديثة فمن العادي جداً أن تهمل صيغة جمع التكسير وتستخدم مكانها صيغة جمع فارسية كما في كلمة "خبرها" التي تعني "أخبار"، وتوجد صيغة الجمع الفارسية تلك جنباً إلى جنب مع جمع التكسير العربي العادي، في بعض الأحيان تتعامل الفارسية الحديثة مع جموع التكسير العربية على أنها كلمات مفردة كما هي الحال في كلمة "أرباب".

ولما كان التركيب الصرفي للفعل العربي أقل اتساقًا مع بنية اللغة الفارسية من الاسم فقد كان من الصعب أن تندمج الأفعال العربية في الفارسية، ولذلك تستخدم توليفات من الأفعال والأسماء كوسيلة لتجنب دمج الكلمات المقترضة من العربية، تحتوي معظم التوليفات على الفعل الفارسي kardan "يفعل" أو فعل آخر يعطي معنى يصبح مع مصدر عربي أو اسم فاعل أو صفة، كما هي الحال في توليفة "مكاتبة كَردَن" التي تعني "يتراسل"، هناك أيضًا اتساق بين التوليفات المبنية للمعلوم مثل "إعلام كردن" التي تعني "يعلن" والتوليفة التي تأتي مع فعل الإصباح كتركيب مبني للمجهول.

وعندما تأتي تلك التوليفات مصحوبة بضمائر المفعول فإن الضمير يضاف في شكل لاحقة على آخر الاسم كما هي الحال في xabar-essan kard التي تعني "أعلمهم".

هناك اقتراض كثير من اللغة العربية حتى في مجال حروف الجر، وكثيراً ما تكون حروف الجر العربية مصحوبة بكلمات فارسية كما في "بعد أز" التي تعني "بعد"، حيث توجد الكلمة العربية "بعد" متبوعة بحرف الجر الفارسي "أز"، وكذلك تصنع الفارسية أدوات ربطها من كلمات عربية كما هي الحال في كلمة vagtik التي تعني "عندما"، وقد اقترضت الفارسية من العربية كذلك مثل باقي اللغات التي اقترضت من العربية كلمات لا تتصرف مثل "حتى" و"فقط" و"دائماً".

١٣ – ٤ اللغة العربية في الخلافة العثمانية وتركيا

عندما استولى السلاجقة على الحكم في الأناضول أصبح موقف اللغة العربية كلغة الدولة الإسلامية الوحيدة موقفاً ضعيفاً، استعملت الإمارات التركية اللغة الفارسية

كلغة ثقافة واحتفظوا بالعربية كلغة للدين، أما في الخلافة العثمانية فقد أصبحت اللغة التركية هي لغة الدولة الرسمية بينما ظلت العربية والفارسية لغتي الثقافة. وأطلق على اللغات الثلاثة تسمية elsina-talaas "الألسن الثلاثة" وهو تعبير مكون من كلمتين عربيتين بأداة ربط فارسية. وكانت تلك المجموعة من اللغات تشكل تركيبة الصفوة المثقفة في الخلافة، وتزايد تأثير العربية والفارسية على التركية في الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر لدرجة أن بعض النصوص لم يبق منها تركي غير السوابق واللواحق الصرفية وبنية النص بشكل عام في حين أخذ المعجم في كليته من العربية أو الفارسية.

وفي نهاية فترة حكم الخلافة العثمانية حاولت الأقاليم العربية أن تثبت حقها في الاستقلال اللغوي وفي استخدام لغتهم كلغة رسمية، ومما دعم هذا التوجه العربي قيام الثورة التركية وفصل أتاتورك بين فكرتي الإسلام واللغة العربية، فلم يكن هناك مكانة خاصة للغة العربية في الجمهورية التركية التي اتخذت خطوات كبيرة تجاه العلمنة، وقد أثبت ذلك التخلي عن العربية بشكل رمزي عام ١٩٢٨ بإلغاء استخدام الخط العربي لكتابة التركية العثمانية، وهو تقليد كان متبعا لقرون طويلة خلت. وقد جلب التركيز على الهوية التركية معه نزعة لتنقية التركية من الدخيل عليها، ولما كان الإصلاحيون ينظرون إلى التركية باعتبارها أفضل لغة على وجه الأرض فقد شق عليهم أن تحتوي لغتهم على هذا الكم الكبير من المفردات العربية والفارسية.

ومن نتائج الإصلاح أن أصبحت كلمات وتراكيب كثيرة شائعة في تركيا العثمانية نادرة وغريبة في الجمهورية التركية، ومع ذلك فإن التركية الحديثة ماتزال تحتوي على الكثير من الكلمات المقترضة من العربية أو الفارسية أو من العربية عبر الفارسية، ويمكن دائمًا التعرف على تلك الكلمات لأنها لا تخضع لعمليات تجانس أصوات اللين الصارمة التي تشتهر بها التركية، وهي القواعد التي لا تسمح بوجود صوت لين خلفي وصوت لين أمامي في كلمة واحدة. فكلمة مثل "كتاب" لا تطيع هذه القواعد. أما بالنسبة لكلمة saat "ساعة" لو كانت تركية لكانت استقبلت ضمير الملكية ı الذي يدخل على الكلمة في شكل لاحقة، ولكن تلك الكلمة عربية ولذلك تكتب saat-i وكذلك حدثت

بعض التغييرات الصوتية في عملية اقتراض الكلمات العربية في التركية العثمانية التي كانت تكتب بخط عربي، في تلك الكلمات كانت الأصوات المفخمة والحلقية تميز كتابيا ولكنها لا تنطق، ومنذ بداية حركة إصلاح الكتابة التركية لم تعد تلك الأصوات تميز حتى كتابة.

لقد اقترضت التركية العثمانية أسماء عربية كثيرة وأخذت معها صيغ جمعها الخاصة، ولذلك كان من الممكن أن تسمع كلمة haadisa وجمعها havaadis المشتقة من الكلمة العربية "حادثة \أحوادث"، ولكن جمع تلك الكلمة في التركية الحديثة هو hadiseler أما بالنسبة للكلمات الشائعة فقد كانت دائما تجمع بلاحقة جمع تركية، فتجد جمع كلمة kitap هو kitapla واقترضت التركية من العربية بعض الأسماء المعنوية في صورة جمع المؤنث السالم كما هي الحال في كلمة edebiyat وكلمة tafsilaat وتتعامل التركية مع تلك الكلمات على أنها كلمات مجموعة.

من السمات التي تميز نثر التركية العثمانية استخدام تعبيرات مركبة من كلمات عربية في الأصل، وهي التعبيرات التي تستخدم كتعبيرات مسبوكة في التركية الحديثة إذ لم تمح من اللغة. من بين أمثلة تلك التركيبات كلمة kuvvalanelmer keziye المركبة من الكلماتين العربيتين "قوة – المركزية"، وكلمة mukabileibiimi المركبة من "مقابلة – بالمثل"، في كل من الكلمتين السابقتين تربط اللاحقة الفارسية ا بين الكلمتين العربيتين، وتعبر تلك اللاحقة في الفارسية وفي الكلمات الفارسية المقترضة في اللغة التركية عن تركيب الإضافة المسمى بالتركية izaafet وقد أصبحت تلك التعبيرات جامدة في التركية الحديثة بعد أن كانت منتجة ومتصرفة في التركية العثمانية، وتراعي التركية عند تركيب اسم وصفة من أصل عربي قواعد المطابقة العربية كما هي الحال في مركب akliselim التي تعني "عقل سليم".

اقتبست التركية من العربية – كما اقتبست منها الفارسية من قبل – عددا كبيرا من الأسماء التي استخدمتها كحروف جر كما هي الحال مع كلمة ragman التي تعني "بالرغم من"، ولم تكن التركية في الأصل تمتلك أدوات ربط ولكنها اقتبست واو العطف العربية وحورتها فصارت ve، وربما تكون قد اقتبستها عن طريق الفارسية.

استخدمت اللغة التركية العثمانية النسبة العربية بنفس وظيفتها الوصفية، ولذلك كنت تجد كلمة resmi تعني "رسمي"، واستخدمت أيضاً الحال بمعناه العربي كما هي الحال في كلمة resmen التي تعني "رسميا"، أما في التركية الحديثة فقد تم استبدال الصفة العربية زائد الكلمة التركية olara بتركيب الحال العربي، لذلك تجد مركب resmen olarak يعني "رسميا".

من أوجه الشبه المثيرة بين طريقة اقتراض الفارسية من العربية والتركية : من العربية استخدام مركبات الفعل زائد الاسم، والتي تستخدم الفعلين olmak "يصبحون" والفعل etmek "يفعل"، انظر الأمثلة التالية:

sebep olmak "يسبب"، وهي مشتقة من الكلمة العربية "سبب"

mamnun olmak "مسرور"، وهي مشتقة من الكلمة العربية "ممنون"

refakat etmek "يصطحب"، وهي مشتقة من الكلمة العربية "رفقة".

كانت التركية العثمانية تفهم تلك التراكيب على أنها تراكيب عربية، وتعني مثلا أن مركب mektebdil-let qiyaafete كله بكلمات عربية فيما عدا أداة الإضافة الفارسية. أما التركية الحديثة فهي تعبر عن نفس المعنى باستخدام مركب qiyafeti tebdil etmek باستخدام لاحقة المفعول به على الاسم، أما بالنسبة للمبني للمجهول من تلك المركبات فيصنع من الكلمة التركية olunmak ومصدر عربي من الفعل على وزن انفعل.

١٣ – ٥ اللغة العربية في شبه القارة الهندية

ترجع الصلات بين الهند والعالم الإسلامي إلى القرن التاسع الميلادي، أي عندما زحف التجار المسلمون شرقاً الهند والصين، ولكن تحويل وادي الإندوس للإسلام لم تتم إلا في مرحلة متأخرة عندما فتحه الغزنويون في القرن الحادي عشر الميلادي، كان الغزنويون الذين خرجوا من أفغانستان يتكلمون الفارسية، وكانوا كذلك يستخدمونها كلغة ثقافة كما كانت تستخدمها معظم الإمارات الإسلامية في المشرق، وكان بابور

مؤسس الإمبراطورية الموغالية في عام ١٥٢٦ يكتب بلغة تركمانية، ولكن اللغة الفارسية هي التي كانت مستخدمة في البلاط الموغالي، وكانت الدارجة في تلك المنطقة هي الأوردو المنحدرة من شمال الهند، ومنذ بداية حكم الغزنويين في المنطقة أصبحت الأوردو لغة التواصل بين المسلمين والهندوس في المنطقة، بل وأصبحت لغة أدب شعبي دارج في أيام الإمبراطورية الموغالية، ولما كانت الفارسية لغة رفيعة فقد دخلت منها كلمات كثيرة على الأوردو في تلك الفترة.

وبظهور الإنجليز على الساحة اضطربت العلاقة الواضحة بين اللغة الفارسية والدارجة الأوردو، وأصبحت مسألة اللغة مثار جدل كبير، في حين قبلت الأقاليم الغربية بما فيها المسلمون استخدام الأوردو بالحروف العربية الفارسية، قبل الهندوس استخدام نفس اللغة ولكن بأسلوب آخر وهو "الهندي" وتكتب بخط ديفاناجاري، وأصبحت مسألة الخط هي مركز الحوار ومنطلق المناقشة، وبمرور الوقت استخدمت الهند الخط الديفناجاري بينما استخدمت باكستان الخط العربي، وأضافت الأوردو حروفا جديدة على الخط العربي لتعبر عن الأصوات الموجودة فيها والتي تعوز الخط العربي، فالأصوات الارتجاعية تكتب بإضافة تاء فوق الحرف، أو الأصوات التي فيها سمة صفير فتكتب بهاء بعد الحرف الأصلي.

وعندما انفصلت باكستان عن الهند انفصل النمطان اللغويان بدورهما، وأصبحت الأوردو هي اللغة الرسمية في باكستان ولغة المسلمين في شمال غرب الهند، واحتفظت بكلماتها العربية والفارسية المقترضة وكتابتها العربية، وأصبحت الهندية مع الإنجليزية اللغة الرسمية في الهند، فبدأ الهندوس حملة كبيرة لتنقية لغتهم من الكلمات المقترضة من العربية وإحلال كلمات من أصل سنسكريتي محلها، أفلحت الهندية الأدبية المعاصرة في إبعاد الكلمات الفارسية من معجمها لحد كبير ولكن الأنماط العامية منها ما تزال بعض الكلمات الفارسية مستخدمة بها.

ولما كان تركيب قواعد الأوردو والهندي واحد تقريبًا فإن الفرق الوحيد بين النمطين فرق معجمي، تجد عدداً كبيراً من أزواج المترادفات فيها ؛ كلمات من أصل سنسيكريتي تستخدمها الهندية الأدبية وكلمات من أصل عربي فارسي تستخدمها

الهندية الدارجة والأوردو، من الواضح أن الكلمات العربية قد مرت بطريق الفارسية قبل أن تدخل إلى الأوردو، ويبدو أن تلك الكلمات دخلت بمعية كلمات فارسية الأصل كثيرة، ينطبق ذلك على الكلمات العربية التي أخذتها الأوردو بصيغة المفرد والجمع، وتعامل الأوردو الكلمات العربية المجموعة على أنها كلمات مفردة، وتميز بين الكلمات المجموعة بالياء والنون وجمع المؤنث السالم وبين الكلمات الأوردو الأصلية بأن الكلمات العربية لا تدخل عليها علامة المفعول o .

في الأوردو، كما في الفارسية، هناك عدد كبير من حروف الجر وأدوات الربط العربية، من الواضح أن تلك الكلمات بدورها لم تدخل الأوردو من اللغة العربية مباشرة بل كانت الفارسية هي القناة التي مرت منها من العالم العربي لشبه القارة الهندية، من بين أدوات الربط تلك lekin و va وكذلك دخلت تعبيرات عربية لتلك اللغة من الفارسية أيضا كما هي الحال في bilku التي تعني "بالكلية".

ليس من الواضح أن الأوردو قد اقترضت من اللغة العربية أفعالا، وربما يكون السبب في ذلك التعقيد الصرفي للفعل العربي، وهي الصعوبة التي تجعل دمج الفعل العربي عسير. ولكن هناك أنواعًا من مركبات الأفعال والأسماء التي تستخدم الفعل الأوردو karna ومصدر عربي، ويشتق المبني للمجهول من تلك المركبات باستخدام الفعل hona كما في khatam hona "ينتهي"، وبالرغم من أن هذين الفعلين هما الأوسع انتشارا إلا أن الأوردو قد تستخدم أفعالاً أخرى.

ترتبط درجة تأثير العربية والفارسية على باقي اللغات الهندية بدرجة تغلغل الإسلام في مناطقها وشعوبها، فتجد أن نمطي البنغالي المستخدمين في إقليم البنغال الهندي ودولة بنجلادش يختلفان اختلافًا كبيرًا في المعجم، ففي بنجلادش هناك نزعة لإحلال الكلمات المقترضة العربية والفارسية محل الكلمات السنسكريتية وخاصة في مجال الدين، أما في البنغالية الغربية الأدبية فهناك كلمات مقترضة قليلة جداً، ولكن الدارجة من هذا النمط اللغوي تحتوي على معادلات عربية فارسية للكلمات السنسكريتية كما هي الحال في كلمة burug المشتقة من الكلمة العربية "برج" والتي تعني في البنغالية "قلعة".

١٣-٦ اللغة العربية في شرق آسيا: تأثيرها على الملاوية والإندونيسية

ترجع أقدم علاقات بين العالم الإسلامي وشرق آسيا إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وأقدم شواهد علي الوجود العربي ترجع لتلك الفترة وتتمثل في شواهد قبور عثر عليها في الأرخبيل الإندونيسي، ولما كانت اللغة المالوية هي لغة شبه جزيرة الملايو واللغة المشتركة في كل الجزر الإندونيسية الأخرى فلم تستطع العربية أن تحتل نفس المكانة التي احتلتها في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولكن لا شك أنها أثرت على الوضع اللغوي المحلي تأثيراً كبيراً لأنها لغة الإسلام والقرآن، ويتجلى هذا التأثير في استخدام الملايو وبنتها الحديثة البهازا إندونسيا كلمات عربية مقترضة، وتجلى التأثير أيضا في استخدام الملايو للخط العربي، واستخدام العربية كلغة دينية لمعظم السكان.

يرجع تاريخ أقدم نقوش عربية للقرن الرابع عشر، وهو عبارة عن نص قانوني وجد في شبه جزيرة الملايو مكتوباً بنمط الخط العربي الذي عرف بعد ذلك بالخط الجاوي. والخط الجاوي تنويعة علي الخط العربي بحروف إضافية، وكان مستخدماً في المخطوطات من بداية القرن السادس عشر. وظل هذا الخط مستخدماً في إندونيسيا حتى القرن العشرين إلى أن حلت كتابة بحروف لاتينية محلها إبان فترة الحكم الهولندي لإندونيسيا.

يعتبر المسلمون في إندونيسيا أكبر تجمع إسلامي خارج العالم العربي، فمعظم السكان البالغ عددهم ١٦٠ مليون نسمة من المسلمين الذين يؤمنون أن العربية هي لغة دينهم المقدسة، ولذلك ليس من العجيب أن يكون موقع العربية كلغة دينية ثابت لا يتزعزع. فمعظم الإندونيسيين يمتلكون قدراً ولو ضعيفاً من معرفة العربية بفضل تعلمهم قراءة القرآن، ولكن التعليم الحديث العلماني لا يساعد الشعب على تطوير مستواه في العربية، وبالرغم من وجود بعض المحاولات المتفرقة من السلطات أحياناً لتحسين مستوى العربية، فإن أمر العربية متروك للمدارس المسماه بمدارس البسنترين

فهي التي تعلم من يرغب التعليم باللغة العربية، ولكن هذا النظام فشل في تحقيق التعليم على الطريقة المكية التي تنبني على أن ينقل الطالب عن معلمه نصا دينيا أو تراثيا فيجيزه المعلم فيلقنه الطالب لطالب آخر، وكل ذلك دون علم حقيقي بلغة النص.

عدد الكلمات العربية في الإندونيسية الحديثة كبير جداً، تقول بعض الإحصاءات أن حوالي ٣٠٠٠ كلمة يمكن ردها لأصل عربي، وبطبيعة الحال معظم الكلمات المقترضة لها علاقة بمجال الدين، ولكن الكلمات العربية منتشرة في معظم مجالات القاموس الأخرى أيضاً السياسة والفلسفة وعلم الحيوان وعلم النبات والتعليم والطب والعلوم، ربما ورد معظم الكلمات العربية عبر الوسيط الفارسي كما كانت الحال بالنسبة للأوردو، ففي بعض الكلمات مايزال تأثير الوسيط الفارسي واضحا كما هي الحال في كلمة hagam "سوء هضم"، والتي لم ترد من أصل عربي مباشر وإلا لصارت hadam ولكنها في أغلب الظن أخذت من الكلمة الفارسية hazam وكذلك يتضح الوسيط الفارسي في الكلمات العربية المؤنثة التي اقترضت في اللغة بصيغة جمعها بالألف والتاء، ولم تقترض بصيغتها المفردة، والاقتراض بجمع المؤنث هذا من سمات اقتراض الفارسية من العربية.

وتتراوح الكلمات العربية في الإندونيسية من تعبيرات كاملة مثل silaturahmi "صلة الرحم" إلى لواحق مقتبسة مثل لاحقة الياء على أواخر الأسماء مثل abadi "أبدي"، بل إن تلك الاحقة توضع على كلمات ليست عربية ومقترضة من لغات أخرى، من الممكن أن تكون العبارات الكاملة المقترضة مأخوذة من وسيط كتابي لأن أداة التعريف فيها كاملة ولا توجد فيها ظاهرة اللام الشمسية كما هي الحال في ahlulnujum "المنجمون" المأخوذة من "أهل النجوم"، وهناك بعض تلك التعبيرات تظهر فيها اللام الشمسية وتلك ربما تكون منقولة شفاهة، من بين تلك التعبيرات ahlussunah "أهل السنة".

من الناحية الصوتية اندمج صوتا العين والهمزة في الكلمات العربية المقترضة في الإندونيسية، يشبه ذلك ما حدث في الفارسية التي أدخلت معظم الكلمات العربية، الإندونيسية تنطق الصوتين بالهمزة وتمثل لهما في الكتابة برمز واحد. وقد حل صوت

الباء الانفجاري المهموس محل صوت الفاء العربية في كلمة palak "فلك" مثلا، ولكن المثقفين يستخدمون صوت الفاء العربية في تلك الكلمات، وأيضاً حل صوت الدال مكان صوت الضاد المفخم.

معظم الكلمات العربية المقترضة من الأسماء ولكن الإندونيسية مثل السواحيلية تمتلك قدرة كبيرة على دمج الكلمات العربية في بنيتها بسبب كثرة السوابق واللواحق، لذلك تجد أن الاسم hukum "حكم" موجود في الإندونيسية ويمكن أن تشتق منه فعل menghukumkan "ينطق بالحكم". وكذلك تستخدم الإندونيسية المركبات الاسمية في دمج الكلمات العربية. أما الأسماء المعنوية فيتم صياغتها بإضافة سابقة tata كما هي الحال في tata-kalim "علم النحو"، بل إن بعض الكلمات العربية أصبحت جذورا تشتق منها كلمات في الإندونيسية الحديثة مثل pikir "فكر".

من الظواهر الملفتة في الإندونيسية الحديثة وجود تنويعتين لكلمة واحدة من أصل عربي مثل fiki وpiki "فكر". للكلمة العربية "فرض" تنويعتان: الأولى perlu وتعني "ضروري" و fard وهي تنويعة رسمية ورفيعة تعني "فريضة دينية"، ويبين التطور الدلالي للكلمات المقترضة من اللغة العربية في الإندونيسية رفعة شأن المصطلحات الغربية وخاصة الهولندية، فكلمة tabib العربية تعني المعالج الشعبي القديم بينما تعني كلمة docter المقترضة من الهولندية الطبيب بمعناه الحديث، ولكن في بعض الأحيان تفضل الإندونيسية استخدام مرادف عربي محل آخر غربي بسبب اتصال الأخير بفترة الاستعمار، وتشبه تلك الحال سلوك السواحيلي تجاه بعض الكلمات العربية والغربية.